

علاء محسن

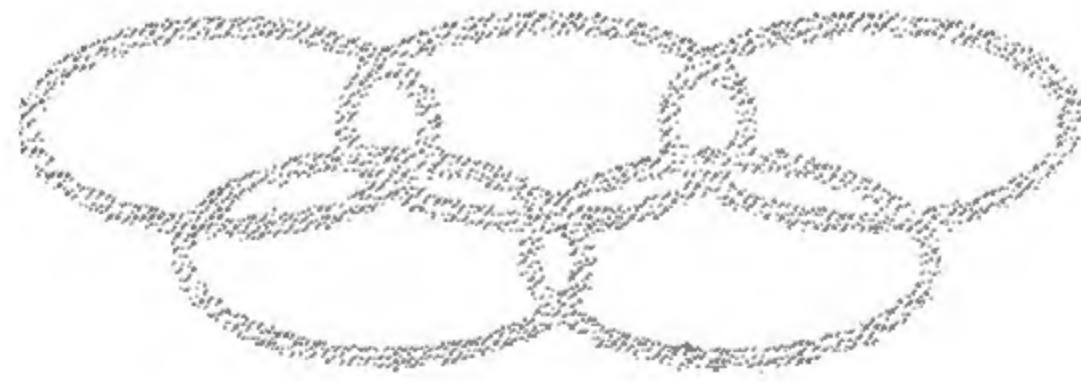
روايات (الهلال)

مَلَأَ عَيْبُ عَلَى الزَّبَقِ

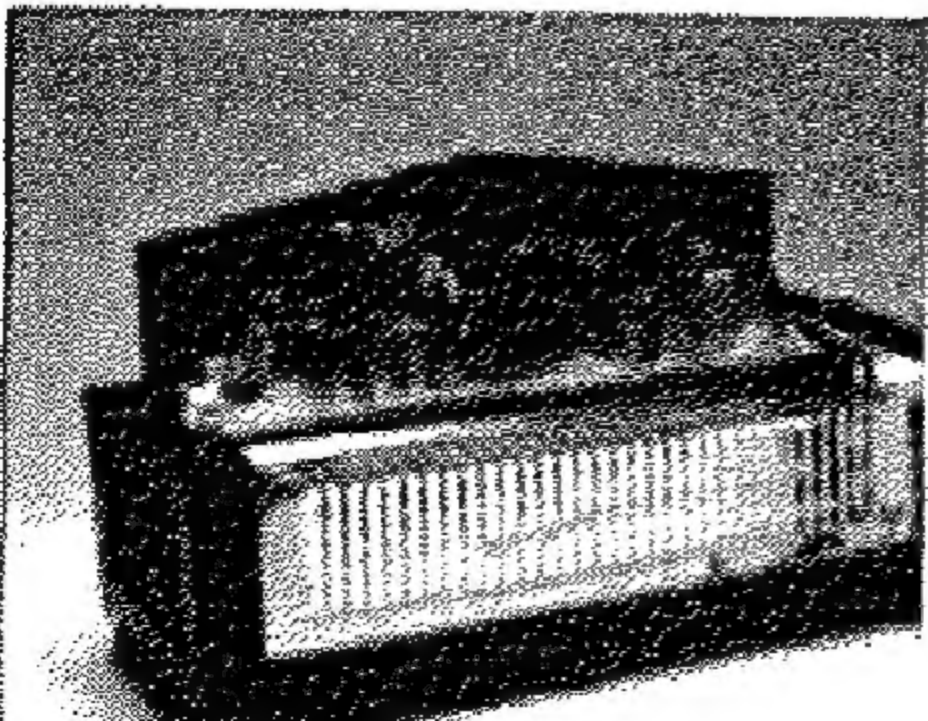
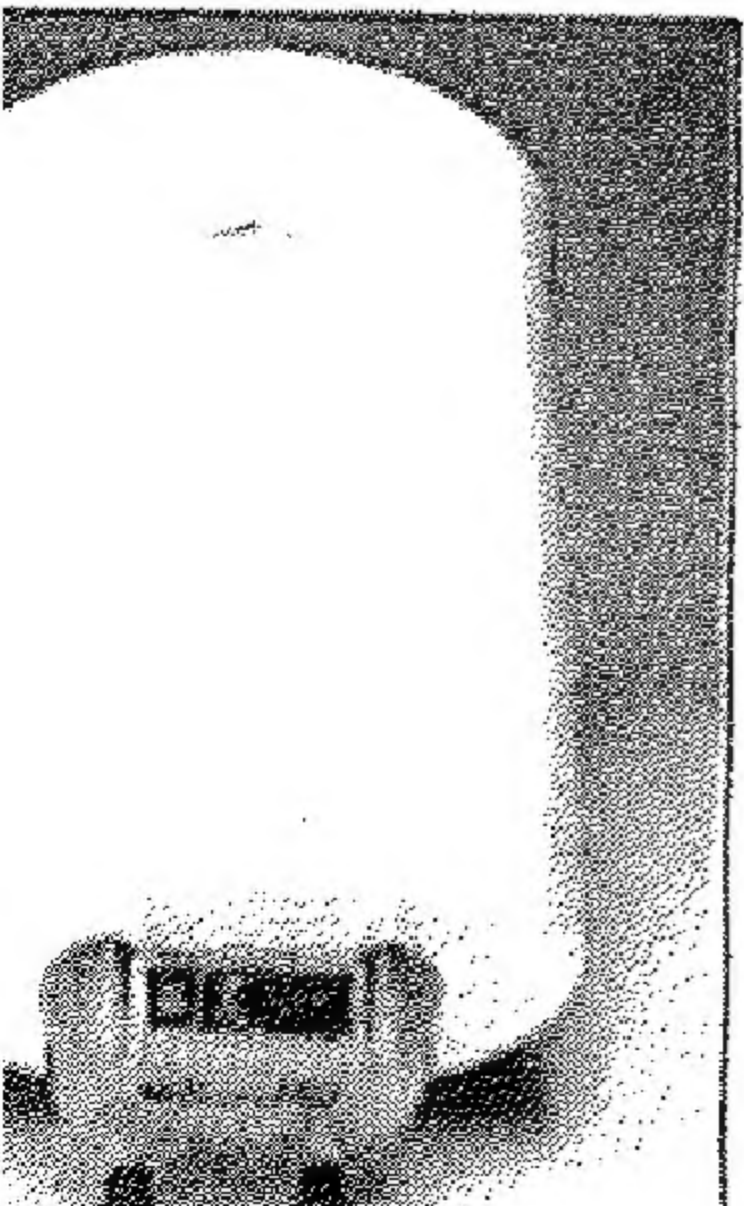
فَارُوقُ خورشيد



عالم الأجهزة الكهربائية تحت اسم واحد... أولمبيك الإلكتروني



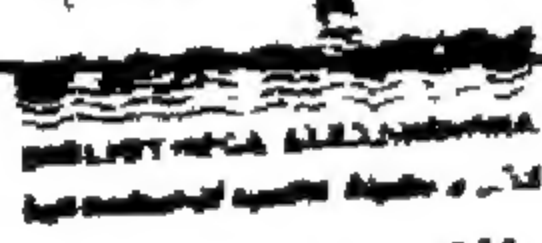
OLYMPIC



● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان سبعة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .
والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحواله بريديه غير حكومية . وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عليه عند الطلب .

اسعار البيع للعدد ٤٩٥ فئة ٢٥٠ قرشا



لبنان : ١٠٠٠ ليرة . الاردن : ١ دينار . الكويت : ٨٥٠ فلسا . العراق : ٣٥٠٠ فلسا . السودان : ٣٥٠٠ جنيه . البحرين : ١٢٠٠ فلس . النوحه : (١٠ ريال) . براهم . ابوظبى : ١٠ دراهم . مسقط : ١٠٠ اويا ريال . غزة والضفة : ٢ دولار . عدن : ٢ دولارات . اليمن : ٢٠٠ ريال .

الكويت : السيد عبد العال بسيونى
زغلول الصفاة - ص . ب رقم
1307921823 - تليفون -
٤٧٤١١٦٤

اشتراك
فى
روايات
الهلال

للحصول على نسخ من روايات الهلال
اتصل بالتمكس : 92703 HILAL. U. N.

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
٢٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصاص
العالمى

نصدر عن مؤسسة
دار الهلال

العدد ٤٩٥ مارس ١٩٩٠
شعبان ١٤١٠ هـ
NO.495mar. 1990

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود فتاسم

مكتبة الاسكندرية

تليفون

**الغلاف بريشة الفنان :
حلمي التبووني**

مَا أَعْيَبَ عَلَى الزُّبُرِ
تأليف

بقلم :

فَارُوقُ خورشيد



دارالہلال

كلمة حول « على الزيبق »

هذه هي المحاولة الثانية في استلهام سيرة الزيبق المصرى عملا روائيا يحتفظ بروح السيرة وأحداثها الرئيسية من ناحية ، ويتعامل مع الفن الروائى المعاصر بكل امكانياته الفنية والدرامية .. وقد صدر العمل الاول باسم « على الزيبق » ونشر اول مرة عام ١٩٦٣ وأعيد نشره عام ٨١ ، وقد نفذت الطبعتان كلتاهما .. وأعد الراحل ميخائيل رومان « العمل الروائى الاول للاذاعة باذن خاص وأذيع من اذاعة القاهرة ، وأعددت انا مسلسلا اذاعيا عنها اذيع من اذاعة الكويت . ثم تعرضت الرواية لعمليات اعتساف من تليفزيون الاردن وتليفزيون القاهرة . ولم يكن هناك من رد على هذا الا اصدار رواية جديدة تماما لنثبت ان « سيرة على الزيبق المصرى » غنية ومليئة بالامكانيات التى كان يمكن ان تمتد معدى التليفزيون بما يصبح لهم ملكهم الخالص دون اعتساف لجهد أحد .. ولنتأكد ما نادينا به مرارا من ان السير الشعبية كنوز تحتاج الى من يستخرجها ويستلهمها ، ويعيدها الى الحياة ، لأنها بحكم شعبيتها صالحة فى كل عصر ، اذا ما حملت هموم العصر ومشاغله ، واستجابت لاماله وآلامه على السواء .

ونحن فى هذه الرواية نبدأ من حيث انتهت الرواية الاولى مع فتح ما أغلق فنيا من دوائر درامية يتحرك خلالها العمل الجديد . ويحمل البطل فيها هموم الماضى وهموم الحاضر على السواء . ويتحرك الموقف فيها فى حرية أكثر واتجاه أصح ، روائيا واجتماعيا على السواء .

وسيرة على الزيبق المصرى بن حسن رأس الغول هي واحدة من أبرز السير الشعبية التى حملها الضمير الفنى العربى عبر الزمان والمكان . وحفظها من الزوال فظلت فى الصدور زمنا تتناقل شفاهها

على السنة « الحكواتية » وشعراء الربابة ، الى ان دونت وطبعت في صورتها الاخيرة التي نجدها بين أيدينا الآن الا ان السيرة حين دونت ظلت على ثباتها ولم تتحرك مع تحرك المجتمع وتطوره ، ولهذا فقد حملت سمات العصر المملوكى ولفته ومفاهيمه ومعتقداته ، فامتلات بالكثير من الغيبيات والخوارق مما كان سائدا في ذلك العصر . ومهمة من يستوحى هذه السيرة شديدة الصعوبة اذ يجب ان يلم بكل الظروف التي تحكم في نسختها المدونة كما ينبغي ان يكون على معرفة بالتراكبات الفولكلورية المتتالية التي تمثل مصور التداول الشفاهى ، ورموز الشخصيات في جذورها الاسطورية واسرار حرفيتها فيما نسميه فن كتابة السير الشعبية ، وهو فن له اصوله وقواعده التي سارت عليها هذه السيرة الى جوار زميلاتها الباقيات لنا كسيرة عنتر بن شداد ، وسيرة ذات الهمة وسيرة حمزة البهلوان وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذى يزن وسيرة الزير سالم وسيرة فيروز شاه والسيرة الهلالية .

والواقع انه رغم ضخامة حجم كل عمل من هذه الأعمال ، واستقلاليتها من ناحية الابطال والاحداث والحقبة التاريخية التي تعالجها والقضايا الفنية التي تتعرض لها الا انها تتفق في المنهج الفنى وطريقة العلاج الروائى بحيث تكون لنفسها فنا الخاص . كما ان هذه الأعمال قد تعايشت في اكثر من مرحلة ، واثرت بعضها في البعض الآخر تأثرا واضحا في المنحى الفنى وفي رسم الشخصيات الروائية بها . ونحن نذهب الى ان شخصية على الزبيق نجد جذورها في عمق هذه السيرة الشعبية من سيرة عنتر بن شداد وذلك في شخصية شيبوب بطل سيرة عنتر الجانبي ، ثم في الشخصيات المساعدة المشابهة لشيبوب التي ظهرت في باقى السير ، كشخصية ابو محمد البطال في سيرة ذات الهمة وشخصية عمر الخطاف في سيرة حمزة البهلوان ، وشخصية عثمان بن الحبل ، وشخصية جمال الدين شيعه في سيرة الظاهر بيبرس الى ان تنفرد بطولة خاصة بها هي (سيرة على الزبيق المصرى بن حسن رأس الفول) وهذه

الشخصية تعتمد في البطولة على الذكاء والحيلة و « الملاعب » الى حروب الروم الى الحروب الصليبية نفسها، ومن هنا كان ضروريا وجود رابط قومي عام يجمع الامة رغم تفرق دويلاتها ، ويحدد للفرد هموما المتلقى العادى في البطل الجديد صورة قريبة الى نفسه وواقع حياته ، فيسهل أن يلتحم مع هذه الصورة ويقترب منها . ويسهل كذلك ان يمثل البطل صورة كفاح الانسان العادى في حياته اليومية المعيشة ، وبهذا تقترب من البطل الروائى المعاصر كل الاقتراب .

والمهاد التاريخى الذى تقع فيه أحداث السيرة هو مرحلة تفكك الدولة الاسلامية الى امارات مستقلة ، بعضها ناصب الدولة المركزية العداء ، وبعضها اكتفى بالانتماء الرمزي اليها دون وجود انتماء حقيقى ممارس . وواجهت الدولة الاسلامية هذا التمزق الداخلى في الوقت الذى واجهت فيه الغزو الصليبي الذى لم يتوقف منذ حروب الروم الى الحروب الصليبية نفسها ومن هنا كان وجود رابط قومى عام يجمع الامة رغم تفرق دويلاتها ، ويحدد للفرد هموما مشتركة رغم تهاوى السلطة المركزية في بغداد . والمجتمع الاسلامى في ذلك الحين كان مجتمعا ثريا ، ينعم بخيرات امتداد الجغرافى من ناحية وثروات المنطقة كلها المتنوعة الثروة ، والمتنوعة العطاء من ناحية أخرى ، ولهذا كان قوام الحياة في هذا المجتمع هم طبقة التجار وطبقة الحرفيين .

ولكن حكام الاقاليم كانوا ينظرون الى الحكم باعتباره اداة لجمع المال ، فكثرت المظالم والصوصية ، ويمثل الزبيق البطل الذى ينتقم لنفسه ولقومه من طبقة التجار الجشعين مستعملا اسلحتهم لياخذ منهم حق الفقراء والمطحونين . فهو بطل سياسى من ناحية ، وبطل اجتماعى من ناحية اخرى . فرغم ان مغامراته الاولى او ملاعبه تتم داخل اطار الثورة الاجتماعية ، الا أن هذه المغامرات سرعان ما تتجه ضد أعداء الامة الذين يهددونهم من الخارج وهم الافرنج ، او يهددون وحدتها من الداخل ، وهم أمراء بعض الدويلات

التي استقلت ثم طمعت في غزو مقر الخلافة نفسه وخاصة الدويلات
الفارسية الاصل .

وهذا الثراء في الحدث يقابله ثراء في الشخصيات ، لان البطل
هنا واحد من عامة الشعب ولأن ملاعبه تتم في غالبها الأعم داخل
المدن الإسلامية بشوارعها واسواقها وبيوتها وحوانيتها .. ومن هنا
كانت خصوصية هذه السيرة الشعبية وكانت أهميتها .

والمحاولة الطموح في استلهاهم هذه السيرة عملا روائيا يجمع بين
الاصالة والمعاصرة ، تريد أن تخلق التواصل في الابداع الفني بين
الأمس واليوم ، وتريد أن تصب مجرى صغيرا في تيار نهر الحياة
الأدبية المتدفق ، أما الجهد فقد بذل قصاره ، وأما التوفيق فمن عند
الله سبحانه .

فاروق خورشيد

عم سلطان السقا

كانت القاهرة في هذه الساعات الباكسة من الضحى شديدة الحرارة خائقة الجو ، مما كان يشي بيوم قائف من أيامها الصيفية التي تمتص العرق من فوق الجباه ، وترسله فزيرا إلى اجزاء الجسد كلها .. وهز حمار عم سلطان السقا ذيله يدفع الذباب الذي يحط بكثافة فوق جسده يمتص العرق ، ويزيد من احساسه بالضيق والتعاسة - وصاح فيه عم سلطان :

- الصبر طيب يا جميل .. والرزق يحب الصبر ، وكلها كام لفة والشعر جاهز .

ونهق الحمار كأنه يجيب عم سلطان ، وضحك عم سلطان وهو يدخل بحماره من الباب الخارجى للدار إلى الباحة الداخلية ، فيوقفه إلى جوار الباب ، ثم يحمل قربه من فوقه في خفة إلى ظهره هو لتستقر فوق المنطقة الجلدية التي تحيط بجلبابه ، ثم اهتز ليعدل (القربة) ليميل فمها إلى أسفل ، ومد يده يفتح الربطة التي تربط عنقها ، ثم يسد بأصبعه الفوهة بمهارة ودربة ، ويعيد وضع (القربة) ويمد يده بعنقها الطويل ، ويتنهد ويقول :

- يا عوض الله ، يا ساتر ، وخلقنا من الماء كل شيء حي - حي يا قيوم - يا عوض الله .

وابتسم المقدم سالم الذى خرج إلى الباحة من باب الدار الداخلى ووقف يرقبه باستمتاع ، وهو يتحرك في نظام ليرش ارض الباحة المترية بماء (القربة) ، يرفع اصبعه عن فتحها بمهارة بحيث لا يخرج منها الا القدر الذى يريده من الماء ، ثم يحرك عنق القربة وهو يميل بكتفه ناحيتها ، ويوزع الماء بمهارة فوق التراب فتخرج منه سحابات من غبار وقيظ ، ثم يستقر وتمر نسمة رقيقة تنعش الجو قليلا .. وكان عم سلطان منهمكا في عمله تماما ، فلم يحس بخروج المقدم سالم ، ولا بوقفته عند الباب ، ولا بنظرات عينيه التي تشبه نظرات الصقر من تحت الحاجبين الكثيفين الاشبيين ، إلى أن قال المقدم سالم في صوت يشوبه وهن :

- تسلم الايادى يا سلطان .. شيخ السقائين يحق ... وأجفل عم سلطان ، وأسرع يعدل القربة حتى لا تقع ، ورفع

بصره الى المقدم سالم وهو يبتسم عن فم اهتم خلا من الاسنان
الامامية وبعض الاضراس ، وقال :

- صباح الخير يا مقدم سالم ، حمدا لله على سلامتك ، الكلام
كثير انك مزيف ، وانك جرحت جرحا فظيعا قال اولاد الحرام انه
.. لا مؤاخذه ، والشر بعيد .. قاتل لا يرحم .. ولكن الماء يكذب
الفتاس ، وهذا انت اسد كما كنت ، بارك الله فيك ..

ثم مضى ينهمك في رش الباحة في دقة ، وهو يحجل بقدمه ،
ويميل بكتفه ، ويسكب الماء من (القرية) في مهارة ونظام .
وقطب المقدم سالم حاجبيه الكثين ، واعتدل في وقفته ، واسند
ظهره الى الباب المغلق وراءه وقال :

- الله سلم يا سلطان ، ولنا في العمر بقية ..
صاح عم سلطان ، وهو يتحرك الى ناحية اخرى من الباحة ،
والغبار يتصاعد من حيث يسكب الماء ، مشرا الابخرة ومرطبا الجو
الساخن :

- اطل الله عمرك يا مقدم ، ولكنك اوحشت الرميطة وقرة
ميدان ، ومقدم المصارعين يظل حتى المغرب ينتظر حضورك لتقسم
عليهم رزقي اليوم ، وعندما يئس من مقدمك يجمعهم حوله ، ويعطى
كلا منهم قسما لا يرضيه ، وكلهم يتحدثون بايامك وايام قسمتك
العادلة ، وكلماتك المليئة بالحكمة والعطف .

ضحك المقدم سالم فانفجرت اسارير وجهه المتفطن المعجوز ،
وهو يقول :

- فيك وفيهم الخير يا سلطان ، والمقدم فعل الرجال فيه الكفاية
وزيادة ..

كان عم سلطان يرش آخر ما بقى في (القرية) من ماء ، ولم
يكن قد تجاوز نصف الباحة بعد .. ورفع (القرية) الى نهايتها
على كتفه اليسرى لتنزل منها آخر قطرات بها ، ثم جمعها ومضى
وهو يتنهد الى الحمار فوضعها ، ورفع قربة ثانية مليئة ، نقلها
بمهارة الى ظهره وهو يصيح عندما وقع حملها الثقيل فوق ظهره :
- يا عوض الله - حي يا قيوم - يا ساتر - وخلقنا من الماء كل
شيء حي - يا عوض الله .

وعاد المقدم سالم يبتسم وهو يرقب حركات عم سلطان ، يعدل
القربة ويميلها ، وينحني بوسطه ليتمكن يده من عنق (القرية)
الجديدة ، ثم يزيل رباط فتحة (القرية) ، ويحكم أصابعه عليها
فلا تخرج منها قطرة ماء ، ثم يزيد ميله وذراعه اليسرى تمتد تحت

عنق القربة ، ثم يبدأ في رش باقى الباحة في نظام ومهارة وصبر ، ويعود الغبار ليتصاعد ، وتزداد رقة الهواء وهو ينتقل من مكان الى مكان في بطء وصبر شديدين ، وقال له :

— وماذا يقولون أيضا في الرمي له وقرّة ميدان يا سلطان ؟
توقف عم سلطان السقا ليعدل (القربة) فوق كتفه ، واستأنف رش الباحة وهو يقول :

— الكلام كثير يا مقدم .. ولكنه كله كلام خير ..
ونفق الحمار وهز ذيله في قلق ، فصاح فيه عم سلطان :
— كفى نهيقا يا جميل ، الصبر جميل ، والرزق يحب الصبر
يا جميل ..

ضحك المقدم سالم ، ومد يده يبعث في شاربه وهو يتأمل الحمار وعم سلطان السقا وهو يرش باقى الباحة في صبر ونظام ، وقال :
— اسم الحمار جميل يا سلطان ؟ . غريب اسمه هذا وهو قبيح قبيح ..

ضحك عم سلطان وهو يميل بكتفه ويمد ذراعه اليسرى الى آخرها ، ويعطل في انحاء الباحة يرش الماء ، وقال :
— اسماء يا مقدم اسماء ، وهم يطلقون عليك الآن اسم سالم ناب السبع وأطلقوا على مقدمك حسن اسم حسن رأس الغول ، وعلى ابنه على اسم على الزبيق ، وعلى أمه فاطمة اسم فاطمة اللبؤة ..
اسماء يا مقدم ، اسماء ..

بدأ الاهتمام على سالم وهو يسأل :
— حسن رأس الغول وفهمنا فقد أسميناه كلنا هذا الاسم من يوم اجثت رأس الغول الذى كان يقطع الطريق على الناس في مغارة جبل الجيوشي ، فقد كانت هذه هي (النفيلة) التى طلبها المقدمون منه لكى يعترفوا به واحدا منهم .. أما ناب السبع ..

وضحك المقدم سالم ثم سعل واهتز جسده النحيل لسعاله ..
بينما توقف عم سلطان السقا لحظات يعدل فيها (القربة) على كتفه ، وقال كأنه يدلى بأمر واقع يعرفه الجميع :
— أنت يا مقدم سالم كنان السبع الذى تقع كل أسنانه ما عداه ، والذى ينهش لحم الفريسة فيمزقها ، وما من مهمة أراد المقدم حسن أن ينجزها الا وأرسل اليها المقدم سالم فهو نابه الذى يفترس به ضحاياه واعداءه على السواء ..
أطربت كلمات عم سلطان المقدم سالم ، فعاد يبتسم وهو يداعب

شاربه الكث الاشيب بأطراف أصابعه ، وقال :

— وباقى التسميات يا سلطان ؟.

استأنف عم سلطان رش باقى الباحة فى همة ، وهو يقول ،
وسط رذاذ الماء ، والأتربة المتصاعدة :

— الست فاطمة كان اسمها عند أولاد البلد أحمد بن البنى ..
وتوقف عن الرش ورفع رأسه وهو يقول وقد نسى عنق القربة
تنز من أصابعه :

— يا سلام .. من منا لا يذكر أحمد بن البنى وصولاته وجولاته
.. كان هو الفارس الوحيد الذى استطاع أن يجرح المقدم حسن
رأس الفول حين تصدى له ليمنع بطشه وجوره وظلمه للناس ،
ولكن حين سقط المقدم حسن وسقط السيف من يده ، ظهرت
الست فاطمة فجأة ، كأنما انشقت عنها الأرض ، لتلقط السيف
وتتصدى لأحمد بن البنى وتمنعه من الإجهاز على زوجها ..
يا سلام ..

ومضى عم سلطان السقا يرقص ، وهو يحرك عنق (القربة)
فى يده ، وكأنه يبارز فارسا وهميا ، والماء يتساقط من فتحتها تساقطا
عشوائيا ، وهو يقول وقد استخفته الحكايات والطرب معا :

— كانت مبارزة مشهورة لا تنسى ، وحين حاول أحمد بن البنى
أن يلجأ الى نفس الخدعة التى جرح بها المقدم حسن ، خدعته الست
فاطمة واطاحت برأسه ، ومن يومها تزييت بزيه وتقلدت حسامه ،
واسمت نفسها باسمه ، وأصبحت تعرف بأحمد بن البنى ، الذى
يظهر فى الشدائد ليساند المقدم حسن رأس الفول فى معاركه ..
ضحك المقدم سالم وهو يصيح :

— الماء يا سلطان كاد يفرق الباحة ويكون البرك ..

فالتفت عم سلطان السقا الى (قريته) ، وعاد يعدلها فى مكانها
فوق منكبيه ، ويتحكم من جديد فى مهارة فى فمها ليمنع الماء الا بالقدر
الذى يريده .. واخذ ينهمك فى رش الباحة فى سكون ، وهو يعطل
فى حركته من مكان الى مكان ، فى نظام ورتابة — ثم هز رأسه
وقال :

— ولكن هذا الاسم نسى منذ ظهر ابنها وابن المقدم حسن
رأس الفول ، نعم اختفى منذ ظهر على وظهر مكانه اسم آخر ..
أحسن المقدم سالم أن الباب الذى يستند اليه يدفع فى هدوء ،
فتحرك من مكانه ، وفتح الباب وظهرت فى فرجته فاطمة وهى

تبسم ، وهضت :

— لا تزعجه ، ودعني أسمع ما يقول ..

ولم يتكلم المقسدم سالم ، وإنما أفسح لها مكانا إلى جواره ، فوقفت بقامتها الفارعة ووجهها الساكن تسمع حديث عم سلطان السقا الذي كان منهمكا في رش الباحة بأخر ما بقي في (قريته) الثانية من ماء ، وقد انزلها فوق كدراعه ، ومال بجسده كله مينزل منها آخر ما بها من ماء ، وكان يقول وهو يتحرك عازلا في نظام ورتابة :

— منذ ظهر على ابن حسن رأس الفول ، وهي وراءه ، تظهر حين تشتد الازمة ، ويحك الزمان ، فتقلده بفروسيته وشجاعته ومهارتها ، وحين حاصره صلاح الكلبى في الكمين الذي أعده له ، ظهرت فاطمة مرتدية ملابس أحمد بن البنى ، وهزمت رجال الكلبى وخلصتك أنت وهو من برائتهم ، ولولاها لكانوا قتلوك لا جرحوك وحسب ، ثم كانوا انتهوا منه يومها وقتلوه وأرتاحوا .. ولكنها ظهرت كاللبؤة التي تدافع عن أشبالها ، فتنتشلهم من برائن الخطر — ست ولا كل الستات يامقدم — ألم تخرجه من تحت جبل المشنقة ، فجأة انشقت الأرض عنها وهي فوق جوادها ، واختطفته اختطافا والموت يحوم حوله — من يومها يا مقدم ، وكل أولاد البلد يسمونها اللبؤة — ولم يخطئوا أبدا في هذه التسمية ، فهي التي علمته كيف يأكل فرائسه أكلا ، وهي التي تخرجه من كل مازق مهما اشتد الخطر ، وتآزمت الأحوال ..

ومال بجسده فسال آخر الماء من (القرية) .. وأخذ يلهمها فوق كتفه وقد فقدت انتفاخها ، ومد يده بعنقها مرات حتى أنهت كل ما بها من ماء ، وانجبه إلى حماره وهو يقول :

— ناس يا مقدم سالم ولا كل الناس ، أنت لم تسمع نداء الصبية في الحوارى وهم يلعبون تقول جماعة : (كنت فين يا على) .. وترد جماعة أخرى (كنت فين ، كنت فين) لترد الأولى قائلة (كنت فين يا على وأمك بتدور عليك) .. تقول لعب عيال ، أقول لك لا ، إنما هو الكلام الذي ملأ كل اللسان والقلوب — المرأة اللبؤة التي تحمى شبلها الوحيد ، كلما وقع في مازق بحثت عنه ، وأخرجته منه ، ومادت تحمله منتصرة إلى العرين .

ثم مضى يرقص وهو يتجه إلى حماره ويفنى في إيقاع رتيب :
— كنت فين يا على — كنت فين .. كنت فين يا على وأمك بتدور عليك .

واحس المقدم سالم بأن فاطمة وراءه لا تملك نفسها من الضحك ، فضحك هو الآخر ، والتفت عم سلطان السقا فرأى فاطمة واقفة الى جوار المقدم سالم وهي تلف شالها على وجهها ، ولكنه عرفها في الحال ، فقال :

— دستور يا ست .. هو كلام اهل الرميطة وقرة ميدان ، ولا ذنب لي ، وانما سألني المقدم سالم فقلت له .. ضحكت فاطمة ضحكة رائقة هدأت من مخاوف عم سلطان ، وقالت :

— لا بأس يا عم سلطان .. ولكن ماذا يقول اولاد البلد عن على ؟

صاح عم سلطان :

— ما قاله من نفسه ، وما قالته الرميطة وقرة ميدان كلها ، وما قاله حتى صلاح الكلبى ورجاله ، هو الزيبق ، يعرف كيف يخرج من أى مازق ، وينزلق من أى فخ كأنه الزيبق .. ومن ملاعبه مع صلاح الكلبى ، وخروجه من كل كمين أعده له هو أو دليلة العراقية المحتالة ، سماه الناس على الزيبق .. هل فطمت يا ست فاطمة ؟ قالت فاطمة :

— أبدا يا عم سلطان ما انت الا ناقل لما قاله الناس .. صاح عم سلطان وهو يتجه الى حماره ، يرمى عليه القربة الفارغة .. ويسوى مكانها ، ثم يلتفت الى (قربة) ملأته ، فيرفعها على ظهره :

— كلام البلد لا ينتهى عند حد — يا عوض الله — (دستور .. وخلق الله من الماء كل شيء حى — أين الزير يا جماعة لأملأه .. حى قيوم ، هو الستار .

تنحت فاطمة من مكانها ، وتحرك المقدم سالم ليفتح مكانا له ، وهو يتحرك حاملا (القربة) المليئة الثقيلة فى عناء ، وهو يحجل ويدلف من الباب الى صالة المنزل وهو يقول :

— يا ساتر ، يا عوض الله .

وكان يعرف مكانه الى الزير فسار اليه مسرعا ، ورفع قطاءه ، ثم عدل (القربة) فوق منكبه ، وهو يوجه عنقها الى الزير ، ويفتح الرباط بمهارة ، ثم يوجه فم القربة الى حافة الزير ، ويميل بجسده فيندفع الماء الى الزير الفارغ فى صوت رنان واضح ، وهو يبسمل ويحوقل ويقول :

— يا ساتر استر على عبيدك وخلقك ، واحد قيوم — يا عوض
الله .

ويرتفع صوت الماء يملأ الزير ، فيزغرد صوته وسط الحر
القائظ ، يربط النفوس والافئدة — وقالت فاطمة وهي تغادر القاعة :
— سأحضر لك افطارك يا عم سلطان لتأكل قبل أن تخرج .
لم يسمعها عم سلطان فقد كان منهمكا في افراغ الماء في الزير
حتى امتلأ ، ثم عدل وضع (القربة) الفارغة فوق كتفه وهو يقول :
— يا عوض الله — دستور يا أهل البيت .. وخلقنا من الماء كل
شيء حتى .. قيوم ..

قال له سالم :

— انتظر افطارك يا سلطان ، فالست فاطمة ذهبت لتحضره .
للم عم سلطان (قربته) الفارغة ، وجال بنظره في القاعة ، ثم
انطوى على نفسه وهو يقول :
— مقبول كرم الست فاطمة ، اطلال الله في عمرها ، ..
المحروس دائما ، على الزبيق .

■ ٢ ■ البنات المخطوفة

لم يمهل عم سلطان السقا ، فاطمة حتى تدخل بصينية الطعام بل
اندفع نحوها قائلاً :

— هذا لا يليق يا أم الرجال ، أنا أخدم نفسي .. وأحسن الله
إليك وإبقاك ، يا عوض الله — ياساتر — وحمل عنها صينية الطعام
ليضعها أمامه في لهفة ، وأسرع يرفع (المكبات) عن الصحون ، وهو
يلتهم بأنفه الروائح العبقة المتصاعدة ، ويقول :

— يا سبحان الله ، نعمة صانها الله من الزوال ، ما كل هذا
يا ست فاطمة ؟

ولم ينتظر أن يجيبه أحد على سؤاله ، بل انقض بدوق كل الصحون
في سرعة ونظام ، ورفع المقدم سالم نظره عنه وابتسم رداً على ابتسامة
فاطمة ، وقال :

— هو منظم وسريع في كل شيء ، في رش البساحة ، وتذوق
الصحون ..

ولم يلتفت عم سلطان إلى كلماته لأنه كان قد فرغ من التذوق ،
إلى معركة الأكل الحقيقية .. وكان منظره مسلياً بالفعل فقد كان يأكل
بيديه وفمه ولحيته وإكمامه وعينيه وأنفه وكل شيء ... وانبعث
صوت قوى يفيض رقة وحناناً من عند باب إحدى الحجرات المطلّة على
القاعة يقول :

— الجوع كافر .. لعن الله الذين يأكلون السحت في بطونهم ،
ويتركون مثل عم سلطان على حافة الجوع دائماً ..

وقعت اللقمة من يد عم سلطان ، وازدرد مافى فمه بصعوبة وقد
جحظت عيناه ، وتهدلت شفتاه ، وهب متعثراً من جلسته أمام صينية
الطعام وهو يقول :

— الزبيب ، سلمت يا على ، ياكحلا للعين المروضة .. ما أسعدنى
أن أراك سالماً ..

ثم التفت إلى الصينية فعاد يجلس في الحال ، وينقض من جديد
على الطعام ، وإن كانت عيناه ظلتا مثبتتين على الزبيب لا تريدان
التحول عن وجهه ، واستأنف على حديثه إلى أمه قائلاً :

— العزيز لا يرى كل هذه المظالم التي تصيب أهل مصر . صلاح
الكلبي يخفى الحقائق عنه ، والمحتسب والقاضى والوزير يشتركون مع

صلاح الكلبى فى نهب البلد ، والنتيجة أن يجوع الناس ويعروا .
قالت فاطمة :

— الان ستصبح شريكا لصلاح الكلبى فى مقدميه الدرك ، وتستطيع
أن تحمى الضعفاء من عسفه ، وأن ترفع للعزیز الحقائق حول أحوال
الناس ، فينصلح الحال .

فتح باب آخر من الابواب المطلة على القاعة ، وخرجت منه زينب
وهى تقول :

— ما كل هذه الضجة فى الصباح الباكر ..

مرة أخرى وقفت يد عم سلطان السقا . ومرة أخرى ازدرد مافى
فمه من طعام ، ونقل بصره من وجه على الزيتى الى وجه زينب ، وهو
يهمس لنفسه :

— يا سبحان الله ، أبدع وصور ، ، أجمل الوجهين ، وأحلى
القوامين ، وأظرف الزوجين ..

ضحكت زينب وهى تقول :

— من الضيف يا خالة فاطمة ؟

قالت فاطمة وهى تتحرك ناحية مطبخ الدار :

— هذا عم سلطان السقا ، يأتى بالماء كل صباح ، ايقظتنى حركته
وصوته وهو يرش الفناء ..

وقال على الزيتى :

— كم رشنى بالماء وأنا صغير لعب فى باحة الدار .

صاح عم سلطان السقا :

— تلعب ؟ أكنت تلعب حقا ؟ لقد كانت لك شقاوة العفاريث ،
وكنت ادخل الدار وأنا ارتجف رعبا من ملاعبك وعبك ، وكنت وأنا
خارج من الدار اتحسس كل أعضائى لأتأكد أنها سليمة ، فأحمد الله
وأمضى فى حالى ..

وغادرت فاطمة القاعة وهى تضحك ، بينما نظرت الى على وعيناها
تلمعان ، وقالت :

— هكذا منذ الصغر يا على .

ضحك على وهو يقول :

— كنت أحب أن أعابشه ..

صاح عم سلطان بين المضح والمبلغ :

— الحمد لله أنك لم تعابثنى كما عابث صلاح الكلبى ، فكويت
جلده بقطع الزجاج ، وأحرقت أفخاذه بالماء المغلى ، وصبفت لحيته

بالحناء المسمومة ، وأوسعته عذابا بثمر العجل الذى سرقه منك ، حتى
أذقنه لحم العجل مخلوطا بالعلقم .. لقد أنجاني الله من هذا النوع
من العبث ، فما أنا الا سقاء مسكين على باب الله .
ضحك على الزبيق وهو يقلده فى ندائه :

— يا عوض الله ، ياساتر .. وخلقنا من الماء كل شيء حى — قيوم
— هو الدائم .. يعوض الله .

وضجت زينب والمقدم سالم بالضحك ، بينما نظر عم سلطان فى
بلاهة الى الزبيق ، وقال :

— سبحان الخالق الناطق ، هذا صوتى ، ولولا اننى أعرف نفسى
لظننت اننى أنا الذى أتحدث ، هل أنت عفريت من الجن يازبيق ؟

ضحك على وضجت زينب ، ولكن سالم لم يضحك ، بل قال :
— انسى ما سمعته يا سلطان ، وسبحان واهب النعم .. والله
وهبه نعمة النطق فلا اعتراض على حكمة الله ..

صاح عم سلطان وهو يعود الى طعامه فى حمية وشوق :
— اللهم لا اعتراض ، اللهم لا اعتراض ، سبحان الحى القيوم ..
حتى .. وحدوه ..

ثم نسي نفسه بين صحون الطعام .. وقالت زينب :

— حقيقة يا على لقد مهرت فى تقليد الاصوات .

قال المقدم سالم فى اعتزاز :

— وفى التنكر الى أى شخصية يشاء — الادوات موجودة ، والدهون
والاصباغ واللحى والشوارب ، والالوان ، ولكن على له موهبة خاصة
تفوقت على موهبتى ، وأنا الذى علمته كل شيء ، كما تفوقت على موهبة
أبيه حسن رأس الغول ، والادوات التى ورثها هى أدواته .

قالت زينب وفى صوتها نبرة تأمل وحزن :

— كنت أحسب دليلة هى سيدة الناس فى التنكر ، ولكن بعد أن
رايتك يا على وسمعت أفعالك فانا أومن أنك قد فقتها قدرة واثقانا ،
شميعة ، وصبى الحمام ، والجارية ، وصبى المطبخ .. لا لا .. دليلة
لا تقدر على كل هذا .

قال المقدم سالم فى اعتزاز :

— لقد تفوق الزبيق على كل من سبقوه ، تفوق على أبيه ، وعلى
صلاح الكلبى ، وعلى . أنا شخصا بل أستطيع ان أقول أنه تفوق على
دليلة نفسها ..

قال عم سلطان وهو يبسم ويحوقل ، ويرفع يده بعد ان اتى على
كل صحون الطعام التى قدمت اليه :

— الحمد لله رب العالمين .. ياعوض الله .. من كان يصدق هذا كله ، ولكنه الولد الشقي ، لو عرفت أن مثل هذه الفعال تصدر منه . قاطعه المقدم سالم قائلا :

— هل أنتهيت ؟

قال عم سلطان السقا وهو ينظر الى الصحون في حيرة :
— نعم يامقدم ، أكلت حتى شبعت وحتى فرغت الصحون ، ولكني كنت أقول ..

قاطعه المقدم سالم قائلا مرة أخرى :

— هل أنتهيت ؟

نظر عم سلطان حوله في حيرة ، ثم قال :
— الحمد لله ، من الافطار أنتهيت .. وأعود الى حماري و (قربي) لم تبق الا (قرية) واحدة ملانة ، اذهب بها الى سقاة الخيل ، ثم أنصرف ..

قال المقدم سالم :

— فعلا آن الاوان .

ولم يفهم عم سلطان السقا شيئا من كل الحديث الذي دار — لماذا كان المقدم سالم يدفعه دفعا الى الصمت — لم يقل شيئا غريبا ، هو دائما لا يقول الا ما يبسط الناس ، ولكن لعله أخطأ ، فكل لسان زلة ولملم نفسه ، وجمع اشتات افكاره وهو يقول :

— نسيت أن أقول صباحية مباركة يا عرسان — فالكلمة يتحدث عن على الزبيق الذي خدر دليلة وابنتها زينب ، وساق دليلة ذليلة الى غرفة العزيز ، وخطف البنت زينب من أمها ، ثم طرد الام ، وتزوج البنت ..

صاح المقدم سالم :

— حيلك يارجل حيلك ما كل هذا ، هذا ما كنت أخشاه ، لسانك لا يعرف متى يتوقف أبدا ..

ووجم عم سلطان ، وهب واقفا وقد بدأ شيء من الخوف يتسلل الى قلبه ، فهو يعرف سطوة هؤلاء الناس ، ويعرف أن غضبهم لا تؤمن عقباة ، وقبل أن يتحدث دخلت فاطمة ووراءها خادم يحمل صينية جديدة لافطار اصحاب الدار ، وبينما كان الخادم يحمل الصينية الاولى بأطباقها الفارغة ليخرج بها وضعت فاطمة الصينية الثانية مكانها وجالت ببصرها بمن في الحجرة ، ثم توقفت عند عم سلطان المرتجف فأحست أن هناك شيئا يخيفه ، فقالت ملاطمة :

— ماذا حدث يا عم سلطان ؟
لم يجب سلطان ، وإنما نكس بصره في الأرض ، بينما قال
سالم :

— كان يخرف بما لا يعرف ، ويقول ما لا يقال ، وهو أنهى طعامه
وسينصرف الآن .

همس عم سلطان لنفسه وهو يلثم ثيابه ، ويستعد للفراز من
القاعة ، بل ومن البيت كله :

— جاءك الفرج يا سلطان ، وهربت هذه المرة بجلدك .
إلا أن أمته لم يسمنر طويلا ، إذ رفع الزيتق يده يوقفه ، وقال :
— بل كان يتحدث عن الصباحية المباركة ، والعريس والعروس ،
والزيتق الذي خطف بنت دليلة ، اسمعى معى يا أم فهذا كلاء جديد . .
اندفع عم سلطان السقا يقول ، وهو يتعثر في كلماته :
— أنه كلام الناس ، مالى أنا ، أنا أقول ما سمعت . .

قالت فاطمة في اهتمام

— وأين سمعت هذا الكلام يا عم سلطان . .
قال سلطان السقا وهو يستعيد هدوء نفسه إذ غلب مصفد
معلومات ، لا مشار الفضب منها :
— أنا أنتقل من مكان الى مكان أحمل الماء للمنسازل والخانات
والدكاكين . واسمع من هنا كلمة ، ومن هناك كلمة ، وعيسى أن رأسى
كقربتى ما تمتلىء حتى تفرغ ماءها في كل مكان . .

ضحكت فاطمة وهي تقول :

— لا عليك يا عم سلطان .
صاح سلطان وكأنما جاءه الفرج . .
— أمضى لحالى اذن . . ؟

قالت :

— والله معك . .

اندفع عم سلطان السقا الى باب القاعة ، وهو يصيح :
— أطال الله عمرك يا أم الرجال . . ياسبحان الله ولا حول ولا
قوة الا بالله . . حى . . قيوم — ياساتر — ياساتر . .
ومرغان ما أنفلت من باب القاعة ، وصوته يأتى اليهم مبتعدا في
سرعة ، وقال سالم :

— ما كنت أحب أن تعرف يا على ما قاله هذا المخرف .
قال على الذى أطرق برأسه واجما :

- اذن فانت كنت تعرف .
 هز المقدم سالم منكبيه ، وجلس امام صينية الطعام متنهدا وهو يقول :
 - كلام الناس يا على لا يستطيع احد ان يحجر عليه . ولا حديث للناس الا افعالك بصلاح الكلبى ودليلة المحتالة .. انها سمر كل مجلس ، وحكاية كل بيت ..
 قالت فاطمة وهى تربت على كتف ابنها :
 - اجلس يا على الى الافطار ، ولا تدع مثل هذا الكلام يفسد عليك طعامك ويومك .
 جلس على متثاقلا ، وجلست زينب الى جواره واجمة . واستأنفت فاطمة حديثها وهى تجلس الى جوارها :
 - ان الناس لا يعرفون الا أنصاف الحقائق ، بل ربما لا يعرفون من الحقائق شيئا على الاطلاق ، ولكن ما يجهلونه يؤلفونه بأنفسهم ليرضى عندهم التشفى فيمن ظلمهم وقهرهم ..
 قال على الزبيق وهو يمد يده الى الطعام فى تناقل :
 - ولكن هذا ظلم ، فأنا لم أخطف زينب .
 وقالت زينب :
 - ونحن لم نتزوج ..
 ضحك سالم وهو يقول :
 - هذا أمر سهل تصحيحه .. فالبطل لابد أن تكون جائزته عند الانتصار زوجة جميلة وشابة مثلك يا زينب ..
 قالت زينب فى غضب :
 - أنا هنا ضيفة ، ما كنت أريد أن أذهب مع دليلة بعد أن غدرت بعلى وساقته الى المشنقة ، وكنت أنا السبب فى سقوطه فى شراكها ..
 كنت أريد أن أبين لها غضبى منها ومن أفعالها ، وفى نفس الوقت كنت أريد أن يعرف الجميع اننى مع على لا مع دليلة ..
 ضحكت فاطمة وهى تقول :
 - فقط .. ؟
 احمر وجه زينب ، ومدت يدها الى الطعام ، وأخذت تاكل فى صمت - بينما قال على وقد احمر وجهه ايضا :
 - أنت محقة يا أم فنحن أنا وزينب ، نريد أن نتزوج ..
 صاحت فاطمة ضاحكة :
 - اذن فلم يكذب الناس ؟ ..

وضحك المقدم سالم حتى أفتابته نوبة سعال قطعت ضحكاته ،
وجعلت الدموع تقفز الى عينيه ، بينما ثقل على الزيبق نظره بين أمه
وبين سالم وقال :

— ما الذى يضحك فيما أقول ؟

ولم يستطع ان يظل على تقطيبته ، اذ انفرجت أساريره عن
ابتسامة عريضة ، بينما قالت زينب :

— ولماذا لا تضحكون ما دام الامر مسليا بالنسبة لكم ، ولكنه

يمس شرفى وكرامتى ، ويضيرنى ، ويجعل منى حديث المجالس فى
مصر .. ولست أجد فى هذا ما يضحك ..

ماتت الضحكات على شفاه الجميع ، وكست ملامحهم سمات الجد ،
وقال سالم وهو يعيث فى شاربته :

— أنت محقة فى هذا يا زينب ، ولهذا اقترحت ان تتزوجا على

الفور ..

صاحت زينب :

— ليس من تقاليدنا ان تزوج البنات أنفسها بنفسها ، بل لابد من

ان يتقدم على أمى وخالى طالبا يدي ، وان يقدم ما يطلبانه منه مهرا
لى ، وان يتم كل شئ جهرا وفى وضوح .

قال المقدم سالم مجادلا اياها :

— ولكنك تحبينه ، وهو يحبك ، فما دخل أمك وخالك فى هذا

الامر ؟

قاطعته فاطمة فى حزم قائلة :

— انتم معشر الرجال لا تفهمون هذا ، ولكنها محقة فى كل ما قالت .

قال على الزيبق :

— المهر أنت تحددينه كما تشائين ، وساحضر لك كل ما تريدينه

حتى لو كلفنى حياتى ..

قالت فاطمة :

— آه ، هذا هو مدخل ديلة اليك يا على ..

قالت زينب :

— ان أمى لن تغالى فى مهرى فهى تعرف اننى .. اعنى .. اوافق

على على زوجا لى ..

قالت فاطمة :

— ولكنها تكره على ، ولا تنسى له أبدا أنه قهرها ، وساقها مكشوفة

الرأس عارية القدمين الى امام بيت السلطان الناصر عزيز مصر .

صاحت زينب فى ضيق :

— وما دخل مهرى بكرهيتها لعل الزبيق ؟
قالت فاطمة :

— ستطلب وتعالى ..

قال على مندفعاً :

— وأنا عند طلبها .

استأنفت فاطمة حديثها قائلة :

— ستطلب الأشياء المستحيلة التى تكلفك حريتك ، وربما روحك
أيضاً ..

قال المقدم سالم :

— صدقت أن هذا بالفعل مدخلها الجديد اليه ..

قالت زينب فى حدة :

— ولكنها تركت له مصر كلها وعادت الى العراق ، وهى هناك مقدمة

درك بغداد ، ومقربة الى الخليفة ويطيعها الجميع ويهابونها ..

قالت فاطمة :

— هذا لن ينسيها حقدّها على ابنى .. ولن يهدأ لها بال حتى

نتصر عليه كما أنتصرت على غيره ، ولن تطمئن الى مكانها فى بغداد ،

ومكانتها عند الخليفة الا اذا أقر لها الزبيق بالسبق وأصبح من أتباعها ،

أو على الأقل غداً أقل منها أهمية ومكانة .

قال المقدم سالم مؤمناً :

— كما فعلت بالمقدم أحمد الدنف الذى سبقها الى احتلال المكانة

الاولى فى درك بغداد ، وكما فعلت فى المقدمين المشهورين والمصروفين

بالمهارة (والعياقة) والشجاعة ، شحادى ابو حطب ، وحسن شومان ،

وعمر الخطاف .. فابقاهم الخليفة ، ولكن فى درجة دون درجتها ، وفى

مكانة لا ترقى الى مكانتها ..

قالت زينب فى اصرار :

— أنتم تنسون انكم تتحدثون عن أمى ، وما يؤذيها من قول يؤذنى

أنا أيضاً .

قالت فاطمة :

— بل أنت تنسين أننا نتحدث عن دليلة التى لا تعرف الا النجاح

والفوز بكل وسيلة ، وتنسين انها مسبق أن استغلت حب على لك

للايقاع به ، وساقته مهانا الى المشنقة ، فما الذى يمنعها أن تكرر الحيلة

مرة أخرى ..

صاحت زينب في غضب :
 - أنا في صف على ، ولن اغدر به مرة ثانية أبدا .
 قال على :
 - أنا أصدقك يا زينب ، ولكنى لا أفهم ماذا تريدين ؟
 قالت زينب :
 - أريد أن أعود الى بغداد ، ومن هناك ، من أمى وخالى تطلب يدي
 قبل أن يجيبها على أو تعقب فاطمة على حديثها ، ارتفع صوت قرع
 ملح على باب الدار الخارجى ، فصمت الجميع وتبادلوا النظرات فى
 دهشة ، وقال سالم :
 - لعله سلطان السقا عاد لأمى أو لآخر .
 ثم هب واقفا واندفع الى خارج القاعة ، بينما قالت فاطمة :
 - قلبى لا يبشرنى بخير ..
 قال على :
 - زمان القلق والخوف انتهى ، فقد أعطانى العزيز منديل الامان ،
 وأقر صلاح الكلبى بحقى أن أشاركه فى مقدمة مصر ..
 ولم تجبه فاطمة ، وطال الصمت القلق ، الذى قطعه دخول المقدم
 سالم صاحب الوجه وهو يقول :
 - انه المقدم عثمان يحمل رسالة من العزيز أن السلطان يريدك فى
 مجلسه الآن ودون أمهال .
 قالت فاطمة .
 - ألم أقل أن قلبى لا يحدثنى بخير .
 قال على :
 - سنعرف كل شىء فى حينه ، وأنا ذاهب اليه .
 قال سالم :
 - وأنا معك .

النفيلة

كان ديوان السلطان الناصر عزيز مصر هذا الصباح يموج بالحركة والنشاط ، وقد امتلا بكبار رجال الدولة ، وفي ناحية جلس المحتسب منهمكا في حديث هامس مع قاضي القضاة ، بينما في جانب آخر كان مفتى الديار بعمامته الضخمة ولحيته الشيباء الكثة يحدث كبير الكتبة . ووقف جنود في أرديتهم المزركشة في جوانب الديوان ، الذي كان يتصدره السلطان الناصر وعن يمينه جلس الوزير قيس ، وعن يساره جلس المقدم صلاح الكلبى مقدم الدرك وقد انهمك الثلاثة في حديث طويل ، وعند باب الديوان وقف المقدم عثمان مع سلحدار السلطان وهما ينظران بين حين وحين الى الباب في ترقب وقلق ، وهمس السلحدار :

— اتظنه سيحضر . ؟

قال المقدم عثمان :

— وهل هو يخاف شيئا ؟ سيحضر دون شك ، وانتظرته ..

قال السلحدار وهو يعبث بمقبض سيفه :

— لو عرف ما ينتظره لما جاء ..

ضحك المقدم عثمان ، ولمعت عيناه وهو يقول :

— بل لو عرف لكان هذا ادعى أن يجيء .. أنت لا تعرفه ، هو

الزيبق ..

حلق السلحدار في حدة في وجه المقدم عثمان وقال :

— من يسمعك يظن أنك معجب به ، ومن يعرف الحقيقة يدرك

غير هذا ..

قال المقدم عثمان :

— بل انا اكرهه كما لم اكره انسانا في حياتي من قبل ، ولا اظن

اننى سأكره انسانا في باقى حياتي كراهيتى له ، لقد خدعنى في كل

مرة التقينا ، وجعل منى الأداة التى يسخرها للوصول الى المقدم

صلاح الكلبى ، مرة يظهر لى في ثوب فتاة ، ومرة في ثوب شاميعة

اليهودى ، ومرة في ثوب الفسل الأبله ، ومرة على شكل امرأة

عجوز ..

وسكت لحظات ولمعت عيناه قصباً ، ومضى يفرك كفيه كأنه يعصر بينهما رقبة عدوه ، وقال :

— في كل مرة أقسم أنني سأكشفه رغم تنكره ، وأمسك برقبته بين يدي ، لا أتركها حتى أتركه جثة هامدة ، وفي المرة الأخيرة يستطيع أن يخدعني من جديد — أنه شيطان ..

وتنهذ المقدم عثمان ، وهو يرفع يده إلى شاربه يفتله في عصبية ، بينما قال السلحدار :

— بالفعل لقد جعل منك ومن المقدم صلاح الكلبى ، وكل أتباعه من الزعر أضحوكة أولاد البلد في مصر ، ولم يجد العزيز بدا من أن يعطيه منديل الأمان ، وأن يعلن أنه سيشركه مع المقدم صلاح الكلبى في مقدميه درك مصر ، وخاصة بعد أن تغلب على تلك الحبة الرقطاء ، دليله ..

قال المقدم عثمان :

— لكل واحد يوم نصره ، وله أيضاً يوم هزيمته وذلكه ... والأمر لم ينته بعد ، وسيعرف الزبيق هذا بعد أن يصل إلى هذه القاعة .
وقطع عليهما الحديث ، صوت الحاجب وهو يعلن بدء الديوان ، وتقدم كبير الديوان ينحنى مستأذاً من السلطان الذى أشار بيده إشارة البدء ، فأسلم كبير الديوان ورقة مطوية إلى الحاجب تضم أسماء أصحاب المظالم والشكايات الذين سيعرض أمرهم على السلطان في ديوانه هذا اليوم ... وبدأ الحاجب ينادى على الأسماء ، ويدخل صاحب الشكاية من باب جانبي ويتقدم إلى مقام السلطان ثم ينحنى ويرفع إليه عريضة مكتوبة بشكايته ، فيسلمها السلطان إلى الوزير الذى يقرأها بسرعة ليحدد للسلطان الشكاية في كلمات قليلة ، فيشير السلطان بأحالتها إلى من تقع الشكاية في اختصاصه ، المحتسب أو الكاتب أو القاضى أو المفتى أو مقدم الدرك ، فيأخذ الشاكى شكايته ، ويذهب بها إليه حيث يجلس .. فينادى الحاجب على صاحب الشكاية التالية .. وابتعد الديوان يمتلئ باللفظ والاصوات المتداخلة .

وقال السلحدار في آذن المقدم عثمان :

— لقد نفذ صبر السلطان قبال الديوان .

بادله المقدم عثمان همسه قائلاً :

— سيزيد هذا من غضب السلطان فهو لا يحب أن يجعله أحد

في موقف الانتظار ..

وقبل أن يجيبه السلحدار انبعثت نضجة من ناحية باب القاعة

الرئيسي ، فالتفتت كل العيون نحوه ، فاذا به ينفتح فجأة ويدخل
كبير الحراس ووراءه على الزبيق في ثياب فاخرة ووراءه المقدم سالم
يتبعه وصاح كبير الحراس معلنا قدومه :

— المقدم على بن حسن رأس القول .

فهب المقدم صلاح الكلبى من مكانه الى جوار السلطان صائحا :

— أخطأت يا كبير الحراس ، فهو ليس مقدما بعد ، بل هو

الشاطر على الزبيق ..

فانحنى على الزبيق امام السلطان ، بينما ظهر الارتباك على كبير

الحراس ، وبدأ الزهو على وجه المقدم صلاح الكلبى ، وهمس المقدم

عثمان في اذن السلحدار قائلا :

— طعنه في الصميم .. بكلمة واحدة ازاح كل نصره ..

وارتفع صوت على الزبيق قائلا :

— مولاي السلطان انا لم ازعم لنفسي لقبا ، ولكنك وعدت وعلى

هذا فلا لوم على كبير الحراس ان كان قد اخطأ وسماني بغير ما يجب

ان اسمى به .

همس السلحدار في اذن المقدم عثمان :

— عفارم .. هذا زبيق صحيح ..

وقال السلطان :

— تقدم يا على ولا تشرىب عليك فقد أعطيناك منديل الأمان ..

فتحرك على الزبيق مقتربا من مجلس السلطان ، وعاد ينحنى

في ادب ، ثم قال :

— مولاي السلطان انت وعدتني في ديوانك هذا ، وامام الجميع ،

ان اكون شريكا للمقدم صلاح الكلبى في مقدمة الدرك ..

قال السلطان وهو يسعل سعالا مفتعلا :

— طبعاً ، طبعاً ، ولكن ..

وقبل ان يكمل السلطان ، قال صلاح الكلبى الذى كان ما يزال

واقفا امام مقعده وقفة استقراز وتحد ، وعيناه تلمعان في حقد

وقضب :

— للمقدمة اصول ياشاطر ، ولا يعنى ان الحظ حالفك ضدى

وضد دليلا انك غدوت مقدما دون امتحان او اختبار لاحقيتك

وجدارتك بالمقدمة ..

صاح صوت واهن عجوزا من عند الباب :

— كلام السلطان لا يرد ، صلاح الكلبى او غير صلاح الكلبى ..

من سمع ان كلام السلاطين يرد ؟. ووجم الديوان وكل العيون تنطلع

الى جسد سالم الفارع ، وهو يتقدم في وهن نحو مجلس الملك ،
ويقف الى جوار الزبيق . ويستأنف كلامه قائلا :
- ماعودنا يامولاي ان هناك مقبلا على كلام السلطان ، فما قاله
السلطان يصير ..

وتتحنج السلطان ، وتحرك في مجلسه في قلق ، بينما صاح
المقدم صلاح الكلبى في غضب :
- من الذى ادخل هذا المحتال الى الديوان ؟
صاح فيه المقدم سالم قبل ان يشير الى الزعر والحرس لينقضوا
عليه :

- تادب في حضرة السلطان يامقدم صلاح .. والسلطان يصرف
من افا ، فانا سالم ناب السبع خادم مقدم درك مصر الراحل حسن
راس الفول ..
ووجد السلطان مخرجا من حرجه في كلمات المقدم سالم ،
فابتسم وهو يقول :

- من زمن لم ارك يامقدم سالم ، هل هذا فعل السنين فيك .. ؟
ضحك المقدم سالم وهو يقول :
- بل هو فعل سيف احد الجبناء ، ولا ادرى اى جبان هو ،
فقد كانوا من الكثرة بحيث لم اعرف لهم عددا ، وهم يطبقون من كمين
اعدوه لنا انا وعلى ، ومع هذا يا مولاي فقد هربوا من امام هذا
السيف العجوز ..

ضحك السلطان في حرج ، ثم سعل ، ثم قال :
- لا احد يشك في شجاعتك وبسالتك يا مقدم .
ورغم كلمات الاطراء ، فان الفارس العجوز لم يمهل السلطان ،
بل قال :

- وانت يامولاي وعدت ، ووعد الملوك لا يرد ..
قال السلطان وهو يتحرك في مجلسه في قلق :
وانا عند وعدى يامقدم سالم ، ولكن المقدم صلاح الكلبى افهمنى
انه لا يجوز اشراك هذا الشاب في مقدمة درك مصر الا بعد ان يصبح
مقما أولا ..

والتفت بوجهه ناحية صلاح الكلبى الذى اسرع يقول :
- هذا صحيح يامولاي السلطان ، فهو الان ليس الا شيطانا
من الشطار ، ولم يسمع احد ان احد الشطار قدما الدرك ، بل
لابد له من ان يكون مقما أولا ...
واسرع السلطان يقول :

— وقد أيد المقدم صلاح الكلبى فى كلامه كل وجوه الديوان ،
الوزير ، والقاضى والمحتسب ، وكبير الكتبة ، والمفتى ، والسلحدار ،
وكبير الحرس ، ورئيس العسكر ..

وكان السلطان وهو يتحدث ، ينقل بصره الى صاحب كل منصب
فيهز هذا رأسه موافقا ، حتى انتهى ذكره لهم جميعا ، فـسـال
على الزببق :

— كلام مولائى السلطان عندى امر واجب التنفيذ ، ومادام
السلطان يوافق المقدم صلاح الكلبى على كلامه ، وكذلك يوافق كل
وجوه القوم هنا ، فأنا مطيع منقاد .

رجع السلطان الى الوراء فى كرسيه وهو يتنهد فى ارتياح ،
وقال :

وعلى هذا فلا يحول بينك وبين الحصول على المنصب الذى
وعدتك به ألا أن تكون مقدما .

وسأل على الزببق فى ادب :

— وكيف يكون ذلك ؟

صاح صلاح الكلبى قبل أن يجيب السلطان عن سؤال على
قائلا :

— النفيلة يا شاطر على ، لن يرضى المقدمون أن تكون منهم الا
بالنفيلة .

سأل على فى سداجة :

— يأمرؤن وأنا مستعد .

وصاح المقدم سأل فى تحذير :

— حذار يا على هذا فتح نصبه صلاح الكلبى فلا تقع فيه .

وقال صلاح الكلبى فى براءة ، وهو يلوح بذراعيه مشيرا الى الزعر
يمثلون الديوان :

— هذا ليس طلبى أنا ، بل هو طلب كل المقدمين والزعر ، لابتد

لكى يقبل واحد فى زمرة المقدمين أن يقدم النفيلة التى يتفق عليها
الجميع ..

قال على فى اندفاع وحمية :

— وأنا قلت اننى مستعد ، فما هو طلبك يا مقدم صلاح الدين

الكلبى ..

استمر صلاح الكلبى يتصنع لهجة البراءة وهو يقول :

— انا اقول لك ما اتفقوا عليه ، لا ما اطلبه انا ..

قال على فى صبر نافذ :

- اذن قل ، وعلى التنفيذ .
 قال صلاح الكلبى فى انتصار وتشف :
 - تحضر لنا صندوق التواجيه ..
 وساد الوجوم القاعة كلها ، بينما شحبت بعض الوجوه ،
 وارتسمت ابتسامة التشفى على وجوه اخرى ، وهمس المقدم عثمان
 فى اذن السلحدار قائلا :
 - هذا هو السهم الذى احتفظ به المقدم صلاح فى جعبته
 فقال السلحدار :
 وقد أصمى وأدمى .
 قال المقدم عثمان فى ابتهاج :
 - من سمع أن احدا ذهب لاحضار صندوق التواجيه وعاد ..
 قال السلحدار :
 - هذا عالم من الجن والطلاسم والسحرة لا يقدر عليه احد ..
 لن يوافق الزبيق على هذا
 همس المقدم عثمان :
 - بل سيوافق ، وسترى ..
 قال السلحدار :
 - ان المقدم سالم يحاول ان يحذره ..
 قال المقدم عثمان فى ثقة :
 - لن يجدى معه تحذير ..
 وكان واضحا ان سالم يشتبك مع على فى جدل عنيف هامس ،
 وكانت لحية سالم الشيباء تتحرك فى عصبية ، بينما كان على يهز
 رأسه الشاب فى اصرار .. وقطع عليهما المقدم صلاح الكلبى حوارهما
 الهامس قائلا فى سخرية :
 - مولانا السلطان ينتظر ردك يا على .. ومولانا السلطان لا يحب
 ان ينتظر احدا ..
 وأمن السلطان على حديثه بقوله :
 - ماذا قلت يا على ، ان باب الاعتذار مفتوح ، فانت مازلت
 شابا صغير السن ، قليل التجربة ، ولو اعتذرت ما لامك احد ،
 ومازال مندبل الامان معك ، فلن امسك بسوء ..
 ورغم كل اعتراضات المقدم سالم تقدم على الزبيق خطوة
 وقال :
 - بل افعل يا مولاي السلطان ، واحضر صندوق التواجيه هدية
 لك ..

ضحك السلطان في اضطراب وقال :
- مثل هذه الهدية جديرة بمن هو أعلى مقاماً مني ، هي هدية
منا جميعاً الى خليفة بغداد ، هارون الرشيد ..
صاح صلاح الكلبى في سخرية :
- لو أحضرها ..

قال على الزبيق في اصرار :
- سأحضرها ، ولتكن هدية بلادى لمركز الخلافة مولانا هارون
الرشيد .

ارتفعت من القاعة آهة تقطع الوجوم الذى رآن عليها وهذا الحوار
دائر ، واهتزت لحي في اشفاق ، واهتزت رؤوس في حماس وتأييد ..
وهمس المقدم عثمان في اذن السلحدار في سخرية :
- ابتلع الولد الطعم ، ولن يعود الا جثة هامدة ، ان عثرنا له
على جثة ..

قال السلحدار وفي صوته رنة اشفاق :
- صغير هو على هذا والله .
نظر اليه عثمان في دهشة ، وقال :
- اتعاطف معه ؟

قال السلحدار ، وهو يواجه نظرات المقدم عثمان الحادة بنظرات
اكثر حدة :

- لقد حدثتني عنه بكل ما هو بشع ، لقد صورته لى وحشاً
في صورة انسان ، وها هو أمامى الآن ، شاب رقيق يافع يشمع
حماساً وحبوية ، ويلقى المخاطر بابتسامة جريئة وأبية ..
ثم صمت لحظات ، وعاد يقول :

- وهو يعجبني ، وأفضله على صلاح الكلبى مائة مرة ..
وتقابلت نظراتهما في حدة قاضية ، وأعادهما الى ما هم فيه صوت
على الزبيق الفتى وهو يقول :

- هل هذا هو كل ما استدعيتني من أجله يامولاي السلطان ..
وابتسم السلحدار في ثقة ، بينما امتلات عينا المقدم عثمان حنقا
وقهضاً من لهجة الزبيق الهادئة الواثقة ، والتفتا الى حديث الزبيق
والسلطان الذى قال :

- لم يكن هذا هو سبب استدعائى لك يا على ، وإنما كان هذا
ما اتاره المقدم صلاح الكلبى ، أما الموضوع الاصلى فسيخبرك
به الوزير ..

وما أن صمت الملك حتى وقف الوزير قيس وأخرج لفسافة من ورق كان يحتفظ بها وأمسكها بيده وأشار بها وهو يقول :
- هذه شكوى جاءتنا من ديوان الخليفة هارون الرشيد نفسه ضدك . وعاد الوجوم يسود الديوان كله ، بينما تقدم على الزبيق خطوة الى امام ، فأمسك المقدم سالم ذراعه يمنعه من التقدم ، واستأنف الوزير كلامه قائلا :

- انها شكوى مقدمة من دليله مقدمة درك بغداد الى الخليفة ، تقول فيها ان ابنتها قد اختطفت في مصر ، وتطلب عودة ابنتها اليها ، والخليفة ارسل الى عزيز مصر يطلب منه البحث عن زينب بنت دليله واعادتها الى امها في بغداد سالمة آمنة .
وسكت الوزير يلتقط أنفاسه ، فعاد صلاح الكلبى يصرخ وهو يشير بأصبعه الى على قائلا :

- ونحن جميعا نعرف ان الذى اختطفها هى وامها هو انت . .
ورفع السلطان الناصر يده فسكت صلاح الكلبى ، بينما عاد الوزير قيس يقول :

- دليله تقول انها غادرت مصر على عجل ، ولم تر ابنتها ، ولم تثر لها على اثر ، وتتهمك بانك خطفتها ، وتزوجتها قسرا . .
قال السلطان :

- ماقولك يا على في هذه الشكوى الخطيرة ، لو صدقت لكلفتك عنقك . .

قال على الزبيق في أدب شديد :

- مولاي السلطان محق ، فلو كنت فعلت هذا لاستحققت الشنق على يدك من جديد .

وأثارت كلمات على همهمة بين المجتمعين في الديوان ، فقسد تذكر كل واحد منهم ، كيف سيق على الزبيق الى المشنقة ، وتذكر أيضا كيف هرب منها . . وعاد الزبيق يقول :

- ليس من شريعتنا يامولاي خطف النساء ، أما ما حدث لدليله فقد كان وفاء بقسمها ان تسوقنى اليك وعند بابك ، مقيد اليدين عارى الرأس ، فوفيت بقسمها عليها نفسها ، فسقتها الى بابك عارية الرأس مقيدة اليدين ، لاأبت لك ولها أننى افوقها مهارة وقدرة وحيلة .

وأرتفعت كلمات الاستحسان من كل مكان في الديوان ، حتى أطرقت العزيز في خجل وصمت ، وعاد الزبيق يقول :

- لقد رفضت زينب أن تعود مع أمها الى بغداد ، لكراهيتهما للطريقة التي أشركتها فيها دليلاً في حيلتها في الإيقاع بى . . ولكن زينب يامولانا السلطان ضيفة عزيزة فى دارى لم تمس ، ولن تكون زوجتى الا بإرادتها وموافقة أمها ، وأنا مستعد أن أعيدها اليهما فى الحال . .

وارتفعت صيحات كل من فى الديوان ، وكلها تعاطف واستحسان وحب . . وقال السلطان :

- اذن تعيدها الى أمها فى بغداد ، ونجبت عن خطاب الخليفة بأنها عائدة .

قال الزبيق :

- نعم يامولاي أعيد زينب الى أمها شريفة معززة مكرمة لم يمسه سوء .

قال السلطان :

- سلمت يا على .

قال سالم :

- المقدم على .

قال صلاح الكلبى :

- الشاطر على الى ان يثبت لنا احقينه بالمقدمة .

قال على :

- وأنا عند وعدى يامولاي .

قال السلطان الناصر ، وهو يرقع يده ليصمت الجميع :

- اذن تحضر صندوق التواجية لتصبح مقدما ، وساعتها تصبح

شريكا لصلاح الكلبى فى مقدمة مصر ، وتعيد زينب الى أمها دليلاً لتبقى صفحتها بيضاء عند الخليفة هارون الرشيد .

قال الزبيق :

- نعم يامولانا السلطان أفعلى ، الصندوق سيكون عندك وفاء

بوعدى ، وزينب ستكون عند أمها وفاء بمعنى الشهامة والكرم . .

صندوق التواجية

قالت فاطمة فى حلق وهى تتحرك فى الغرفة ذاهبة آتية فى عصبية وغضب :

- صندوق التواجية .. ؟ هذه داهية أرسسلوك إليها ، ما طلب صلاح هذا الطلب الا ليرميك فى بحر المهالك الذى لا عودة منه .. قال على وهو مطرق الرأس :

- انه تحدانى ، وكان لابد أن أجيب على تحديه بالقبول .. وكان وجه زينب شاحبا وهى تراقب حركات فاطمة الفاسنية فقالت :

- وما صندوق التواجية هذا ياخالة ؟
وقفت فاطمة أمامها ، وعقدت ذراعيها على صدرها ، وهى تقول :
- دخلنا فى دنيا السحر والارصاد ، صندوق التواجية أعجوبة من عجائب الزمان صنع بالحكمة والكهانة ، وهو مركب من أربعة معادن هى الماس والياقوت والزمرد والفيروز ، وقد أصطنعه أحد حكماء اليونان الاقدمين . وكان يجلس أمامه فيكشف كل ما فى الدنيا ، ويرى الممالك القريبة والبعيدة ، ويرصد ما يحدث فيها كأنه يعيش مع أهلها . قالت زينب فى دهشة :

- كأنه يجمع الدنيا فى صندوق ..
التفتت فاطمة الى سالم الذى كان يقف مستندا الى جدار الغرفة ، والاعياء باد عليه ، وقالت :

- لقد حسبت ان ذهابك معى الى ديوان السلطان سيجنبه مثل هذه المهلكة .. كيف نتركه يقبل هذه النفيلة يا سالم ؟

قال سالم ، وهو يمر بيد متعبة فوق جبهته المثقنة :
- حاولت أن أحذره ونحن فى الديوان ، ولكنه رفض ان يستمع الى نصيحى ، حتى وضع أمام الجميع أننا نكاد نتشاجر أو حتى نتعارك . قال على فى صبر نافذ :

- ليس لسالم شأن بهذا ، فالتحدى كان موجهها الى لا اليه . وأنا الذى قبلته ، وسأحضر هذا الصندوق معى كفى الأمر .
قالت فاطمة وهى تهز كتفيها فى استسلام :

— بينك وبين المدينة المرصودة التي فيها الصندوق مسافات
ومسافات .

سالت زينب :

— المدينة المرصودة ؟

قالت فاطمة :

— كان الحكيم اليوناني يعيش في مدينة عند حافة البحر ، لا يصل
اليها الانسان الا بعد قطع صحراء مخوفة ، وغابات مليئة بالوحوش
والسباع . ومع هذا خاف على ذخيرته ، فقصده الى جزيرة تواجه المدينة
فبنى فيها قبة عظيمة وضع فيها صندوق التواجية ، ثم طلسم الجزيرة
بالسيوف القاتلة التي لا يعرف سر حركتها الدائمة الا هو ، فاذا ما دخل
الجزيرة انسان واقترب من القبة مزقته هذه السيوف المتحركة . .

قال علي الزبيق :

— هذا امر عجيب . وكيف صنع هذه السيوف يا أم ؟

قالت فاطمة :

— من قدر بعلمه وحكمته على صنع صندوق التواجية لا يوجد مثله
في الدنيا ، والذي يستطيع أن يجعله يرى البحار والانهار والمدن كأنه
يعيش فيها لحظة بلحظة ، قادر على حماية ما يصنع . .

عاد علي الزبيق يسأل فاطمة :

— ولكنك قلت أن المدينة مرصودة . . ؟

قالت فاطمة :

— كان أهل المدينة يحبون هذا الحكيم اليوناني ، فقد صنع لهم
الانهار ، وعلمهم الزراعة ، وبنى لهم مخازن الفلال ، وعلمهم من
الصناعات ما تفوقوا فيه على سائر المدن حولهم ، فاحبوه وتفانوا في
الاخلاص له وعندما حانت منيته ، أوصى ملك المدينة أن يحافظ
على ذخيرته من كل من يحاول الحصول عليها ، وبنى لهم تمثالا على
هيئة انسان من النحاس ، ووضعه على باب المدينة رصدا لمن يدخلها
بغية الحصول على الصندوق ، فاذا دخل المدينة غريب ، صاح هذا
التمثال صيحة عظيمة . فيعلم أهل المدينة بأمر دخول الغريب ، فيخرجون
اليه ، ويقبضون عليه ، ثم يقتلونه جزاء تعديه على مدينتهم . .

قالت زينب :

— من سمع بمثل هذا من قبل ، صندوق ينقل العالم الى من يراه ،

وسيوف متحركة تقتل كل من يقترب منها ، وتمثال يصيح عندما
يدخل غريب الى المدينة . .

قالت فاطمة :

- ولم يقصد انسان الى هذه المدينة ونجا بحياته أبدا ، فمن أفلت من أهل المدينة ، وغضبهم ، مزقته سيوف الجزيرة وقضت عليه .
قال علي :

- لكل شيء سر ، ولو عرف السبب بطل العجب .
قالت فاطمة :

- قلت لك يا علي أن هذا الحكيم كان يعرف من أسرار الحركة ، وعلوم المعادن مالا يعرفه غيره . وكان يستطيع أن يحرك الساكن بمعرفته ، وان ينطق المعدن بحكمته ..
قال علي في اصرار :

- مازلت أقول انه فوق كل ذي علم عليم ..
تحدث سالم الذي ظل صامتا طوال هذه المدة فقال :
- ومن أين لنا بهذا العالم الذي يفوق علمه ذلك الحكيم ؟
سكتت فاطمة ، وعيناها تبرقان بوهج غريب ، فصاح علي :
- أنت تعرفين يا أم ولا تريدان أخباري خوفا علي .

قالت زينب

- ليس في بلادنا من يفوق علمه علم هذا اليوناني ..
قالت فاطمة في غضب :

- هل عقلت النساء في بلادنا يا زينب .. وكل هذه الجسور والمعامل ، وكل هذه السدود والاهرامات ، وكل هذه المصانع والآلات ، ألم يقمها اناس في بلادنا . يعرفون العلم . ويتقنون الصناعة .
ابتسمت زينب وهي تقول :

- ما كل هذا الحماس ياخاله ؟ ..

وأرتسمت ابتسامة الامل على شفתי على الزبيق وهو يقول :

- ألم أقل انها تعرف ؟ ..

قالت فاطمة :

- لم أقل أي شيء . سسوى أن لدينا في بلادنا من أهل الحكمة

والمعرفة من علموا هذا اليوناني وغيره الحكمة والعلم والكهانة ..

قال علي الزبيق وهو مايزال يبتسم :

- مثل من يا أم ؟ ..

صاح سالم محذرا

- حذار أن تخبريه فيورد نفسه موارد التهلكة .

قالت فاطمة وهي تدق الارض بقدمها في اصرار :
- لقد قطع على نفسه عهدا ، ولا بد أن يوفيه ، وما كنت لأرضى لابن
حسن رأس الغول أن يكون عاجزا عن تحقيق أمر أخذ على نفسه أن
ينجزه .

قال سالم في تخاذل :
- ولكنه

قالت فاطمة وعيناها تلمعان :
- ليس هناك لكن ، لقد حاولت أن أثنيه عن عزمه ، ولكنه مصمم على
المضي في طريقه ، فلتكن اذن مشيئة الله .
اشتعل صوت زينب حماسا وهي تقول :
- اذن فسينتصر الزبيق من جديد ، ويثبت بطولته وجدارته .
قالت فاطمة :

- لا بد أن ينتصر يا زينب ، فانتصاره هو طريقه الوحيد اليك .
علت حمرة الخجل وجه زينب ، وهي تطرق برأسها ، وتهمس في
اضطراب :
- كيف . . ؟

قالت فاطمة وهي تضحك :
- ألم تشك أمك دليلا الى الخليفة من أن على الزبيق قد اختطفك ،
أنت ستغادرينا غدا الى بغداد معرزة مكرمة ، ولكن على لا يستطيع ان
يطلبك من الخليفة هارون الرشيد الا اذا ذهب اليه يحمل صندوق
التواجية هدية من عزيز مصر ، وعربونا على جدارته بك ، واسترضاء
لغضب الخليفة عليه . .

تنهدت زينب وهي تقول :
- ويفعل هذا من أجل أنا . .
قال على في حماس وهو لا يلاحظ ما علا وجه زينب من خجل وخفر :
- بل من أجلها أفعل أكثر من هذا . .
ضحكت فاطمة وقالت :

- لا بد لك اذن من صندوق التواجية ان كنت تريد زينب . .
قالت زينب في صوت خافت :
- أنا له دون هذا الصندوق وأهواله . .

قالت فاطمة :
- لا بد ان يرضى الخليفة عنه ، ولا بد له أن يثبت حسن نواياه . .
قالت زينب : -

- عودتي سالمة الى بغداد كافية باثبات كل هذا .
- قال سالم بعد ان سعل ليلفت الانتظار اليه :
- لن يجديها شيء ان يهلك في طلب هذا الصندوق الشيطاني ..
- صرخت زينب في اجفائه .
- يهاب .. لا قدر الله ..
- رقائت فاطمة وهي تربت على كفها في حنو :
- ان يهلك الزبيبي وله عزيزته ودهاؤه وملاعبه التي لا تنفذ ..

مند عادر الزبيبي الديوان والمقدم عثمان قد فقد اهتمامه بما يدور حوله ، وكان يرد على ملاحظات سلحدار السلطان في فتور وقلق ، كان يعرف ان الزبيبي قد وقع في فخ حفرة له صلاح الكلبي ، ولكنه لم يكن يحس في قلبه بفرحة لأزمة الزبيبي الجديدة التي ستورده مورد اللطف والهلاك .. هو يعرف السيف والسهم والحربة ، ولكن حروب الطلاسم والسحر ، شيء لا يجب أن يتعرض له فارس .. وما من انسان قصد المدينة المطلسة . حيث جزيرة الفبة وصندوق التواجيه الا اهلك ، ولم يسمع احد عنه شيئا بعدها أبدا .. والزبيبي بعد شاب حدث ، شجاع هو وذكي ، وصاحب ملاعب لا تنتهي ولكنه حارب دائما بشرف ، وانصر بجدارة ، وأما ان يرسل الى هلاكه الغامض ، فهذا شيء لا يستسيغه ولا يحبه .. وأفاق من تأملاته على لكزات السلحدار ، فرفع رأسه وقال :

- ماذا جد ؟

قال السلحدار ، وهو يبتسم :

- المقدم صلاح الكلبي يشير اليك ، وانت سارح في فكري لا تراه

وسيفضب منك ان لم تجبه ..

التفت المقدم عثمان ناحية المقدم صلاح الدين الكلبي الذي يجلس الى جوار السلطان في صدر الديوان ، فرآه يشير اليه بيده ، فأحنى رأسه ، ومضى يشق طريقته وسط الديوان الى ناحيته ، بينما قال السلحدار في صوت هامس :

- سهم جديد من جراب صلاح الكلبي ..

ولم يلتفت اليه المقدم عثمان ، وإنما مضى في طريقه حتى اقترب من صلاح الكلبي حتى كاد يحاذيه ، وأشار اليه صلاح الكلبي ان يقترب منه أكثر ، ففعل حتى أصبح يلامس كتفه ، فهمس صلاح الكلبي في أذنه :

- أخرج من هذا الباب الجانبي وساتبعك دون ان الفت نظر

السلطان ..

وأشار صلاح الكلبى الى باب جابى صغير ، يفود الى جره مهجور من الدار ، فسار المقدم عثمان اليه مسرعا . . وما كاد يدخل من الباب الى ممر معتم مهجور حتى لحقه المقدم صلاح الكلبى ، وأمسك بكنفه وهو يقول :

- لقد وقع الزبيق فى ايدينا ولن ينجو من الهلاك أبدا . .
لم يجب المقدم عثمان عندما ، وانما نظر فى عينى صلاح الكلبى المليئين بالحنف والكراهية ، فقال :

- الى هذا الحد تكرهه يا مقدم ؟
اشندت قبضة صلاح الكلبى على كتف المقدم عثمان ، وهو يقول :
- لقد فضحني . . وهزمني بحيله وملاعيبه ، ولا بد من القضاء عليه بكل وسيلة ، النجاح هو الحكم فى حياتنا ، الفاشل يموت وينتفى ، لا أريد أن أكون الفاشل أبدا . .
قال المقدم عثمان ، وهو يتمالك نفسه :

- لا قدر الله يا مقدم . . وهو لن يعود من سفرته الى صندوق التواجية أبدا .

قال صلاح الكلبى :
- هذا لا يكفى ، أنا لا اركن الى حديث السحر والشعوذة ، أنا لا أعرف الا الحقائق ، ولهذا أريده أن يموت قبل أن يبدأ .
وأنبه المندم عثمان لحديث المقدم صلاح الكلبى ، وانتبهت كل حواسه وهو يسأل :
- كيف يا مقدم ؟

قال صلاح الكلبى وهو يعرض على نواجذه :
- عند باب النصر ، وفى آخر حوش من أحواش المقابر ، ستجد حوشا خشبيا أحمر اللون ، هناك ستجد حسن بن الحصرى وعلى بن البيطار ، أخبرهما اننى أريدهما ، وأرسلهما لى . .
فتح عثمان فيه فى دهشة وبلاهة وهو يسأل :
- حسن بن الحصرى وعلى بن البيطار ، لقد نفاهما السلطان ، وأنت بنفسك أخرجتهما من ديوان الزعر ، وأمرتهما أن يرحلا عن مصر ، والا قتلا .

قال المقدم صلاح الكلبى فى صوت هامس أجش :
- لا يعرف أحد انهما لم يفادرا مصر الا أنا ، وأنت الآن . .
ونظر فى عينى تابعه نظرة متوهجة وهو يقول :
- ولن يعرف أحد بأمرهما ، والا طارت عنقك .

ارتجف المقدم عثمان رغم صسلايته تحت نظرات المقدم صلاح الكلبى ، وقال :

أنت تعرف ، ان ما تقوله لى لا يعرفه أحد أبدا .

همس صلاح الكلبى فى صوت كالفحيح .

— يدفن معك يا عثمان ، أفهمت ، يدفن معك .. فلو عرف العزيز

أننى أويتهما فى مصر لقتلنى دون تردد .

همس المقدم عثمان :

— لا سمح الله يامقدم .

وعاد صلاح الكلبى يقول :

— لقد أصبحت يدى مشلولة حيال على الزيتق ، فقد حصل على

منديل الامان من السلطان ، وأصبحت حمايته من واجبى .. تصور ..

هل هذا شىء يصدق .. قال لى السلطان : لا أريد أن يحدث له شىء ،

والأ غدوت أضحوكة عند أبناء مصر ، ولهبانهم لا يرحم ..

قال المقدم عثمان فى حذر :

— ان قلبك لم يصف له يا مقدم ..

ثم استدرك قائلا :

— وكيف يصفو بعد كل ملاعبه التى لا ترحم .

أصر المقدم صلاح الكلبى على أسنانه ، وهو يقول :

— لقد خدمه الحظ ، وأننا لم نكن نعرف من هو ، وما هو شكله ؟

أما الآن وقد عرفناه فالأمر أسهل من قبل بكثير .. أسمع ، عندما

تقابلهما أخبرهما أن الزيتق فى طريقه الى المدينة المرصودة ، وسيخرج

من مصر من ناحية الجيزة ، فليرصدها ، وعندما يتأكدان من خروجه

فليسبقاه الى بئر النجاة .. وهى البئر الوحيدة وسط المغارة المهلكة التى

لا بد أن يجتازها من أرض الوادى الى المدينة المرصودة ، وليكننا هناك

ولا يعودان الا برأسه .

ارتجف المقدم عثمان وهو يسمع صوت المقدم صلاح الكلبى الذى

غدا كالفحيح .. وقال :

— ولكن ألم تحسب حبيب مكره ، وأنه قد يتغلب عليهما ..

ضحك المقدم صلاح الكلبى وهو يقول :

— أنت لا تعرف الطريق ، لن يصل الى بئر النجاة الا وقد خبله

العطش والتعب ، ولو أحسنا الحيلة لقبضنا عليه باليد دون عناء ..

، اوسهما بالعذر والكتمان .

قال المقدم عثمان :

— اذهب معهما يا مقدم فانا أعرفه أكثر منهما ..

قال صلاح الكلبى فى غضب :

— لقد انبعت لك مائة فرصة وفرصة لتخلص منه مننا ،

وفشلت .. وانا لا أخشى على حسن بن الحصرى وعلى بن البيطار فهما

من العتاة ، وليس الزبيق من رجالهما ..

قال عثمان :

— لا تنضب يا مقدم ، فانما اعرض خدماتى ..

قال صلاح الكلبى وهو يبتسم فى شراسة :

— لن تنفعنى خدماتك الآن ، لا أنت ولا أحد من رجالى المعروفين ،

وانما سيفتل الزبيق اثنان من العصاة على وعلى السلطان ، كما سيفتل

خارج مصر ، فلا لوم على ولا اتهام ..

ثم اتجه الى خارج المر المظلم وهو يقول :

— حذار أن يراك أحد معهما ..

ثم ابتلعه فتحة المر الى الديوان ، بينما خرج المقدم عثمان من

مدخل المر الى الشارع وهو عازف عن ان يرى السلحدار أو غير

السلحدار ، وصدمته ضجة القاهرة وشمسها الساطعة ، فوقف لحظات

يعود أذنه وبصره على حياة الشارع الصاخبة ، ومضى مسرعا يشفق

شوارع القاهرة وحواريها ، وحوله ترتفع نداءات الباعة ، وصنوج

الشربلية ، وصهيل خيل ، ونهيق حمير ، وشجار بين نافذتين وجدل

عند باب الحمام فى سوق الزلط ، ثم تخف الضجة وهو يتجه الى خارج

القاهرة ، الى باب النصر ، الى المقابر تقف منفردة بشواهدهما ، أو

الاحياش الخشبية تضم داخلها شواهد قبور وغرف الزيارة ، وأماكن

الخزين .. كان يحس ثقلا فى قلبه ، لقد هزمه الزبيق حقا ، ولكنه

كان فى كل ملاعبه مثال الشجاعة والجرأة والذكاء ، ومنذ نجا الزبيق

من المشنقة ، وهو يعتقد فى أعماق قلبه ، ان الحياة أصبحت من حقه .

ولكن هكذا تجرى الامور ، ماله هو وكل هذا ، ما هو الا مقدم من

مقدم صلاح الكلبى ، عليه أن ينفذ أوامره والا ناله السوء ، وعاد الى

حياة الصعلكة والشقاوة والخوف القديمة ..

ومن بعيد لاح له حوش منفرد بعيد ، جدراناه من خشب طليت

باللون الاحمر .. وشدا أقدامه شدا وهو يتحسس مقبض سيفه، ويتقدم

نحوه فى استسلام وقنوط ، لقد كان يعرف أنه يحمل اليه رسالة الموت

الغادر الاكيد ..

فدا .. نرتحل

قال عم عباس المبخراى ، وهو يحرك يده بالمبخرة ذاعبة رائحة ويده الاخرى تمدها بالبخور بين الحين والحين ، فتزداد كثافة الدخان المتصاعد من المبخرة ، وهو يقول :

- هو الحى القيوم ، سبحانه ، مخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، له الدوام وحده قيوم حى ، وحدوا الله .

ثم يختفى وراء غلالة من الدخان وهو يتحرك من مكان الى مكان ، ويده تمر بالمبخرة فوق الاحمال المتراكمة وسط باحة الدار .. ويتمتم لنفسه مرة ، ويجهر بصوته مرات ، وهو مفقود وسط مافى البيت من حركة وضجة وصياح .. فقد كان البيت عذا الصباح بموج بالحركة ويعج بالناس ، يتوه وسطهم عم عباس المبخراى ، ويتوه صوته ، وتتوه حركة يده الرتيبة بالمبخرة .. كان الحمالون يحملون الامتعة التى تثقل كواهلهم الى القاعة .. ليعودوا الى الحمير المربوطة فى الفناء الخارجى ، يركبونها ويعودون الى السوق ، ليعودوا من جديد باحمال اخرى .. اقمشة ، وتوابل ، وعطور ، وآنية من كل نوع .. وعم عباس المبخراى ، يقابل كل حمل جديد بمخترته المتوقدة دائما ، المشتعلة على الدوام ، تفوح منها روائح المسك والعنبر ، ويدور بها حول كل جديد يدخل القاعة وهو يسمن ويحوقل ويقول :

- هو الحى القيوم . العفو من الله . والرزق من الله . وهو الحى ، سبحانه الله .

ويتخافت صوته شيئا فشيئا ، وهو يحرك مبخرته ذات اليمين ، وذات الشمال ، ويتحرك من مكان الى آخر وعيناه لا تغادران فاطمة عند الوسط تماما من كل هذه الحركة الدائبة .. وكانت فاطمة مشغولة عنه فى ترتيب الاحمال والامتعة ، بينما كانت زينب تنب عند طرف القاعة وهى ترقب هذه الحركة النشطة فى خجل ، وتفرك كفيها فى ارتباك ، وأخيرا رفعت رأسها وقالت :

- كل هذا با خالة لى .. هذا كثير .

وصاح عم عباس المبخراى ، وهو يحرك يده فيرتفع الدخان والبخور بكاد يخفيه عن اعين الناظرين :

— ما يكثر على الله نعم الله .. حى .. قيوم .. سبحانه مقسم الارزاق .

وصاحت به فاطمة فى غضب :

— يا عم عباس — بخرت القاعة — ماذا يبقيك ؟ تعال خذ حسنتك .

ومدت يدها فى جيب ثوبها بحفنة دراهم ، اعطتها له فى صمت وقال متلعثما :

— قال المقدم سالم بخر من عين العوازل بخرت ، كل حصل يدخل بخره يا عباس ، واياك ان تترك حملا لا تبخره بخبرنا .. القاعة كلها بخرناها .. ولا يبقينى شىء الا كرمك وحسن رضاك يا ام الرجال ، يا كاملة ..

ضحكت زينب ، وهى تخرج حفنة دراهم اخرى تعطيها له فى كفه التى اطلقت عليها فى حرص وقالت :

— خذ وانصرف .

واسرع يحرك المبخرة فى يده ، لينبعث منها دخان جديد ، وخرج من القاعة وهو يتصايح قائلا :

— من عين العوازل ، من عين الحاسدين ، سبحانه من يرفع من يشاء ، ويدل من يشاء ، هو الحى القيوم .. وفى غلالة من الدخان المتصاعد من مبخرته انسحب خارجا من القاعة ، وقالت فاطمة :

— انسان طيب ولكنه ثقيل الظل ..
قالت زينب :

— وهل كان حضوره ضروريا ؟
قالت فاطمة :

— المقدم سالم احب ان يخزى العين عن كل ما جاءك ، فجاء بالمبخراتى لكى يبخر كل ما جاء من السوق لتحل به البركة .. ضحكت زينب وهى تقول :

— ولكن هذا كثير يا خالة فاطمة ..

قالت فاطمة وهى تتجه نحوها وتضمها الى صدرها :

— ابدا هذا اقل من القليل يا زينب .. ومع هذا فالمقدم سالم

اراد ان يرقى هذا القليل من العين فأتى بالمبخراتى .

وضحكت .. بينما احنت زينب رأسها وهى تدبر بصرها فيما ملا القاعة من احوال ، وقالت :

- ولكن هذا شوار عروس يا خالة فاطمة ..
 ضمتها فاطمة وقبلتها ، ثم قالت :
 - وانت عروس يا زينب وان تأجل زفافك ..
 علت الحمرة وجه زينب ، وازداد اطراق رأسها وهي تقول :
 - بعد كل هذه الفضيحة يا خالة ..
 قالت فاطمة بسرعة وهي تربت على شعر زينب :
 - لا فضيحة في الأمر ، أنت يا زينب ضيفتنا منذ البداية ..
 قالت زينب :
 - وما يقوله الناس ؟ الزيق أسر زينب بعد أن طرد أمها دليلة ؟
 قالت فاطمة :
 - الآن الكل يعرف أنك لست في أسر أحد ..
 ثم ضحكت وقالت :
 - وإذا تحدثنا عن الأسر ، فمن فيكما في أسر الآخر ؟
 ازداد احمرار وجه زينب وهي تقول :
 - يا خالة .. هذا كرم منك ..
 ضحكت فاطمة ، وهي تشير الى ما في القاعة من متاع جديد ،
 وقالت :
 - كل هذا هديتنا لدليلة عليها ترضى - وانت ستسافرين معززة
 مكرمة الى بغداد دون ان يمسك اذى ، ودون ان يطلب منك أحد
 شيئاً .. تعودين الى بلدك والى أمك ، معززة مكرمة ، ضيفة عزيزة
 حلت ، وضيفة عزيزة ترتحل هنا ، وكلنا حزن على فراقها ،
 وسفرها .
 قالت زينب :
 - آسفة على فراقكم ..
 ضحكت فاطمة وهي تقول :
 - فراق من يا زينب ؟
 ضحكت زينب وهي تقول :
 - فراقك يا خالة ، وفراق عمى سالم ..
 وبادلتها فاطمة الضحك ، ثم قالت في تودة ، وكأنها تزن
 كلماتها :
 - أما أنا ، فنحن حبيبان ، ومهما طال الزمان فسوف نلتقى ،
 أما على ..
 وضحكت .. وتمايلت ، وضمت اليها زينب وقبلتها ، ثم
 قالت :

— نعم اما على ، فهذه مسالتك معه .. انتما وحدكما تعرفان ما فيها .

صاحت زينب :

.. يا خالة

قالت فاطمة وهي تربت على شعر زينب في حنان وتضحك :

.. هو يحبك ..

قالت زينب :

— نعم ..

قالت فاطمة :

— وانت تحبينه ..

أطرقت زينب ولم تجب .. وقطع عليهما الحديث دخول زمرة أخرى من الحماليين يحملون متاعا جديدا وعلى رأسهم المقدم سالم ، الذي تصدر القاعة وهو يقول :

— كل شيء يتم في راحة — انت هنا — ضع هنا .. وانت هناك لا تستعجل .. حملك ضعه في هدوء هنا .

كان المقدم سالم يشرف في جدية على وضع كل شيء في مكانه ، ولا يتهاون مع الحماليين ، حتى لا ينكسر شيء ، أو يندلق شيء من قواريره ، أو ينسكب شيء من خوابيه .. وكان يصيح وهو يوجه كلامه هنا وهناك :

— اياك ان ينكسر شيء ، ضع هذا هنا .. وانت اياك ان يقلب من حملك ما تحمل ، ضعه في هدوء ..

وقال شيخ الحماليين ، وهو يضع حملة في ارض القاعة :

— كل شيء تمام والصلاة على النبي — مالك يا مقدم سالم ، لماذا تقلق ، هذه مهنتنا من قديم ، كل شيء يصل الى مكانه وتتمام التمام ..

قال المقدم سالم ، وهو يخرج من جيبه نقودا يودعها في يد شيخ الحماليين :

— صدقت يا معلم ، اترك كل شيء في مكانه ومع السلامة ..

قال شيخ الحماليين :

— الصلاة على النبي مكسبي ، لم يعرف أحد عنا في السوق

اننا نكسر شيئا أو نضيع حملا .. كل شيء هنا تمام يا مقدم ..

قال المقدم سالم :

— نعم كل شيء تمام ، واجركم تمام ..

- قال شيخ الحمالين ، وهو يشير الى رجاله ليتركوا القاعة :
- مرضيين وحياة صلاة النبي ..
- واخذ يداعب ما اعطاه المقدم سالم في يده ويقول :
- تمام .. التمام .. وحياة صلاة النبي ..
- ثم اشار الى من معه من رجال ، فأخذوا ينصرفون واحدا واحدا ، حتى كان هو آخرهم ، وقبل ان يخرج التفت الى المقدم سالم قائلا :
- نحن في الخدمة دائما ، وليس في كل يوم نحمل هدايا على الزيبق لدلياة المحتالة ..
- قال المقدم سالم في صبر :
- من قال لكم هذا الكلام ، هذه هدايا على الزيبق لزينب في رحلتها ..
- قال رئيس الحمالين :
- جعلها الله سفرة موفقة ، وامتعنا بالزيبق وزوجته زينب ..
- صاحت فاطمة :
- يا معلم ، هذا شيء سابق لاوانه ، ونحن وانتم نعرف الاصول ..
- قال شيخ الحمالين وهو يلم حباله :
- الاصول اصول ، وما هو اليوم كلام غدا يصبح فعلا وفعالا.
- قالت فاطمة وهي تصرفه بحركة من يدها :
- اكرمك الله يا معلم ، وجعل كلامك كل الفال الحسن الذي تطلبه ..
- خرج شيخ الحمالين ، وهو يقبل النقود في يده مرات ، ويقول :
- جعل الله الدار عامرة ، واكرمنا بفرحنا بالزيبق وحليته ..
- وخرج شيخ الحمالين ، وزينب غارقة في خجلها ، وفاطمة تقول لسالم :
- يا مقدم ، الم تجد غير هؤلاء ..
- قال سالم في صبر :
- كل الناس يعرفون حكاية زينب وعلى — فماذا افعل ؟
- قالت فاطمة :
- لا عليك يا مقدم سالم .. الله يفعل ما يريد .
- قالت زينب :
- فضيحتي اذن في كل مكان .. وسيرتي على كل لسان ..
- صاح المقدم سالم في عصبية :

- حاشا الله يا زينب ، ما انت الا أظهر البنات ، وما على
الا اشرف الفتيان ..

قاطمته فاطمة في حزم قائلة :

- كل هذا سينتهى ، حين تسافر قافلة زينب في الغد الى
بغداد ..

قالت زينب :

- كل هذه الهدايا ستجعل الناس يتحدثون ..

قالت فاطمة :

- فاتركبهم يتحدثون ، فما لنا وحديث الناس ..

قال سالم وهو يبتسم في رقة :

- غدا نرتحل ، انت وكل هداياك ، وانا ..

صاحت زينب :

- اتسافر معي يا عم سالم ؟

قال وهو يضحك :

- لا بد ان يحرسك واحد منا ، اما الزبيق ، فأمامه السفر في

الحصول على النفيلة ، اما انا فحر ، اسافر معك ، وأسعد بك ،
وأغيظ الكائدين والחסاد .

قالت زينب في حزن :

- ويبقى على وحده ، دون رعايتك ..

قالت فاطمة :

- بل هو يسافر الى قدره يا زينب ويرعاه الله ..

ما أتمت فاطمة كلامها حتى دخل على القاعة وهو يقول :

- هل كل شيء أعد لسفر زينب الى أمها ؟

قال سالم :

- كل شيء معد يا على لا تقلق ، والجمال تحضر في الصباح

وانا أصحبها الى دار أمها في بغداد وانت رعاك الله في سفرتك من

أجل احضار النفيلة ، كم كنت أود ان اكون معك ، ولكن سلامة زينب

تأتي في الدرجة الاولى ، وانا على قافلة زينب ، اما انت فيرعاك

الله ..

قالت فاطمة :

كل شيء معد لرحلة زينب يا على فلا تقلق ، اهتم بنفسك ..

ثم اشارت الى المقدم سالم فقال :

- انصرف الآن لأعد الأمر لرحلة الغد مع زينب ..

وخرج المقدم سالم . وخسرت فاطمة . ونظر على حوله .
فطالعه علائم الرحلة والسفر ، وقالت زينب وهي تتقدم نحوه في
تردد واستحياء :

— اذن أنا من طريق ، وأنت الى طريق .
أطرق على برأسه وهو يقول :
— أنت الى أمك . وأنا الى المجهول ..
قالت زينب وهي تزداد اقترابا منه :
— الى قدر معلوم أسير . وإلى قدر مجهول أنت تسير ..
همس الزبيق :
— طريقك مأمون ، ومعك المقدم سالم ضمان الطريق ..
قالت زينب وهي تمسك بذراعه في تردد :
— لست أخاف على نفسي من الطريق ، وإنما أنا أخاف عليك .
جفت الكلمات في فم الزبيق وصمت ، فعادت زينب تقول :
— الأبد من سفرتك هذه الى المجهول .
تمالك على نفسه ، وقال :
— لكى أصل اليك لأبد أن اجتاز هذه العقبة ..
قالت :

— أغامر بحياتك . وشبابك ونفسك ..
همس :
— وأغامر بكل شيء ، لكى أكون كفئا لك ..
قالت وهي تمسك بذراعيه :
— يا على هذه مهلكة رماك فيها صلاح الكلبى ، ولا يريد لك
عودة ..
قال :

— ومن أجل هذا اذهب ، فلن أطلبك من أمك الا وقد أحضرت
هذه النفيلة وغنوت جديرا بك ..
قالت :

— يا على .. أخاف عليك .
همس :
— حبك نورى ووقائى ، وسانجع وأعود ، لأكلل معنى حبنى لك .
قالت :

— هي مغامرة مخيفة يا على ، ولم يرجع منها أحد منتصرا أبدا ،
هم يريدون هلاكك .

قال وهو يقترب منها ويمسك بذراعها :
- ساعود يا زينب ، وسانتصر ، فانت جائزتي الكبرى - ولن
يشنيني شيء أبداً عن الفوز .. الموت وحده يمنعني .
قالت :

- الموت وحده بعيد عنك ، فانا احبك .
قال :
- فالنصر لى يا حب - طالما ظل وعد منك قائما ..

نصلى الله وحده

كانت لحظات مشهودة حين مر موكب زينب من شارع سوق الميمون متجها الى باب الفتوح ، مغادرا القاهرة ، وسط ضجة السوق ، والاصوات التى تتابع الموكب من شارع النحاسين الذى لا ينقطع الطريق فيه طوال النهار ، كان المقدم سالم على رأس قافلة زينب فوق جواده ، ووراءه جمل زينب الذى يحمل هودجها ، ثم يأتى جملان محملان الى أقصى طاقتيهما ، وكل جمل يسوقه تابع مسلح ، ووراء الجميع تابعان مسلحان يركبان الجياد ، شهد الموكب الصبيان ، يتابعونه من كل الاحياء التى مر بها ، بعضهم يمسك عصا كأنها حربة ، وبعضهم يركب عصا كأنها جواد ، وشهدوها العجائز المتسكعون حول السوق ، يفترشون الارض امام الحوانيت وهم يتندرون بالجمال المحملة التى تنوء بعبء ما تحمل ، وشهدتها النساء من المشربيات ، وهن ينادين ليفرجن على الموكب ، ويتابعون سيره الوثيد .. وقالت الست حفيظة :

- هذا (شوار) عروس ..

ردت عليها الست جليلة من المشربية المقابلة قائلة :

- وماله ، اليس هو هدية الزيبق الى عروس المستقبل ..

مصصت الست حفيظة بشفتيها ، وهى تقول :

- ولكنه يا حصرة حرم منها ، أرسلها عذراء الى أمها دون ان يبنى

بها ..

قالت الست جليلة :

- وماله رجل ولا كل الرجال ، يطلبها حين يصبح قادرا على مثلها ،

وحين يقطع كل اللسنة عنها ، وعنه ، أما الآن فهى تعود الى أمها

معززة ومكرمة ..

هزت الست حفيظة رأسها مؤمنة على كلام جارتها ، وقالت وهى

تشير بيدها نحو الموكب :

- نظرى الى المقدم سالم امام المكب .. زين الرجال وملء العين

والله ..

قالت الست جليلة :

- هو قادر على حفظها ، من هنا والى بغداد ..

قالت الست حفيظة وهي تعود الى المصمصة بشفتيها :
- يا حسرة علينا .. لو كان لنا مثل هؤلاء الرجال ما أصبح حالنا
مائلا ، ولا اعتدل البخت ، وصفت الحياة .
صاحت بها الست جليلة :

- خمسة وخميسة في عين العدوين ياست حفيظة .. الولد ابننا
وابن اختنا فاطمة ست النساء ، ونحن نحب ، ونضعه في قلوبنا ،
والبنت صديقتنا كلنا ، تسافر الى أمها بالسلامة .. ادعى لها يا شيخه
أن يحفظها الله من العين ، ومن شر الطريق ، ليسترك الله ، ويستتر
كل أعراضنا ..

مصصت الست حفيظة بشفتيها ، والموكب يبتعد على مهل ، وهي
تقول :

- قادر ، هو صاحب القدرة وحده ، لا يعترض أحد على عطائه ،
ومن أعطى لعلى بن حسن رأس القول يعطنا ، ومن جعل لزينب هذا
الموكب يجعل لبناتنا مثله ..
قالت الست جليلة :

- الله يحفظها ويعيدها الى أمها بالسلامة .
وكان الاولاد يتصايحون وراء الموكب وهو يدخل في البوابة :
- يامحنى ديل العصفورة .. وزينب هي المنصورة ..
- يا أولاد حارتنا ، سوسة سوسة
- وزينب ترجع لنا عروسة ..

وما أن خرج الهودج من ظلام القيو ورطوبته الى خارج بوابة الفتوح
حتى أشارت زينب الى قائد هودجها فأوقف الجمل ، بينما تكاثرت
حولها باقى الجمال ، والتف الاولاد حولها ، وهم يرددون صيحاتهم
وضحكاتهم ، وأغانيمهم .. وأسرع المقدم سالم الى هودج زينب ، ورفع
السجف وقال :

- لماذا توقفت ياسيدة الملاح ؟
كانت فى عيني زينب دموع ، وكانت شفتيها السفلى ترتجف ،
فأشاحت بوجهها عن المقدم سالم وأطرقت ، وتركت لدموعها أن تسيل
فى صمت ، ثم قالت بصوت مرتجف يشرق بالعبرات :
- انما هى نظرة وداع للقاهرة ..
ضحك المقدم سالم فى خفوت ، وقال :
- وداع الى لقاء قريب يا زينب ، ستعودين اليها عروسا باذن الله

رفعت زينب يدها بوشاحها تجفف الدموع ، وأشارت برأسها الى
لصبية المحلفين حول الجمال وقالت وصوتها يزداد ارتجافا :
- اترك هذه الامنيات للصفار يا عم سالم ..

ازدادت ضحكة سالم ارتفاعا وهو يقول :
- الاطفال احباب الله ، وكلامهم البرىء يحمل كل امنيات أهل
القاهرة لك يا زينب أن تعودى الينا منصوره مجبوره ، وعروسا تزف
الى عريسها .

همست زينب ، وهى تحاول كبح جماح دموعها :
- من يدري يا عم ، من يدري ؟
قال المقدم سالم ، وهو يخفى ما جاشت به نفسه من عواطف ،
وراء حركة كفه على شاربته الكث فى رقابة عصبية :
- اطلبى الخير من الله يا ابنتى ، وتغافل خيرا .. الا تجددين فى
صياح هؤلاء الاطفال بشرى الخير ؟

ابتسمت زينب وسط دموعها وقالت :
- كلماتهم هى التى دفعت الدموع الى عينى ، ولو سمعتها دليلا
لعرفت الى أى حد يحب أهل مصر على الزبيق ، ولاحبته كما يحبونه ..
هز المقدم سالم رأسه الاشيب ، وابتسم وهو يقول :
- الله وضع على قلوب أفعالها ..
ثم ضحك بصوت عال ، وهو يقول :
- هل ستطول وقفتنا هنا ؟

أشارت زينب بيدها الى ضريح سيدى حسن الذوق يتوسط
الباحة أمام البوابة ، وقالت :
- يقولون ان من يقرأ الفاتحة لسيدى حسن الذوق وهو يفادى
بوابة الفتوح ، يعود مرة أخرى ليقرا له الفاتحة من جديد ..
نظر اليها لحظات فى صمت ، ثم مد راحتيه منضميتين وهو
يقول :

- اذن نقرأ له الفاتحة سويا ..
ومدت زينب كفيها أمام وجهها ومضت تقرأ الفاتحة مع المقدم
سالم ، الذى أنهاها بأن مسح على وجهه بكفيه ، وهو يقول :
- آمين ..

وحين أنهت زينب الفاتحة ، مدت يدها الى صرة بيدها ، ففكتها
وهى تقول :

— لا تحسبني أتلکأ في بدء الرحلة ياعم ، انما أتودع من مصر .
ضحك المقدم سالم ، وقال :
من مصر ، أم من واحد في مصر ؟
احمر وجه زينب ، ودارته بوشاحها ، وهي تعبت بيدها الأخرى
في الصرة ، وقالت :

— كل ساقى مصر عزيز يامقدم سالم ، وهو في مصر بهجتها التي
تمثلها عندي ..

ثم ملأت كفهسا بالدرهم من الصرة ، ومضت تبدرها على الأولاد
المتحلقين ، الذين أخذوا يتصايحون ، وهم يجمعون الدراهم المتساقطة
وتنهدت زينب وهي ترفع وجهها الى المقدم سالم وتقول :
— والآن هيا بنا ..

قال المقدم سالم وهو يسدل السجف على الهودج ، ويشير الى
رجالہ بدء الرحلة :
— على بركة الله .

ومضى الموكب وثيذا يغادر الساحة ، مبتعدا عن باب الفتوح ببطء
وصياح الصبية يعود من جديد ليردد :
— يامحنى ديل العصفورة ، وزينب هي المنصورة ..
— ياولاد حارتنا ، سوسة سوسة
— وزينب ترجع لنا عروسة ..

قالت فاطمة في حدة :
— كفى يا على ، لقد ذرعت القاعة أكثر من خمسين مرة ، لو كنت
نادما على ترك زينب تعود الى أمها لكنت احتفظت بها هنا ، وتزوجتها ،
ولن نبالي بأحد ..

فرك على الزيبق كفيه ، وعض على شفتيه ، وهو يقول :
— بل كان لابد من عودتها .

قالت فاطمة في حزم :
— اذن انسها ، وركز تفكيرك كله في المهمة الصعبة التي اوقعك
فيها صلاح الكلبي ..

تمتم على من بين نواجذه :

— النفيلة ، صندوق التواجد .. المدينة المطلسة ، الجزيرة ذات
السيوف المهلكة .. دوامة ، دوامة ، كلما أمعنت التفكير فيما أخبرتنه
عنها ، احتار فكري ، وتبلبلت أفكاري .

ربت فاطمة على منكبيه في حنان ، وهي تقول :
- راحت السكره وجاءت الصحوة وعرفت الان الى اى مهلك
دفعك صلاح الكلبى ..

هدا على قليلا ، وأطرق وهو يقول :
- أيا كان الامر ، لابد من الوفاء بما تعهدت به ..
قالت فاطمة :

- هذا احسن من القلق يا على ، فأعد نفسك لما عزمتم عليه .
قال على هامسا كأنما يحدث نفسه :
لقد سمعت جدى القاضى نور الدين يقول : ان الصلاة ملجأ
كل نفس قلقة ، فهي تثبت الايمان وتقوى العزم .. وانا ذاهب الى
مسجد السيدة زينب صلى على ما بنفسى من قلق يذهب عنى .
قالت فاطمة فى حنان :

- اذهب يابنى ، فنعم النصيحة هذه تذكرها عن جدك ، فهو
والله افضل الناس واتقاهم ..

مضى على الزبيق يشق طريقه وسط شوارع القاهرة وازقتها :
وهو مطرق برأسه ، مشغول بفكره ، لا يحس بضجة الناس من حوله ،
ولا يشعر بحركتهم المواره وزحامهم الذى يملأ كل الشوارع والازقة
التي يعبرها فى صمت وسرعة ، ولكن حاسته الحذرة ما لبثت أن
أدركت أن هناك من يتبعه من مكان الى مكان . ربما كانت حياة
الطريد الذى يتعقبه رجال صلاح الكلبى لتوقع به ، قد علمته أن
يلاحظ من الأمور ما قد يغيب عن غيره . وربما كان قد تعود أن يراقب
ما يحدث خلفه كما يراقب ما يحدث أمامه ، ولكنه آخر الامر ازداد
تاكدا من انه متبوع فى سيره ولأشك .. وفكر فى أن يلجأ الى إحدى
حيله لكشف من يتبعه ، ولكنه فضل أن يظل فى سيره فهو ليس ذاهبا
الى مهمة سرية ، وهو قد حاز مندبل الامان فلا خوف عليه من كمين
يعده له صلاح الكلبى ورجاله .. وكان قد وصل الى المسجد ،
فاتجه الى بابه ، وخلع نعليه دون أن يتلفت حوله ، ودخل الى
ساحة المسجد لتسلل الى قلبه ووجدانه تلك الرائحة الذكية التي
تملا جوه ، وهدأت نفسه وهو يجيل بصره فى رحاب المسجد الذى
يسوده الهدوء الا من تمتعات هنا وهناك يرددوا المصلون فى خشوع
وابتهال . ونسى قلقه وحدره ، وهو يتجه الى الميضة ليتوضأ فى
استغراق ، ثم يعود الى المسجد لينتحي ركنها هادئا ، ويصلى
وحده فى ابتهال هامس مؤمن .

آيات القرآن تخرج من بين شفتيه فيحس انها مرت بقلبه
نظهرته ، وبقلبه فهددهته ، وبنفسه فزرعت فيها الهدوء والامل
.. ويركع فيضيغ الوجود بصغبه ، واحقاد ، ومؤامراته ، وينحصر
بصره امامه في بؤرة نور خرجت من ذاته لتعود الى ذاته بالحب
والسلام والامن .. ويسجد فاذا هو ذرة ضئيلة في ملكوت الرحمن
الرحيم ، اذ هو يشفى ويرزق ، ويحس بصفاره وصفار انكون
كله ، وينتصب من جديد ، فاذا كل جسده قد غدا خفيفا لا ثقل
فيه ، لا شيء يشده الى الارض ، لا شيء يغل من حركته ، ويمور قلبه
بالحب وهو يقرأ الفاتحة من جديد .. ما انت ومن انت امام عظمة
الخالق الواحد الاحد ، سبحان من له الملكوت ، سبحان من له
الدوام ، واذا هو في ركوعه ينحنى لما ملا قلبه من عظمة خالقه الرحمن
الرحيم ، واذا هو يخر ساجدا رهبة وخشوعا يرتجف جسده كله ..
وحين انهى صلاته كانت دموع خبيثة تملأ عينيه ، فجلس في ركنه
صامتا ، واحداث حياته تمر امام باصريه ، وأدرك انه ما كان يقاوم
صلاح الكلبى الا لانه طغى وبغى ، وان الايمان الذى يملأ قلبه هو الذى
دفعه الى نصره المظلومين والمضطهدين ، وان هذا سر حب الناس
له ، وتأييدهم لافعاله بصلاح الكلبى ورجاله .. وسمع نفسه يهمس
في صوت مرتجف خفيض :

— اللهم بصرنى ، وسدد خطاى ، واجعلنى أداة رحمة وهداية ،
لا عنصر شقاوة وضلال .

وانهمرت دموعه فتركها تبلل وجهه ، وهو مطرق خاشع مضطرب
الا انه أفاق على صوت يقول بصوت جهورى :

— نويت أصلى ركعتين تحية للمسجد .. الله أكبر .
فرفع رأسه يحدق في صاحب الصوت .. كان الرجل يقف امامه
الى اليمين قليلا ، وقد رفع كفيه الى جبهته ثم خفضهما وضمهما
الى صدره ، ومضى يقرأ الفاتحة بصوت هامس ولكنه مسموع ..
لا يعرف على ما الذى لفته اليه ، الصوت بالطبع هو لم يسمعه من قبل
ربما والقامة ، أبدا ، هو لم يعرف هذا الرجل من قبل ... ومضى
يتأمل في دقة ، ولكنه متأكد انه لم يره من قبل .. وهز رأسه
في حيرة ، عجيب ان يسترعى الرجل انتباهه رغم كثرة المصلين
في المسجد ، ولكن للرجل حضورا يفرض نفسه ، ويشعر بوجوده ..
وعاد على بهز رأسه من جديد — ربما كان هذا هو كل ما فى الامر ..
لبعض الرجال وجود طاغ يرغم الآخرين على الاحساس به .. وهذا

الرجل واحد منهم .. ليست المسالة مسالة صوت ، ولا مسالة طريقة كلام ، وليست كذلك في القامة المنتصبة والهامة المرتفعة في كبرياء ، ولكن هو شيء غير هذا كله ، وهو هذا كله في آن واحد .. وهمس على نفسه :

- لا تشغل بالك به ، هو واحد يصلى ، وانت لا تعرفه ، ولاداعى لامعان النظر نحوه .. وانت قد صليت ، فهيا بنا يا فتى .. ولم نفسه ليقوم ، ولكنه فجأة ارتجف حين أحس بأصبع يمر بيد لزجة باردة فوق كفه ، وصوت هادىء يقول :

- مسك من روائح الجنة يا فتى .. هات كفك الاخرى وتوكل على الله ..

رفع على الزبيق رأسه ، فواجهته عينان عميقتان قد تكحلتا وصفت حدقتاهما ، وعاد صاحبها يقول في نفس الصوت الهادىء :

- هات كفك الاخرى ..

ومد على الزبيق كفه الاخرى فمسح عليها الرجل بأصبعه بعد ان مر به على « حق » صغير ، ودهن يده وهو يبسم ويقول :

- من ريح الجنة ، والصلاة على النبى ..

ثم اختفى الوجه الملتحى من امامه ، وذهبت العينان الصافيتان ، ووجد نفسه يحدق فى فراغ ، ورفع كفه اليمنى الى انفه ، وانبعثت رائحة عطرية نافذة جميلة الى صدره ، ثم رفع كفه الثانية الى انفه ، فانبعثت نفس الرائحة ، رائحة المسك - تملأ صدره ، وتعطر أنفاسه .. ومضى يفرك كفيه ثم يمسح بهما على وجهه وجبهته .. وأحس بالانتعاش - وتنهد وهو يقف ويحمل نعليه فى يده ليخرج من المسجد ، وفجأة النفط الى حيث كان الرجل الاول يصلى فلم يجده .. متى انتهى من صلاته ، وكيف اختفى .. ؟ هو لا يعرف ، وعندما أخذ يجول ببصره فى المسجد بحثا عن الرجل صاحب « حق » المسك ، أدرك انه اختفى هو الآخر - وأحس بالشك يملأ صدره من جديد .. وأحساس غريب بان هناك غموضا ما يحيط به لا يريد ان يفارقه .. وعاد يجول ببصره فى المسجد الرحب من جديد بحثا عن الرجلين ، ولكن بصره لم يقع على اى منهما .. وهز رأسه فى حيرة ثم مضى يفادر ساحة المسجد وقد بدأ فكره يتبلبل من جديد - وما أن خرج من المسجد وساحته المعتمة الى ضوء النهار الساطع ، وضجة الحياة الصاخبة فى الميدان المحيط بالمسجد حتى نسى امر الرجلين ، وابتسم لنفسه ساخرا وهو يلبس خفيه ، ويجسول

بصره في الحركة الدائبة التي يهوج بها الميدان ، هنا راحة وهنا تعب ، هنا هدوء ، وهنا صخب ، هنا ذكر الله ، وهنا انغماس كامل في كل أمور الحياة .. وأحس بنفسه يضحك ، وهو يترك نفسه تنساب مع الحركة الغامرة في الميدان .. نداء الحمارين على حميرهم ، وصياح الباعة على سلعمهم ، وصخب الصبيان يخترعون ألعابا غريبة منهمكين في أدائها بكل جد ، وجدل هنا ، وضحكات هناك .. وصنج السقاء .. وتوقف .. صنج السقاء .. نعم ، هي صنج السقاء يسمعها منذ غادر المنزل وحتى وصل إلى المسجد ، ويسمعها الآن وهو يتجه من المسجد إلى باب الخلق ، وتوقف في سيره ، وأخذ يجوس الميدان بناظرية ، بحثا عن السقاء المتجول يبيع الماء للعطاشي من عابري السبيل ، ولكنه لم يجده - بائع يرتقال ، حمار يجري وراء حماره ، امرأة تصحب في كل يد طفلا ، وتحمل فوق رأسها « بقجة » ، سائل أعمى يمد عصاه ، ويجأر بشكوى الزمان ، طفل لوث وجهه يحلوى ساحت على يديه ووجهه ، رجل عجوز في يده عصا يتوكأ عليها ويجهد ليتابع سيره ، لاسقاء - لاسقاء .

ومضى يتابع سيره وهو يتلفت حوله في حيرة وقد اختفت أصوات الصبح .. وكان حر القاهرة قد اشتد عليه ، وصوت الصنج قد ذكره بالماء فأحس بالعطش ، ومضى يفتد السير في دروب الحمالين ، ففر آخره وعند الميدان السبيل القديم ، وهناك سيجد الماء الذي يروى عطشه .. ووجد سائلا يجلس على حافة الطريق فرمى له بدرهم ، ثم لاح السبيل من بعيد ، فمضى في سيره وهو يسأل نفسه ، إذا كان لا يستطيع احتمال وهج شمس القاهرة ، فكيف سيحتمل لفح شمس الصحراء المخوفة ، التي حكمت له عنها أمه ، والتي تفصل الوادي عن المدينة المرصودة .. وهمس لنفسه :

- نترك أمرنا لله .. ومن توكل على الله كفاه بإعلى .

وقبل أن يتحرك نحو مبنى السبيل الدائري الذي لاح من بعيد ، عاد يسمع صوت الصنج من جديد ، وكانت هذه المرة قريبة جدا منه ، فالتفت وراءه ، وإذا برجل سقاء ، من السقائيين الجائلين يتقدم نحوه وعلى وجهه ابتسامة عريضة ، وفوق كتفه قرينة منداه ، ويده تلعب بالصنج في وقع رتيب ، وهو يقول له :

- الماء ياعطشان ، اشرب - وصل على النبي .

كان الصوت مألوقا ، وكان الوجه مألوقا ، وكان جسد الرجل الذي ينقدم نحوه مألوقا ، ولكنه لا يستطيع أن يذكر متى رآه ،

ولا اين رآه ، وقال الرجل وهو يمد يده بطاسة نحاسية مليئة بالماء :

- ماء معطر بالورد .. اشرب .. وبل ظمأك ، وصل على النبي .

امسك على الزبيق الطاسة في يده ، كان الماء فيها رائقا وجميلا ، وكان عطشان ، ولكنه كان ايضا الزبيق ، رج الماء في الطاسه ورمى الماء منها في صمت ، وأعادها الى السقاء ، واخذ السقاء الطاسة الفارغة ومال بجسده يملؤها من القرية على ظهره ، وهو يقول :

- اشرب وصل على النبي .

وعاد على الزبيق يرج الماء في الطاسة مرة ثانية ، ثم يرمى الماء على الارض ، ويعيد الطاسة فارغة الى الرجل ، الذي نظر في عينيه في صمت ، وعاد يملؤها من جديد ويقدمها اليه .. وشرب على الزبيق الماء في استمتاع ، وأعاد الطاسة ، وهو يمد يده الى جيبه يخرج دريهمات يعطيها له وهو يقول :

- هذا ليس صبر السقائين .

نظر الرجل الى الدراهم العديدة ، في يده ، وابتسم ، وقال :

- وهذا ليس عطاء عطشانين .

قال على الزبيق :

- واذن .

ضحك الرجل وهو يقول :

- أنت الزبيق .. اليس كذلك .. ؟

قال على الزبيق :

- وانت تتعقبنى منذ خرجت من منزلى ..

عاد الرجل يضحك ، وهو يقول :

- لو كنت أريد بك شرا لأقدمت عليه من زمن .

لمعت عينا الزبيق وهو يقول :

- وانت الرجل الذى كان يصلى في مسجد السيدة زينب

أمامي .

قال الرجل :

- وصاحب المسك الذى هو عطر الجنة .

ابتسم الزبيق في هدوء وقال :

- فماذا تريد ؟

قال الرجل في هدوء شبيه بهدوء الزبيق :
- هناك من يريد ان يراك ، وأنا مكلف ان اقودك اليه . فماذا
قلت .. ؟

قال الزبيق :
- سر أمامي ، اتبعك اليه .
وضحك الرجل ، ومال بالقربة وهو يملأ الطاسة ويمدها الى
الزبيق قائلا :

- اشرب وصل على النبي ، ثم اتبعني ، وصل على النبي ..
وتوكل على الله .

ثم رفع عقيرته وهو يميل بقربته من جليد ، ويصيح :
- الماء يا عطشان .. اشرب ، وصل على النبي •
وتبعه الزبيق

أحمد الدنف والفتيان

كان على الزبيق يتبع السقاء فى سيره من شارع الى شارع ، ومن زقاق الى زقاق ، وهو يحاول ان يتذكر فى سيره كل المتعرجات والمنحنيات التى مرا بها ، ولكنه اعترف لنفسه انه قد تاه وسط مدينته ، وانه لم يعد يعرف اين هو فى القاهرة التى كان يظن ان لا احد يعرف اسرارها ، ومداخلها ومخارجها مثله .. ولكنه مع هذا لم يكن يحس بالقلق ، لانه لو اراد به هذا الرجل الذى يتبعه منذ خروجه من منزله شرا لناله به من زمن ، ولما احتاج الى ان يكشف عن نفسه له .. لم يكن الخوف اذن هو الذى يساور الزبيق ، وانما كان هو الفضول الذى استحوذ على عقله ونفسه حين رضى ان يبيع السقاء فى هذه الرحلة المجهولة عبر ازقة القاهرة وحواريها .. كان يحس انه على وشك الحصول على مفاتيح اسرار ظلت مغلقة عليه كل هذا الزمن .. ونظر الى ظهر السقاء المحنى تحت القربة ، ولاحظ انه يداوم على قرع الصنج بين الحين والحين ، كما انه يداوم على ترديد نداءاته على ما يحمل من ماء .. وبين الحين والحين كان يقف اثر اشارة من أحد العابرين ليملأ له الطاسة النحاسية بالماء فى ادب ، ويتقبل الدراهم التى تعطى له فى امتنان .. لن يشك احد فى انه سقاء حقيقى يمارس مهنته ، ولن يشك أحد فى انه يسير نحو هدف محدد يقود الزبيق اليه عبر شوارع وازقة القاهرة المزدهمة .. وابتسم لنفسه وهو يعجب كيف امكن لهذا الرجل ان يتحول من المصلى ذى الملامع الجامدة ، الى موزع المسك صاحب العينين المكحولتين ، ثم الى هذا السقاء الذى ينوء ظهره بحمل القربة الملائنة .. وبين كل تحول وآخر دقائق ، بل ربما لحظات لا تتسع لكل هذا التفحص الغريب والمقنن من شخصية الى أخرى ، وأحس بشيء من الانبهار والإعجاب يملأ نفسه ناحية هذا الرسول الغريب . وأفاق من تأملاته على صوت السقاء يردد نداءه ، وهو يضرب الصنج :

— الماء ، ياعطشان اشرب ، وصل على السى .

كان الرجل قد توقف امام باب حمام قديم ، وكان ينظر اليه نظرة ذات معنى ، وفهم انه يدعو الى الاقتراب منه ، فذهب اليه وهو يقول :

— اسقنى يا سقاء .

مال السقاء بكنفه يملأ الطاسة وقدمها الى على الزبيق ، وهو يقول :
- مرحبا يا شاب ، بالهناء والشفاء .

وبينما كان الزبيق يرفع الطاسة الى شفتيه ، همس السقاء :
- اترك البابين الاولين على اليسار وادخل فى الثالث ، وادخل
وكأنك تقصد المكان وتعرفه ، ولا تلتفت يمينا أو يسارا . .
وانهى الزبيق ما فى الطاسة من ماء ، فصاح السقاء ، وهو يتناول
الدرهم التى أعطاها له الزبيق فيقبلها ، ثم يرفعها الى جبهته ثلاث
مرات :

- بالهناء والشفاء يا شاب . . ماء للعطشانين ، اشرب وصل على
النبي .

وأدار له ظهره ، ومضى الى حال سبيله وهو يدق الصنج فى رتابة
ومهارة . . ولم يعرفه الزبيق التفاتا ، بل سار فى طريقه وكأنه يعرف
الى أين يقصد ، وكان الباب الاول على يساره لشربتلى ، وابتهج الزبيق
فهو يعرف هذا الدكان ، وهو شربتلى مشهور فى الكحكيين . اذن فهو
فى الكحكيين ، اما كيف جاء الى هنا دون أن يلاحظ طريقه فهذه وحدها
ثبتت مهارة دليله السقاء . . وتجاوز الزبيق الدكان ، وطالعت من
الباب الثانى روائح اليه وحبيبه يعرفها جيدا ، وعرف أنه أمام دكان
عطارة فلم يلتفت اليها ، وانما اتجه مباشرة الى الباب الثالث ، وكأنما
هو مقصده الذى يسعى اليه ، ولم يفاجأ حين وجد الباب الثالث ، باب
دكان أقمشة ، بل دخل وهو يلقي بالسلام فى ثقة ، واسرع اليه
رجل وقور وخط الشيب لحيته ، وارتسمت على وجهه ابتسامة
مرحبة وهو يقول :

- اهلا وسهلا يا بن المقدم حسن ، اتبعنى فطلبك فى داخل المحل .
ولم يدهش على الزبيق أن يخاطب باسم أبيه ، فقد كان يتسوق
شينا كهذا ، وسار وسط بالات الاقمشة المكونة الى جنبات المحل ، وهو
يزيح من طريقه أقمشة علقت لتتدلى معلنة عن نفسها ، بألوانها الصارخة
ونسيجها الهفهاف ، حتى وصل الى آخر الدكان ، فاذا أمامه ستار
ملون ، ازاحه الرجل الذى ينقدمه وهو يقول :

- تفضل فهم ينتظرونك .

وأمامه كانت تمتد قاعة معتمة بعد ضوء النهار الساطع فى الخارج .
كان اثاثها مقاعد ممتدة على الجانبين ، وفى الوسط مقعد طويل ، جلس
فى وسطه رجل كهل ملتج ، فى ثياب الفرسان والى جواره سيفه فى
قرابه . وأمامه « مداعة » طويلة ينبعث منها دخان كثيف وهو ممسك
مبسم من مباسمها يشده فى هدوء وتواصل ، وينبث الدخان من منخريه

ليغطي الدخان وجهه لحظات ثم ينقشع .. وأعتدل في مجلسه وقال :
- ادخل يا على فنحن في انتظارك منذ وقت طويل .
ولاحظ على الزيبق ان هناك رجلا آخر يجلس في مقعد الى اليمين
يمسك بمبسم آخر « للمداعة » ويمتص منه الدخان في صمت ..
فتردد لحظات ، ثم استجمع شجاعته ، ودخل الى وسط القاعة ، وهو
يقول :

- من أنت ؟ ولماذا استدعيتني ؟
ضحك الرجل الكهل الملتحي ، وأشار بيده الى مقعد على يساره ،
وهو يقول :

- اجلس أولا ، وستعرف كل شيء .
لم يتردد على الزيبق ، واتجه الى المقعد الذي أشار اليه الرجل
الكهل ، وجلس في هدوء ، وهو يقول :
- ما كل هذا الغموض ، ولماذا رسول يتعقبني ، ثم لماذا أنا هنا ؟
ضحك الكهل وهو ينفث الدخان من أنفه وفمه ، وقال وهو يعتدل
في جلسته :

- يعجبني هدوؤك ، وثبات جنانك .. سأخبرك بكل شيء فلا تقلق
والآن هل تحب المنقوع من زبيب وتين وبلح ، أو العصير من عنب
وبرتقال أو تحب القهوة ..
اعتدل الزيبق في جلسته ، وقال في هدوء :

- أنت تريدني ان أكون على سجيتي ، وهذا حسن - ولكني لا أحب
شيئا من كل هذا ، وانما أحب ان أعرفها ، فلا تطل قلقي ، وحدثنني
بما تريد .

قال الرجل الكهل ، وهو يترك مبسم المداعة ، ويتجه اليه بكليته :
- نحن نرصد تحركاتك كلها من زمن طويل ، وأن لنا ان نتواجه
ونتكاشف ..

قال على الزيبق :
- أنتم .. ؟ من أنتم ؟

قال الرجل الكهل في هدوء ، وهو يبتسم :
- نحن يابنى حماة هذه الدولة الاسلامية الذين يضحون من أجل
بقائها واستمرارها وأمنها بكل شيء .. هل أضاف اليك هذا شيئا ؟
اطرق الزيبق في حيرة ، وأخذ يحرك ساقيه في عصبية ، وقال :
- هذا كلام كبير ..

ضحك الكهل ، وتحرك الرجل الآخر في الجسائب المقابل ، وترك

مبسم المداعة ، وأنضم الى الرجل الكهل فى مجلسه .. وقال :
 - هذا كلام من يدركون معنى ما يقال لهم .
 ونظر الزبيق فى عيني الرجل الآخر ، كانتا صريحتين صافيتين ،
 وأرتسمت ابتسامة على الوجه أضاءته ، فأطرق وهو يقول :
 - احس اننى امام عالم مجهول لا أعرفه ، فزيدانى ايضاحا .
 ضحك الرجل الكهل ، وقال للرجل الآخر :
 - الم أقل لك ، هو مثل أبيه ، وقد آن الأوان ان يكون معنا .
 قال الرجل الكهل فى هدوء :
 - اسمى يابنى احمد الدنف ، الا يشير عندك هذا الاسم شيئا ..
 لمعت عينا على الزبيق ، ورفع رأسه وهو يقول فى اندفاع :
 - بل سمعت عنه الكثير ..
 ثم ازداد اندفاعا وهو يقول :
 - احمد الدنف اسم تعرفه مصر كلها ، انت كنت مقدم الدرك فى
 مصر ، وفى بغداد ..
 ضحك الرجل الكهل ، ومر على لحيته بيديه وقال :
 - لا تندفع يا على .. فوجودنا هنا سر لا يعرفه احد ، وما جئنا الا
 من اجلك .
 وصمت على واجما .. وعاد الرجل الكهل يقول :
 - انا الآن بالفعل مقدم درك بغداد ، والفضل فى هذا يرجع اليك .
 رفع على وجهه فى تساؤل وقال احمد الدنف :
 - لا تعجب ، استطاعت دليلة ان تقصينى عن مقدمة الدرك ، حتى
 هزمتها أنت هنا فى مصر ، فنحيت عن المقدمة ، وعدت انا مقدما لدرك
 بغداد ، ومستولا من جديد عن أمن الدولة الاسلامية كلها .. انت
 لا تعرف يا فتى أى خير فعلته حين جعلت منها أضحوكة هنا ، لقد فقد
 الخليفة فى بغداد ثقته بها ، فأقصاها ، وكان هذا أحسن ما يمكن ان
 يحدث ليومنا ولغدنا ايضا .
 هز الزبيق رأسه فى حيرة ، وقال :
 - لست أفهم .. ما هى علاقتى انا بكل هذا ..
 لأول مرة تدخل الرجل الآخر فى الحديث .. فقال :
 - يا على ، انت عندنا فى مكانة كبيرة فأنت ابن حسن رأس الغول ،
 وانت ايضا ابن فاطمة .. الفارسة المشهورة باسم احمد بن النبى .
 ولهما معا من الافعال ما يجعلهما قرة عين كل من يحب مصر ..
 ويسعى الى سعادتها وعزها .

واكمل احمد الدنف قائلا :

ومن هنا كانت رسالتك جزءا من رسالة ابيك حسن رأس الغول .
وحسن رأس الغول .

اكمل على الزيبق نلقائيا دون ان يحس

.. كان من رجالك ..

تنهد احمد الدنف .. وصمت .. بينما قال الرجل الآخر :

.. كلنا كنا من رجال الدنف ، وحين ذهب الى بغداد ذهبنا معه ،
ابوك وحده هو الذي أصر على البقاء في مصر ، وأغتاله صلاح الكلبى ،
والباقي انت تعرفه ..

صمت على الزيبق ، ومضى يتأمل فيما قيل له ، وأحس انه في
دوامة .. بينما قال الدنف ..

.. كلنا كنا أصدقاء ابيك ، وكان من مشايدى ، ولكن الموت حق ،
وهذا أمر قد انتهى .. وقتلنا اننا خسرنا مصر الى حين ، ولكن حين
بلغنا ما فعلته بمصر عرفنا انك ابن حسن رأس الغول - وعرفنا ان
لحظات الانحسار قد انتهت ، وانه آن الاوان أن نظاهرك ، وأن نقف
الى جوارك .

قال الرجل الآخر :

.. لقد طردت دليلة من مقدمة الدرك بفضلك ، وهذا انجاز لم تكن
تتصور أنه يحدث ، فقد خدعت دليلة كل الناس ، خدعت حتى الخليفة
نفسه ، ولم تكن نستطيع ان نقدم له دليل خبثها وضاعتها ، لانها لم
تكشف ابدا عن غدرها بنا وبالخلافة نفسها .

عاد احمد الدنف يقول :

.. وحين أقصيت دليلة عن مقدمة درك بغداد ، عرفنا أن الشاطر
الجديد الذى ظهر فى القاهرة ، واحد منا - وكان لابد أن نساندك ،
ونقف الى جوارك .

قال الرجل الثانى :

.. ولهذا جاء احمد الدنف ونحن معه الى القاهرة لنقدم لك كل
ما نستطيع من مساندة ومساعدة .

قال الزيبق فى هدوء :

.. ومن أنت ؟

ضحك الرجل الآخر ، ولم يجب ، بينما قال احمد الدنف :

- هذا يا علي ، شخاذاى أبو حطب ، وقد ارتفق اسمه باسم أبيك
في مقامرات عديدة لا تنساها مصر أبدا .
قال علي الزبيق في ذهول :
- شحاذاى أبو حطب ، لقد سمعت عنه الكثير .

اكمل احمد الدنف
- ومن كان على باب الدكان ، هو حسن شومان ، صديق أبيك
ورفيق سلاحه .

قال الزبيق في ذهول متعاطم :
- احمد الدنف وشحاذاى أبو حطب وحسن شومان - لا ينقصنى
الا عمر العيار .
قطع عليه كلامه .. دخول الرجل الذى كان على باب الدكان وهو
يقول :

- انا حسن شومان يا علي ، اما عمر .. فقد عرفته قبلنا كلنا .
قال احمد الدنف :
- الرجل الذى يصلى ، والرجل الذى يوزع المسك والعنبر ،
والسقا الذى يقودك من مكان الى مكان ، هذا هو عمر العيار .
كان علي الزبيق في ذهول مطلق ، يواجه هذه الاسماء التى عرفها
كاشباح من ماض حافل مجيد فى صمت وسكون ، ويفكر فى نفس
الوقت فى عمر العيار ، وما فعله معه حتى اوصله الى هذا المكان فيحس
فى قلبه رهبة وفى داخله اعجابا عميقا متزايدا ، وصمت .. وطلال
صمته ..

ضحك احمد الدنف وعاد يقول بصوته الجهورى القوى :
- ادهشك كل هذا ، ولكن لا تترك لدهشتك أن تنسيك ما أنت
فيه ، فليس فى كل ما عرفت ما ينجيك من خطر داهم منا ، أو من هم
أشر منا ، فمن يدرك ، أنحن نريد بك الخير أم نريد بك الشر ..
وجم علي الزبيق ، ولم يجب ، وهو يجيل بصره بين أصحاب هذه
الاسماء المخيفة التى ترتعد من ذكرها قلوب أشد الناس سطوة فى مصر ،
حتى صلاح الكلبى ، لو عرف ان هؤلاء الرجال فى مصر ، لاهتز رعبا
وفرقا - اما السلطان

.. قال علي الزبيق :
- هذا شرف لى كبير يامعلم احمد الدنف .
ضحك احمد الدنف ، وهو يقول :

– لقد سبقتنا الى هذا الشرف يا زيبق – فحين هزمت دليلة هنا في مصر ، نحاها الخليفة هناك في بغداد ، وكشف ضعفها وعجز حيلتها ، ومن ساعتها ونحن معك ، ومن ساعتها وهي عدوة عمرك .. قبل أن يجيب الزيبق ، دخل القاعة شاب امرد ، رشيق كالحرية ، هادي كنهر النيل ، ونظر الى الزيبق ، ثم نظر الى الجالسين حول المداعة وقال :

– هل جئت في وقت غير ملائم ؟
– ضحك احمد الدنف ، وأشار بيده وهو يقول :
– بل جئت في وقتك ، فآخونا الزيبق مفتون بك .
قال علي الزيبق :
– هذا عمر العيار ..
قال الدنف وهو يعود الى ضحكته :

– كيف عرفتة ؟
قال الزيبق :

– عرفتة ، حين جهلته ، هذا صاحب المائة وجه ، والمائة لغة ، والمائة مشية .

صحك الجميع المتعلقون حوله ، وقال أحمد الدنف :
– وهذا ما نريد أن نعلمك اياه يا فتى – ان تكون صاحب المائة وجه والمائة لغة والمائة مشية – بل والمائة شخصية .
وسط الضحكات احس الزيبق انه بين اصدقاء احبة ، فانطلق يضحك معهم من قلبه ، دون حذر أو وجل ، فوسط هؤلاء يحس مثله انه يعيش عالمه الذي خلق له ، ويحس انه امام عالم اخر عميق وجديد .

نعرف الحقائق .. ونتكلم فى همس ..

قال عمر العيار فى جدية ، وهو يريح جسده حول ثوبه :
 - آن الاوان لنكاشفه يا مقدم احمد بكل شيء ، فهو جدير بأن يكون
 منا ..

أدار الدنف عينيه فى الجالسين حوله ، ثم قال :
 - هذا ما يجب عليكم جميعا أن تقرروه ، أنحن معه الى النهاية ،
 ام نتركه لحاله ونمضى ؟

ضحك شحادي ابو حطب وقال :
 - ماجئنا من بغداد ، وقطعنا كل هذا الطريق لنتركه لحاله ونمضى
 وقال حسن شومان :

- لقد كنا رفاق أبيه ، وكان المقدم حسن رأس الغول واحدا منا ،
 بل كان هو الرجل الظاهر أمام الناس فى فرقتنا ..

قال على الزبيق فى دهشة :
 - ما كل هذه الالغاز والاحاجى .. منذ الصباح وأنا اخرج من
 سؤال لأدخل فى سؤال .. هل كان لمجموعتكم أو فرقتم .. أو
 ما شئتم أن تسموها ، ظاهر وباطن .

ضحك عمر العيار وقال :
 - لا لف ولا دوران ، وإنما سؤال فى الصميم ، أجبه يا مقدم
 احمد ، وأرحه وأرحنا ..

تنهد احمد الدنف ، واعتدل فى جلسته ، ثم قال :
 - بعد الذى فعلته بصلاح الكلبى وبدليلة من ملاعيب مبهرة ،
 أصبح من حقتك يا على أن تأخذ مكان أبيك بيننا ، وإن تعرف ما كان
 يعرفه عنا ، وإن تلقى معونتنا وتأييدنا ، وإن يكون لنا عليك ، ما كان
 منا على أبيك ..

قال على الزبيق
 - وماذا كان لكم عليه ..

قال احمد الدنف :

– الثقة الكاملة ، والاخلاص المتناهي .. وفي مقابلها لك ثقتنا
واخلاصنا ..

قال علي الزبيق في الحاح :

– في أى شيء ؟ ..

هنا قال عمر العيار ، وعيناه تلمعان ببريق الاعجاب :

– أحسنت توجيه السؤال يا فتى ..

واستأنف أحمد الدنف حديثه قائلاً ، وكأن أحدا لم يقاطعه :

– حين عادت دليله مهزومة على يدك عزلها الخليفة عن مقدمة

الدرك ، وأعاد تعييني فيه ، وقد كان هو منصبى القديم قبل ان تبهر

دليله بغداد كلها بملاعيبها الشيطانية ، حتى أراد الخليفة أن يمنع

أذاها عن الناس فأعطاهما هذا المنصب الرفيع ، ومن يومها وهى ما ان

تسمع بظهور أحد الشطار فى أى جزء من اجزاء الخلافة حتى تسرع

بالقضاء عليه ، حتى يظل لها الامر كله ، وتظل يدها مهيمنة على

الامور فى بغداد ، حتى حاولت معك أنت أيضا وفشلت ، وذاع أمر

فشلها ، وأقصاها الخليفة دون عناء ..

ابتسم علي الزبيق وهو يقول :

– لم أكن أظن الامر يصل الى هذا الحد ، بل ظننت ان مكانتها من

الخليفة فى بغداد ثابتة كما هى ، وقد افهمنى السلطان وصلاحي

الكلبى ، ان رسولا جاء من بغداد يعلن غضب الخليفة لاحتجاز ابنتها

زينب ، فأرسلتها اليها هذا الصباح معززة مكرمة ..

قال احمد الدنف :

– نعرف انك فعلت هذا ..

وقاطعه حسن شومان :

– وكان هذا اختبارا لقوتك وشهامتك يا علي .. ونحن لا نرحب

وسطنا الا بمن كانت هذه اخلاقه ، وهز الآخرون رأسيهما تأييدا لحديث

حسن شومان ، بينما استأنف أحمد الدنف كلامه قائلاً :

– ان الخليفة اقصى دليله عن مقدمة الدرك ، ولكنه ترك أمر

الحمام الزاجل ، فهى مقدمة بريده ، والمطلعة على اسراره كما كان

زوجها السابق ، ونحن نشك فى صدق ولائها للخليفة وللدولة

الاسلامية كلها .. وهنا يأتى السر الحقيقى فى مصرع أبيك ..

صاح علي الزبيق فى انفعال :

– سر مقتل أبى ، اخبرتنى امى ان صلاح الكلبى دس عليه جارية

قتلته حتى ينفرد بمقدمة درك مصر ..

قال احمد الدنف :

- هذه هي القصة التي يعرفها كل الناس ، ولكن الحقيقة أعمق من هذا بكثير .

ولم يتكلم على الزبيق ، وانما ظل ينظر واجما الى أحمد الدنف، الذي تنهد ، ثم قال في صوت خافت :

- نعم الحقيقة ان اباك اكتشف صلات مشبوهة بين دليلة وعملاء الفرنجة هنا في مصر ، وعرفت دليلة بالامر ، فاتفقت مع صلاح الكلبى على قتله حتى لا يفضح أمرها وأمره ، وكانت هي التي أرسلت اليه الجارية التي دسها على ابيك بعد أن مررتها ، وأعدتها لمثل ما أريد منها ، وكان موت الجارية مقدرًا منذ البدء حتى لا تتكلم .

قال على الزبيق في ذهول :

- دليلة تتصل بعملاء الفرنجة ، هي اذن .. اذن ..

قال شحادي أبو حطب :

- قلها ولو همسا ، فنحن نعرف هذا من زمن ، ونبقية بيننا همسا .

وقال حسن شومان :

- وآن لك ان تشاركنا الحقائق ، وأن تشاركنا الهمس ايضا ، فما

نعرفه لا نقوله الا بيننا .

وعاد احمد الدنف يقول :

- نحن نشك فيها من زمن طويل ، وكنا قد اكتشفنا - أو بمعنى

آخر - اكتشف عمر العيار انها تتصل بالامراء العجم الذين ولاهم الخليفة على ولاياتهم تحرضهم على الانفصال على الخلافة ، واعلان هذه الولايات الأعجمية الاصل مستقلة عن الخلافة .

قال على الزبيق في عجب :

- ولكن هذه الولايات ، ولايات مسلمة ؟

قال عمر العيار :

- ان حقد بعض الناس على انتشار الاسلام ، وسطوة دولته

ينسيهم دينهم وقوميتهم ..

وقال احمد الدنف :

- ان الفرنجة لا يخشون الا وحدة دولة الاسلام ، وهم يدفعون

الغالي والرخيص ليقعوا الفتنة بين أجزائها ، وهم يدسون رجالهم

بيننا ، ويستميلون ضعاف النفوس منا .. وهنا يأتي دورنا الحقيقي .

رفع على الزبيق رأسه في انتباه ، وقال :

– دوركم الحقيقي ؟

ضحك احمد الدنف وهو يقول :

– ودورك معنا منذ الآن يا فتى .. فنحن لنا عملان ، الاول يعرفه الجميع ، وهو المحافظة على الامن ، وحماية اموال الناس وأعراضهم من اللصوص وقطاع الطريق ، والمرتشين والعمال الفاسدين ، اما الثانى فلا يعرفه احد ، فهو المحافظة على سلامة البلاد من تأمر اعدائنا علينا ، واكتشاف الخونة ، وعملاء الفرنجة ، والجواسيس ، والايقاع بهم ..
ضحك عمر العيار ، وهو يعقب قائلا :

– وهذا أيضا كما قال شحادي أبو حطب ، نعرفه ، ونبقيه بيننا ..

قال على الزبيق وهو يطرق الى الارض :

– ولكن هذه مهمة ضخمة وثقيلة ..

قال حسن شومان :

– ونحن لا نختار لها الا من يستطيعون تحمل مخاطرها ..

وقال احمد الدنف :

– وسيظل دورك المعلن كما هو ، فانت شاطر من شطار مصر حصل على منديل الامان من السلطان ، وسيحتل مكان صلاح الكلبى مقدما لدورك مصر .

قال شحادي أبو حطب :

– بعد نجاحك فى الحصول على النفيلة باذن الله ..

هنا سأل على الزبيق :

– وما علاقة حصولى على النفيلة بكل هذه الاسرار التى ذكرتموها

امامى الآن .. ؟

قال احمد الدنف :

– صلاح الكلبى يريد هلاكك ، وما اظن فكرة صندوق التواجيه الا من وحي دليلة المحتالة ، ووحى مكرها وخبثها ، فهذا الصندوق سعى ملوك الافرنج الى الحصول عليه ، وأرسلوا امهر رجالهم فى طلبه ، ولكن اعيانهم ، فاما امسكهم رجال المدينة المرصودة وقضوا عليهم ، واما اهلكتهم السيوف المتحركة فى الجزيرة المعزولة ، وكذلك سعى امراء المعجم اليه ، وأرسلوا خيرة رجالهم فى طلبه .. والكل فشل ..

قال على الزبيق وقد قطب ما بين حاجبيه :

– أهو معجز الى هذا الحد .. ؟

قال عمر العيار :

- واكثر من هذا الحسد ، والا لذهب احسدنا في طلبه من زمن ،
ولكننا نعرف أننا لسنا من رجاله .

ضحك على الزبيق في حيرة ، وقال :

- وانا أصفركم سنا ، وأقلكم شأننا من رجاله ؟

قال احمد الدنف في توده :

- نحن قوم مؤمنون يا على ، ولم يكلف احد منا من قبل باحضار
هذا الصندوق ، ولكن حين كلفت انت به ، نحس انه اختيار العناية ،
فسلك شئ سبب ، وكل امر له من يقضيه ، ونحن نحس ان الله
سيوفقك حيث فشل غيرك .. فصندوق التواجية ذخيرة مهمة لابد ان
تكون في حوزة خليفة المسلمين ، لانه عن طريقه يستطلع شئون الدنيا
حوله ، ومثل هذه الذخائر تكون دائما في خدمة اصحاب الايمان ومن
يرفعون لواء دين الله في أرضه ، وليست بحال من الاحوال ، ولن تكون
في خدمة أعداء دين الله ..

وأطرق على الزبيق الى الارض وقلبه يهتز أنفعالا وحمية ، ثم قال :

- سأعود بصندوق التواجية ولو كلفني هذا حياتي .

قال احمد الدنف :

- ونحن نريد ان نتأكد من قدرتك على هذا الامر ، ولذلك فقد
استأذنت الشيخ زكى البتوكى أن يضع ما عنده من ذخائر وأدوات تحت
تصرفك وان يعلمك كيف تستعملها ..

قال على الزبيق في سخرية :

- هل سنستعين بالسحر والرقى والتعاويذ ؟

قال احمد الدنف :

- هذه أدوات القاعدين العاجزين الكسالى الذين لا يريدون أن
يسستعملوا ما خلق الله فيهم من عقل ، وما أمدهم به من قوة على
الاستنباط والمعرفة - لا يا على - الشيخ زكى البتوكى هو آخر سلالة
خدم وتلاميذ الحكيم اخميم الطالب . الذى كان ابرع اهل زمانه في
الطب والفلك والهندسة وعلوم طبائع الاشياء وعلوم الكيمياء والسمياء ،
وغيرها من علوم الانسان التى سخر بها الاشياء لخدمته .

قال على الزبيق :

- نسمع عن هذه العلوم فى الكتب القديمة ، ولكننا لا نرى منها

شيئا اليوم .

ضحك احمد الدنف فى مراودة ، وقال :

– بل هناك منها الكثير في بغداد مركز الخلافة يابني ، والا فكيف تمتد رقعة البلاد ، وكيف نتفوق على أعدائنا في الحرب وفي الحضارة أيضا .

قال علي في عناد :

– ولكننا هنا .

قاطعه أحمد الدنف قائلا :

– هنا وفي كل أطراف البلاد الاسلامية علماء يعملون في صمت وجدية ، ونتائج علومهم ومعارفهم تصب في قلب البلاد . ومن هؤلاء هنا الشيخ زكي البتوكي ، والليلة موعدا معا ..

عاد علي يجادل :

– ولكن لماذا الصمت والسرية ؟

قال عمر العيار :

– لأن المكائد من الفرنجة تتربص بنا ، فهم لا يريدون أرضنا وثرواتنا فحسب ، وانما هم يريدون عقولنا وثمرات هذه العقول ، واليوم الذي نغفل فيه عن حراسة ما عندنا منهم ، يكتب لهم كسب السبق الاكيد ..

وعاد احمد الدنف يقول :

– ونحن موكلون بحفظهم ورعايتهم ، وحراسة نتائج أعمالهم .. ولكننا ايضا مفوضون ان نستعمل ما ينفعنا في عملنا من نتائج أبحاثهم ، ولهذا سننجه الليلة الى الشيخ زكي البتوكي لنضعك في رعايته بعد أن نفهمه بحقيقة مهمتك ..

قال الزبيبي محتجا :

– ولكني كنت أريد الارتحال غدا .

ضحك حسن شومان وقال :

– ليس قبل سبعة أيام يا علي – فلدني كل منا ما يريد أن يلقيه لك .

وخاصة عمر العيار .

انفجرت أسارير علي الزبيبي ، وهو يقول :

– اهو معسكر تدريب اذن ..

ضحك احمد الدنف وهو يقول :

– سمع هكذا ان شئت ، والان أصغ الى جيدا – بعد صلاة العشاء

الليلة ، تسلل من منزلك متخفيا واقصد الى حمام سالم عند درب سالم في أول القرافة . ولن تتوه عنه فهو حمام جناده بن عبس المعافري

الذى عند مصبغة الحفارين المعروفة بفسقية ابن طولون . هو على يسارك وأنت متوجه الى القرافة ، بالقرب من قبر القاضى بكار ..
قال على الزبيق :

— اعرف المكان وسأكون هناك بعد صلاة العشاء ..

ضحك احمد الدنف وقال :

— وافهم عنا يا على .. نحن نعرف الحقائق ولكننا نتكلم همسا .

قال على :

— السر عندى فى بير .

قال احمد الدنف :

— هناك استثناء واحد يا على .. امك السيدة فاطمة ان أردت ان

تخبرها بشئ فأخبرها بما تريد فمثلها يؤتمن على كل الأسرار ..

قال عمر العيار وهو يضحك :

— وهى منا وان كانت لا تدرى ، فكم خاضت من معارك الى جوار

ابيك حسن رأس الغول ..

وفى صمت صافح على الزبيق احمد الدنف والمتحلقون حوله ، ثم

غادر الدكان وهو يحمل حملا من الاقمشة ليوهم من يراه انه كان

يشترى وينتقى داخل الدكان ..

كان على الزبيق يتناول طعامه فى وجوم وبطء ، وكانت أمه فاطمة

تجلس امامه ترقبه فى حنان ، وقد فهمت وجومه وصمته على غير

حقيقته ، فقالت وهى تدفع امامه بصحن مليء باللحم :

— احزنك فراق زينب يا على ..

رفع على رأسه عن صحاف الطعام امامه ، وقال :

— قلبك الحنون يسبق قلبى الى احزانه يا أم ، ولكنها ليست زينب

التي تشغلنى الآن فهى فى أمان فى حماية سالم ، وانما ما بقلبي هم

يشغل عقلى ..

نظرت فاطمة اليه فى اهتمام ، وهى تقطب ما بين حاجبيها ،

وقالت :

— هموم القلب فهمناها ، أما هموم العقل فيحيرنا أمرها ..

قال على ، وهو يحمد لأمه انها لا تخرجه بسؤال مباشر :

— لقد أذنوا لي ان أحدثك بالامر ..

اقتربت فاطمة منه وهى تقول :

— اذنوا لك ؟ من هم ؟ • لقد خرجت لتصلي ويهدأ بالك ، فماذا حدث لك ..

قال علي :

— صليت يا أم كما لم أصل من قبل ، وهدأ بالي واستقرت نفسي ولكنني بعد الصلاة قابلتهم ، وعرفت الحقائق التي لا يتحدث من يعرفونها عنها الا همسا ..

اجفلت فاطمة ، ونظرت الى ابنها في حدة ، وقالت :

— الحقائق التي تعرفها ، ولا تتحدث عنها الا همسا .. هذه عبارة غامضة من عبارات أبيك حسن رأس الغول ، وهي من الاشياء القليلة في حياتنا التي رفض ان يشرحها لي •

ضحك علي الزيق وقال :

— آن الاوان أن يشرحها لك ابنه ، ولكن همسا ..

ورفع يده عن الطعام وقال :

— سأكفي لك ..

صاحت فاطمة في احتجاج :

— وطعامك يا علي ؟

قال علي :

— ينتظر الحكاية ، فهي تضجر صدري ، ولا بد أن تعرفي كل شيء • ومضى يحكي في صوت خافت ، ومضت تسمع حديثه ، ووجهها يشحب كلما مضى في حكايته ، وقاطعته مرة قائلة :

— هذه فعلا أفعال عمر العيار ..

ولكن عندما وصل الى لقائه بإحمد الدنف ومن معه ، قالت في أنفعال :

— المقدم الدنف ورجاله هنا في القاهرة وأنا لا أعرف ، لا هذا كثير ، ما كانوا ينزلون القاهرة الا ويكون بيتي هو بيتهم ..

ذكرها علي الزيق قائلا :

— كان هذا أيام كان ابي مقدم درك مصر ، أما الآن فهم يتخفون من جواسيس صلاح الكلبى ، وعملاء الفرنجة ..

دقت فاطمة على صدرها وهي تقول :

— عملاء الفرنجة ، هنا في مصر .. ما هذا يا علي ..

قال علي الزيق وهو يبتسم :

— اذن اسمعى ..

ومضى يحكى لها كل ما سمعه فى الجلسة الغريبة التى عاش فيها
كالحلم المذهول ، ومضت تسمع له فى اصغاء شديد ، وازداد شحوب
وجهها عندما ذكر لها ما عرفه عن مصرع ابيه ، وهمست وكأنما لنفسها :
- اذن فهذا هو السر ، رحمه الله المقدم حسن رأس الغول ، اقرأ
له الفاتحة يا بنى ..

ومدت كفيها تقرأ الفاتحة ، وحذا على ، حذوها ، فلما انتهت منها
مسحت بكفها على وجهها ، وقالت وقد تندت عيناها بالدموع :
- ما كنت أعرف كل هذا .. ولكن حيااته كانت مليئة ومفيدة ،
ومثله لا تموت ذكراه أبدا .. ومضى على يكمل حكايته وفاطمة تنصت ،
فلما انتهى من كلامه قالت :

- كان الشيخ زكى البتوكى صديقا لجدك القاضى نور الدين ، ولكن
كان لكل منهما طريقه ، فقد كان جدك غارقا فى التسابيح والاوراد ، اما
الشيخ زكى فهو غارق فى التجارب والابحاث ، وكل منهما يعرف
طريقه الى الله بوسيلته .. فالذكر عبادة والعلم عبادة ..
قال على :

- انا مشوق الى لقائه ، فأنا لم ألق مثله حتى الآن ..
قالت فاطمة :

- أكمل طعامك ، ثم قم فتم ، وحين صلاة العشاء أوقفك ، لتصلى
وتذهب اليه مخفورا بعناية الله .
عاد على الى طعامه وهو يقول :

- كلماتك ذكرتني كم أنا متعب .. نعم ، سأكل وأنام .. فأنا
محتاج الى راحة طويلة من عناء هذا اليوم الطويل ..

الشيخ زكى البتوكى

كانت قاعة الزعر مليئة بالاضطراب والقلق ، الكل يجسرى هنا وهناك ، والكل يهرول فى أرجاء القاعة دون هدف واضح ، وقد امتلات قلوب الجميع بالهلع لفضبة المقدم صلاح الكلبى ، الذى كان يقف وسط القاعة وهو يلوح بيديه فى حلق ، ويصيح :

— كيف تسرق مجموعة رسائل الخاصة من وسط القاعة وهى مليئة بكم ، دون أن يحس أحد ، ان من دخل القاعة وسرق الرسائل كان من الممكن ان يقتلكم جميعا ، ويقتلنى انا ايضا دون ان يعترضه أحد ..

قال احد المقدمين :

— لعله الزيبق ..

لوح المقدم صلاح الكلبى بيده فى ضجر ، وهو يقول :

— الزيبق ، الزيبق ، لا .. كان هذا قبل أن يأخذ منديل الامان ،

وينشغل بأمر النفيلة ، من دخل القاعة وسرق الرسائل ليس الزيبق .
وانما هو لا يقل مهارة عنه ، ولا بد من كشفه .

وهنا دخل المقدم عثمان القاعة ، وهو ينظر الى الفوضى التى ضربت اطنابها بها فى ذهول ، فأشار اليه المقدم صلاح الكلبى ليقترب منه ، وعندما فعل ، قال له همسا :

— هل أبلغتهما الرسالة ؟

قال المقدم عثمان همسا :

— تعنى حسن بن الحصرى وعلى بن البيطار ، لقد أبلغتهما الرسالة .

صاح المقدم صلاح الكلبى فى حلق :

— ألم أقل لك لا تنطق باسمهما ابدا .

قال المقدم عثمان همسا :

— لاذنك فقط كان حديثى ، ولم يسمعه أحد .. وهما فى الطريق

الى تنفيذ ما تريد ، عسى ان لا يكون الزيبق قد سبقهما ..

ضحك المقدم صلاح الكلبى وهو يقتل شاربه ويقول :

— هو مازال فى القاهرة ، وسأعرف أخباره من المقدم عباس
الاشول الذى يلزمه منذ الصباح كظله ..

تنهد المقدم عثمان ، وهز كتفيه ، وهو يقول :

— هما اذن سيسوقانه الى بئر النجاة كما قلت لهم؟ ..

قال المقدم صلاح الكلبى وفى صوته نبرة تشفى واضحة :

— وهناك ستكون نهاية الزبيق ، ولن يعبر الصحراء أبدا .

ثم نظر فجأة فى حدة الى المقدم عثمان وهو يقول :

— هل تعرف شيئا عن سرقة الرسائل من القاعة ؟

فتح المقدم عثمان فاه فى ذهول وهو يدير رأسه فى القاعة
المضطربة ، وقال :

— اذن فهذا هو السر فى كل هذه الفوضى .. أيبحثون عن الرسائل

صاح المقدم صلاح الكلبى فى غضب :

— لا ، الرسائل فقدت من هنا تماما ، رغم أننى أخفيها حيث

لا يهتدى اليها أحد ، فما فيها خطير للغاية لا على وحدى ، وإنما على

اناس كثيرين ، ولو وقعت فى يد الخليفة لطارت أعناق .

قال عثمان فى اصرار :

— ولكن عن أى شىء يبحثون اذن ؟

قال المقدم صلاح الكلبى فى صبر نافذ :

— عن أى اثر يكون اللص قد تركه وراءه ..

ضحك المقدم عثمان وهو يقول :

— اثر .. ؟ هل سرق اللص شيئا غير الرسائل ..

حذق فيه المقدم صلاح الكلبى ، ثم قال :

— لا ، لم يسرق شيئا من القاعة سوى هذه الرسائل ..

اكمل المقدم عثمان حديثه قائلا :

— ومن مخبئها السرى الذى لا يعرفه احد سواك يا مقدم .. مثل

هذا اللص لا يترك وراءه أى اثر .. ومهما أجهدتهم فى البحث فلا

فائدة ، فهم يتخبطون بلا جدوى ..

همس المقدم صلاح الكلبى من بين أسنانه :

— صدقت ..

ثم راح يصيح فى الرجال صارفا اياهم عن البحث لينذهب كل منهم

الى ما كلف به من عمل ، بينما قال المقدم عثمان :

— وربما لم تترك الرسائل هنا يا مقدم صلاح ، ربما كانت فى

مكان آخر ..

نظر صلاح الكلبى اليه فى حدة ، وقال :
 - ماذا تعنى يا عثمان ؟
 قال عثمان محاذرا وهو يهمس فى أذن مقدمه :
 - أعنى ، ربما تركت الرسائل فى بير جوان ..
 صرخ المقدم صلاح الكلبى محنقا ، وقال :
 - قلت لك ألف مرة ، لاتذكر هذا المكان .
 قال عثمان وهو يخافت من صوته :
 - فقط أذكرك ، ربما تركت هذه الرسائل هناك ، فى الطابق
 المستور .. اعنى ..
 صاح المقدم صلاح الكلبى :
 - كفى يا عثمان ، فحولنا أذن لا نعرف اين ولاها .
 قال عثمان :
 - قبل أن نقيم الدنيا ونقعدها ، نتوجه الى بير جوان ، عسى ان
 نجد الرسائل هناك ..
 تلفت المقدم صلاح الكلبى حوله فى حذر ، وهو يجوس بعينه فى
 القاعة ، وقال :
 - ربما عندك حق .. ولو انى لا اترك هناك الا رسائل معينة ،
 ليس منها هذه الرسائل .. ولكن من يدري .. هيا بنا .
 وقبل أن يتحرك المقدم صلاح الكلبى من وسط القاعة ، اقتحمها
 المقدم عباس الاشول وهو يجيل عينيه فى أرجاء القاعة الى ان استقرتا
 على المقدم صلاح الكلبى ، فاتجه اليه ..
 وقال المقدم صلاح الكلبى :
 - الآن ستعرف أخبار صاحبك الزيبق .
 ثم وجه سؤاله الى المقدم عباس الاشول قائلا :
 - هل سافر ؟
 كان منظر المقدم عباس الاشول مثيرا للشفقة ، كانت ملابسه
 متربة ، وكان وجهه مربدا ، وقد انعقدت على جبهته آثار اتربة سمالت
 مع العرق ، ثم جف العرق وتركها بقعا سوداء داكنة هناك ، وحين
 تكلم كان صوته يشف عن ارهاق وتعب .. وقال :
 - انه فى بيته ينام الآن كالحمل الوديع ..
 ثم عض على ناخذه ، وقال فى حنق :
 - لقد لف بى القاهرة كلها أكثر من مرة ، وكأنه يودع كل

شوارعها وحاراتها ، وكأنه يريد أن يتأكد من مكان كل خان وحمام وشربتي ودكان في مصر كلها ..

قال المقدم صلاح الكلبى ، وهو يتأمل في امعان :
- لنبدأ من البداية ..

قال عباس الاشول ، وهو يشرح بيده في ضجر :
- ليست هناك بداية ، ولا نهاية ، الا اذا اعتبرت خروجه من بيته بداية ، وعودته اليه نهاية ..

استمر المقدم صلاح الكلبى يسأله في امعان :
- ولكن ، لابد ان هناك شيئاً ما وراء هذه الجولة .. اخبرني ماذا فعل ؟

ازداد ضجر عباس الاشول وضوحاً في نبرات صوته ، وهو يقول :
- خرج قاصداً مسجد السيدة زينب ليصلي ، وهذا أمر مفهوم ، وبعد هذا أخذ يضرب على غير هدى في أنحاء المدينة ، مرة يدخل دكان شربتي ، ثم يخرج ليشرب من سقاء ماء عابر ، ثم يجوس في المدينة من مكان الى مكان ، ولم يقف آخر الجولة الا عند دكان أقمشة ، وقف يتأمل ما في واجهة المحل من معروضات ، ثم دخل ليبدأ جولته في استعراض ما فوق الارقف ، وما هو معلق في أنحاء الدكان ، ثم صاحبه صاحب الدكان الى داخل المحل وكأنما لم يعجبه من المعروض شيء ، وغاب حتى خلت انه لن يخرج ابداً ، ثم عاد محملاً بالاقمشة ، ليتجه الى بيته مباشرة .. هذا كل ما هناك ..

اطرق المقدم صلاح الكلبى مفكراً ، ثم رفع رأسه وهو يعيث في شاربته ، وقال :

- لو كان يريد شراء الاقمشة لقصداً الى المحل بعد أن انتهى من الصلاة .. لا هذا الدكان له سر .. اتعرف مكانه يا عباس .. ؟
قال عباس الاشول :

- لا سر هناك ، فالدكان في مكانه منذ كانت الكحكيين في مكانها ، ولا احسبه الا ضجر من كثرة التجوال ، واستراح في ظل المحل من الشمس ..

قال المقدم عثمان :

- مثل الزيبق لا يسير على غير هدى ابداً ، ولا أظن الا انه كان يحاول بتجواله ان يخدع من يتعقبه .

وقال صلاح الكلبى :

- اذهب يا عباس وتحقق من الدكان ، من صاحبه ، وماذا يبيع ،

وماذا هناك فى غرفته الداخلية • فلمن يشتري الزيبق الاقمشة ، وقد
اشترت امه امس نصف المعروض فى السوق هدايا لزيبب • • لا • •
هذا امر كلما طال فيه التفكير زاد فيه الشك •
قال المقدم عباس الاشول فى حيرة :
- لم يخطر كئى هذا ببالى يا مقدم •
ضحك المقدم صلاح الكلبى ، وهو يقول :
- ومنذ متى وانتم تعرفون التفكير • • اذهب وافعل ما امرتك به
وتركه ينصرف ، وهو يدير ظهره له ، ويقول للمقدم عثمان :
- هيا بنا يا عثمان الى الجمالية لنتحقق من فكرتك • • فربما
بالفعل اكون قد تركت الرسائل هناك •
ضحك المقدم عثمان وهو يقول :
- هيا بنا الى بير جوان



كان على الزيبق يتقدم فى الطريق المظلم فى حذر ، ما أن يسير عدة
خطوات حتى يرتكن الى حائط ويمكث مكانه بجزء من الظلام المحيط به ،
ينظر الى الطريق خلفه فى امان ليتأكد ان احدا لم يتبعه فى هذه
الرحلة الليلية الغامضة • ولم يكن يخشى على نفسه ، وانما كان يخشى
ان يكشف سر هؤلاء الاصدقاء الذين وثقوا فيه ، وباحوا له بسرهم ،
وتقدموا وحدهم لمساعدته وحمايته • •

ومضى فى طريقه دون وجل فهو يعرف هذه الاماكن جيدا ، كم
قصد اليها عندما كان يهرب من معلمه الضريع المضجر فى الازهر ، وكم
كان يحب ان يتصور نفسه يقاتل العفاريت والجان الذين كان الناس
يقولون انها تسكن المقابر ، وخاصة هذه المقابر بالذات ، وعلى الاخص
فسقية ابن طولون ، وقبر القاضى بكار • • كبر الآن وعرف ان العفاريت
هى رجال صلاح الكلبى ، وان الجان هو صلاح الكلبى وامثاله ممن
يركبون الناس بالعنت والظلم ، يسرقون وينهبون ، ويزدادون ثراء
ومالا وسطوة • • ومر الى جوار مبنى متهدم لحوش قديم ، فدلف الى
جوار حائطه ووقف ساكنا يرقب الطريق خلفه وقد غدا جزءا لا يتجزأ
من الحائط الذى التصق به • • وتنهد ، فهو واثق ان احدا لم يتبعه ،
لان احدا لا يعرف انه خرج من مسكنه ، لقد حمل جرابه القديم وفيه كل
حاجاته ، وتسلق « سلم التساليك » الى سطح الدار ، ثم قفز الى سطح
الدار المجاورة ، ومنها قفز الى زقاق جانبي ، ثم خرج الى طريق آخر غير
الطريق الذى يقع فيه باب داره ، ومع هذا فالحذر واجب مع واحد

كصلاح الكلبى ، والحذر واجب لحماية واحد كاحمد الدنف .. وعاد
يذكر وجه احمد الدنف الجاد الصارم ، كانه قطعة من صخر لا تظهر
عليها الانفعالات ، يخرج كلامه من فمه هادئا ، ولكنه كلام لا عاطفة فيه ،
كم رأى هذا الرجل من مآسى واحداث .. وتوالت امامه الوجوه التى
عرفها لأول مرة هذا النهار ، وجه حسن شسومان الذكى الماكر ، ووجه
شحادى ابو حطب الهادى الوقور ، ووجه عمر العيار الضاحك العايب
الذى يسخر من كل شىء ، ولا يبالي بشىء . وابتسم لنفسه فى الظلام ،
الآن غدا واحدا منهم ، منذ هذا النهار وهو من مشايد احمد الدنف ،
ياخذ مكان أبيه ، ويخرج الى دنيا الرجال . وكأنه استمرار لرسالة
أبيه ، واكمال لدوره .. وافاق من تأملاته على صوت وقع أقدام تقترب
من مكانه .. هل كان هناك آخر الامر من يتعقبه بعد كل ما أخذ من
اطلقت ، وهز على كتفيه ، وظل يرقب القادم فى قلق .. لم يكن فى
أعمد خشى أن يفتضح أمره ، أو ان يعرفه أحد ، فقبل أن يغادر الدار
تنكر على هيئة قارىء عجوز يحمل خرجه على ظهره المقوس ، وتهتز لحيته
الشيباء مع حركة رأسه .. ومن الذى يشك فى قارىء عجوز داخل
المقابر ، لعله يقيم فى أحد حيشانها المهجورة ، ولعله عائد من القراءة على
قبر ميت حديث الموت ، عجل أهله بدفنه اكراما له .. وازداد وقع
الأقدام اقترابا .. وتلفت الزبيق حوله من جديد ، كان قريبا جدا من
درب سالم ، واستطاع ان يلمح وسط الظلام شبح مبنى حمام المعافى
على اول درب سالم .. هو اذن قد أوشك ان يصل ، فكيف سمح لأحد
أن يتعقبه حتى باب بغيته .. وفكر ان يتراجع ويختفى حتى يمر هذا
القادم صاحب الخطوات الواثقة ، وفكر ان يظل فى مكانه مختفيا عن
عينيه ، ولكنه كان يعرف أن من ينظر نحوه من قرب سيكتشف وجوده ،
فقد بدأت النجمات المتألثة فى السماء تسمح بضوء مغبش يميز الناظر
فيه الاشباح والاشياء .. وقبل ان يحسم رأيه توقفت الخطوات امامه ،
وجاء صوت هادى من الظلام ، يقول له :

— اتعرف الطريق يامولانا الى حمام سالم ؟

وكاد قلب على الزبيق يتوقف عن نبضاته ، وعقدت المفاجأة لسانه

فصمت ، بينما استمر الصوت الهادى يقول :

— لقد ضللت طريقى فى الظلام ، ووسط هذه الحيشان المتشابهة،

ولست أجد أحدا يدلنى على حمام سالم ، قالوا لى انه فى اول درب

سالم ، فى أوائل القسرافة ، وأنا قد سرت فى هذه القرافة حتى تعبت

أقدامى ولست أظن الا اننى قد تهت ..

تقدم على الزبيق نحوه متسجعا ، وهو يحنى ظهره ويقوسه تحت عبء خرجه ، وقال فى صوت عجوز مشروخ صدى :
- بل أنت يا حاج فى الطريق الصحيح ، ليس امامك الا عدة

خطوات ونصل الى درب سالم ..
عاد الصوت الهادى يقول :
- جزاك الله خيرا يامولانا .. هل اطمع فى كرمك فتسير معى

اليه ، فانا غريب عن هذه السواحى .. شك على الزبيق فى نبرة سخرية خفية فى كلام الرجل ، كما احس ان الصوت ليس غريبا عنه ، ولكنه لم يكن متأكدا من شىء ، فهز كتفيه فى استسلام ، وهو يتقدم نحو الرجل ويقول :
- حبا وكرامة يا حاج .. سر معى وسنصل اليه باذن الله ..

ومد على الزبيق يده يتحسس مقبض سيفه قطاع المجادل الذى اخفاه تحت الجبة والقفطان ، بينما قال الرجل وهو يستأنف سيره فى محاذاة على :
- من يسمع صوتك يامولانا يظنك خائفا ، فم تخاف وانت رجل قارىء عجوز فقير ، أم انت تحمل ذهابا أو شبيها ثمينا فى هذا الخرج الذى يشغل ظهرك ..

ضحك على الزبيق ضحكة واهنة ، ثم اخذ يسعل كأنما اثقلت السنون صدره ، وقال :
- انما هى زحمة يوزعه الناس رحمة على امواتهم ، وخبز وفاكهة جمعتها اليوم فى تجوالى بين القبور أقرأ سورة هنا وسورة هناك ، ويجود على الناس بما عندهم ..
ثم أردف بعد صمت قصير :

- ان كنت جائعا افتح الخرج واقاسمك ما فيه من زاد ..
وكانت قبضته قد اشتدت على مقبض سيفه ، بل لقد جذبه من غمده عدة بوصات ، حين سمع ضحكة الرجل الهادئة ، ثم جاءت كلماته حافلة بالسخرية الواضحة ، وهو يقول :
- لست جائعا ، ولست فضوليا ، ولكنى احسبك خائفا ، فأحببت ان أعرف م تخاف ..

تظاهر على الزبيق بالخوف ، فنظر حوله فى تردد ، وهو يقيس المسافة بينه وبين الرجل ، وقال فى صوت ملاء بالارتعاد والرعشة :
- العمر قال يا حاج ، وأولاد الحرام لم يتركوا لأولاد المحلال شيئا ..

ثم التفت الى مدخل الزقاق ، وأشار بيده الاخرى قائلا :
- هذا هو زقاق سالم ، وأمامك مباشرة باب الحمام ..

وكان قد تاهب تماما لاي حركة غدر من الرجل .. كان يستطيع ان يجذب الحسام ، وأن يتقدم خطوتين اثنتين ، ليشق رأسه بضربة واحدة .. فقد كان واثقا ان الرجل يسخر منه ، وأنه يلعب معه لعبة لا يدركها ، وان كان واثقا ايضا انه ليس من رجال صلاح الكلبى ، والا لهاجمه قبل هذا بفترة ، ودون ان يتركه حتى يأخذ حذره ويتأهب لملاقاته .. وعادت ضحكة الرجل الهادئة تشق الصمت ، وعاد يقول :
- بل تقدمنى انت ، الست على موعد هناك ؟

صاح على الزبيق فى غضب ، وهو يسحب سيفه من قرابه حتى منتصفه ، ويتأهب للوثوب :

- من أنت ؟ .. وماذا تريد ؟ .. وماذا تعرف عن موعدى هنا ؟ ..
ضحك الرجل ضحكته الهادئة ، وهو يقول :

- اسئلة .. اسئلة .. نسيت يا على لهجة القارىء العجوز المتهالك .. حذار من هذا الغضب فهو ينسبك مارسمته لنفسك من دور ثم مد يده فأزاح اللحية المستعارة من فوق وجهه ، فاذا هو أمام وجه عمر العيار الأمرد ، أمام عينيه الضاحكتين فى عبث وسخرية .. وتمالك على الزبيق نفسه بصعوبة ، وهو يعيد السيف الى قرابه ، ويتنهد قائلا :

- لقد خدعتنى يامقدم عمر .. ولولا كلامك الآن لكان سيفى فى يدي ..

ضحك عمر العيار ، واقترب من على الزبيق مربتا على كتفه وهو يقول :

- لقد لاحظت حركة يدك تحت الجبة وعرفت انك تحتفظ بسيفك للطوارئ ، واعجبني هذا منك .. هيا فالقوم فى انتظارك ..
قال على الزبيق :

- ولكن .. هل كنت فى انتظارى ؟

تأبط عمر العيار ذراع على الزبيق ، وهو يتجه به الى باب الحمام قائلا :

- بل كنت أتبعك منذ قفزت فى الحارة الجانبية ، فقد قدرت انك لن تخرج من الباب الامامى للمنزل ، ولا اكتمك لقد خدعتنى تنكرك اول الامر ، ولكنى سرعان ما تحققت منك وانت تمر فى النور المنبعث من حانوت الطباخ على ناصية الميدان .

وضحك وهو يقول مهونا :

— كنت أريد أن أتأكد أن أحدا لن يتبعك كما حدث في الصباح .

وقف على الزيتيق مجفلا وهو يقول :

— وهل كنت متبوعا في الصباح من غيرك ؟ لقد أحسست بك ،

ولكني لم ألحظ غيرك ..

ضحك عمر العيار وهو يقول :

— كان بالك مشغولا بأشياء كثيرة فلم تلحظ عباس الاشسول ،

وكنت أنا مشغولا بك فلم ألحظه أيضا ، ولكني تأكدت الآن ، تعال

سأحكى لهم ولك في وقت واحد حتى لا أكرر نفسي ..

وضحك عمر العيار وهو يدلف من باب الحمام وإلى جواره على

الزيتيق الذي أدهشه ما سمع من كلام ، ولكنه تحكم في فضوله ، ومضى

إلى جوار عمر إلى داخل الحمام الذي طالعه ببخاره العبق وأضاءته

الخافتة ، والبخار الذي يتسرب من المغطس تخفيه عنهما ستارة مبتلة

قد حال لونها ، وقال لهما الحمامي ، وهو لا يكاد ينظر إليهما :

— من هنا يا أفاضل ، اخلعا ملابسكما في هذه الدورة وهذه هي

البشاكير والمناشف والصابون .

وأزاح الستار يدخلهما إلى جو الحمام الحار المفيض بالبخار . وما أن

نزلت وراءهما الستارة المبتلة ، حتى أمسك عمر العيار بيد على الزيتيق

قائلا :

— اتبعني واسرع ..

ثم تجاوز المغطس منحرفا إلى اليمين ، حيث فتح بابا خشبيا

صغيرا ودلف منه ، وتبعه على ليجد نفسه في ممر طويل معتم تضيئه

شعلة ذابلة ثبتت إلى جانب الحائط يسبق دخانها نورها ، وسار عمر

العيار إلى نهاية الممر ووراء الزيتيق في صمت ، وفتح باب آخر فإذا هما

في حجرة واسعة مضاءة بعدة مصابيح وهناك كان حسن شومان يقف

منتصبا ويده على مقبض سيفه ، ولكنه عندما رآهما قال :

— تأخرتما .. هيا فالشيخ في الانتظار .

ومد يده إلى أرض الغرفة فجذب بابا خشبيا ، وأخذ ينزل درجا

متعرجا ، وهما وراءه ، ثم جذب عمر العيار الباب الخشبي وراءهم

فشملتهم ظلمة كاملة .. ومد على يده يتحسس ما أمامه فوجد يد حسن

شومان تمسك به في قوة وتقوده في نزوله الدرج .. وفي نهاية

الدرج كانت تلوح أنوار قوية تزداد قوة كلما اقتربوا منها .. وما أن

نزل الزيتيق الدرج حتى كادت عيناه تغشيان من شدة الضوء ، فأغلقتها

وهو يستند الى يد حسن شومان القوية ، ثم فتح عينيه ليطالعه منظر لم ير مثله في حياته من قبل :

كانت القاعة واسعة لا تصل العين الى نهايتها ، وكانت مليئة بالمناضد العالية التي تكومت فوقها في نظام عدة أدوات وأجهزة وأنابيق ومواقد غريبة مختلفة ، وعلى الارفف تراكمت زجاجات مليئة بسوائل متعددة الالوان ، ومساحيق داكنة وبيضاء وصفراء .. وكانت القاعة تعبق برائحة غريبة حريفة لم يستطع الزيبيق أن يحدد كنهها ، وفي نهاية القاعة من بعيد كان شيخ وقور يلبس ملابس ناصعة البياض وتخفي لحيته الشهباء وجهه كله يجلس أمام منضدة عليها كتاب مفتوح . والى جواره جلس احمد الدنف وشحادي ابو حطب في أدب وصمت وترقب .. وهمس عمر العيار في أذن على الزيبيق .

— هذا هو الشيخ زكى البتوكى يا على .. وهو فى انتظارك ..

فتقدم فى صمت ، ولا تتكلم حتى يوجه اليك الخطاب .

الآن نتعلم

أفاق على الزيبق من ذهوله أمام منظر القاعة الغريب ، على
كلمات عمر العيار ، فهمس :
- أيعيش هنا .. تحت الأرض ؟ ..
همس عمر العيار :

- قلت لك أسكت وستعرف كل شيء الآن والآن هيا بنا .
وكانت القاعة يسودها صمت مطبق الا من صوت ماء يغلى في
قدر ما في خفوت ، وصوت بخار يتصاعد في هسيس مكتوم ،
وصوت تنفس الرجال ، وحركة صفحات الكتاب يقلبها الرجل الشيخ
في رقة ... وأحس على الزيبق بالرهبة تملكه وهو يتأمل الكتب
العديدة النى ملأت أرففا متعددة تملأ الحائط خلف الشيخ ، ولفته
صوت غريب خافت فالتفت ناحيته ، وإلى جوار الحائط على اليمين
لاحظ شبكا ضيقة من حديد تغطي صناديق متينة في الحائط ،
وحين أمعن النظر تأكد أن ما يراه حقيقة ، كانت هناك فئران صغيرة
بيضاء تجرى داخل الصندوق وتظهر من خلال فتحات الشبكا
الحديدية الضيقة ، وإلى جوارها أقفاص متشابهة مليئة بحمام
صغير ، ثم حوض ماء مليء بالضفادع الحية تجرى وتتقاذز داخل
الحمام الذى يغطيه زجاج سميك .. وأحس على الزيبق بلمسة
على ذراعه فالتفت ليرى عمر العيار يشير إليه بعينه الى الحائط
المقابل ، وارتجف الزيبق وهو يشاهد ما في صندوق زجاجى مثبت
في الحائط المقابل ، وكاد يكذب عينيه ، ولكنه سرعان ما تأكد أن
الصندوق يحوى عدة أفاع ضخمة ، فقد كان النور يلمع على جلدها
المرقط لتظهر رغم سكونها في وضوح لا يدع مجالا للشك في حقيقتها
.. وهمس عمر العيار في أذنه :

- انها حيوانات التجارب ..

وسمعا تنهد الشيخ في نهاية القاعة وهو يفلق الكتاب المفتوح
أمامه ، ويرفع رأسه ليتأمل ما حوله كأنما يفيق من حلم عميق ..
وتحرك أحمد الدنف من جلسته ، فوقف يشير الى القادمين بالتقدم
نحوه ، وهو يقول :

— ها قد وصلوا من كنا في انتظارهم . وهذا يا مولانا الشيخ هو علي الزبيق بن حسن رأس الغول وحفيد صديقك القديم القاضي نور الدين ..
اضاء وجه الشيخ زكى بابتسامة عريضة ، وهو يمد يده مرحبا ، وقال :

— أهلا بالرجال ، وأهلا بابن الأحبة ..
ثم سكت فجأة وهو يقول مقطبا حاجبيه الكئين :
— ولكنه رجل عجوز ، وفقير أيضا ، وما هذا الخرج الذي يحمله على ظهره ..
واضطرب علي الزبيق ، وهو ينزل خرجه من فوق كتفه ، ويمد يده يزيل اللحية المستعارة من فوق وجهه ، ويخرج زجاجة من جيبه وقطنة يغمسها بالسائل الذي في الزجاجة ، ويمر بها على وجهه وحاجبيه يزيل آثار تنكره ، بينما ضحك عمر العيار وهو يتقدم قائلا :

— هذه يا مولانا ثياب التنكر ، فقد خشي أن يتبعه أحد ..
ضحك أحمد الدنف وهو يقول :
— وقد أجاد التنكر وان كانت تنقصه لمساتك يا عمر .
قال عمر :

— أنا هنا لاكمل له مرانه ، ولاكمل تعليمه ..
وعاد الشيخ زكى البتوكى يتأمل في علي بعد أن أزال تنكره ، ويقول :
— هكذا يعتدل الحال ، فأنت الآن تشبه أباك حسن رأس الغول كثيرا .. وان كان فيك من جدك القاضي نور الدين الكثير أيضا .
ثم صمت فجأة وكأنما يتذكر شيئا غاب عن باله ، وسأل علي :
— وكيف حال القاضي نور الدين ، وكيف حال أمك فاطمة ؟
أحس علي الزبيق بفرحة اذ يذكر هذا الرجل الجليل جده وأمه ، وقال :

— هو بخير في دكانه ، وهى أرسلت السلام معى عندما عرفت اننى في طريقى الى لقائك ..
وكانما لم يسمع الشيخ زكى البتوكى كلمات علي الزبيق اذ تعلق عيناه بصدر المكان ، وسهمت نظراته ، وتبادل الجميع النظرات المتسائلة الا ان احدا منهم لم يقطع على الشيخ تأمله ، الذى تنهد بعد حين ، وعادت نظراته تتأملهم واحدا اثر الآخر ، الى أن عادت نظراته تستقر على الزبيق ، فقال وهو يبتسم :

– دار الزمن دورته ، ولم يعد زائري هو القاضي نور الدين بل
ابن ابنته غدا شابا يافعا يملأ الدنيا صخباً وحياء ، ويحير بملاعيبه
صلاح الكلبي وأعوانه ..
همس على الزبيق :
– وتعرف هذا ؟

ضحك الشيخ زكي البتوكي ، وقال :
– لا يفوتني مما يحدث في مصر كلها إلا القليل ، وحتى هذا
القليل تأتيني أخباره أن أجلاً وان عاجلاً .
هنا تدخل عمر العيار قاطعاً حديثه ، قائلاً :
– فأتني أن أخبركم أن دكان الأقمشة أصبح غير صالح لنا ،
وقد نقلت كل ما فيه من أقمشة واثاث وتركته قاعاً صفصفاً قبل
أن أحضر إلى هنا .
تغير وجه أحمد الدنف الصارم ، وظهر عليه الغضب ، وهو
يقول :

– هل عثر عليه جواسيس صلاح الكلبي ؟
قال عمر العيار ، وهو يلاحظ الحمرة التي علت وجنتي على
الزبيق :

– كان على متبوعا هذا الصباح ، وقد شغلته من ملاحظة تابعة ،
كما شغلني هو عن ملاحظة انه متبوع . وبعد خروجنا من الدكان
عدت إليه لأغير من تنكري ، فرايت عباس الأشول يسأل أصحاب
الدكاكين حوله عن صاحبه الأصلي ، ومتى بابه ، ولم بابه ؟ .. وابن
يسكن المشترون الجدد ، بل لقد سألني وأنا في زى السقا عن
معلوماتي عن الدكان وأصحابه الجدد ، فقلت له أنهم من تجار الأقمشة
في الحسين ، اشتروا الدكان لفرع جديد لتجارتهم ، فمضى يسأل
عن الاسماء التي أعطيتها له ، وأسرعت أخلى الدكان من كل ما فيه ،
وتركته قاعاً صفصفاً .

قال على الزبيق في تخجل :
– كنت مشغول الفكر ، فقد حيرتني المصائب التي قبلت لي من
طريق الحصول على النفيلة .

عاد وجه أحمد الدنف إلى سابق عهده ، وابتسم وهو يقول :
– لا بأس ، كلنا تقع في الخطأ ، المهم أن نتداركه ، والخطأ أساساً
هو خطأ عمر العيار ، وقد أصلح الأمر ، ولم يعد هناك
مانخشاہ ..

تنهد حسن شومان وهو يقول :

— كنت أحسب أنني سأستمتع فترة أطول بدور بائع الأقمشة ،
فهو عمل لطيف وهادئ ، ويتيح للإنسان الفرصة للتأمل والتفكير ،
ومشاهدة الناس .

وأزاحت كلماته الضاحكة شيئاً من التوتر الذي كان قد ساد
الحديث ، فارتسمت ابتسامات على الوجوه ، وضحك شحادي
أبو حطب ، وتأمل على الزبيق الوجوه من حوله ، وأحس أنهم قد
غفروا له إهماله ، فتمالك نفسه ، وكاد يتكلم حين فتح أحد الأبواب
الجانبية المطلة على القاعة الفسيحة ، ودخل رجلان طويلان ملتحيان ،
يلبسان نفس الملابس الناصعة البياض التي يرتديها الشيخ البتوكي
.. إلا أن ملامح الشبه بينهما تنتهي عند هذا الحد ، فأحدهما أسمر
داكن السمار حتى لتلمع عيناه في وجهه مع بياض عينيه ، والآخر
أشعر شديد الشقرة حتى لتبدو عيناه بلا رموش وقد انتشر غس بني
اللون فوق بشرته .. ووقف الشيخ زكي البتوكي لدخولهما ، فوقف
الجميع تحية لهما .. ووضع الأسمر صندوقاً كان بيده فوق منضدة
قريبة ، ووضع الآخر جهازاً عجيباً كان يحمله فوق منضدة أخرى ،
وانجبه كلاهما نحو الجميع وقد مد كل منهما يده لمصافحة رفاق
الشيخ زكي البتوكي الذي قال في صوت خفي :

— هذان هما رفيقاي في دنيا البحث والمعرفة ، وقد حان الوقت
لأترك لهما القاعة ، شغلني الحديث معكم حتى نسيت موعد انتهاء
عملي وبدء عملهما .. هذا الأسمر هو الشيخ أبو بكر من نسل عالم
الطب وطبائع الأشياء والصيدلة شيخنا الأكبر أبو بكر بن زكريا
الرازي . وهذه الحيوانات التي ترونها هنا تقع في دائرة عمله ..
وأخذ الشيخ أبوبكر يصافح الجميع حتى وصل إلى علي ،
فصافحه وهو يضحك ويقول :

— أذن فانت الزبيق ، سمعنا هنا عن ملاعبك مع دليلة وصلاح
الكلبي الكثير ..

وأحمر وجه علي الزبيق ، ولكنه صمت حياء ، بينما قال الشيخ
زكي البتوكي مقدماً الرجل الثاني قائلاً :

— أما هذا الأشقر فهو الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سنان
عالم الحساب والهندسة وحركة الآلات والفلك ، وهو من نسل
إبراهيم بن سنان وهو ابن سنان بن ثابت ، وهذا بدوره ابن
عالم العلماء في الحساب والفلك ثابت بن قرة .. وقد ورث كلاهما
الفضل والعلم أبا عن جد إلى جده الأكبر ..
وصافح الرجل الآخر الواقفين لتحيته واحداً واحداً وهو

يتنسم ، ثم حمل آله ومضى بها في صمت الى آخر القاعة ، فقال الشيخ زكى البتوكى وهو يجمع رداءه حول جسده :
نتركهما لعملهما وهما بنا نخرج من هذا المعمل الى دنيا الله الواسعة ..

وصفق بيديه فظهر في الحال خادمان من باب آخر غير الباب الذى دخل منه العالمان ، وحمل كل منهما مشعلا واتجها الى باب فى مؤخرة القاعة يتبعهما الشيخ زكى ووراءه المقدم أحمد الدنف ورجاله .. وسار على الزبيق وراءهم وهو مشغول ألبال بما رأى وبما سمع .. طب وعلوم خصائص الاشياء وحساب وحركة الآلات ، وصيدلة وتجارب والرازى وثابت بن قرة .. يذكر أنه سمع بعض هذه الاسماء والاشياء من احاديث متقطعة مع جده نور الدين .. وكلمات سريعة تسقط فى اذنه لتعبره فى جولاته القديمة بين أعمدة الأزهر .. عالم يعمل وحده فى صمت ، وهو فى صمته يحرك العالم كله من حوله .. دنيا من المعرفة تشكل دنيا الحياة التى يحيها دون أن يحس بها ...
ووافق على الزبيق من تأملاته على صوت عمر العيار الذى كان يهمس فى أذنه قائلا :

— حذار ، أمامنا سلم سننزله ..

ودهش على الزبيق من أنه سينزل مرة أخرى ، حين جاء هذه القاعة نزل سلما من خلف الحمام ، وهما يعاود النزول الآن ، ولكنه لاحظ ان الدرج حجرى كأنه نقش فى قلب الجبل وكان الخادمان ينيران الطريق فى المقدمة ، ويهتز الضوء مع اهتزاز حركة أيديهما فى النزول . ولكن الدرج كان مريحا وواسعا ، وكان لوقع أقدامهما فوق الدرجات الحجرية صدى يتردد . وأحس على الزبيق بازدياد الرطوبة وثقل الجو . ولكن نزولهم لم يطل كثيرا ، فسرعان ما وصلوا الى باحة حجرية مربعة ، تركها حاملا المشاعل ودخلا فى سرداب طويل مظلم ازداد فيه صدى وقع أقدامهما على الأرض الحجرية ، وسرعان ما تبعهما الشيخ زكى البتوكى ، وهو يشير الى أحمد الدنف ورجاله لكى يتبعوه .. وكانت أضواء المشاعل تتراقص فوق الجدران الصخرية ، وفوق سقف صخرى يغطى المكان ، وسرعان ما أدرك على الزبيق أنهم يسرون فى نفق تحت الأرض ، وربما تحت جبل صخرى من الجبال التى تحيط بالقاهرة .. وتراقصت أشباح الرجال مع تراقص الأضواء فوق الجدران والصخر ، وجاءهم صوت الشيخ زكى البتوكى الهادى يتحدث

في صوت خافت ، تتردد أصداؤه في النفق الحجري ، قال :
- يمتد هذا النفق حتى الدير الغريب في حوض الجبل ، حفره
القساوسة الهاربون بدينهم من عسف الرومان قبل الاسلام بكثير ،
واستعملوه في الهروب من الدير حين يهاجمه جند الرومان ، الذين
كانوا يقيمون لهم المذابح بلا حساب .
قال أحمد الدنف :

- نحن الآن نتجه الى الدير ؟

قال الشيخ زكى البتوكى :

- نعم ، أما هذا الطرف ، فقد كان هناك خان قديم في مكان
الحمام ، قبل أن يجعل المسلمون من هذا المكان قرافة لموتاهم ..
وقام الحمام مكان الخان القديم ، ولم يعرف أحد سر النفق الى
ان هربنا بعلمنا من تعقب جواسيس الفرنجة ، وجهل الولاة وغبائهم ،
وفساد عمالهم الذين أعماهم ذهب الفرنجة عن واجبهم في حمايتنا
.. ووجدنا عند قساوسة الدير الترحيب والمعاونة ، فهم مثلنا
يشتغلون في هذه العلوم ، ووجدنا في الدير والنفق وسيلة أمان
كاملة ، واستعملنا حجرة السرداب كمعمل سرى حتى لا يطلع على
عملنا أحد ..

خف الهواء ورق ، وملأت النفق نسمات ليل ندية ، وبدأت
الشعلات تضطرب وتتأرجح فأدرك على الزيبق أنهم قد أوشكوا
على الوصول الى نهاية النفق ، وسرعان ما تسربت أشعة القمر
تملأ المسافة الباقية التي قطعوها مسرعين ، وكأنما يدعوهم نداء
الهواء الطلق الى الاسراع نحوه .. واستقبلتهم السماء الصافية
بنجومها اللامعة وقمرها المضيء ، وانبعثت حولهم روائح ازهار
وورود ، وانساب خير عذب من نافورة لاحت من بعيد تنعكس على
مياهاها أشعة القمر الفضية ، وانشرح صدر على الزيبق ، وهو
يستنشق الهواء العذب الندي ، بينما قال الشيخ زكى البتوكى
- أطفئ المشاعل ، وأحضرا المساند للجلسة حول الفسقية ،
وأكرما الضيوف ، وأغلقا المدخل .. وأشار بيده نحو الفسقية
فتبعه ضيوفه ، وعلى الزيبق يتأمل ما حوله .. كان في حديقة
غناء عامرة بأحواض الزهور وأشجار الفاكهة ، يعبث النسيم
الرقيق بأغصان الشجر وأعواد الورود ، فتتبادل حاملة في ضوء
القمر ، وترسل ظلالا شاحبة حولها تهدد الأعصاب ، وتريح
النفس .. وجاء الخادمان يحملان الحشايا فوضعاها فوق أرائك
رخامية بنيت حول الفسقية ، وجلس الشيخ زكى البتوكى وجلس

ضيوفه .. وأسند على الزبيق رأسه الى الحشية اللينة وأحس
بالخدر يتسلل اليه . هنا سكينه وراحة وتأمل .. لا صراعات
ولا معارك ولا مؤامرات .. وجاءه صوت مضيفهم الشيخ يقول :
حجراتكم تطل كلها على هذه الحديقة ، وبعد ان نسمر قليلا
سيأخذكم الخدم كل الى حجرته ، وسيجد فيها كل وسائل
الراحة ، وماليس موجودا يطلبه وسنحضره له في الحال .
ضحك احمد الدنف وقال :

— سبحان الله ، ندخل من القبور لنخرج الى الجنة ..

وقال حسن شومان :

— والقساوسة ، ألن يضايقهم وجودنا ؟

قال الشيخ زكى :

— هم في حالهم ، ونحن في حالنا ، ولن تشاهدوا واحدا منهم
طوال اقامتكم معنا ، فنحن وهم نتعاون في العلم ، هم يترجمون من
لغات يعرفونها ، ونحن نترجم من لغات نعرفها ، ونشترك معا في
حل معضلات المعرفة ، اما ما بعد هذا فكل منا في حاله .. فالعلم
عبادة في ذاته ، فنحن من خلاله نعرف قدرة الله ، وتكتشف عظمة
الخالق ..

قال شحادي أبو حطب :

— عرفنا شيوخ صاحبك في قاعة البحث ، ولكن من شيخك
يامولانا ان لم يكن سؤالي فضولا ؟

قال الشيخ زكى البتوكى وهو يمسح على لحيته :

— في العلم يابنى يتلقى التلميذ عن استاذه الذى غالبا ما يكون
اباه ، ولهذا فللعلم بيوت مشهورة تتوارث ، من جيل الى جيل ،
وأنا من نسل أخميم الطالب الحكيم المصرى القديم ، أخذت المعرفة
عن أبى الذى أخذها عن أبيه وهكذا حتى أخميم ، اما أخميم الطالب
نفسه فهو من نسل هرمس أشهر من عرفنا من علماء الدنيا ،
عنه ، أخذ علماء الاسكندرية ، وعلماء الاغريق والرومان ، عنهم
نقلنا علمه وترجمناه .. وعلماء المسلمين اليوم يعرفون هرمس
وقضله ، ويقولون والله أعلم انه بنى الهرم الذى عرف باسمه
وخبا فيه كنوز معرفة الاولين ، التى نعيد التعرف على اجزاء منها
هى قطرة في بحر ، وحنة في كومة ..

كانت كلمات الشيخ زكى تالى وكأنها صادرة من مكان بعيد ،

فقد فعل الهواء وضوء القمر والجلسة المسترخية جميعا فعلهم فيه،
وكان يفتح عينيه بصعوبة بالغة ، وانتبه على الخادمين بحملان

اكواب الشراب المعطرة والتمر والفاكهة .. واحس بالعطش فمد يده الى كوب شراب فوجده مثلجا تفوح منه رائحة الورد ، وحين ذاق الشراب الحلو اختلطت في فمه وانفه ، طعوم البرتقال برائحة الورد .. وسمع من بعيد صوت المقدم احمد الدنف وهو يقول :
- اوشك على أن ينام وهو جالس .. هيا بنا الى غرقنا بعد اذن مولانا الشيخ .

كان المقدم صلاح الكلبى يصرخ فى غضب ، وقد تملكه خوف حقيقى لم يستطع أن يخفيه :

- لا فائدة ، ضاع كتاب الشفرة .. سرق - هناك من دخل هنا ، الى القاعة السرية أسفل بيت بير جوان ، داخل البير المستور المخفى بمهارة الشياطين .. وجاس فى كل ما بالقاعة وفتش كل شئ ، وعثر على كتاب الشفرة ، وسرقه ..

وكان المقدم عثمان مندهشا من علامات الخوف المرتسمة على وجه المقدم صلاح ، فما هذا الكتاب وماذا يعنى أن يضيع او لا يضيع ، وماذا فى أن لصوصا تسربوا الى الطابق المخفى ، وحاول أن يهدىء من نائرة مقدمه ، فقال له :

- البيت مهجور ، والزقاق كله ليس فيه أحد ، ومن السهل أن يدخل لص الى البيت ، وأن يفتشه بحثا عن الأشياء الثمينة فيعثر على الطابق ..

ولم يدعه المقدم صلاح الكلبى يمضى فى حديثه ، بل قاطعه قائلا :

- ويترك كل هذه التحف الثمينة ولا يسرق سوى كتاب الشفرة .

قال المقدم عثمان مجادلا :

- سرق كتابا ، لصوص آخر زمن ، أترك كل هذه التحف التى تملأ القاعة ويسرق كتابا ؟

صاح المقدم صلاح الكلبى فى حنق :

- وهذا الكتاب ائمن من كل ما فى القاعة من تحف لمن يعرف كيف يستخدمه ، ولا أشك أن من سرقه جاء من أجله خصيصا .. هذه مصيبة كبرى وحلت علينا ، كنت اظن أن أمرنا مستور ولكن هذه السرقة أوضحت الحقيقة أمام عيني .

قال المقدم عثمان :

- من القاعة لا يسرق اللصوص سوى رسائل متجساة ، وفى

بیرجوان لا یسرقون الا کتاب الشفرة هنا صاحب المقدم صلاح
الكلبي :

- تماما . انت فهمت اذن ..

ففر المقدم عثمان فاه في بلاهة ، وهو يقول :

- فهمت .. ماذا فهمت ؟

قال المقدم صلاح الكلبي :

- قد يستطيع من سرق الرسائل ان يفهم سر ما في واحدة
منها ، ولكنه سيعجز عن فهم الاخریات ، ولكن لو كان معه كتاب
الشفرة لفهم كل اسرار ما في الرسائل ، ولعرف كيف يحل رموزها
السرية كلها .

أطبق المقدم عثمان فمه فجأة ، وقد بدا الخوف يتسلل
اليه لأول مرة ، وقال :

- انها اذن الرسائل التي تأتينا من الخارج ، اعني من ..

صاح المقدم صلاح الكلبي :

- كفى ، اياك ان تنطق باسماء هنا ، او في اى مكان ، فمن

يدري ، لعل للجدران اذاناً ..

قال المقدم عثمان وخوفه يزداد :

- ولن يسرق احد الرسائل ، وكتساب الشفرة الا رجال
الخلافة . ومعنى هذا ان هناك شكا بدأ يحوم حولنا ، ومعناه
اننا لم نعد نتمتع بالثقة المطلقة التي كانت ممنوحة لنا وكانت تتيح
لنا حرية الحركة ، والتصرف في تنفيذ ما يطلب منا .

قال المقدم صلاح الكلبي :

- الشك لا يضايقنى ، ولكن ان يصبح الشك يقيناً هو

ما يرعبنى ، فسيجعل حياتنا في خطر ..

قال المقدم عثمان :

ويوقف سيل الذهب الذى كان يتدفق علينا .

صاح المقدم صلاح الكلبي :

- كفى ، انت تجعل كل شيء يبدو في غير صورته - نحن نخدم
بلادنا بطريقتنا ، وان كان الخليفة يرى مصلحة البلاد في الحرب ،
فنحن نراها في انتهاء هذه الحرب ، وخلق التفاهم والمودة بيننا
وبين كل الناس بمن فيهم الفرنجة .. فنحن نعمل لصالح البلاد ،
نعم ، لا تنسى هذا أبدا نحن نعمل من اجل خير الناس ، وخير
المسلمين .

ضحك المقدم عثمان وهو يقول :

— ليس المهم أن أنسى أو لا أنسى ، المهم أن يصدق رجال الخليفة هذا ..

قال المقدم صلاح الكلبى :

— لابد من استرداد هذه الرسائل وكذلك كتاب الشفرة بأى ثمن ، هيا بنا الى القاعة لأرتب الرجال ليحاصروا كل منسافذ القاهرة ، ولن يخرج أحد الا اذا فتشناه .. ولنحاول أن نحصر الغرباء فى المدينة ونداهمهم ونفتشهم ..

قال المقدم عثمان :

— سيثير هذا ثائرة الناس ، الا يحسن أن نستأذن السلطان .

قال المقدم صلاح الكلبى :

— ما لا يعرفه السلطان لا يقلقه ، وهذه أمور أمن ، وهو يترك لنا هذه الأمور ولا يحاول أن يعرف ما نفعل لا يشترك معنا بضميره فى المسئولية .

أغلق المقدم صلاح الكلبى باب القاعة السرية ، وصعد مع المقدم عثمان الى الطابق العلوى فى بيت بيرجوان ، وقال والمقدم عثمان يتبعه الى الساحة الخارجية للدار :

— منذ سافر عم شندى الى بلدهم ليحضر جنازة ابيه ، ولا أمان لهذه الدار .

قال المقدم عثمان :

— نعين أحد الرجال ليحرس الدار حتى يعود .

قال المقدم صلاح وهو يدلف الى خارج الدار ووراء المقدم عثمان :

— لا أحد يعرف سر هذه الدار ، أو حتى مكانها الا انت وعباس الاشول وعم شندى الذى ينظفها ويحرسها ، ويعتنى بأمر من نخبثهم فيها من ضيوفنا الاغراب .

وأغلق المقدم صلاح الكلبى الباب الخارجى للدار بالمفتاح ، ثم وضع على الباب قفلا ثقيلًا ، ومضى مسرعا والى جواره المقدم عثمان يغادران الزقاق المظلم فى صمت ، قطعه المقدم عثمان عند وصولهما الى أول الشارع الساكن المظلم قائلا :

— صدقت يا مقدم لابد من استعادة الرسائل وكتاب الشفرة .

ضحك المقدم صلاح الكلبى ضحكة خشنه وهو يقول :

— الآن أدركت ما أعنى .

ثم صمت وهو يغد السير والى جواره المقدم عثمان ، وفجأة وقف وضرب الأرض بقدمه وهو يقول :

— قلبى يحدثنى ان للزبيق يدا بطريقة او بأخرى فى هذا الأمر ..

ولم يجبه المقدم عثمان ، بل سارع من خطواته لتوافق خطوات المقدم صلاح الكلبى المهرولة الذى بدا أنه يستعجل الوصول الى قاعة الزعر ، ومضيا يقطعان الطرقات فى سرعة متزايدة حتى وصلا الى قاعة الزعر فأدهشهما ان وجداها تموج بالرجال وقد أشعلت المصابيح وأضيئت المشاعل فى الباحة الخارجية للدار . ولكن دهشتها لم تطل حين وجدا المقدم عباس الأشول يقف وسط القاعة وهو يصدر أوامره بصوت حازم الى الرجال المتحلقين حوله :

وصمت المقدم عباس الأشول حين رأى المقدم صلاح الكلبى ، وأفسح له الرجال طريقا وسطهم حتى وصل هو والمقدم عثمان الى حيث يقف المقدم عباس الأشول وقد بدت عليه علامات الانفعال والقلق ، وبادره المقدم صلاح الكلبى سائلا :

— ماذا حدث . ؟ ولماذا استدعيت كل هؤلاء الرجال ؟ وماذا تريد منهم فى هذه الساعة من الليل ؟ قال المقدم عباس الأشول وفى صوته حدة وقلق :

— الدكان يامقدم ، خالية على عروشها ، لا أقمشة ولا أثاث ولا حتى قشة واحدة ، ومن كانوا فيها هربوا ، استأجروها ودفنوها الايجار ولم يمضوا فيها سوى ثلاثة أيام ، ثم انشقت الأرض وابتلعتهم .. صاح المقدم عثمان فى انفعال :

— صدق حدسك يامقدم صلاح ، الزبيق كان آخر من رأى من فيها .

قال صلاح الكلبى :

— هم .. ليس غيرهم من سرق الرسائل و .. والأشياء الأخرى . والزبيق على صلة بهم ..

ثم صاح يصدر أوامره فى صوت حازم :

— يا عباس اطلق منافذ المدينة كلها ، وليفتش كل من يخرج منها بحثا عن الرسائل المسروقة من هذه القاعة . وانت يا مقدم عثمان خذ بعض الرجال واذهب احضر الزبيق فى الحال .

قال المقدم عثمان :

— احضره .. من أين ؟

صاح المقدم صلاح الكلبى فى صبر نافذ :

- من بيته ، ومن فراشه ، من أى مكان أحضره والسلام .
- قال المقدم عثمان فى صوت متردد :
- ولكن السلطان أعطاه متديلا الأمان يامقدم .
- صاح به المقدم صلاح الكلبى :
- السلطان نائم . . وأنا أريد على التزييق لأنه مفتاحى الوحيد
- الى سرقة الرسائل ، اذهب ولا تعد الا بالتزييق مكبلا بالحديد .

بِالْعِلْمِ نَسْتَعِذُّ

قال الشبح التسربل بالظلام في صوت هامس :
- افهمت يا فاطمة ، هو قد رحل بعد العشاء ليحضر النفيلة ،
والاقمشة أنت طلبتها منه لتحل محل الاقمشة التي اعطيتها
لزئيب .

همست فاطمة في ثبات :

- فهمت يامقدم عمر ، تعال معي الى حجرته لتأخذ كل
ملابسه وحاجاته حتى لا يجدوها حين يفتشون الدار .
وبسرعة قادت فاطمة أم على الزبيق المقدم عمر العيسار الى
حجرة الزبيق وهي تحمل مصباحا مضاء ، وقالت وهي تضعه
على منضدة صغيرة في وسط الغرفة ، وتخرج ملابس الزبيق
وحاجياته وتضعها بعناية في خراج كبير :
- ومتى سيرحل من القاهرة يامقدم عمر ؟

قال عمر العيار :

- بعد أسبوع من الآن ، ولكن لا تقلقي ، هو معنا في امان .
قالت :

- كنت احب ان اراه قبل ان يرحل .

قال عمر العيار وهو يساعدها في ربط الخراج وحزمه :
- لن تتاح لك الفرصة اذا كنت تحبين له النجاة ، فقد اطلق
صلاح الكلبى كلابه المسعورة بحشا عنه وعنا ، واى خطأ منا هو فرصة
لصالحه ..

قالت فاطمة وهي تنتهى من ربط الخراج :

- اذن ساراه على الطريق وبطريقتى الخاصة ..
ضحك عمر العيار وهو يحمل الخراج على كتفه متاهباً
للخروج ، وقال :

- احمد بن البنى من جديده ..

قالت فاطمة في حزم :

- ان احتاج على الى احمد بن البنى ، فهو حاضر بسيفه
وقرسه ووجوده نفسه .

لم يملك العيار نفسه الا ان ضحكاً وهو يقول :
- الامر لا يحتاج الى كل هذا ..

اسكتته فاطمة بإشارة من يدها ، وقالت :

- انا آمن عليه معكم .. هذا حقيقى ، ولكنى - لن انام -
انا يقظة عليه ما وسعنى الجهد ، وما وسعنى الطاقة .. وكلكم
شئ ، وأنا وحدى - أمه - شئ آخر ..
ماتت الضحكة فى حلق عمر العيار ، وأحس بالخجل يملأ
وجوده ، فقال مطرقاً :

- ما قصدت هذا ، ولكنى اعنى أننا سنحافظ عليه قدر
طاقتنا ..

فجأة قطع حديثها طرق عفيف على باب المنزل الخارجى ، قالت
فاطمة فى توفز :

- انهم هم - جلعوا قبل الموعد الذى توقعناه ..

همس عمر العيار وهو يتجه الى خارج الغرفة حاملاً خرج
على الزبيق على ظهره :
- بل هم فى الميعاد ..

وكما دخل من السطح ، خرج أيضاً من السطح ، كان مسلم
الحيال فى مكانه حيث تركه ، فعدل وضع الخرج على كتفيه ، واخذ
يرتقيه ، وهو يسمع وقع أقدام فاطمة وهى تتجه نحو باب
المنزل ..

ولم تكن فاطمة تخشى ان يحس القادمون بعمر العيار ، فهى
تعرف مهارته وقدرته على أن يتحول الى شبح لا يرى حين يريد ،
بل كانت خشيتها من هؤلاء القادمين الذين لم يراعوا حرمة المنزل
ولا توغل الليل ، ففتحت الباب وهى تقول فى غضب :

- من الذى يطرق الباب بمثل هذا العنف ، وفى مثل هذه
الساعة ؟

وتدافع الرجال الى الداخل وقد شهبوا سسيوفهم وعيونهم
تتلقت حولهم فى ترقب واستعداد ، وقال المقدم عثمان :

- أين هو ، أين غرفته ؟ ..

رفعت فاطمة يدها محدرة وهى تقول فى تهديد واضح :

- لا يتحرك واحد من مكانه ، واخبرنى باهذا من تريدون ؟

ذهل المقدم عثمان لثباتها ورباطة جأشها ، وقال فى تردد :

- أنا من الأصل لم أرحب بهذه المهمة .. أين على الزبيق ؟

قالت فاطمة :

— على انتم ارسلتوه الى حتفه ، ألم تطلبوا منه النفيلة من المدينة المرصودة ، ماذا تريدون اكثر من هذا ؟
قال عثمان وهو يتنهد في ارتياح :
هل تقصدين انه سافر . ترك البلاد وغادرها .

قالت فاطمة بنفس الهدوء :
— تركنا بعد صلاة العشاء حاملا ملابسه وحاجياته رغم كل توسلاتي له ان يترك أمر النفيلة وشأنه ، فهذا شرك اعددتموه له ..

قال المقدم عثمان :
— لا علم لي بكل هذا ، انما اوامري ان احضر على الزبيق .
قالت فاطمة في حدة :
— لماذا تريدونه ، لقد حصل على منديل الامان ، ولم يعد لصلاح الكلبى عليه سلطان .

قال المقدم عثمان وهو يتلفت حوله :
— لا نريد به شرا ، انما يريد المقدم صلاح ان يسأله سؤالا أو سؤالاين .

قالت فاطمة في سخرية :
— في وسط الليل ؟
قال المقدم عثمان في حزم :
— مادام قد سافر فقد وفر على المشقة ، ووفر على نفسه الكثير ، فدعينا نفتش البيت وننظر في غرفته لنؤدى المهمة في سلام ، ولن يضار احد .
ضحكت فاطمة في سخرية ، وهي تتنحى عن مكانها أمامه ، وقالت وهي تشير بيديها الى ارجاء المنزل :
— انبت أمامك ففتشوه ، وليس معى الا الخدم ، فلا تخشوا شيئا ..

وتجاهل المقدم عثمان سخريتها ، وأشار بيده الى الرحال الذين اندفعوا يجوسون خلال غرف البيت ، ويفتشون كل القاعات بدقة وعناية ، بينما قال لها :

— اصحبينى الى غرفته افتشها بنفسى :
ودون ان ترد على حديثه اتجهت فاطمة في ثبات الى غرفة الزبيق ، وفتحت الباب ، وتنحت له ليدخل ، ولاحظت ان وجهه قد شحبت قليلا وهو يتحسس مقبض سيفه ويسبقها الى داخل الغرفة ، ثم لاحظت حركاته العذرة وهو يدخل بسرعة ويلتصق

بالجدار ويجول بعينه في أرجاء الغرفة ، فابتسمت ساخرة ،
وقالت :

- قلت لك الحجرة خالية ، وعلى قد سافر منذ الامس ، فهل
انت تخاف من شبح على ..

تمتم المقدم عثمان بفضب هز شواربه الكثة ، وتقدم نحو دولا ب
الملابس يفتحه ويفتش فيه ، وقال :

- لا اجد من ملابسه شيئا ، حتى الملابس الداخلية .. هل
اخذ كل شيء معه ، ام انت اخفيت كل الملابس عن عمد .. ؟

والجمته نظرتها ، فعرض على نواجذه في غيظ وقد أدرك ان
كلامه لا معنى له ، وانه يشي باضطرابه وقلقه ، بل وربما يشي
بخوفه .. وكان يعرف انه يخاف حقيقة ، يخاف من الزبيق
وملاعبه التي جعلت منه ومن مقدمه صلاح الكلبى أضحوكة مصر
كلها ، كما كان يخاف من الامر كله ، فالسلطان قد اعطى على
الزبيق الامان ، والخروج عن طاعة السلطان حتى بأمر صلاح الكلبى
شيء له عواقبه الوخيمة ، كما ان مسألة سرقة الرسائل وكتاب
الشفرة ، واقتحام قاعة الزعر ، وسرقة بيت بيرجوان ، وحكاية
دكان الاقمشة الذي لم يعد دكان اقمشة ، وتبخر من استأجروه ،
كلها مسائل تثير الخوف . وفي حلق شديد دفع مقعدا كان يعترض
طريقه ، وهو يخرج من الحجرة مسرعا ويقول :

- لو كان قد سافر قبل صلاة العشاء فقد افلت من الحصار .
واحس انه اخطأ للمرة الثانية ، فنظر اليها وفي عينيه توسل ،
ولكنها نظرت اليه بحدة وقالت :

- حصار ، اى حصار تعنى .. ؟

هز كتفيه ومضى مهرولا وهو يشير الى رجاله ليتبعوه ،
وكانما يخشى ان تبقى لتعرف السر الذي كشفته زلة لسانه ،
ومضى يخرج من باب الدار وهو يلحن في سره اللحظة التي أرغمه فيها
المقدم صلاح الكلبى على القدوم الى هذه الدار . نائب مقدم
الدرك ، او حتى مقدم الدرك ذاته ، هو لا يحب ان يواجه هذه
المرأة ابدا .. فهو يحس انها تسخر منه بنظراتها التي تعمره
وتكشف صفار نفسه .. واغلقت فاطمة الباب وراءهم ، وقد
امتلات ملامح وجهها بالقلق .. فما معنى هذا الحصار ، وهل يريد
صلاح الكلبى القبض على الزبيق حتى قبل ان يبدأ رحلته ، وظلت
تفكر لحظات ، ثم انسحبت ملامح القلق تدريجيا من وجهها ليحل
محلها عزم وتصميم ، ففي الفد لا بد ان تسأل السلطان هل هو

يعرف ان مندبل الامان الذى اعطاه لعلى الزبيق لا قيمة له .. وهل يعلم بأمر هذا الحصار .. ومضت بخطو وثيد الى حجرتها لتدخل فراشها فى ليلة مسهدة لا تعرف النوم ..

عندما فتح على الزبيق عينيه افشاهما ضوء الصباح الوهاج ، فهب من نومه مذعورا وهو يحس بالخجل لانه ترك نفسه للنوم حتى غلبت أشعة الشمس الكون كله وغمرته .. ونظر حوله وهو يطرد النوم من عينيه ، كانت نفس الحجرة الصغيرة التى اوى اليها أمس وقد غلبه النوم حتى لم يعد يفهم ما يدور حوله من حديث الا أنه كان يحس أن هناك شيئا قد تغير فيها .. ولم تطل حيرته اذ سرعان ماشاهد ملابسه كلها مكومة فوق مقعد مستطيل ، فمضى اليها بقلبها ويتأمل فيها ، كانت ملابسه هو لا شك ، تلك الملابس التى تركها فى الدار أمس ، كيف جاءت الى هنا ومتى ، ومن الذى أحضرها ، ولماذا جىء بها الى هذا المكان .. هل هى أمه استشعرت خطرا يهدده فجاءت بملابسه هنا حتى لا يعود الى الدار ويتعرض لهذا الخطر الذى طرا فجأة .. ولكنه تذكر ان أمه لا تعرف هذا المكان ، وما تعرفه عن وجهته لن يوصلها الا الى اول القرافة ، ثم ينقطع الأثر تماما . وهز رأسه فى حيرة ، ثم ترك التفكير فى الأمر كله ومضى يغتسل ويغير ملابسه فى سرعة ، ثم يفتح الباب الزجاجى الذى كان يتوهج بنور الصباح لتطالعه حديقة الأمس بجمالها ورقتها وهوائها المعطر برائحة الزهور .. ومد ساعديه يستنشق الهواء النقى المعطر ويحتويه فى رثيه فى استبشار وسعادة واقبال على الحياة .. وإمامه عند النافورة كان الشيخ زكى البتوكى يجلس تحت مظلة تقيه لفع الشمس ، وفى يده كتاب كبير ، وقد استغرق فى القراءة ونسى كل ما حوله من جمال وفتح وحياة .. وتقاسم على الزبيق نحوه على استحياء ، فأحس الشيخ بوقع أقدامه ، فرفع رأسه ينظر اليه بعينيه النفاذتين ، وتنهَّد وأغلق الكتاب ، وأشار اليه ليجلس الى جواره ، وهو يقول :

— فكرت أن أوقظك قبل هذا ، ولكنى أرت أن أتركك تنعم بنومك وراحتك ..

جلس على الزبيق الى جوار الشيخ زكى البتوكى ، وهو يتلفت حوله ويقول :

— وابن الآخرون ؟

قال الشيخ زكى وهو يتسم ابتسامة قامضة :

— بعضهم عاد منذ قليل ، ودخل حجرته ليحظى ببعض

النوم . والبعض الآخر ذهبوا يعدون العدة اللازمة لتنفيذ البرنامج الذى اتفقنا عليه لاكمال استعدادك لرحلتك ..
رفع على الزبيق رأسه فى حدة ، وقال وهو ينظر الى الشيخ زكى :

— بعضهم عاد منذ قليل ، هل بعضهم هذا هو من احضر ملابسى من المنزل ؟

ضحك الشيخ زكى ، وعبث بيده فى لحيته ، وقال :

— ذكاؤك الحاد سيجنبك الكثير من المزالق يا على ..

قال على رافضا ان ينصرف الشيخ عن الاجابة عن سؤاله :

— ايهم الذى جاء بالملابس ، ولماذا ؟ وهل اصاب امى مكروه ..

قبل ان يجيب الشيخ زكى البتوكى على اسئلة على الزبيق المتلاحقة .. جاءه صوت هادىء من خلفه يقول :

— لقد جئت انا بملابسك وحاجياتك ، والسيدة فاطمة بخير ،

وكانت تود ان تاتى معى لتراك ولكنى آثرت ان لا نخاطر بشيء ..

التفت على ورائه فوجد المقدم عمر العيار مبتسما ، فابتسم لابتسامته ، وقال :

— كنت احسبك نائما مثلى ..

قال عمر العيار وهو ياخذ مجلسه الى جوارهما :

— لم ينم احد منا الليلة الفائتة ، فقد كانت ليلة حافلة ،

اكتشف فيها صلاح الكلبى اننا فى القاهرة ، ولو انه لم يعرف

وجودنا بالذات ، ولكنه اكتشف وجود ابد تعبث به ، واكتشف

ملاقاتك بديكان الاقمشة فى الكحكيين ، وجن جنونه ، فأصدر

امرا بالقبض عليك ، كما فرض حصارا كاملا على مداخل القاهرة

ومخارجها .

قال على الزبيق فى دهشة :

— كل هذا وانا نائم .

ضحك الشيخ زكى البتوكى تضحكته الهادئة ، وقال :

— كم يحدث من احداث ونحن فى غفلة عنها ، اما لاننا نائمون ،

واما لاننا صاحون ، كالنائمين ..

شارك عمر العيار الشيخ زكى ضحكته ، وقال :

— هذا نفس راي المقدم صلاح الكلبى ، فقد ادرك انه صاح

كالنائم ، وهذا هو الذى استغفزه ، ودفعه الى اجراءات خرقاء

تثير حوله الشك .

قال صوت وقوز عريق :

.. بل هو يؤكد الشك القديم الذى ثار فى نفوسنا ناحيته .
 والتفت على خلفه وهو يحس بالضيق ، وراى ما توقع ان يراه ،
 المقدم احمد الدنف ومعه حسن شومان وشحادى ابو حطب ينظرون
 اليهم فى هدوء وهم يبتسمون ، فقال فى اندفاع :
 - اليس لاقدامكم وقع على الأرض ؟
 ضحك احمد الدنف ، وهو يشير بيده لأصحابه لياخذوا اماكنهم
 مع الجالسين ، وقال :
 - أتريد أن تكون وحدك الذى لا وقع لاقدامه على الأرض ،
 ألم يسمك الجميع الزبيق لانه لا وقع لاقدامك ، ولا ظل لجسدك ،
 مهارتك هذه بعض من مهارات نتعلمها كلنا فى البدء . وقد آن
 الأوان لان نبدا فى تعليمك المهارات الاخرى .
 قال عمر العيار كأنما يستأنف كلام احمد الدنف السابق :
 - اتشك بأنه يميل للفرنجة ... أهذا ما تعنيه ؟
 قال احمد الدنف :
 - لم يعد الأمر شكا ، بل غدا يقينا ، فالرسائل التى اخذناها
 من قاعة الزعر مكتوبة بالشفرة المعقدة ، وقد استطعنا حلها
 كلها عن طريق كتاب الشفرة الذى اخذناه من بيت بيرجوان
 قال شحادى ابو حطب مت دخلا فى الحديث لأول مرة :
 - وهى صلة قديمة جدا ، بل اظنه ما حاز مكانه الا بمؤامرة
 الفرنج وعملائهم وعلى رأسهم دليلة ، وأعاونها فى القاهرة .
 قال على الزبيق فى دهشة :
 - ودليلة هى الاخرى عميلة للفرنج ؟
 ضحك حسن شومان ضحكة خشنة وهو يقول :
 - هذه لا شبهة فى أمرها ، فهى تلعب لعبة كبيرة ستودى بها
 كما أودت بغيرها من الخونة ..
 واستأنف احمد الدنف حديثه قائلا :
 - لقد ورثت الحق على الاسلام والمسلمين من قومها المجوس ،
 فهى رغم اسلامها لا تنسى امجاد قومها التى قوضها الاسلام لىبنى
 مكانها صرح التسامح والحب .. فى نفوس ورثت احقادا تفرز
 الصديد والعلقم داخل قلوب مريضة فيخون أصحابها كل عهد ،
 وكل معنى اسلامى حر ... مهما طال الزمن ، وتقادمت الايام
 وهؤلاء لا يجدون بأسا ان يتحالفوا مع اعداء الدين من الفرنجة
 الطامعين فى أرضنا وعرضنا وثوراتنا .
 وسكت احمد الدنف ، فساد صمت عميق ، كأنما كلماته -

خلال هذا الصمت - تحفر لها طريقا في النفوس التي استمعت اليها .. ووجمت لهولها وبشاعتها .. وسعل الشيخ زكي البتوكي ، وقال :

- نحن نحس هذا الخطر من زمن ، ولذا نخفي أبحاثنا عن كل العيون ، ولا نرسلها الا معكم الى الخليفة في بغداد لتحفظ وتحرس في خزانة الحكمة ، ولا بطلع عليها الا اهل العلم والصناعة الذين يشق فيهم الخليفة ، ليحولوها من مجرد أبحاث علمية الى آلات تخدم الحياة وتحفظ الوطن وانسان الوطن .
قال احمد الدنف :

- في خلال هذا الاسبوع اعد كل ما تريد إرساله ، وسأوصله بنفسى الى خزانة الحكمة .
وقال حسن شومان :

- هذه الرسائل اشارت الى عملاء في جهات من ارض مصر ، أحب ان تسمح لنا ان نكشف أمرهم بأنفسنا ، فقد يكونون مخدوعين بوعود زائفة او كلمات براءة ، ونستطيع بالاقناع ان نعيدهم الى جادة الصواب .
قال احمد الدنف :

- في الليل نتدارس كل ما تجمع عندنا من معلومات ، ويقصد أحدكم الى النوبة ، والثانى الى الصعيد والثالث الى الدلتا في نهاية الاسبوع .
قال على الزبيق مندفعاً :

- ولماذا التأجيل لمدة اسبوع ، لا أحب ان اكون سبباً لتعطيلكم عن مهامكم ..

ضحك احمد الدنف وهو يقول :

- تأهيلك لمهتك الآن هو الشيء الأهم ، أما الباقي فهو عملنا المعتاد ، ونحن نحتاج هذه المهلة لتدارس الأمر .. .
ظل على الزبيق في اندفاعه قائلاً :

- ولكنى جاهز من الآن .

ضحك عمر العيار وهو يقول :

- لن تهرب من التعلم أبداً ، ففي عملنا الموهبة والذكاء وحبهما ليسا كافيين .

قال على الزبيق :

- فماذا سأتعلم ؟

ضحك احمد الدنف وهو يقول :

— ستبدأ كل صباح معى تتعلم الفروسية والسلاح ، خدع الحرب والقتال راكبا وراجلا ، بالحربة والسيف والخنجر والسهم والدبوس .. ثم تبدأ دروسك مع شحادي أبو حطب في فنسئون المصارعة والملاكمة والنزال رجلا لرجل ورجلا لعدة رجسسال ، وليست المصارعة التى تتعلمها هى مصارعة الرميلى وقره ميدان ، بل ستتعلم كل ما تفننت فيه الشعوب من ضروب العراك باستعمال المعرفة بمراكز الأعصاب ومواطن الضعف ، والمقاتل فى جسسد الانسان . ثم نتركك الشيخ زكى ورجاله وهؤلاء سيتولون تعليمك العلم والحساب والفلك بحيث توظفهم فى حياتك ومهمتك ، كيف تهتدى بالنجوم فى الصحراء ، وكيف تعرف الشرق من الغرب ، وكيف تستولد النار الحارقة ، والعبوات الناسفة والأبخرة التى تشكل الحركة وتخدر الجموع الحاشدة ، كيف تستخرج طعامك من الجماد ، وكيف تفرق بين ماهو سام وماهو غير سام من انواع النبات والحيوان ... دنيا من المعرفة لا بد لك منها كإنسان من ناحية ، وكمقدم من مشايدى من ناحية اخرى .

قال على الزبيق فى ذهول :

— كل هذا فى سبعة أيام .

استأنف أحمد الدنف حديثه قائلا :

— أهم ما طلبت أن يعلمك آياه هو فنون الآلة ، وأسرار الحركة ، والمعرفة العلمية التى نتحكم فى الأشياء كظواهر طبيعية وآلات من صنع الانسان يحرس بها أسرارها ، ويبعد بها الفضوليين عن كنوزه ، ويصنع بها آلات المعرفة والحكمة ، وآلات الدمار والحرب ، والمدينة المرصودة ، والشخص النحاسى ، والسيوف المتحركة فى الجزيرة المعزولة .

قال الشيخ زكى البتوكى بصوته الوقور ونبراته الهادئة :

— ومن يعرف ماذا ستلقى فى طريقك مما صنع بالحكمة ، واستغلت فيه المعرفة من فخاخ واطار تحتاج منك أن تتسللح بما ينير لك طريقك لتجاوزها ، والافلات منها ...

قال على الزبيق فى سداجة :

— تعلمت أن ادخل على كل خطر بقلب جسور ، وانصرف

بدكائى ، وفهمى ، وبكل ما عندى من أمور العياقة والسطارة

فاذا كل خطر يزول ، وتختفى حتى الشياطين من أمامى ..

ضحك الشيخ زكى البتوكى ضحكته الهادئة ، وقال فى ثان :

— القلب الجسور مطلوب يابنى فى كل حين ، ولكن الدكاو والفهولة

والشطارة لا تصلح أمام العلم ولا أمام ما صنع بالعلم والمعرفة ...
العلم لا يفله إلا العلم .. وقد آن لك أن تتسلح به إلى جوار
الشطارة والعيافة ، فعدونا قد بدأ يستعمله ويسبقنا وكنا السابقين .
ضحك عمر العيار وقال :

— هل تهرب من التعلم يا على .. ؟

قال على وهو يطرق :

— بل أنا مبهور بما أسمع .. وساكون تلميذا مطيعا .

قال أحمد الدنف :

— وبعد العلم يأتي دور الشطارة والعيافة ، فبعد الظهور
يعلمك حسن شومان فنون تسلق الجدران ، وفتح ما يستعصى
من أقفال ، والقفز من مكان إلى مكان ، وخفة الحركة واليد ،
وحدة الملاحظة ، وسرعة التصرف ، أما في الغروب فمعلمك هو عمر
العيار ، ليعلمك فنون التنكر ، واستعمال الشعر والادهان والاصباغ ،
ويعلمك تقليد الأصوات بالتقان ، وكيفية التحكم في عواطفك لتلبس
لكل شخصية تقلدها لبوسها .

ضحك الشيخ زكي البتوكي وهو يقول :

— البرنامج حافل يا بني ، وسنبدا الآن بعد أن نتناول افطارنا

ولاسبوع كامل .

وصفق الشيخ زكي البتوكي ، فظهر خدم الامس من جانب
من الحديقة ، فأشار اليهم بيده ، وسرعان ما امتدت أمام الجميع
مائدة افطار شهية ، تذكر على الزبيب حين رآها أنه جائع ، فنسى
هموم اليوم ، والعناء الذي ينتظره خلال اسبوع كامل ، وانقض
على الطعام في رغبة واشتهاء .

رياح الخوف

كان جائعا جدا وكأنه لم يأكل منذ زمن طويل ، واخذ يصفق بيده في الحاح حتى يأتي الخدم بالطعام ، وكان يريد لحما دسما قد تم شواؤه ونضجه وتنزت دهونه حوله ، وحول اللحم ارز بالمكسرات ، تفوح منه رائحة التوابل والافاويه ، وكان في البستان ، حوله أشجار ضخمة ، ولكن الزمن كان غريبا ، فهو ليل مفيض بضوء شاحب ، أهو الفروب ، أم هو الشروق ، أم ان البستان يتسرب اليه ضوء مشاعل من ردهة بعيدة ، وعاد يصفق من جديد ، فظهرت الجارية من خلف الشجرة ، واختفت الشجرة ، هل الجارية هي الشجرة ، أم الشجرة هي الجارية ، كانت حلوة ، قدها مباس ، وشعرها طويل أسود كث ، واقتربت منه وهي تبسم ، وأشار اليها بيده فوقفت مكانها وهي تنظر اليه ، وكان في نظرتها شيء يبعث القشعريرة في الجسد ، كأنها جائعة ، وكأنها تريد أن تأكل ، وعاد يشير اليها بيده من جديد ، فابتسمت ، ورفعت كفيها وصفقت ، فبدأ الخدم يتوافدون من كل أنحاء البستان ، يحملون الصواني الثقيلة تفوح منها ابخرة الطعام ، ووضع الطعام أمامه ، لحم كما أحب فوق ارز بالمكسرات ، ودهن كثير ، ومد يده يفوص في الطعام ، ويحمل اللحم الى فمه ويأكل ، ويأكل ويأكل ، ويحمل حفنات الارز الى فمه ، ويحطم بأسنانه المكسرات فتحدث صوتا له وقع رقيق في اذنيه ، والدهن يملأ يديه ، واللحم لا ينفد ، وهو لا يشبع ، ولكن ما يأكله ليس لحما ، هو جلد ، هو طين ، يملأ فمه ولا يستطيع ان يتخلص منه ، ومعدته تمتد أمامه وقد امتلات ، ثم تمتد وقد اتسعت ، ويضع يده على بطنه ، ولكنه لا يستطيع ان يمنع تضخمها ، والمكسرات في فمه حصى ، حين يمضغها تنكسر أسنانه ، ويبلغ هو أسنانه التي تكسرت ، والمرأة تنظر اليه وفي عينيها جوع ، ورفع يده ينظر الى الدهن اللزج يغطيها ، ولكن ليس دهنا ، هو دم ، دم أحمر قان ، ثم دم أسود ويتحول لونه الى الزرقة ، وصرخات من الردهة ، تعلو وتقترب ، وتعلو وتقترب ، صرخات عذاب ، وصرخات احتضار ، ووقع سياط تمزق الظهور ، وبكاء طفل ، وعويل امرأة .. والمرأة

أمامه تقترب منه وتفتح فمها ، أسنانها انياب ذئبة ، وتمد يديها ،
أظافرها مخالب حداة . ومد يده الى سيفه ، كان ثقيلًا ، وكانت
حركته هو بطيئة والمرأة تقترب منه ، شعرها لفحة هواء ساخن ،
ومن عينيها يقدح شرار ملتهب ، وضرب بالسيف ، واختفى رأس
المرأة قطعه السيف ، وظهر رأس أفعى ، ورفع يده مرة أخرى
بالسيف ثقيلًا وبطيئًا ، ثم ضرب رأس الأفعى ، وتحطم السيف ،
تمزق حده كأنه قطعة لحم ، قطعه عنق الأفعى ، وتفتح وهو يضرب
بسيفه ، ويضرب والسيف قبضة بلا حد يسقط فوق الأرض فيحدث
خبطات ثقيلة وعالية ، وهو يضرب ، والخبط يعود ، خبط ثقيل ،
وهو لا يستطيع أن يتحرك ، سمرنه مكانه ، عينا الأفعى ولسانها
المدلى .. وهى تقترب .. وهز نفسه بعنف وانتفض ، ثم فتح
عيني ذاهلتين حوله ، ومضى يجفف عرقًا منداحا فوق جبهته وصدره
بيد مرتجفة مترددة .. وازداد الطرق عنفا ، ولكنه كان صادرا من
باب الغرفة هذه المرة ، كان طرقا حقيقيا ، وكان مستيقظا تماما ،
وأن كانت حواسه مشتتة مضطربة .. وقام عن فراشه متثاقلا ،
ومضى الى الباب يفتحه ، وطالعه وجه خادمتة السوداء التى تعنى
بشئون المنزل وهى تقول فى انفعال :

— الا نستيقظ .. نحن الضحى الآن ، والناس فى الردهة
ينتظرونك ..

ومر بيده المرتجفة على شعره المشعث ، وأسرع الى قلة عند
الشباك فرفعها يشرب ماءها فى دفعات متتالية وهو يتركه ينساب الى
عنقه وصدره ، وعادت تقول فى الحاح :

— مالك ، هل أنت مريض ؟
لم يجبها ، وإنما اخذ يتطلع الى وجهه فى المرأة فهاله شحوبه ،
فهمس :

— ربما كنت مريضا ، ولكنه الحلم ..

صاحت فى انفعال :

— حلم ، خيرا ان شاء الله ، أحك لى ربما ..

صاح المقدم صلاح الكلبى فى عنف :

— أخرسى ، والأهبي بسرعة فأمدى حماما ساخنا ..

قالت فى احتجاج :

— والناس الذين ينتظرون فى الردهة ..

صاح :

- قولى لهم ينتظرون .. فالعالم لن ينتهى .. وأريد حمامى ..
والا فراسى سينفجر ..
وهرولت المرأة مسرعة تعد له حمامه الساخن ، بينما استند
المقدم صلاح الكلبى الى حافة سريره وتاوه فى تعاسة وآلم .. كانت
هذه الكوابيس المخيفة تعاوده هذه الايام كثيرا ، حتى أصبح يخشى
ان ينام .. نفس الشراهة فى اول الحلم ، ونفس الطين فى فمه فى
وسط الحلم ، ونفس الرعب فى نهايته ..

كان المقدم عثمان يذرع ردهة بيت المقدم صلاح الكلبى فى قلق
وضيق ، وقال للمرة العاشرة :
- تأخر المقدم كثيرا .. لست ادرى ما الذى جرى له هذه
الايام .

اجابه المقدم عباس الاشول فى ضيق :
- هل جلست فقد داخت راسى من حركتك التى لا تنتهى هذه
.. وانا قلق مثلك ، ولكن كان لابد لنا من الانتظار ، فلنتظر فى
هدوء يليق بنا ، ولسنا صبية صغار بهزنا أى حدث ويذهب
باتزاننا ..

توقف المقدم عثمان وهو فى وسط خطواته .. وحملق فى وجه
عباس الاشول المتقع ، ثم ابتسم وهو يقول :
- صدقت يا مقدم .. صدقت .. وما كان لى ان اقلق وكل
شئ تمام والحال عال ، والسلطان لم يرسل الحاجب ثلاث مرات
حتى الآن ، مرتين الى القاعة ومرة هنا فى الدار ليستعجل حضور
المقدم صلاح الكلبى الى الديوان .. ولكن لا بأس ، علينا ان ننتظر
فى هدوء يليق بنا ..

قال المقدم عباس الاشول فى حدة :
- كأنك تسخر منى بهذا الكلام يا مقدم عثمان ..
وتجمع غضب المقدم عثمان فى صدره ، وتجمعت احباطات
الامس كلها وضيقه وغضبه ، وكاد ينفجر فى عباس الاشول بما
لا يحب من القول ، لولا دخول المقدم صلاح الكلبى الى القاعة ،
ولولا منظره الشاحب المرهق ، الذى ألجم لسانه ، وجعله ينظر
اليه فى دهشة وقد نسي غضبه ، ومضى يسأله فى اهتمام :
- ما الخبر يا مقدم صلاح .. هل أنت مريض ؟

ادار المقدم صلاح الكلبى فى تابعيه عينين محمرتين مجهدتين ،
وهز رأسه فى ضيق ، وقال :
- هذه الايام أصبح النوم عندي عناء وتعاسة ..

قال المقدم عثمان في اشفاق :
 - أنت تخطف النوم خطفا يا مقدم ، فانت لم تدخل فراشك
 الا مع فجر اليوم الجديد ..
 تنهد المقدم عثمان وهو يقول :
 - ومع هذا لا اهدأ بالنوم ، وتنتابني الكوابيس ..
 صاح المقدم عثمان في تعاطف :
 - كوابيس ، ابعد الله الشر عنك يا مقدم ، هي من عمل
 الشيطان فاقرأ الصمدية قبل ان تنام وهي تبعد عنك كل رجس ..
 قال المقدم عباس الاشول في ضجر :
 - اذا ما انتهيت من هذا الكلام ، اخبروني متى سنذهب الى
 الديوان فالسلطان ينتظر .
 انبه المقدم صلاح الكلبى على نبرات صوت عباس الاشول ،
 فنظر اليه في حدة وقال :
 - السلطان ينتظر .. ينتظر من ؟
 قال المقدم عباس الاشول :
 - ارسل احد الحجاب الى القاعة بحسب انك نزلت اليها
 مبكرا كالمعتاد ، فلما اخبرته انك لم تصل بعد ، عاد وارسله الى
 هنا ، وهو يطلبك في عاجل الحال ..
 قال المقدم عثمان :
 - قلبى لا يحدثنى بخير ، لعل فاطمة ذهبت تشكو هجومى
 امس على بيتها بحثا عن الزبيق .
 قال المقدم صلاح الكلبى :
 - انظن ان على الزبيق له مثل هذه الاهمية عند السلطان ..
 قال المقدم عباس الاشول :
 - المهم ان نسرع ، ولا ندع السلطان ينتظر ، فربما كان الامر
 ان اهل القاهرة اشتكوا من الحصار الذى ضربته امس ، ومن اننى
 كنت افتش كل الخارجين من ابوابها ..
 قال المقدم صلاح الكلبى :
 - ماذا ننتظر ؟ هيا بنا الى الديوان وسنعرف كل شئ هناك ،
 ومواجهة البلاء خير من انتظاره ، فلعله كابوس الامس سيتحقق
 بشكل او بآخر .

فوجيء القاضى نور الدين وهو يتابع حركات ذراع عباس البخراتى
 تتحرك بالمبخرة فى انحاء الدكان بفاطمة تقف فى مدخل الدكان وهى
 تقول :

- أريدك معي يا أبي ، فأصرف عم عباس ، واغلق الدكان ،
 وتعال معي ..
 نظر إليها أبوها لحظات متأملاً ، وقال :
 - لم أرك في مثل هذا القلق يا فاطمة ، حتى تحية الصباح نسيت
 أن تقولها .
 قالت فاطمة في توتر :
 - أريد أن أذهب إلى الوالي فقد نقض صلاح الكلبى منديل
 الأمان الذي أعطاه لعلی ..
 قلب القاضي نور الدين حاجبيه ، وقال :
 - الهدوء يا فاطمة .. هو والى الخليفة على مصر ، ولكن هنا
 اسمه السلطان ، ولن ينفع ذهابي معك أن لم تعدى بالتزام الادب
 في خطابه - أما على ابنك هذا فلا خير فيه ، هذا رأيي فيه منذ
 طفولته .
 قاطعه صوت عم عباس المبخراتى وهو يقول ، ويده تروح
 وتجيء بالمبخرة التى يملأ دخانها الدكان :
 - حى .. قيوم .. وحدوه .. على يا سبدي القاضي كان زينة
 الصبيان ، وانجب الفتيان ، وهو فخر الشاب اليوم ، ألم يحصل
 على منديل الأمان بالشطارة والعيافة والشجاعة .
 - صاح به القاضي نور الدين فى ضيق :
 - تزج انفك فى كل حديث يا مبخراتى ، أنت تنشر البخور ،
 أم تتسمع على ما يقوله الناس ، اتق الله فى شيبتك يا رجل .
 قالت فاطمة وهى تبسم :
 - هو رجل طيب يا أبى ، وهو يحب ابنى على .
 تنهد القاضي نور الدين وهو يقول :
 - ومن لا يحبه يا فاطمة ، إنما كنت أرجو له مستقبلاً آخر
 فى دنيا العلم والمعرفة ، لا دنيا الشطارة والعيافة كإبيه .
 قالت فاطمة :
 - هذا حديث معاد لا طائل من ورائه ، هل ستجىء معي ،
 أم أذهب وحدى إلى الديوان ؟
 قال القاضي نور الدين وهو يتنهد :
 - بل أنا قادم معك ، فلا يليق أن تذهبي وحدك أمام السلطان .
 ومضى يجمع الأجولة المرصوفة خارج المحل ، وهو يقول
 لعم عباس المبخراتى :
 - اترك هذه المبخرة وتعال سامدنى لأغلق الدخان ..

ولم يتكلم عم عباس ، وانما ترك مبخرته خارج الدكان ، ومضى يحمل مع القاضي نور الدين أجولة التمر والكر كديه والخروب الى داخل الدكان . ولما انتهى حمل مبخرته ، واقترب من فاطمة قائلاً :
- ابنك منصور يا سيدة فاطمة ، ونحن كلنا ندعو له .. سبحان الله .. حتى .. قيوم ..

ومضى مبتعداً بينما أمسك القاضي نور الدين بعصاه في يده ، وبالمسبحة في اليد الأخرى ، وهو يقول لابنته في رقة :
- هيا بنا يا فاطمة ، وليكن اعتمادنا على الله ..
ومضى يسير وهي تتبعه ، ويده تدور بالمسبحة ، وشفتاه تنطقان في همس بتسبيحاته ، ولكنه حين التفت وراءه وجد فاطمة قد تلثمت تخفى وجهها ، فوقف حتى حاذته وسألها :
- ولماذا اللثام يا فاطمة ؟
قالت :

- لا أريد لأحد أن يعرفني في الديوان قبل أن أعرف ماذا يجري حولى ..

- ضحك القاضي نور الدين ضحكة خافتة ، وهو يقول :
- من لم يعرفك من رؤية وجهك ، عرفك بوجودي معك ..
ثم هز كتفيه وتنهد وقال :
- ولكن لك ما تشائين ..
ثم مضى الى الديوان ، وهي تتعقبه في صمت ..

كان الاضطراب والقلق يسودان الديوان هذا الصباح ، وقد كثر فيه الحراس المسلحون بشكل واضح ، وكان السلطان يجلس ومعه الوزير والقاضي في صدر الديوان يتحدثون في همس ، وبين الحين والآخر ينضم اليهم السلحدار والمفتي ، ثم يتركونهم ليفسحوا أماكنهم لقائد الجيش والمحتسب والكاتب ، ويترك هؤلاء أماكنهم بعد حين لغيرهم من رجال السلطة وأعمدة الديوان ، بينما وقف اصحاب الحاجات في ناحية يتململون في وقفتهم وهم يتهايمسون فيما بينهم ..
وهمست فاطمة في اذن أبيها القاضي نور الدين قائلة ، وهي تجول بعينها في أرجاء القاعة :

- انهم خائفون يا أبي ..
همس القاضي نور الدين مجفلاً :
- خائفون ؟ ما هذا الكلام يا ابنتي ..
همست فاطمة من تحت لثامها :

— أحس ربح الخوف يسرى في هذه القاعة ، الوجوه مذهورة ، والعيون قلقة ، والحركات مضطربة وكأنهم في انتظار شيء ، أو أحد . وقبل أن تتم حديثها حدث لفظ عند الباب فتطلعت كل الانظار اليه ، ودخل المقدم صلاح الكلبي ومعه المقدم عثمان وعباس الاشول ، وكانوا جميعا مدججين بالسلاح ، تبدو العجلة والانفعال مع حركاتهم ، وهم يتقدمون نحو السلطان الذي التفت من حديثه الهامس مع الوزير والقاضي ، ورفع رأسه ناحية المقدم صلاح الكلبي ، ورد تحيته في عجلة ، وهو يقول :

— تأخرت يا مقدم صلاح حتى قلطنا عليك .
قال المقدم صلاح الكلبي وهو يتقدم في ثقة ناحية السلطان :
— انها أمور الدرك يا مولاي ، فقد كان الامس يوما حافلا ، اما ليلة امس فلم اتم لا انا ولا كل رجالي ..
قال السلطان :

— تقصد أن أحدا من رجال الديوان لم ينم في هذه الليلة الحافلة ؟

قال المقدم صلاح الكلبي في دهشة :
— رجال الديوان ؟ وما دخل رجال الديوان في أحداث الامس ؟
التفت السلطان الى الوزير الى جواره ، وقال :
أخبره يا وزير .

سئل الوزير . وعبث في لحيته ، ثم قال :
— سرقت داري امس ، دخلها اللصوص وعاثوا في أرجائها ، ونقبوا في كل جزء منها دون أن يحس بهم أحد ، ولولا أرق زوجتي ما أحس بهم أحد . وقبل أن تنبه الحرس كانوا قد هربوا .
نظر المقدم صلاح الكلبي نحو الوزير في حدة ، وهو يسأل :
— وماذا سرقوا ؟

ضحك الوزير في ارتباك ، وعاد يعبث في لحيته من جديد وهو يقول :

— هذا هو الشيء المدهش حقا ، لم يسرق شيء ..
ففر المقدم صلاح فاه في دهشة وهو يردد :
— لم يسرق شيء . كيف ؟

قال الوزير وهو يضحك ضحكة جوفاء :
— أنت تسأل ، وأنا أسأل .. ولا أحد يجيب ، كيف يدخل اللصوص بيتا مليئا بالمال والجواهر والتحف ، ويعبثون بكل شيء ،

ويفتشون في كل مكان ، ويخرجون خاوي الوفاض رغم كل ما عثروا عليه من مال وجوهر .

تمتم المقدم صلاح الكلبى لنفسه بصوت مسموع :

— الحكاية تتكرر من جديد .

فقال السلطان :

— اذن فانت تعرف ، لقد تكررت نفس الحكاية مع القاضى والمفتى

والكاتب والمحاسب والسلحدار ، بل مع كل واحد من رجال الديوان ..

صاح المقدم صلاح في ذهول :

— تكررت معهم .. تعنى يا مولاي انهم ..

اكمل السلطان قائلا :

— نعم تم السطو على منازلهم ولكن لم يسرق شيء .

ووجهم كل من في الديوان ، وهمست فاطمة في اذن ابيها قائلة :

— ألم اقل ان رياح الخوف تملأ الديوان هذا الصباح .

ثم تقدمت في ثبات الى ناحية السلطان وهى تقول بصوت جهورى

اسكت كل التمتعات في القاعة الواسعة :

— مولاي السلطان ، جئتك شاكية اليك نفسك ، فاعطنى الامان

لاتكلم ..

ووجهم السلطان وهو ينظر اليها متحيرا ، فرفعت فاطمة اللثام

عن وجهها ، وهمس المقدم عثمان في اذن المقدم عباس الاشول :

— هذه فاطمة امرأة حسن رأس الفول ، وأم الزبيق ، مصيبة

جديدة ..

همس المقدم عباس الاشول في اذنه :

— اسكت ، وتمالك نفسك ، وانتظر ..

قال السلطان وهو يعتدل في جلسته :

— من السيدة ..

تقدم القاضى نور الدين الى أن حاذى ابنته وقال :

— انها ابنتى يا مولانا زوجة مقدم دركك السابق حسن

رأس الفول ، وأم مقدم الدرك القادم على الزبيق الذى وعدته

بالمقدمة ان احضر النفيلة ، واعطيته منديل الامان .

واندفع السلطان دون تفكير قائلا :

— مرحبا بالسيدة الجليلة ، وما شكايك ، نحن عند وعدنا .

قالت فاطمة :

— بل لقد نقضتم الوعد يا مولاي حين هاجم رجال دركك دارى

بعد منتصف الليل بحثا عن ابني الذي اعطيته في هذا الديوان ، وامام كل من فيه ، منديل الامان ..
وارتج على السلطان فالتفت الى المقدم صلاح الكلبى محرجا ، وقال :

— كيف حدث هذا دون علمي يا مقدم صلاح ..
شحب وجه المقدم صلاح الكلبى ، ولكنه تمالك نفسه وقال :
لم يكن هناك وقت لاستئذانكم يا مولاي السلطان ، كان لابد من البحث عن هذا السارق الذى أقلق المدينة كلها أمس ..
قالت فاطمة في غضب :

— تعنى انك تشك في على ؟
ضحك المقدم صلاح الكلبى ضحكة صفراء ، وقال :
— كل لص معرض للشك .
صاحت فاطمة في غضب متزايد :
— ليس على لصا يا مقدم ، ومنديل الامان من السلطان يعنى انه عفا عنه .

استمر صلاح الكلبى في لهجته المستفزة قائلا :
— اللص . لص ، اعطى منديل الامان ام لم يعط .
قالت فاطمة بنفس لهجته :
— او غدا مقدما للدرك ام لم يقد .. اليس كذلك يا مقدم صلاح ..

قال السلطان منهي حوارهما الحاد :
— هذا يكفي ، لقد صدقت السيدة فاطمة لقد اعطينا عليا منديل الامان ، وما كان يجب البحث عنه او تفتيش داره دون استئذاني .
قال صلاح الكلبى وهو ينظر الى فاطمة نظرات نارية :
— هذه ضرورة الامن يا مولاي .

وهنا ثارت ضجة بين صفوف اصحاب الحاجيات ، فرفع السلطان رأسه ناحيتهم وصاح :
— ما هذا ؟ ما كل هذه الضجة ؟
تقدم الحاجب نحوه وهو يقول :

— اصحاب الحاجيات اليوم كلهم من التجار ، تجار الاقاليم ، وكلهم يروون شكوى واحدة ، ان الدرك استوقفهم أمس وفتشهم ، ومنعهم من العودة الى بيوتهم ، وهم يريدون عرض شكاواهم ..
على مولانا السلطان ..

قبل ان يجيبه السلطان اسرع صلاح الكلبى قائلا :

— دواعى الأمن يا مولاي ، كنا نبحث عن المسروقات ..
ضحك القاضي نور الدين وتدخل في الحديث لأول مرة قائلا :
— ولكن الكل يقول انه لم يكن هناك مسروقات .
قال صلاح الكلبى في عناد :
— كنا نبحث عن اللصوص وحاصرنا المدينة حتى لا يهرب واحد
منهم ..
قالت فاطمة :

— تبحث عن لصوص لا تعرفهم يا مقدم صلاح ، وتهاجم منزل
رجل تعرف انه قد سافر في مهمة أنت الذى أرسلته فيها .. كل هذا
» باسم دواعى الأمن ..
وقال القاضي نور الدين :

— مولاي السلطان ، لا شيء هناك يبرر ترويع الأمنيين ، ومهاجمة
البيوت بعد منتصف الليل ، ومتع العائدين الى قراهم ، وتفتيش
المسافرين ..

قال المقدم صلاح الكلبى في عناده :
— انا أدري بما يجب فعله لحفظ الأمن ..
ضحكت فاطمة في سخرية وهى تقول :
— تقوض أمن الناس باسم الحفاظ على الأمن .. هذا هو
العصف .

قال السلطان في صوت متردد :
— الناس لا ذنب لها يا مقدم صلاح ..
قال المقدم صلاح الكلبى في اصرار :
— انا أعرف ماذا كان هؤلاء اللصوص يريدون ، وعم كانوا
يبحثون ، وهى أشياء لو حصلوا عليها لانكشفت أسرار كثيرة تمس
أمن البلاد ، وأمن مولاي السلطان ..
وتراجعت نظرات السلطان أمام نظرات صلاح الكلبى ذات المعنى ،
وقال :

— لا .. أمن البلاد أهم من كل شيء ..
قالت فاطمة
— يا مولاي أنت تطلق يد صلاح الكلبى في رقاب العباد باسم
أمن البلاد .

عاد السلطان يكرر في اصرار وبلادة ..
— بل أمن البلاد أهم — افعل ما تراه صالحا يا مقدم صلاح ..
قالت فاطمة :
— ومنديل الامان لعلى هل سحبتة يا مولاي .

أمرع المقدم صلاح الكلبى يقول :
— أنت تقولين أنه سافر ، غادر البلاد بالفعل ، وما دام قد
سافر فلن يتعرض له أحد بسوء ، ومنديل الأمان كما هو لم يمسه
أحد ..

قال السلطان :

.. صدقت يا مقدم صلاح .. لم يمسه أحد .
أطرقت فاطمة ، وهى تمد يدها الى كتف أبيها ، لتدفعه الى
الخروج معها ، وهى تقول :
— هذا سلاح ذو حدين يا مولاي ، فتقويض الأمن باسم الأمن
يضيعه بلا عودة ..

قال المقدم صلاح الكلبى فى خبث :

— هل تهددين مولاي السلطان .
قالت فاطمة وهى تنجس الى باب الديوان مع أبيها ..
— حاشا لله أن أفعل ، وإنما هى كلمة حق أحببت أن قولها
فى حضرته ، وليأذن لنا مولاي السلطان .. ثم غادرت قاعة الديوان
وسط وجوم شامل عم اهل الديوان والعسكر وأصحاب الحاجات ،
والجم لسان السلطان ..

فى الصحراء

كسر على الزبيب بقية الاغصان الجافة التى كان يحملها معه ورمى بها الى النيران امامه ، فتوهجب ، وهى تشتعل متكسرة ، ودخان ياهت يتصاعد منها ودفء يتصاعد الى جسده المقرور القابع امام (بئرة) النيران عند حنية تل صغير وسط الصحراء الخالية الساكنة الباردة .. ومد يديه المقرورتين تستقطران كل الحرارة المنبعثة من نيرانه الباهتة وهو يتأمل انسحاب الليل فى بطنه ، وذلك النور الشاحب يبدأ عند الافق . وهمس لنفسه :

— بعد حين قليل ستشويك نيران الشمس من جديد ..
وضحك ضحكة جافة وهو يقول :

— قر بارد مخيف طوال الليل ، ثم هذه الدقائق المريحة ، ثم الحر اللافح اللعين طوال النهار .. ترى كيف يمكن للحياة أن تدوم فى مثل هذا القلب بين البرد والحر ..

وتلفت حوله كأنها يتوقع أن يسمع جوابا لسؤاله من خلاء الصحراء الممتدة .. ثم عاد يضحك وهو يرمى فى الاناء امامه باقى حبات القهوة التى تبقت فى جرابه فهو يحتاج اليها لبدأ رحلة اليوم الجديد ، وهز رأسه فى أسى ، كانت هذه هى آخر حبات القهوة ، وكان الماء هو كل ما تبقى لديه ، لم يعد يملك الا جرعات قليلة فى اليوم الثالث من أيام رحلته فى الصحراء القاحلة . وتذكر تحذير المقدم أحمد الدنف له وهو يودعه :

— هذه الرحلة تنتهى فى يومين أو ثلاثة ، اياك أن تخذلك دروب الصحراء فتبقى فيها حتى اليوم الرابع .. وها هو المحذور قد وقع .. هذا هو ثالث الايام ولا يبدو للصحراء من نهاية ، لم يخطئ فى تنفيذ التعليمات ، ولا انتهاج الطريق ، ولكن الايام تمضى والصحراء لاتزال تمتد امامه ..

ورفع بصره الى نجمة الفجر اللامعة يحدد مكانها فى السماء الصاقية الداكنة اللون تلوح من بعيد أشباح حمرة شاحبة تريد أن تطل عليها عند الافق ، وحدد وجهته بالنسبة لها ، هى هاديته وعلميه أن لا ينسى مكانها عندما تفرقها اشعة الشمس وتخفى بريقها .. ومد يده الى اناء القهوة يمسكه بحذر بين كفيه اللتين ارتاحتا الى سخوفته ، ومضى يرشف قهوته فى تأن واستمتاع ..

بعد قليل يركب ناقته المتعبة ، ويأخذ سمته من جديد في اتجاه المدينة المرصودة ، ولم تكن المدينة المرصودة هي بغيته الآن ، بل كان هدفه المحدد هو أن يصل الى الواحة حيث البئر المسماة ببئر النجاة، وابتسم لنفسه وهو يردد اسم البئر (بئر النجاة) .. لاشك أن من أسموه بهذا الاسم مروا بمثل ما يمر به الآن من محنة .. من يدري وربما كانت المحنة عليهم أقسى وأمر ..

وفرغ من شرب القهوة حتى آخر قطرة في الاثناء ، ورمى حبات القهوة فوق النار فأحدثت هسيسا خافتا ، وانبعث دخان مغبر بينما فاحت في الجور رائحة القهوة المحترقة .. وتنهّد وهو يجمع حاجياته ويضعها فوق الناقة المنتظرة في صبر ، وركزها فقامت به متثاقلة، ثم حرك مقودها الى الاتجاه الذي حدده، ومضت تستقبل رحلة النهار في نشاط وتوثب .. وأدرك على الزبيب سر اصرار المقدم احمد الدنف أن تكون رحلته بالناقة لا على متن جواد ، فالناقة لاشك أقدر ، لقد صدق حسن شومان حين قال حين أبدى نفوره من ركوب الناقة : - سيأتى عليك وقت في رحلتك هذه تعرف قدر الناقة، وفضلها في مثل هذه الرحلة على أقوى جواد ركبته في حياتك ..

وما كان له أن يشك في كلام المقدم حسن شومان ، فقد عهدء فارسا لا يشق له غبار ، وعرف فيه حبه للخيل وعنايته بها ، وقد صدق في كلامه .. وابتسم على الزبيب لنفسه وهو يذكر هذا الاسبوع الحافل الذي قضاه بين هؤلاء الرجال يتعلم منهم ضروبا جديدة في النزال ، وحيلة جديدة في العياقة وفنوننا جديدة من الحيل ، وعلوما ما كان يعرف عنها شيئا .. لو ترك له الامر لك هذا الاسبوع الى شهور وشهور ، فما كان يمر يوم جديد الا وهو يحس بضالة ما يعرف وقلة ما يدرك ، وصفار ما يتقن .. وكان كل يوم يزداد معرفة وعلماء، وتتفتح مداركه ، ويزداد اتقانه لما يتعلم .. ومر الاسبوع بسرعة غريبة ما يكاد يضع رأسه على الوسادة في نهاية كل يوم حتى يروح في نوم عميق لا أحلام فيه ليبدأ اليوم الجديد في اقبال ونشوة .. ورغم أهمية كل فترات اليوم الحافلة الا ان جلسة السمر قبل النوم التي كانوا يتحلقون فيها عند النافورة حول الشيخ زكي البتوكي كانت أهم هذه الفترات عند الزبيب ، اذ كان يعرف فيها الكثير عن نشاط احمد الدنف ورجاله ، وعن أسرار ما يجري في القاهرة ودمشق وبغداد .. كان هذا العالم الرحب بعيدا عنه لا يعرف منه شيئا ، عدل الخليفة في بغداد وأهتمامه بأمور الرعية وحرصه على تحقيق الامن لكل مسلم في بقاع ملكه الواسع ، ورعايته لحقوق النمين وحفاظه على أموالهم

وكرامتهم وحررياتهم ، ربط اجزاء الخلافة بالبريد والطريق المعبدة
الامنة . الضرب بشدة على ايدى اللصوص وقطاع الطرق والخارجين
على القانون ، كل هذا مع الغزو المستمر لبلاد الافرنج ، وتأمين الحدود
معيهم ، والتنبيه الدائم لأوامراتهم ودسائسهم ، والقضاء على عدوانهم
الذى لا يفترو ولا يهدأ أبدا - فأطماعهم في بلاد المسلمين شيء في أعماقهم ،
وحقدهم على ثروات الخلافة وازدهارها وتقدمها ينهش قلوبهم . هو
شيء مقيم في أعماقهم ، كان منذ نور الاسلام العالم بوجوده - فكرا
وعقيدة وسلوكا وعبادة - ويظل الى الابد - هي حرب سجال لا هدنة
فيها أبدا - ولا سلام ، الا اذا كان بين الذئب والشاة سلام ، او
بين أسد الصحراء والبقرة الوحشية سلام ، او كان بين النسر الجارح
وحماة الارض المسالمة سلام .

ووقفت الناقة فجأة ، فانتبه . . كان امام تل صخرى ناتية وسط
الصحراء ، وكان لابد له أن يدور حوله ليجوزه - ولكن كان لابد
له أن يفعل هذا في حذر وتؤده ، حتى لا يفقد توجه طريقه فيضل
ويضيع وسط الصحراء . . الناقة نبهته بوقفها المفاجئة ، وهو
افاق من تأمله على العقبة التي تواجهه . . واحس بالعرق ينساح
على جبهته ، ويفطى عينيه ، ويملا أعطافه كلها . . متى حدث
هذا وكيف . . ؟ استفرقت افكاره حتى نسي انه على الطريق . .
وان الشمس الحارقة تصب قيظها في رأسه ، فتختلط افكاره
وتضطرب وتوهن من عزيمته حتى لا يستطيع أن يتحكم في مقود
ناقته التي وقفت في عناد رافضة كل محاولاته لدفعها لاستئناف
السير من جديد . . كان التل كأنه حائط من صخر ، تنعكس أشعة
الشمس على صخوره فينبعث منها شواظ كأنها سياط من نيران
تلهب الهواء وتجعله ثقيلًا قاسيا على الرئتين ، وعلى العينين ، وعلى
جلد الوجه واليدين . . وعاد يحث الناقة على الحركة دون جدوى
. . فدفعها لتبرك ، ونزل عنها ، ثم دفعها من جديد ، وأمسك
بمقودها ، ومضى يسير أمامها وهو يجرها وراءه جرا ، وهي ترفض
الانسياق لجذبه في عناد . . وفجأة سمع الهسيس . . كان الصوت
غريبا عليه ، ومع هذا فقد عرفه في الحال . . كان صوت أفعى
الصحراء السامة المخيفة التي يرتعد من ذكر اسمها أغنى الرجال ،
والتي تقضي عضتها على الرجل في دقائق ، وعلى الدابة مهما كبر
حجمها في ساعات . . ورفع على الزبيق رأسه يبحث عن مصدر
الصوت ، كان ساكنا في مكانه لا يتحرك ، فقط كانت عيناه تجولان
باحثة في الصخور التي تواجهه . . وفجأة تجمد في مكانه ، وسكنت

يده التي كانت تشد مقود الناقة .. فقد رآها .. كانت منتصبية ترفع عنقها وتهس في فحيح رتيب وهي تحرك رأسها في كل اتجاه ، بينما ارتكزت على باقى جسدها المتكوم .. وكان رأسها عند عنق الناقة تماما .. وأدرك سر تجمد الناقة في مكانها ، فقد رأت الحية فسكنت في مكانها ، وسكنت الحية هي الأخرى في ترقب وحذر . فلما حاول هو أن يحرك الناقة من مكانها استفزت الحية ، واعتبرت هذه الحركة العصبية استفزازا لها في خورها ، ومد على الزبيق يده الى سيفه ، بينما استندت قبضته الثانية على مقود الناقة ببقائها ساكنة في مكانها .

الا ان حركته المفاجئة جعلت الناقة تجفل ، وتهز رأسها في عنف كأنما لتتخلص من قبضته على مقودها .. وحسدت الحركتان معا في وقت واحد وفي سرعة مذهلة .. انقضت الحية على رأس الناقة فلدغتها لدغتها القاتلة تحت الأذن تماما ، وانقض سيف على الزبيق يطيح برأس الحية ويجعلها كومة من لحم مختلج اختلاجة الموت الاكيد .. وأحس على الزبيق رغم حرارة الجو اللافة بعرق بارد يملأ جبهته وكفيه ، وارتجف جسده وهو يرقب الناقة تقفز عدة قفزات وهي تجرى كأنها أصابها العمى ، ثم تنطرح على جنبها على بعد قليل منه .. ويقلب مثقل أخذ يتقدم نحوها ، وهو يعرف - حتى قبل أن يفحص الثقبين القانيين تحت أذنها، انها وصلت الى نهاية الطريق ، وانها تحتضر تحت عذاب السم القاتل . وكان جسدها ينتفض ويتقلص وهو يتقدم نحوها ، بينما كانت تحديق فيه بعينين متعبتين ضارعتين ، فأغمد سيفه في قرابه ، وأخرج خنجره ، وهو يعض على ناجذيه في تعاسة ، فلا بد له أن يخلصها من عذابها .. ولا بد أن يواجه باقى الرحلة وحيدا .

كان ينقل خطواته في تشاقل وهو يرغم نفسه على السير أرقاما، كان كتفه ينوء بحمل الخرج الثقيل الذى اضطر الى حمله بعد أن ماتت الناقة هناك خلفه ، وخلف هذا التل الصخرى اللعين ، ومسح جبهته ووجهه يطرف ثوبه ليزيل حبات العرق التى يحس وجودها دون أن تكون هناك ، فالشمس تجففها فور انعقادها على جبينه ولا يبقى منها الا مجرد الاحساس بأنه يعرق وسط هذا الوهج ، فتمتص اشعة الشمس كل ما في جسده من ماء ، ويزداد احساسه بالعطش والجفاف .. كان قد اضطر الى ارتقاء التل ، ليجتازه دون أن يفقد اتجاهه ، أكثر من مرة كاد ينزل من فوق الصخور الملتهبة ، وأكثر من مرة توهم أن هناك ظلة تحت صخرة نائثة فاوى

اليها ، وطرده لهيب الصخر من حوله ، واستمر في طريقه حتى اجتاز التل وتركه وراءه ، كما ترك وراءه عند جثة ناقته الصريعة كل أمل في أن يحقق رحلته في الوقت المفترض لها .. ومضى برفع قدما ثقيلة ليضعها ، ثم يرفع قدما ثقيلة أخرى ليتحسسك في بطنه ، ولكن في اصرار .. لم يكن يملك الا ان يستمر في السير .. فلا تراجع هناك ، الامل ان يصل الى بشر النجاة قبل ان يفسد قدرته على الاستمرار في الحركة .. والصحراء تمتد ولا شيء يلوح في الأفق ، والأشعة المحرقة تنصب عليه من كل اتجاه ، وهو يعرق ، وعرقه يتبخر ، وهو يعطش وعطشه يبقى .. ينفي أن يفكر في شيء آخر يصرفه عن فكرة العطش ، لو ترك نفسه لما يحس لما احتمال ، وربما فقد قدرته على التحكم فرقد وسقط الرمال المحرقة واستسلم للأشعة الحارقة تذيب جسده ، وتخلط عظمه بالرمل ، وارتجف حين طافت بذهنه هذه الفكرة ، ومضى يحاول أن يسرع في سيره ، وان يجر قدميه جرا فوق الرمال ... كان لابد له أن يرغب ذهنه أن يعمل ، فنجاته في أن يبتعد عن هذا الواقع القاتل الى أن يجتازه بسلام ..

ووسط الضباب المغيث على ذهنه ، بدأت تدريجيا صورة الجلسة المسائية المريحة عند النافورة تعود اليه ، ومعها أحس بنسيمات رقيقة عذبة تهدئ عقله ، فابتسم ، ليست هناك كقدرة العقل في استدعاء الأشياء - كانت الهمسات رقيقة وهادئة ، ووسطها كان صوت الشيخ زكي البتوكي الهادي يقول :

- معظم أمراض الجسد مركزها أجزاء دقيقة من المخ ، فمداواة الجسم وحده لا تكفي ، بل يجب أن يداوى العقل أيضا ، واقصد بالعقل مراكز التوجيه في جسم الإنسان ، وهي مراكز تمتد من الرأس الى كل جزء من الجسم حتى أصابع الأقدام .

وضحك المقدم حسن شومان وهو يقول :

- نحن في صنعتنا في المصارعة نعرف مراكز حساسة من جسم الإنسان لو ضغطنا عليها بالقدر الكافي شلت من حركته ووعيه ما نريد ، ولو ازداد الضغط تعرض العدو للموت ..

وقال المقدم عمر العيار :

- لقد فسرت لي سرا كان يحيرني من زمن ، فحين كنت أتنكر في زي رجل عجوز ، واستمر على هذا التنكر زمنا سرعان ما كنت أحس بالوهن الحقيقي ، والضعف الكامل يحل بأجزاء جسدي حتى لتصبح حركاتي طبيعية وبلا جهد مني في تمثيل دور العجوز

الضعيف الواهن ، بل هناك شيء ، اذ أننى كنت لو تماديت بالتظاهر بمرض معين أو عجز معين ، سرعان ما أحس فى جسدى بهذا المرض ، وسرعان ما يصيبنى هذا العجز ، بل تظهر على أعراض طبيعية للمرض والعجز لا تحتاج الى اصباغ أو أدهنة لأحداثها فى مواطن ظهورها ..

وضحك المقدم شحاذى أبو حطب وهو يقول :
كثيرا ما شاهدت رجلا قد خدشته ضربة سيف فى ذراعه يظن ان ذراعه قد قطع فلا يقوى على تحريك أصابع كفه ويسقط السيف من يده ، وكثيرا ما رأيت رجلا يصاب بسهم قاتل وهو لا يحس به ويمضى يقاتل زمنا طويلا قبل أن يسقط عن جواده ..
قال المقدم أحمد الدنف فى تودده :

— صدقت يا شيخ زكى ، أن جسد الانسان مرتبط بعقله ، وإذا أراد المخ أن يمرض عضوا أمره فمرض ، وإذا استطاع انسان أن يؤثر على مخ آخر فيوحى له بالمرض مرض هذا الانسان ، وقد رأيت هذه الحيلة يلعب بها من يدعون لأنفسهم السحرة والكهانة ، بل يلعب بها بعض مدعى الطب ، اذ يوحون للمريض أنه شفى فيخرج من عندهم سليما معافى ، وسرعان ما يعاوده المرض بعد حين ..

المرض — المرض — يعاوده المرض — العطش ، العطش — يعاوده العطش ، التعب ، التعب ، يعاوده التعب .. هو متعب ، عطشان — بل هو أيضا جوعان .. ويحس بالغثيان ، وثقل رأسه ، ويتوقف فى مكانه ، ثم يرفع عينيه فيغشيهما ضوء الشمس المتوهج ، ويجول بهما حوله فتلهبهما شواظ منعكسة من الرمال المتوهجة ، ويحس بالغثيان من جديد .. ثم يتنهد فى اصرار ، ويعدل خرجه فوق كتفيه ، ويدفع قدميه دفعا الى السير من جديد .. فمضى يسير متثاقلا ورأسه يدور ، وكلمات متنافرة متباعدة تدور فى رأسه وتدور ..

— هم يشيرون العشائر فى كل مكان على الخليفة ..
— وهم يشيرون الفتن بين المسلمين والاقباط .
— وهم ينشرون الدعوة لبنى أمية .
— وهم ينشرون الدعوة للشيعة .
واعتمدت رأسه على صوت المقدم أحمد الدنف القوي يقول :
— أموال كثيرة تبدل فى هذا المجال ، وليست المسائل محض

صدف ؟ او مجرد دعوات تخرج ممن يعتقدون بصحتها .. نحن امام مؤامرة ضخمة تبدل فيها اموال ، وتخطط لها عقول ..

ويقول الشيخ زكى البتوكى بصوته الهادىء وهو يتنهد :
- حكاية قديمة ومعادة . لقد شهدتها قبل هذا وقضى عليها فى مهدها ، واشهدتها الآن وستنتهى باذن الله كما انتهت سابقتها ، وسأشهدها من جديد .. فمادام فى الانسان حب الظهور ، وشهوة المال الرخيص الذى لم يبذل فيه عرق أو جهد ، وضيق الافق الذى لا يجعله ينظر الا الى مصلحته الان ، ومصلحته وحده ، فستظهر هذه الدعوات ، وتستهوئ السذج وضعاف النفوس ، والباحثين عن دور يؤدونه فى الحياة ، والاغبياء ، ومن ملأ الجشع قلوبهم فانسأهم مصلحة الامة ، وامن الناس ، ومسئولية الغد .
جاء صوت شحادى ابو حطب يقول فى حدة :

- الخطابات التى عثرنا عليها وشت بوجود تنظيم له فروعه ونظامه ، فليست المسألة مسألة تحزب لفئة أو تشيع لمجموعة . وليست المسألة دينا اسلاميا أو قبطيا ، المسألة سياسة من اولها الى آخرها ..

- سياسة ، سياسة ، المسألة .. المسألة ، من اولها الى آخرها ، آخرها .. آخرها .

وتوقف الاهتزاز لسمع صوت حسن شومان وقد غلظ صوته وتضخم :

- صلات بعشائر فى الصعيد ، وأخرى فى الوجه البحرى ... وصلات بعشائر فى الواحات الغربية ، وأخرى مع بدو سيناء وأسر وقبائل ، وتجمعات من شباب ومن شيوخ ..

جاء صوت الشيخ زكى البتوكى بطيئا متثاقلا متقطعا يقول :

- هذه مؤامرة يلعب فيها الافرنج الدور الخفى ، تعمقوا فى الامر ستجدون أصابعهم تلعب فى الخفاء ، فلهم عملاؤهم وجواسيسهم وغيونهم .

وقال المقدم أحمد الدنف وصوته اكثر بطئا وثاقلا وتقطعا :
- يقولون للقبض سيهدم الخليفة كنائسهم ، ويبطل صلواتكم .. ويقولون للمسلمين ، الخليفة يسمح فى مقر الخلافة بالمجون ويسمع اشعار أبى نواس ، ويترك شعر عمر بن أبى ربيعة ويشارا يتداول بين الناس ، انهم يشربون الخمر ، لا مفر من الانقصال عن الخلافة ، والبدء هنا فى مصر من جديد .. نبدأ المجتمع الاسلامى الصحيح بعيدا عن الخلافة ، نستقل ونتعبد ، نفصل ونتهجد ، ونتحنف ..

وكان صوت المقدم شحادي أبو حطب أبداً من كل ما سمع
من أصوات ، واشد ثاقلاً وتقطب ، وهو يقول :
- وحين تنفصل الاقطار عن الخلافة وتتفرق ، يسهل على
الافرنج ابتلاع كل قطر على حدة ، ونصبح كلنا كمن ضل طريقه في
الصحراء ..

- ضل .. ضل .. ضل في الصحراء .. طريقه .. أين طريقه
.. ضل .. لقد ضل .. نعم ضل طريقه في الصحراء .. وهو
عطشان ، لسانه تضخم في فمه من الجفاف والظما .. كلنا ضل
.. لا أنا وحدي ضل .. ضل وتاه .. تاه ..

ومد يديه وبسط ساعديه ، وأطبق بكفيه فامتلاتا بالرمال
الساخنة ، وأدرك أنه سقط فوق وجهه ، وأنه لم يعد يسير ..
وأحس بالتعب ينتشر في كل أجزاء جسده ، وود لو نام .. دقائق
فقط يسترد فيها قدرته على السير . ينام .. مجرد لحظات ..
أمامه من بعيد وسط غبش من ضياء ، وريح متربة وقفت أمه
تحمل له آنية الماء ، يعرف أن هذا الماء بارد وأنه ممزوج بماء الورد
.. وضعت هذه الآنية الفخارية في آخر الشرفة ، في ملتقى ناحيتين
يتخللها الهواء الذي يهب في ساعات (العصاري) رقيقاً حانياً .. وعند
آذان المغرب في رمضان ، وبعد يوم من الصيام في صيف خانق
ينزل الماء في حلقه زلالاً عذبا شهياً ، يتفتح له كل جسده ، وتهدا
أنفاسه ، ويطرب حلقه .. هي تقف هناك رافعة الاناء الفخاري
بين يديها ، والغبش يحيط بها ، انه الغروب ، اذن المؤذنون لصلاة
المغرب ونهار الصيام انقضى .. والصبية يتصايحون منفضين من
أمام أبواب المساجد حيث تحلقوا من قبل المغرب بكثير ، يعلنون
انهاء الصيام ، وان الطعام مباح ، وان الشراب مباح ، وان الماء
مباح .. موجود ، معطر بماء الورد ، عذب ، زلال .. وسيشرب ،
ويشرب ، ويشرب ، ويشرب .. ، وهب من جلسته ، رقدته ،
سقطته .. أمامه كانت أمه تميل الاناء الفخاري فينزل منه الماء
إلى الرمال ، ويغمر الرمال ، ويستمر سقوط الماء ، والرمال تتحول
إلى ماء ، إلى بقعة من ماء إلى بحيرة من ماء ... وهب صارخاً وهو
يجري نحوها ضارباً الهواء بذرأعيه ، سيشرب ، سيشرب ، وكانت
تبتسم ، ولكنه حين اقترب منها ، تحول وجهها وتغير .. انها
دليلة المحتالة تضحك ساخرة وهي ترفع الجرة بين يديها وتميلها ،
وتنزل الجرة رمالاً ناعمة تنصب فوق الماء فتتحول المياه إلى رمال ،
بحر من رمال يطبق عليه .. وكف عن الجري ، واختفت دليلة ..

ورفع رأسه ، كان ما يزال في مكانه واقدا فوق الأرض ، وكانت الشمس قد مالت الى الغروب ، وبدأ ريح بارد يزحف نحو جسده المنهوك فرجفه ، واعتدل ، وجلس .. وعاد يحلق أمامه من جديد .. ليس الا الرمال وقرص الشمس يحترق نحو الأرض التي ابتلعت منه جزءا عند الافق ، وهو يفوص تدريجيا وفي ببطء حزين .. وانعشه الهواء البارد تحامل واقفا ، ورفع الخرج الذي وقع الى جواره على الأرض ، ومضى يسويه على كتفه في عناية واهتمام .. وابتسم لنفسه في مرارة ، هذا الذي مر به كان جنونا أو قريبا من الجنون .. وجاءت الى ذهنه أحاديث طويلة سمعها من شحادي أبو حطب عن مخاطر الصحراء ومخاوفها ، وان أخطر ما يصيب الإنسان من الحر والعطش والاجهاد والوحدة هو التخيلات ، وأشباح لا وجود لها ، وماء حيث لا ماء - أسماه السراب ، الشيء الخادع الذي يدفع الإنسان نحو الأمل الكاذب والموت أو الى الجنون الأكيد .. ونظر الى قرص الشمس المودع ، وضم ملابسه الى جسده ، وهو يحسب الليل فضله ان أزاح عنه الوهج المحرق ، ولكنه كان يعرف من تجربة ليلتين سابقتين ان أمامه تجربة مريرة مع البرد القارس .. في هاتين الليلتين كانت معه حصيلة من الحطب كفلت نارها له الدفء والأمان .. أما الليلة ، فهو سيواجهها بلا نار .. ووثبت الى رأسه فكرة .. لماذا لا يقضى هذه الليلة سائرا ، فالسير سيدفعه ، واغفائه من لحظات جدت نشاطه .. وهب واقفا وحمل خرجه ، ونظر الى السماء يهتدى بنجومها واستأنف السير في سرعة ، وقد تجدد أمله في الوصول الى غايته .. في ليلة مثل هذه خرجوا جميعا بعد أن ودعوا الشيخ زكي البتوكي ، وكل واحد منهم يحمل خرجه فوق كتفيه ، ومضوا كالاشباح الصامته يعبرون أزقة ودروبا الى أن وصلوا الى حافة النيل ، وهناك تسللوا الى مركب شرعى كبير ، وما أن دخل آخرهم جوف المركب ، حتى رفع الرئيس مراسيها وفرد أشرعتها وأبحر بها نحو الصعيد ، وحين اختفت أنوار مصابيح القاهرة والمركب يدفعها الريح في سرعة قال حسن شومان :

- اتظن صلاح الكلبى مازال يفرض الحصار حول مخارج القاهرة ؟ ضحك المقدم أحمد الدنف وقال :

- كل مخارجها نحو الشمال محروسة . اما نحن فينتظرنا اخوان لنا عند بنى سويف ، وهناك نفترق .

وكان يسير وكأنه مازال فوق مركب تتحرك منسابة على سطح

النيل ، وكل شيء مظلم الا من نجيمات في السماء تهديهم الى الطريق
كما تهديه الآن ، والجو مشبع بالرطوبة ، وهو يرتجف ، وصور
عديدة من حياته تقفز الى رأسه في اضطراب وقلق ، ويريد أن
يمسك أى صورة من الطريق ليحتفظ بها معه ، وكلها تنقلت
لتحل محلها صورة أخرى .. فقط هو يذكر أنهم تركوا المركب عند
مدينة صغيرة مظلمة ، وعند المرسى كان في انتظارهم شيخ وقور
صحبهم الى داره حيث قضوا الليل ، وفي الفجر صحبهم الى زاوية
صغيرة حيث صلوا الفجر ، وتودع كل منهم من الآخر ، وقيل
المقدم أحمد الدنف :

— من هنا تبدأ رحلتك يا على مع المقدم عمر العيار حتى حافة
العمار فيتركك لمهمته في الصعيد الأوسط ، أما حسن شرمان فيعود الى
المركب ليواصل رحلته الى الصعيد الاعلى ، ويركب المقدم شحادي
أبو حطب الى الفيوم ومنها الى الدلتا ، أما أنا فأعود شرقا الى
السويس ، ثم أترك مصر الى بغداد .. وسنعرف كيف نلتقى
ومنى ..

وامتطى هجينه ومضى دون كلمة أخرى ، وكذلك فعل المقدم
شحادي أبو حطب ، بينما ركب هو جملة ومعه المقدم عمر العيار ،
تاركين المقدم حسن شومان مع الشيخ الوقور عند حافة الزاوية
الصغيرة .. وتحدث عمر العيار كثيرا ، وعبرا ترعا ، واكلا الى
جوار شجيرات ، وناما في فسجد ، ومرت يومان ، وذات فجر ،
ودعه عمر العيار ، وتركه وحيدا يواجه الصحراء ، والليل ينسحب
من سماء صافية ، وشبح قرص الشمس يلوح من بعيد وهو
يوجه مقود ناقلته نحوه ، ويسرع في فرحة الانطلاق الى عالم جديد
.. وقرص الشمس يصعد في بطء ، وهو يتجه نحوه . ولكنسه
لا يركب ناقلته ، وهو يسير ، ناقلته قتلها الثعبان ، وقرص الشمس
أمامه .. أهو سراب جديد .. لا ، ليس سرابا ، هي شجيرات
بالفعل تلوح أمامه ، والليل انتضى ، وهذا فجر يوم جديد .. وأسرع
يجرى نحو الشجيرات وقد نسي كل عناء .. لقد وصل ، لقد
نجا .. انه بشر النجاة . وهذه الشجيرات تنمو حوله ، فهنا
ماء .. لقد أصاب حين أرغم نفسه على السير طول الليل ، فعند
الفجر ، لاح الأمل ، ومدت الشجيرات المخضرة أفرعها نحوه تدعوه
نحو بشر النجاة ..

بئر النجاة

لمح على الزيبق فوهة البئر تحت شجرة عالية من الشجيرات التي احاطت به . فأسرع برمي بخرجه على الارض ، واندفع نحو البئر . وعند فوهته وجد حبلا طويلا ، ولكنه لم يجد دلو ولا جرة . . واحتار ماذا يفعل . . وأخذ يبحث خلف الشجيرات وحول البئر عن الدلو الذي كان مربوطا في نهاية الحبل ولا شك ، ولكن لم يجد شيئا ، وازداد احساسه بالعطش ، كما زاد احساسه بالضيق . . وفكر أن يربط شاله بطرف الحبل وان يدليه في ماء البئر ليبتل فيرطب حلقه الجاف وشفتيه المتشققتين . . ونزع الشال من فوق رأسه وبسطه ، وربطه في طرف الحبل ، ثم أخذ يدليه في البئر في رفق ، وكان يميل فوق فوهة البئر متتبعا حركة الشال في هبوطه التدريجي ، حين اهتز الماء الساكن للامسة طرف الشال له ، ثم سكن اهتزازه تدريجيا ، وامام عينى على الزيبق لاح وجهان يطلان عليه من ماء البئر الذي يرتج في بطنه ، حتى سكن الارتجاج ، فاتضح الوجهان ، وادرك على الزيبق أنه يرى انعكاس صورة وجهين يرقبانه من أعلى الشجرة خلفه . وعاد يدلى طرف الشال حتى لمس وجه الماء من جديد ، فاهتز وتذبذب الماء واختفى الوجهان ليعودا الى الظهور من جديد عندما عاد الماء الى سكونه وقد وضحت حول الوجهين اوراق الشجرة وغصونها . . ولم يعد عند الزيبق شك في حقيقة ما يرى . . فتظاهر بالاندماج في انزال الحبل ، ومد يده اليسرى الى نطاقه فأخرج ضد البنج وهو من الاشياء التي زوده بها الشسيخ زكى البتوكى فأخذه ، ثم أخرج (تعفيرة) بنج ، ووضعها في سهم نفط ، وأشعل سهم النفط وهو يرميه تحت الشجرة . . وعاد ينظر الى سطح ماء البئر فوجد الوجهين مكانهما ينظران اليه دون أن يبدوا انهما احسا بما فعل . . وتأمل على الزيبق جيدا في الوجهين ، فلم يتعترف على أصحابهما ، فتأكد لديه احساسه الفطري الاول انهما من الاعداء ، وتأكد لديه انهما سبقاه الى بئر النجاة بتوجيه ممن يعرف انه لابد أن يمر من هنا ، وانهما قطعوا الدلو من الحبل وكما فوق الشجرة حتى اذا ما اضطر تحت ضغط العطش والاجهاد أن ينزل الى البئر ليشرب من مائها ، انقضا عليه وهو عاجز عن الحركة وقتلاه - ولمح الوجهين يتحركان حركة عصبية وقد احسا بالخطر ولكن بعد أن فات أوان تداركه ،

وابتسم الزبيق وهو يرى الوجهين يختلجان في عنف ، ويحاول صاحباها الحركة ، ولكنهما يعجزان عنها ، فيهد الجسمان ويستترا الوجهان في جمود الفيضوية ، وعرف ان البنج قد فعل فيهما فعلة الاكيد .. ورفع رأسه من فوهة البئر ، ونظر الى اعلى ، وأحس برأسه يدور ، فاستند بيديه الى حافة البئر وانتظر لحظات حتى عادت رأسه الى اتزانها .. لا يدري أهو فعل ضد البنج الذي أخذه قبل اطلاق سهم النفط ، أم هو طول اطراقته عند حافة البئر ، أم هو العطش والتعب والجوع .. وحين استقر كل شيء حوله تحرك في حذر نحو الشجرة ونظر الى جذعها الضخم وقصصونها العديدة المتشابكة ، وتعجب من قدرة الله ، ان تنمو مثل هذه الشجرة وسط كل هذه الرمال القاسية ، ولكنه الماء .. وعاد يحس بالعطش من جديد .. ولكنه كبت هذا الاحساس ، وتغلب عليه ، فأمامه الآن صاحبا الوجهين .. فوق الشجرة .. ومضى يرقى الشجرة حيث وجد الرجلين وقد فقدوا الوعي ، يستلقى كل منهما على وجهه في همود ، فمضى يحملهما واحدا اثر الآخر وينزل بهما من فوق الشجرة الى الارض . ولمح الدلو مختفيا وسط أغصان الشجرة ، فمضى يرقاها مرة أخرى ليعود به الى البئر .. وفي لهفة اخذ يعقد الحبل على يد الدلو وقد ملأ العرق يده ، وتضخمت أصابعه حتى أصبح لا يحس باطرافها وهي تعبت بالحبل ، وتعثرت في الامساك به ، وربط عقدة على يد الدلو ، ومضى يمسح كفيه في ردائه ، ويمسح بشاله المبتل على وجهه الملهب ، ثم اتم ربط يد الدلو ودلاه في البئر ..

وسمع صوت اصطدامه بالماء فامتلات نفسه نشوة ، والدلو يمتلىء بالماء ويعود به الى حافة البئر ، رطبا عذبا .. ومد كفيه يملأهما من الماء ومضى يرشف في ببطء واناة ، وهو يمنع نفسه الاندفاع في عب الماء دون حذر .. ثم مضى يغسل وجهه ورأسه ويديه ، وهو يحس بالانتعاش التدريجي ، ثم مضى يشرب مرة أخرى في هدوء واناة .. وكان يهمس لنفسه :

— ماء النيل رائع وعذب ، ولكن هذا الماء أعذب ما ذقت في حياتي .. انه ماء الحياة ..

وعاد يملأ الدلو من جديد ليفسل ملابسه التي امتلا بالرمال ، ويفسل شعره ورأسه وجسده كله ، وكلما خلا الدلو عاد فملاه من جديد ، وقد تملكه احساس بأنه يولد من جديد ، وأنه طفل يلعب في

الماء وليس يعنيه من الدنيا شيء ، فلا هم يشغله الا هم الاحساس
بالعودة الى الحياة ..

وانتهى من عيئه على خاطر وثب الى ذهنه ، فهؤلاء الرجال جاؤوا على
رواحل ، فأين هي هذه الرواحل ، لو عثر عليها لوفر على نفسه عناء
رحلة شبيهة برحلة الاعمى .. هما رجلان ، تكفيه راحلة واحدة لركوبها
اما الثانية .. فهو جائع ، وهي تكفى لتسد جوعه الآن ، وتكفل له
الطعام باقى الرحلة .. وأسرع يرتدى ثيابه ، ويتقلد سلاحه ، ويجوس
خلال الاكمة بحثا عن الناقتين ، كانت الاشجار كثيرة ومتباعدة ، وكانت
طويلة فارعة ، ولكن اغصانها كانت خالية من الثمار ، فلم يكن الموسم
موسم اثمارها . الا ان الطيور كانت تفسزع من حركته ، فتغادر
اغصان الاشجار التى يقترب منها هاربة .. وخشى أن تكون الناقتان
غير محكمتى الوثاق ، فتجفلا من حركته ويجد نفسه بلا راحلة من
جديد ، فأخذ يتحرك فى ببطء وروية ، وهو ينتقل من جذع شجرة الى
جذع شجرة فى حذر ، ثم يكمن مكانه فى سكون وهو يجيل عينيه
حوله فى سرعة ، وكنم أنفاسه حين لمح حركة سريعة بطرف عينه ،
واعتلل فى ببطء وهو يركز بصره حيث لمح هذه الحركة وقد فزت
كل أعصابه ، ونهيا جسده للفعل السريع .. وامامه لمح الغزال الصغير
وقد رفع رأسه عن مجموعة الاعشاب الكثيفة التى كان يرعها بين
شجرتين صغيرتين .. وكان الغزال لا ينظر نحوه ، انما كان مشرئبا
بعنقه الى الناحية المضادة وقد بدا مجفلا متوترا قلقل .. ولم يشغل
على الزيبق نفسه بالذى جعل الغزال يجفل ، بل أسرع فى خفة يمسك
قوسه ، ويخرج سهمها من قراب السهام فيهيئه ويصوب فى دقة .
ويطلق السهم فى احكام .. وقفز الغزال فى الهواء ، ثم هبط الى الارض
يختلج واندفع اليه الزيبق وقد استل خنجره ، وما ان وصل اليه حتى
لف بدا حول جسده ، واجتز عنقه بيده الاخرى ، ثم أسرع يبتعد عنه
حتى لا تلوث الدماء المتدفقة من العنق المذبوح ثيابه وجسده ..

كان على الزيبق يراقب الجسد الصغير المطروح امامه والحياة
تغادره مندفعة مع الدماء السائلة ، وهو موزع بين عاطفتين - عاطفة
الرتاء للظبي الصغير ، وعاطفة الرغبة المتجددة فى الحياة ، فالآن سيسد
جوعه ، بل وسيحمل معه من الطعام ما يكفيه باقى رحلته .. وحمل
الظبي بين يديه الى البئر ، وهناك وضعه على الارض ، فالتقت عيناه
بجسدى الرجلين المخدرين وابتسم لنفسه فى مراة وهو يدلى الدلو
فى البئر ليملاه بالماء من جديد . لو لم يلتفت الى صورة الوجهين على ماء

البشر لكان الآن مكان هذا الغزال ، مجزور الرأس هامد الجسد ، غارقا في دماؤه .. واقشعر جسده ، وكاد الدلو يسقط من يده ، فتماسك ووضع على فوهة البشر ، ثم انزله في بطن الأرض .. ومضى نحو الرجلين المجهولين يربط ايديهما واقدامهما ربطا محكما .. ثم أعطاهما ضد البنج .. وتركهما لينهما في سلخ الغزال وتنظيف جوفه ، سيمضي وقت طويل حتى يعود كل منهما الى وعيه ، وله معهما بعد هذا حديث طويل .. وما انتهى من عمله حتى مضى بنفسه لحجم الغزال بالماء ، ثم حفر حفرة وضع فيها كل المخلفات وردمها وسواها ، وعاد يفسل يديه وما تلوث من ثيابه .. ونظر الى الرجلين ، كانا مازالا في غيبوبتهما وان انتظمت أنفاسهما مما يشي ببدا زوال أثر البنج .. وتلفت حوله يبحث عن حطب يشعل به نارا يشوى عليها صيده .. وكانت الاشجار حوله كبيرة سامقة ، ومن بعيد كانت تلوح أشجار صغيرة ، وأكمام مليئة بالعشب الجاف ، والاغصان المتساقطة ، واتجه على الزبيب نحو هذه الشجرات وهو يحمل بلطته ، ومضى يضرب الاغصان الجافة ويقطعها ثم يكومها الى جواره ، واحس بالعرق يملأ وجهه ، فمسحه بشاله ، وغير مكانه الى مكان ظليل ، ومضى يختار الاغصان الجافة القريبة منه وينظفها بحد البلطة ، ثم يقطعها ويكومها من جديد ، وحين اكتفى بما حصل عليه من حطب يسوى عليه صيده ويدفئ ليلته التي اعتزم ان يقضيها الى جوار البشر ليعوض سهر الامس المتواصل ، حمل الكومة الثانية ، وذهب بها الى حيث الكومة الاولى ، ومضى يربط الكومتين بحبل ورفع الحمل على كاهله ، ومضى به وثيد الخطو نحو البشر ..

وحين وصل على الزبيب الى البشر وهو يحلم بغذاء طيب ونوم هنيء وقف ذاهلا وقد طارت كل الاحلام من رأسه .. فلا الظبي المسلوخ في مكانه ، ولا الاسيران المقيدان حيث تركهما .. ورمى بحمله فوق الأرض وهو يحدق أمامه في ذهول .. وفرك عينيه بكفيه كأنما يزيد من قوة ابصارهما .. ولكن الحقيقة بقيت كما هي ، اختفى الظبي كما اختفى الرجلان المقيدان .. واحس بالخوف يتسلل الى قلبه ، وامتدت يده بحركة تلقائية الى سيفه فجرده من قرابه ، ووقف شاهرا اياه ، وهو يجيل بصره حوله في حذر وترقب فقد أدرك انه ليس وحده فهو لم يغيب عن البشر مدة كافية لكل هذا .. وتذكر الظبي ووقفته المجفلة ، ورأسه الذي يتجه في ترقب الى الناحية الاخرى .. ولعن نفسه لاهماله

.. فقد كان فى حركة الظبى هذه الانذار الكافى له ليتنبه لوجود غرباء غيره وغير الرجلين الاسيرين فى المكان . ولكنها لهفته الى اقتناص الظبى ، وجوعه ، وتعبه ، كلها تضافرت لتجعل تفكيره مشوشا وغير واضح ، ولتجعل ردود أفعاله لا تتناسب مع ما ينبغى لها من حدة وسرعة ، ويقظة حذرة دائما ..

وطالت وقفة على الزبيب المتحفزة حتى أحس بالسيف ثقيلًا فى يده ، فردّه الى قرابه ، وقد بدأ يستجمع رباطة جأشه ، وسكون نفسه فليس هذا وقت الهلع أو ترك الدعر يذهب نفسه شعاعا وفرقا .. وتقدم ناحية المكان الذى كان الظبى فيه يتأمل الارض حوله فى عناية .. وسرعان ما رأى ما كان يتوقعه ، آثار أقدام رجلين حول المكان ، أحدهما ثقيل تغوص أقدامه فى الرمال بوضوح ، والثانى خفيف تمس أقدامه الرمال مسا دون أن تحفر لها مكانا عميقا .. ثم تقدم ناحية المكان الذى ترك فيه الرجلين المقيدين ، وهنا زاد تأكده مما يرى ، نفس الآثار لنفس الرجلين ، مجموعة من الآثار قادمة نحو المكان ، ومجموعة أخرى تفادر المكان ، ومع المجموعتين ، آثار حفرتها أعقاب الاسيرين وهما يجران جرا خلف القادمين الجديدين .. وبدأت الصورة تتضح أمامه تماما جاء غريبان وهو منهما فى قطع الاحطاب الى البشر ، وحمل أحدهما الظبى المسلوخ ، ثم اتجها الى الاسيرين ، وجر كل واحد منهما أسيرا وراءه .. وقد غطى صوت البلطة وهى تقطع الحطب على كل ما أحدثاه من أصوات ، أن كانا قد أحدثا أصواتا ما ، فما يحسب على إلا أنهما كانا على غاية الحذر والحرص .. وتمكنا من سرقة غنيمته وأسيره قبل أن ينتبه اليهما .. بل لعله ساعدهما بتوغله فى الاكمة بحثا عن ظل يحتسى به من وطأة الشمس وهو يقطع الحطب .. ولكن من هما ..؟ وابن اختبا ؟ وهل كانا هنا قبل أن يجيء الى بشر النجاة لو حدث هذا لكانا من زملاء أسيره . ولما كان الاسيران يكمنان له وفى نيتهما الغدر به ، فهذان الشخصان الجديدان اذن من الاعداء الذين يتربصون به سرا ، وعليه أن يحذرهما حتى لا يوقعا به .. وعاد يتأمل الآثار الواضحة ، كانت تتجه مبتعدة عن البشر ومتجهة الى الاكمة حيث تخفيهما منطقة من الاعشاب الجافة التى برزت وسط الرمال .. واتجه على الزبيب نحو هذه المنطقة ، وهو يركز كل حواسه فيما يرى ، فقد تعلم اقتفاء الاثر من اساتذة لا يجارون ، واستطاع أن يتابع المجموعة المتراجعة من خلال تقوس العشب فى ناحية أو خروجه من مكانه لاحتكاك كعب أحد الاسيرين اللذين يجران منه .. وكان يسير ويده على مقبض

سيفه ، وعيناه تنتقلان بين العشب الجاف أمامه ، وبين الأشجار التي يمر بها في سيرة البطيء ، بينما كانت أذناه يقظتين لأي صوت يصدر من أي ناحية حوله .. ولهذا فحين جاء صهيل الحصان المفاجيء ، سمعه على الزبيب بوضوح رغم انه كان يصدر من بعيد ، ووقف على الزبيب في مكانه جامدا للحظات ، ثم انطلق يجري صوب مصدر الصوت الذي سمعه ، وقد نسي كل شيء عن آثار الاقدام او جر الاسيرين فوق العشب الجاف .. وكان يجري وأذناه مرهفتان عله يسمع صوت الصهيل من جديد ، ولكن الذي سمعه بوضوح ومن مسافة أقرب بكثير من المسافة التي صدر منها صوت الصهيل ، صوت حصان يجري خبيثا ، وضاعف الزبيب من سرعته وهو يتتبع هذا الصوت الواضح الاكيد والقريب ، وهو يتوقع أن يرى الحصان وراكبه بعد قليل .. ودفعته رغبته في مواجهة هذا العبث الذي يستهدفه هو وحده ، الى الاسراع في جريه ، ولكنه سرعان ما لاحظ أن صوت وقع اقدام الحصان تحول الى جري سريع ، فلما زاد من سرعته أكثر وأخذ يجري بكل قوته ، تحول صوت وقع اقدام الحصان الى جري سريع .. ووقف فجأة والعرق يتصبب من كل جزء في جسده ، وأنفاسه تتردد في صعوبة في صدره ، وتهاوى الى جذع شجرة متعبا مكدودا ، وجلس .. وأحس أن جسده كله ينحط على الأرض تدريجيا وهو ينزلق من استناده الى جذع الشجرة حتى يستقر تماما فوق الأرض الصلبة ، وفي ذهنه ركض الجواد المسرع يتلاشى من بعيد ، حتى ينتهي تماما الى لا صوت .. فقط أنفاسه اللاهثة نملأ أذنيه ، ومعها وجيب قلبه المسرع الخفقان كأنه طبول تدق في غابة .. والتف ذهنه وتوقف عند هذا المعنى .. طبول تدق في غابة .. ترى ماذا يعنى هذا له ، انه شيء مهم لا ينبغي أن يفوته .. ينبغي أن يعرفه ، ينبغي أن يعيشه ، هو يغيب في تلايف عقله المكدود المتعب ، ولكنه لا بد أن يستدعيه ، وأن يفهمه .. وفجأة استقر كل شيء في ذهنه وهذا .. وتنهد ، وهو يريح ساقيه الى الأرض ، ويزيح العرق المنداح فوق جبهته .. لقد أدرك الامر الذي كان يحيره ، لقد كان يظن أنه في واحة معزولة ، اذا ما غادر هذه الأشجار المحيطة بالبئر عاد الى الصحراء من جديد ، بينما هو كلما توغل فيها زادت كثافة ، وتحولت الى دغل يزداد فيه عدد الأشجار وترتفع فيه الأعشاب ، ويختفى منه كل اثر للرمال أو الصحراء ، هو في بداية غابة اذن ، وقد انقطعت صلبته بكل ما يمت للصحراء منذ لحظة وصوله الى بئر النجاة .. ولا بد أن هذا هو السر وراء تسميته ببئر

النجاة ، فمن هنا لاعناء ولا عطش ولا قيظ ، من هنا تبدأ النجاة الحقيقية
من أخطار الصحراء ومخاوفها .. ولكنه وحيد ، عاد الظمأ يلح عليه ،
وعاد الجوع يفرض نفسه ، لقد نسي متى أكل آخر مرة ، وهو جوعان
ومتعب ، وجوعان والظبي راح ، ولا ناقة هناك ، ولا شيء الا الجوع .
والشجرات حوله بلا ثمار .. وهو وحيد .. أين دفء القاهرة ومائدة
العشاء في بيت أمه ، ورائحة البخور تملأ البيت كله ، رائحة .. نعم
رائحة .. هو يشم رائحة واضحة تتسرب الى أنفه ، ومنها الى أمعائه
لتعيد احساسه بالجوع .. هو متأكد انها رائحة شواء .. نعم لحم
يشوى فوق نار .. فرائحة الشواء تختلط برائحة احتراق خشب نعم
.. وأعشاب اختلطت بدهن متساقط .. هناك من يشوى لحما فوق
نار هادئة .. هذا امر لاشك فيه .. واستند الى جذع الشجرة وهو
يقف متثاقلا بطينا ، وأنفه يتحرك حوله حتى يجد مصدر الرائحة التي
تثير جوعه ، وتكاد تدفع الجنون الى عقله ووعيه .. ومضى يسير فجأة -
يتبع أنفه ، والرائحة ، رائحة الشواء التي استهوته .. كان يسير
مترنحا ، من ساق شجرة الى ساق شجرة ، يكاد يقع ، ليستند الى جذع -
متاح ، ثم يستمر في سيره ، وهو يقع فيصطدم جسده بأغصان جافة
ميتة ، وبقايا أعشاب جافة ، ورمل وطين ، وهو يسير . ويسير ..
أهو سراب ما يقصده .. في الصحراء عرف سراب العطش ، وبشاعته
وكذبه ، هل هو في الغابة ، سيعرف سراب الجوع ، وهل سيكون
بشعا واكذوبة .. وسار وتحامل ووقع ، ثم سار ، كان يسير حيث
يهديه أنفه ، لم يعد من فائدة أن يبحث عن اثار الاقدام فوق عشب
جاف ميت ، كل شيء تركز في الرائحة ، هو يسير نحوها ، وقد
اختلطت امامه الاشياء وهو جائع ، وحيث يسير سيصل الى حيث يأكل
اللحم المشوى فوق أغصان جافة تحترق .. هناك الامان والشبع ،
وهناك سيشرب من ماء بئر النجاة ، ويأكل من هذا الشواء .. وينام
.. وينام .. كلا ليس هنا ، فلو نام هنا لمات لابد أن يسير ، ويسير
نحو الرائحة ، فهناك النجاة ، والشبع ، والرى . والنوم . والراحة
وهناك الامان .. ووقع ، وقاوم رغبته في النوم ، وقام ، ومضى مرة
أخرى يسير ، وأمامه لاحت الباحة امام البئر .. نار موقدة ، وفوقها
الظبي يدور حول عصا ، يشوى في هدوء ، وقد قارب لحمه على النضج
.. وأمامه رؤى مختلطة منبعثة عند حافة النار ، الاسيران مقيدان ،
ملقيان الى جوار حافة البئر كما تركها منذ زمن طويل .. والسكون
بعم الكون كله حوله ، وهو يتقدم متعثرا نحو الماء والطعام ، والامان

.. ولكن صوتا داخليا فيه كان يصيح بالتحذير بأن يتنبه ، بأن
ما أمامه فخ ، بأنه نسي كل الحذر لحظة ترك معدته أن تسوقه الى
حتفه .. ووقف مترنحا مترددا ، ثم مد يده الى مقبض سيفه ، وهو
يترنح متقدما ومتعشرا في ان واحد .. ثم جرد جزءا من السيف في
محاولة بائسة ، ولكن السيف ثقيل ، ولكنه لابد أن يتأهب ، وجر
جزءا آخر من السيف ، وهو يتقدم ويتعثر ، وجرد السيف كله .. لم
يكن يعرف ان السيف ثقيل ثقيل ، وسقط السيف من يده ، وهو
يرى حول النار شخصان انتصبا ، احدهما يمتشق سيفاً ، والاخر يفوق
سهما ، وهما ملثمان .. وهو لا يستطيع أن يرفع يده الخالية من
سيفه ، وهو ينزل الى الارض ، هو يتمدد ، غمامة تحيط بوجوده .
وشيء مر يرتفع الى حلقه ، ضعفه هزمه ، وانه جائع ، وانه عطشان .
وانه متعب ، وتمدد الى الارض وعيون الشخصين تحاصرانه وهو يبتسم
في مرارة ، هزم نفسه وهزمه ضعفه .. وتمدد على الارض ، وراح في
غيبوبة عميقة ..

عد ظافرا

كانت السحابة سوداء كثيفة ، وكان يريد لها أن تمطر ، ولكنها تركزت حول رأسه ، لا تتحرك ، ومن خلالها تمر الاشعة قائضة لشمس لافحة ، تركز كل اشعتها على مخه .. وهو يذوب ، ويذوب .. عقله نفسه يذوب ، ويده ثقيلة لا تتحرك ، وساقه استقرت كجذع نخلة قطعه الحطاب واستقر فوق الارض فهو لا يتحرك .. ولسانه متضخم ملاً فمه كله ، فهو لا يستطيع ان يحركه ، جفاف مخيف في حلقه وفمه ، وهو جائع ، جائع ، كما لم يجع من قبل . وهو يشعر أن رأسه ثقيلة ، لا يستطيع ان يحركها .. زينب تلوح له بابتسامتها المشرقة تحمل له الامل والحياة ، وتختفى زينب وتظهر دليلاً بابتسامتها البشعة ، متشفية قاسية .. وتحرك شفيتها في كلمات لا يدركها ولا يعرفها ، ولكنها لا شك كلمات تحمل له اليأس والهزيمة ، ويضحك صلاح الكلبى في تشف مقيت ويرفع يديه ليرد الضحكة ، ولكن كفيه يدوبان .. لا كف عند آخر ساعده .. لا شيء .. ساعده ثابت في مكانه ، وهويتلقى ضحكات صلاح الكلبى الساخرة كأنها الصفعات - ولا يدري من أين يظهر وجه المقدم عثمان . ما له المقدم عثمان ؟ ما دوره ؟ فقط هو ينظر اليه في اشفاق .. نعم في اشفاق ورحمة - المقدم عثمان ؟ من كان يظن ان عنده القدرة ان تكون في عينيه هذه النظرة الحانية المشفقة .. كان يريد ان يقول له شيئاً ، ولكن القيمة تحط على رأسه ، ويضيع ، لا يحس بشيء .. هو مستريح الى النهاية المقبلة - ويتسم .

كان هناك شيء بارد عند جبهته ، والماء يقطر في فمه ، وكان الهواء حوله رطباً ، وكان كل شيء عذبا - هادئاً .. بلا مرارة ، ولا تعاسة ، ولا تعب ..

اراد ان يفتح عينيه ، ولم يحس ثقلاً ، فتح عينيه في راحة ، ولاح امام عينيه ضوء غروب هادئ لا يتعب عينيه ، بل يهددهما ، ويهدد وجوده كله - وقال صوت حبيب ملهوف :

- افق يا على .. افق .

ورد صوت آخر اكثر لهفة وحناناً ..

- اقلنا عليك ، ولكن انظر يا على انظر .. نحن حولك الان ..

ومس الصوت قلبه - هو يعرف هذا الصوت وسط آلاف
الاصوات ، يحلم أو لا يحلم ، هذا صوت أمه .. فاطمة .. وهمس :
- أمي ..

وسكت .. وعاد الصوت الملهوف :
- يا حبيب امك ، افق ، وأجبنى .
وقال :

- وكأنى أحلم من جديد ..
قال الصوت :

- بل أنت صاح يا بنى ، أنت صاح يا بنى .. أنت صاح
يا على ..

وهمس وهو يحس الكلمات تتعثر بين شفثيه :
- بل أنا ضعت يا أم ، تهت في الصحراء ، ثم تهت في الغابة ،
ثم قتلنى الظما والجوع .. ثم .

وأحس بيد تمس جبهته ، تمسها في قوة وحنان وحزم .. فسكت
بينما عاد الصوت يقول :
- افق يا على .

وماء بارد فوق جبهته من جديد ، وكل التعاسة تفوص بعيدا ،
فهذه أمه ، ولم يمن نفسه بأن يسأل ، كيف ولماذا ؟ . هذه أمه وكفى
وبللت شفثيه قطرات رقيقة عذبة ، ومر الماء في حنجرتة الى جوفه ،
وسكت الظما ، وعاد الصوت يقول :

- أنت وسط أصدقاء أحبه .. افق يا بنى ، واسمعنى صوتك
وقل أنك عدت حيا .

هل يفتح عينيه ليجد أنه لا أم هناك ، أم يظل يفلقهما ليسمع
هذا الصوت الحنون ، الدافئ بالحب والعطاء .. ولكن كان يحس
ان الحياة تدب في جسده من جديد ، انه مرتاح .. وانه مرتو ،
وانه يريد الحياة من جديد فتح عينيه ونظر حوله .

فارسان مقنعان أمامه ، ولكن لا سيف مشهر ، ولا سهم مفوق ،
فقط ينظران اليه في اهتمام وعناية .. وحول بصره عنهما ، الاسيران
مقيدان ، مكيمان على الارض ، والفزال يشوى في هدوء على نار
متوهجة حرى - أراد ان يضحك - ولكن الضحك وقف في حلقه ،
وتحركات أحشاؤه جوعا ، ودارت رأسه تعباً وعناء .. وقال
الصوت :

- اجتاز حدود الخطر ، وعاد الى الامان .

فقال في ضعف :

- ولكنكما شبحان ، انتما سراب الغابة ، لستما حقيقة ..

ومال الفارسان فوقه ، ومد كل منهما يده الى لثامه يرفعه ..
وطالعه وجه أمه بابتسامتها الحانية - الملهوفة ، ووجه عمر العيار
المشفق الباسم . وقالت أمه :

- لسنا شبحين يا على بل نحن حقيقة ..

قال على وهو يجيل بصره بينهما :

- أحمد بن البنى ، وعمر العيار ..

ضحك عمر العيار وهو يقول :

- صدقت ونحن صحبة قديمة .. والآن اشرب هذا الماء حتى

أعد لك نصيبك من الشواء ثم ابتسم وعاد يقول :

- نصيبك من صيدك ..

قال على وهو ينقل بصره من وجه أمه الى وجه عمر ثم يعود به

الى وجه أمه مرة أخرى :

- ولكن لماذا ؟

قالت فاطمة في مرارة وهي تعض شفتها السفلى :

- بدأ الامر كله من أجل سلامتك .. وما كنا نظن أن ما بدأ من

أجل سلامتك كاد في النهاية أن يهلك . ومد على يده الى قدح الماء

الذى يحمله عمر العيار فمضى يشرب منه في ببطء ، وقد بدأت أنفاسه

تنتظم ، كما بدأ ذهنه يعود الى صفائه ، وقال عمر العيار :

- لقد أدركتني السيدة فاطمة بعد أن تركتك مباشرة ، وقبل

أن اذهب الى المهمة التى حددتها لى المقدم أحمد الدنف ..

واكملت فاطمة كلام عمر العيار قائلة :

- أكلنى قلبى عليك يا بنى منذ أخذ عمر العيار ملابسك ،

واخبرنى أنك سترحل فى موعد لا أعرفه . وازداد احساسى بالقلق

لما أثاره صلاح الكلبى من ذعر فى المدينة ، ثم جاءنى من أكد لى أنك

فى خطر داهم ، وفى هذا المكان بالذات - بشر النجاة . فعرفت أن

قلب الام لا يخطئ احساسه أبدا ..

وغلبها انفعالها ، وتندت عيناها بالدموع ، فسكتت ، وناول على

الزبيب قدح الماء الى عمر العيار .. وهو يقول كأنما ليشغل أمه عن

خواطرها التى دفعت الدموع الى عينيها :

- أين هذا الشواء ، فأنا أتضور جوعا .

ضحك عمر العيار ، وهو يقول :

- لقد تم نضج فزالك يا على ، كانت اصابة مباشرة ورائعة

رغم تعبك واجهادك ، ولكنك رام ماهر .. سأذهب لاحضر لكل

منا نصيبه ..

وتمالكت فاطمة نفسها ، وجففت عينيها ، وهي تقول :
- لو عرفت من الذى أخبرنى بالخطر المصدق بك هنا يا على ،
ما صدقتنى ..

ووثب الى ذهن على رؤيته الفامضة فى سراب الغابة الذى افقده
وعيه ، وهمس دون أن يحس :

- المقدم عثمان ..
اجفلت فاطمة ، وقالت فى دهشة :
- كيف عرفت ؟

قال على وهو يعتدل فى جلسته ، وقد أحس بالنشاط يدب فى
جسده :

- انه سراب الغابة يا أم ، بدا لى وجهه وفيه تعبير غريب كله
حنان ، وكله رقة ..

أطرقت فاطمة وهي تقول :

- بل انه استشراف الروح .. والا فقد صدمت حين رأيته
يطرق بابى ذات مساء ، ويدخل على استحياء ويقول :

لم يكن بينى وبين المقدم حسن رأس الفول عدا ، ولا بينى
وبينك يامقدم أحمد بن البنى ، وما فعله ابنك الزيبى معى ومع صلاح
الكلبى نحن نستحقه .. ولكنه لا يستحق أبدا النهاية التى تدبر له
.. وقد جئت لأحذرك ، ولكنى لا أستطيع أن أخون مقدمى - فقط
التفتى لابنك فهو فى خطر - والتفتى له عند بئر النجاة ، وهذا هو
كل ما أستطيع أن أقوله لك - وصمت ، وحاولت أن أعرف منه
تفاصيل هذا التحذير عشا ، التزم الصمت ، ثم مضى .. ومن ساعتها
وانا لا أستطيع أن أكل أو أنام أو أعيش .. فلبست زى أحمد
ابن البنى ، وتبعته الى بئر النجاة ، وعند حافة الصحراء التقيت
بالمقدم عمر العيار ..

وقطع عليهما الحديث صوت المقدم عمر العيار وهو يقول :

- هذا الشواء سيعيد اليك ما ذهب من قواك .. فاعتدل فى
جلستك وخذ الصحن فى يدك ..

وتناهت الى أنفه رائحة الشواء ، فأحس بالجوع الشديد ،
ومد يده يتناول الطعام الساخن ، ويدفع قطع اللحم الى فمه وهو
لا يبالي بسخونتها التى كانت تلسع شفثيه ولسانه .. وضحكت
فاطمة وهي ترى لهفته على الطعام ، وقالت :

- للكلام أوان ، وللطعام أوان .. أين نصيبى يامقدم عمر ..
وناولها المقدم عمر العيار طبقا مليئا باللحم المشوى ، فأخذت

تلتهم قطع اللحم الساخنة وكأنما تقلد ابنها في لهفته على الطعام ،
واقعى عمر العيار الى جوارهما وهو ياكل من صحن في يده في تأن
وتؤده ، وقال :

— بعد ان تكسرا حدة الجوع ، عودا الى التانى فى الطعام ،
فالاكل بهذه الطريقة سيؤدى بكما الى المرض ، وسأجد نفسى امام
مشكلة العناية بمحمومين .. وليس هناك وقت لكل هذا الترف ..
قالت فاطمة وهى تبتلع ما فى فمها ، وتتنهد ، وتبعد الصحن
عنها قليلا :

— صدقت يا مقدم عمر .. ولكنى حين شاهدت الطريقة التى
ياكل بها على ، أحسست بجوع ولهفة على الطعام . قال على وفمه
مملوء بالطعام ..

— لم اذق طعاما منذ يومين ، ورائحة الشواء هذه تشير كل
كوا من الجوع ، وكل ما فعلتموه بى زادنى جوعا على جوع .
قال المقدم عمر العيار :

— لم نقصد بك سوءا يا على ، وأنت تعرف هذا ، لقد اقتحمنا
الصحراء وراءك ونحن نعرف انك تستهدف لخطر عظيم .. وحين
أوصلتنا آثار راحلتك الى حيث ارتمت مسمومة مذبوحة ، والى
جوارها جسد الحية مقطوع الرأس تأكد لنا ان الاخطار التى تتعرض
لها أكثر مما قدرنا .. فحشنا الخطى وراءك عسى أن نوفر عليك
السير فى الصحراء المهلكة ، ولكنك كنت تسبقنا بزمن ، فلم نلحق
بك الا وأنت على بئر النجاة تربط شالك بحبل البئر بحثا عن قطرات
ماء يأتيك بها بلل الشال ..

تنهد على الزبيب ، وهو يستأنف طعامه فى تأن وهدوء ، وقال :
— كنت أرى وجهيهما فى ماء البئر .
قالت فاطمة :

— ونحن وجدنا راحتيهما ، فأخفيناهما وراء الدغل ، ثم عدنا
إليك فوجدناك قد أسرتهما بعد أن بنجتهما .
ضحك المقدم عمر العيار ، وهو يقول :
خدعة سهم النفط هذه هى بداية استفادتك من دروسك
الجديدة ..

وقالت فاطمة :

— وانتهزنا فرصة انشغالك بالحطب لناخذ الأسيرين والفرزال
بعيدا حتى نحاول أن نتعقبنا فتبعد عن هذه المنطقة التى رأينا أنها
مركز خطر يتهددك .. ليسهل لأحدنا أن يفتشها جيدا ويتأكد من

ان اسيريك جاءا وحدهما .. بينما يحاول الثانى ابعادك اطول مسافة ممكنة باستعمال حيلة الفرس ..

قال على الزبيق فى مرارة :

- كاد يبعدنى عن الحياة نفسها ..

قال المقدم عمر العيار :

- ما كنا نقدر انك وصلت الى هذه المرحلة من التعب

والاجهاد ..

وعاد ياكل فى صمت ، بينما استأنفت فاطمة طعامها فى فتور ،

وضحك على الزبيق فجأة وهو يضع صحنه على الارض ، ويقف

محركا عضلات يديه وساقيه ، وقال :

- كفت الارض عن الاهتزاز وعرفت راسى اخيرا مكانها ، وانها

فوق كتفى ، لا ورائهما ولا امامهما ولا على احد جانبيهما .. كما

كانت تصر نهار أمس بطوله ، وليل أمس كله ..

قالت فاطمة :

- فعل الطعام والشراب فعلهما ، ولو اخذت قسطا وافرا من

النوم لمت هودتك الى حالتك الطبيعية .. بينما قال المقدم عمر

العيار :

- يعجبنى فيك انك تأخذ كل المصائب بضحكة ساخرة ، وتعليق

ضاحك .. هذا بالفعل يهون الأمور ..

قال على الزبيق :

- العويل والبكاء لن يصلحا شيئا فسد ، او يعيدا شيئا فقد ..

قال المقدم عمر :

- آن الاوان لنسال اسيريك عن سر الكمين الذى نصباه لك ..

قالت فاطمة :

- يحسن ان يتكلما ، ولا يبقيا عندهما ما يهمنى معرفته ...

واتجه الثلاثة نحو مكان الاسيرين اللذين حدقا فيهم فى جمود ،

وقد اكتسبت ملامحهما تحديا وعنادا واضحين ..

وقال على الزبيق :

- مرحبا بالطائرين المهاجرين عبر الصحراء .. كيف وقعتما من

مشكما الدافئ الامين فوق الشجرة ؟

وظل الرجلان يحدقان فيه فى صمت ، بينما قال المقدم عمر

العيار وهو يعبث بخنجر فى يده :

- لقد كمنتما لعلى هنا بعد ان اخفيتما دلو البئر ، حتى يضطر

ان ينزل بحثا عن الماء ويفقد أى قدرة على مواجهتكما .. كانت نية

القتل واضحة في تصرفاتكما ، ولذا فلا تنتظرا منا ان نظن فيكما حسن النية ..

تغير وجه الرجلين ، وقال احدهما في صوت اجش :
- هذا مجرد ظن لا دليل عليه ..

وقال الآخر :

- ولا أحد يأخذ الناس بما يظن أنهم يبيتون عليه النية ..
قالت فاطمة في صوت متوتر :

- نحن نعرف من أرسلكما .. ولم ؟
قال الأول في تحد :

- أنت لا تعرفين شيئا ، فلم يرسلنا أحد ..
قال علي الزبيق في سخرية :

- ولم يضحكما أحد فوق الشجرة ، فقط تعبتما من الطيران ،
فاستقر بكما الرجال فوق الأغصان ..

نظر إليه الرجلان في جمود ، بينما قال المقدم عمر العيار :
- لا فائدة من الحديث العاقل أو الحديث الساخر معهما ،
هذان رجلان فاشا والعنف هو تجارتهم ، وهما لهذا لا يفهمان
إلا حديث العنف ..

شحب وجه الرجلين ، وقال الأول :

- ماذا تعنى يا مقدم ؟

هو المقدم عمر العيار الخنجر في يده ، ولوح بحده نحو الجمرات
المتوهجة تحت القلبى المشوى ، وقال :

- هذا القلبى عرف ملمس خنجري ، كما عرف ماذا تفعل
النار بالجلد واللحم ..

ازداد شحوب وجهى الرجلين ، واهتزت شفتا الرجل الثانى
وهو يقول :

- ليس لدينا ما نخفيه ، اسأل ونجيب ..
قالت فاطمة :

- ألم يرسلكما صلاح الكلبى ؟

كان السؤال مفاجئا للثنين ، فنظر كل منهما الى الآخر ، وقال
الأول :

- لقد طردنا المقدم صلاح الكلبى من القاهرة ، وحرّم علينا
دخولها ..

قال علي الزبيق :

— اذن فانتما تعرفان صلاح الكلبى ، فمن انتما من رجاله ؟
قال الثانى :

— لقد طردنا من خدمته شر طردة كما قال المقدم حسن
ابن الحصرى ..
قال عمر العيار :

— آه ، عرفنا الآن احدكما ، المقدم حسن بن الحصرى الفاتك ،
قاطع الطريق ، وعميل صلاح الكلبى فى سرقة القوافل ، وسلب التجار
والمسافرين .

صاح الرجل فى بلاهة :

— ماذا ؟ كيف عرفت كل هذا ؟ من انت ؟

ضحك عمر العيار وهو يقول :

— وزميلك عرفته ايضا .. وسجله فى اللصوصية لا يقل اظلاما
من سجلك ..

صاح الثانى فى ذهول :

— أنا ، ما هذا الكلام ؟

قالت فاطمة :

— لقد وعدت ان تقول الصدق ، وقلت اننا ان سألنا اجبت ، والان
نسأل ، ولا نريد اكاذيب فى الاجابة .

هز الرجل رأسه فى حيرة وقال :

— ألم تسمى ما قاله ، اهو يعرفنى حقا ؟

عاد عمر العيار يضحك وهو يقول :

— المقدم على بن البيطار ان لم تخنى الذاكرة ، صاحب الرحلات
الدائمة بين بلادنا وبلاد الافرنج .. والذى اشتكى من جبروته
وسطوته التجار هنا وهناك ..

قال الرجل :

— هذه اكاذيب ووشايات .. فلم اكن ابدا فى خدمة الافرنج ..
قالت فاطمة :

— لماذا اختلفتما مع صلاح الكلبى ؟ ولماذا طردكما من خدمته .

قبل ان يجيب احدهما عن سؤالها ، قال المقدم عمر العيار :

— من قال انهما اختلفا معه ، او انه طردهما من خدمته ..

هما الى الآن فى خدمته ، ومهمة القضاء على الزبيق عند بشر النجاة
هى آخر مهمة كلفهما بها رئيسهما صلاح الكلبى .

قالت فاطمة :

— هذا ما اكده لى الرجل الذى زارنى فى الفجر .

قال حسن بن الحصرى :

- مهلا ، مهلا .. من هذا الذى زارك عند الفجر ؟
 ضحكت فاطمة فى سخرية وقالت :
 - أحد المقدمين أمثالك استيقظ ضميره ، ورأى ان قتل انسان
 برىء اعطاه السلطان مندبل الامان جريمة .
 قال على بن البيطار ، وفى صوته رنة صدق :
 - وكان هذا رأى منذ البداية ، وتأكد هذا الرأى حين رأيت
 الشاب على الزبيق عرفت أنه ليس الشقى الغليظ الذى صورده لنا
 المقدم .. أعنى رسول صلاح الكلبى .
 قالت فاطمة فى اصرار :
 - ومع هذا كنت تنوى قتله ؟
 اشاح على بن البيطار بوجهه ، وهو يقول :
 - لن تصدقيني لو قلت لك الحقيقة ، فما الفائدة ..
 قالت فاطمة :
 - لست أفهمك يا مقدم على .. ماذا تريد ان تقول ؟
 ضحك المقدم عمر العيار ، وهو يقول :
 - هو يعنى أن ضميره استيقظ ، ولكن بعد أن تورط فى عفن
 صلاح الكلبى .
 بسرعة قال على بن البيطار :
 - هذا صحيح .. صدقتموني ام لا .. فالمسألة اننى انفذ
 الاوامر حقا ، ولكنى فى بعض الاحيان أحس بالضيق عند التنفيذ ،
 وبالندم بعده .
 قال على مت دخلا فى الحديث :
 اذن فانتما لا تنكران انكما دسيسة صلاح الكلبى ؟
 قال المقدم حسن بن الحصرى :
 - ولماذا الانكار .. انتم تعرفون كل الحقائق بالفعل ، والانكار
 لن يجدى ، بل سيزيد موقفنا سوءا .
 وقال المقدم على بن البيطار وهو يشير برأسه الى الفزال المشوى :
 - حتى لو كنتم تريدون قتلنا ، الا تأكل شيئا من هذا الشواء
 حتى نموت على شبع ..
 ضحك على الزبيق ، وقال :
 - عرفنا ما نريده منكما ، ولست أحبذ ان يعانى احد من
 الجوع بعد ما مررت به منذ قليل ..
 قال المقدم عمر العيار وهو بعيد خنجره الى قرابه :

— أنتما مجرد أدوات لا قيمة لها ، ولا تهمنا في شيء ..
قال المقدم حسن بن الحصرى وهو يحرك يديه المقيدتين :
— واذن ...

قال على :
— سأفك قيودكما وتأكلان ، ثم تنصرفان بلا عودة ، ولو رأيت
وجهيكما بعد هذا فلوما أنفسكما ..
قالت فاطمة :

— وستتركان راحلتيكما معنا فعلى يحتاجهما في طريق العودة
الى الوادى .
قال على :
— ولكن يا ام ..
قالت فاطمة :

— كفاك ما حدث حتى الآن ، لن يطمئن قلبى الا بعودتك معنا الى
القاهرة ..

قال عمر العيار وهو يشهر خنجره ويقترب من الاسيرين :
— لقد قرر على أمركما ، وحياتكما ملكه فلا ينس احدكما ذلك ،
ولكن هيا الى الطعام ..

المدينة المرصودة

كانت الشمس تختفي وراء الافق ، وقد بدأت نسمات الغروب الرطبة تحرك أغصان الأشجار عند بئر النجاة ، ووقف على أمه وعمر العيار يرقبون الرجلين المبتعدين في سرعة ، لا يلتفتان خلفهما ، وكأنهما لا يصدقان انهما نجوا من موت محقق ، وتنهت فاطمة وهي تقول :

— لن يتوقفا قبل أن يصلا الى الوادى .

ضحك عمر العيار وهو يقول :

— امرهما لا يعنيننا الآن ، المهم هو أن ينام على في أمان هذه الليلة ولا يستأنف رحلته الا في الصباح ..

قال على في دهشة :

— سأكمل رحلتى اذن .

قالت فاطمة في حزم :

— أنت خرجت في مهمة يا على ولا بد لك من اتمامها ، وعندما تستيقظ في الصباح لن تجدنى ، ولن تجد المقدم عمر العيار ، وانما ستجد فرسا كريما عند حافة البئر .

صاح على في دهشة :

— فرسا .. ولكن الصحراء ؟

ضحك المقدم عمر العيار وهو يقول :

— ليس هناك بعد بئر النجاة صحراء ، بل بداية الغابات الكثيفة ولذلك سمى المكان باسم بئر النجاة فمن وصل اليه كتبت له السلامة الكاملة ..

قال على :

— والمدينة المرصودة في الغابة ..

قالت فاطمة :

— المدينة المرصودة على حافة بحيرة ضخمة وسط الغابات ، وجزيرة

مندوق التواجيه ليست بعيدة عنها .

قال على :

— تعنين انها جزيرة وسط البحيرة .. ؟

قال المقدم عمر العيار :

— لقد قطعت اخطر مراحل رحلتك بسلام .. واحسبك ستوفق
يا علي ..
قالت فاطمة :

— والآن جسدك محتاج الى كل الراحة ، فتم الى جوار راكية النار
هذه وسنترك لك جزءا من الشواء لافطارك ، واستودعك الله يا بني
.. عد ظافرا فلن يرضيني الا هذا .
ورقد علي الى جوار الركية وهو يريد أن يحتج علي تركه وحيدا ،
ويريد أن يقول لأمه أن تبقى ، ويريد أن يظل مستيقظا حتى يعترف
ماذا ينتويان .. ولكن لم يقدر مدى الارهاق الذي تحمله جسده ، فما
أن وضع رأسه على جرابه الى جوار الجمرات المتوهجة حتى راح في نوم
عميق ..

كان شيء ما يأكل ذراعه ، وكان الذراع كله قد غدا مضغة في فك
حيوان مفترس ، وعند أنفه تصاعدت روائح لحم محترق .. وتحرك ،
وأحس أنه يرفع يدا ثقيلة ، وأنه يحرك قدما أكثر ثقلا .. وحاول مرة
ومرة ثم استطاع أخيرا أن يفتح عينيه ، وطالعه السماء وهي تشرق بالنور
الوليد ، ونظر الى ذراعه فأجفل ، كان ذراعه العاري يرقد فوق جمرات
النار الملتهبة ، وأسرع يرمى بنفسه بعيدا عن راكية النار ، وارتجف
حين أدرك أن رائحة اللحم المحترق التي كان يشمها في نومه كانت
رائحة لحمه هو .. وكان ذراعه قد مسته الجمرات في أكثر من موضع
بدت لعينه ملتتهبة محمرة ، وتذكر (حرنندان) الادوية الذي اعطاه له
الشيخ زكي البتوكي ، فمضى الى حيث ترك جرابه ، وأخرج الحرنندان،
وجعل يبحث في محتوياته حتى عثر على وعاء صغير مكتوب عليه (مرهم
الحروق) .. وفتح الوعاء ، ومضى يدهن مواطن الالتهاب في ذراعه ،
وسرعان ما أحس بالبرودة تسري في مكان الالتهاب ، وبالألم يزول
تدريجيا فأعاد الوعاء الى مكانه ، وهو يتسهم .. في هذا الحرنندان
أوعية مختلفة تحوى أدوية من كل نوع ، تعالج كل مرض ، الحروق،
والجروح ، والتسمم ، والام المعدة . ولدغة الثعبان ولسع الحشرات
والهوام . حتى أمراض البرد وأوجاع الرأس ، لم يترك الشيخ زكي
البتوكي شيئا من علمه وطبه لم يضع له منه ما يكفي . وأعاد الحرنندان
الى مكانه في الخرج فاصطدمت يده بحرنندان آخر ، وأخرج الحرنندان
ومضى يتأمل ما فيه ، زجاجات النفط ، تشعل الفتيلة في مقدم الزجاجات
فاذا هي جيش كامل يقضى على عشرات من الآخرين . ثم ملاعب الصين
هكذا أسماها الشيخ زكي البتوكي ، تخرج أضواء وأصواتا والوانا ،

لحظة أن تشعلها .. وابتسم الزبيق ، وهو يعيد كل شيء الى الحرنندان
وسمع صهيل جواد ، قطع عليه تفكيره - وقام منتصباً يبحث عن
مصدر الصهيل .. وهناك عند حافة الدغل ، وجد جواداً أصيلاً ،
يقف قلقاً ، يضرب الأرض بحوافره - وأحس منذ اللحظة الأولى بعشق
للجواد ، وباشفاق عليه ، فلا شك أنه جوعان ، فما حوله من العشب
قد أكل كله ، ولا شك أنه عطشان ، ولا شك أن قيده طوال الليل قد
ضايقه ، وأضجره .. وتقدم من الجواد الذي أجفل لمقدمه ، ولكنه
همس اليه بكلمات مطمئنة وهو يمد يده بحذر الى عنقه ، ليربت على
عرفه ، وسيل الهمسات مطمئنة ينثال من فمه .. واستكان الجواد
اليه وهز رأسه ، وهو يتشمم على الزبيق ، الذي حله من وثاقه ، وأخذ
يقوده الى البئر ، وما أن وضع الدلو المملوء امامه حتى أخذ يشرب في
شراهة وظماً .. وهمس على الزبيق في أذن الجواد :

- لم نخلق انا ولا أنت لهذا النيه من الرمال ، ورحلتنا من الآن
ستكون تحت ظلال أشجار الغابة ..

وكانما فهم الجواد حديث الزبيق ، فرفع رأسه من دلو الماء لحظات
ليسهل ويهز جسده كله ، كأنما يؤمن على كلام الزبيق .. وفي هدوء
حمل عليه السرج ، وأعد الجواد وثبت لجامه ، ثم وضع عليه خرجه
وجرابه وما به من حرنذانات ، وتلفت حوله فوجد الى جوار رابية
النار بقايا شواء تركتها له أمه وعمر العيار - فمضى يأكل على مهل وهو
يتأمل الدغل حوله ، كان كل شيء ساكناً حوله في هذه اللحظات الأولى
من النهار ، وكانت تأتيه من أعماق الدغل أصوات طيور مبكرة ،
وحوانات تتحرك فتتحرك معها العشب النامي ، وتشكل فيما بينها مجموعة
من النفحات الرقيقة لمعنى الحياة الآمنة الوديفة ، وارتد بصره الى الصحراء
القاحلة تمتد من الناحية الأخرى ، فارتجف وهو يتذكر معاناته المميتة
فيها ، وعاد يرد بصره الى الدغل ، هنا حياة ، وهنا موات ، والفيصل
بينهما هذا البئر .. مجرد نبع ماء .. وتنهّد وهو ينهي طعامه ،
ويطوى ماتبقى منه بعناية ويضعه في الخرج ، ثم يملأ قربة الماء من ماء
البئر ، ويشرب كفايته ، ثم يقود جواده عبر الباحة التي تحيط بالبئر
فاذا ما وصل الى حافة الدغل امتطاه ، وهو يمضي في طريقه على مهل ،
فهو لا يريد أن ينهك الجواد ، كما لا يريد أن يضل طريقه فيجد نفسه
مرة أخرى وسط الصحراء .

مع أشعة نفس الفجر استيقظ رجلان منهكان كانا ينامان فوق

كثبان رملية ناعمة ، على أصوات وصهيل وضجة .. وهمس حسن بن
الحصرى فى أذن زميله :

- لا تحدث صوتا ، فلم نعد وحدنا فى هذه الصحراء اللعينة ..
اعتدل على بن البيطار فى انبطاحة على الارض ، وحاول ان يجلس
فامتد ساعد حسن بن الحصرى يعيده الى الارض من جديد ، وهو يقول
فى صوت هامس كالفحيح :

- قلت لا تحدث صوتا ، فلسنا فى حالة تسمح لنا ان نلفت الانظار ..

وزحف على بطنه كالثعبان يتطلع الى مصدر الصوت الذى كان
يزداد اقترابا طول الوقت ، وتبعه على بن البيطار حتى حاذاه من جديد
وقال فى صوت هامس مليء بالقلق :

- اتحسب انهم تبعونا ، ورجعوا عن الامان الذى اعطوه لنا ؟
ضحك حسن بن الحصرى ضحكة خافتة وهو يهمس :

- هذه الاصوات لم تصدر عن فارسين او ثلاثة ، هذه اصوات
قافلة كاملة ، سارت طول الليل وتريد ان تختار مكانا تلقى فيه رحالها
بالنهار لتتجنب وهج الشمس الحارقة فى هذه الصحراء ..

ساد بين الاثنين صمت طويل ، وقد ارفها اذانها تتبع حركة
القافلة ، وقد بدأت تتناهى اليها اصوات الرجال يتنادون ، واصوات
الحيوانات المجهدة من طول السير .. وهمس على بن البيطار :

- انهم لا يتحركون نحونا ، بل احسب انهم استقروا على مكان
يتوقفون فيه ..

شدد حسن بن الحصرى قبضته على ساعد على بن البيطار وهو
يقول هامسا :

- لا ترفع صوتك ، هم هناك بعد هذه الرابية ، وهم يقيمون الخيام
ويربطون ما معهم من حيوانات .. مازال الحظ فى جانبنا ، وكنت اظن
اننا استنفدنا آخر فرصة حسنة حين وقعنا فى يد الزبيق ..

كشر على بن البيطار عن انيابه ، وهو يهمس فى صوت يقطر
بالحقد والمرارة :

- خدعة البنج الذى يطير الى اعلى الشجرة هذه ، خدعة جديدة ،
وراءها سر نعرفه ، ولكنه يعرفه ، ولولا هذه الخدعة لتمكنا منه
وقتلناه ، ونفذنا اوامر المقدم صلاح الكلبى ..

ضحك حسن بن الحصرى ، وهو يقول :

- لا تخدع نفسك ، لقد سمعت من الاعيب الزبيق ما يجعلنى

مشتاقاً أن أنازله ، ثم جاءت هذه الواقعة ، فتأكدت مما سمعت .. ولكن وصمت لحظات في وجوم ، وعاد يقول :

.. ولكن لا بد لي أن أهزمه ، وأتفوق عليه ..

ضحك علي بن البيطار وقال في مرارة :

.. تتحدث عن التفوق ، ونحن هنا جوعانان ، عطشانان ، هدنا التعب ، وما زالت الصحراء أمامنا على اتساعها ، وإن لم يقض علينا الجوع والظمأ ، قضت علينا رحلة النهار في شمس الصحراء القائظة ..

قال حسن بن الحصرى ، وهو يزيد قبضته انطباقاً على ذراع علي بن البيطار :

.. ألم أقل لك أن الحظ ما زال إلى جانبنا ..

قال علي بن البيطار :

.. كيف ، ونحن راجلان بلا رواحل ، وأمامنا هذه الصحراء القاتلة ؟

قال حسن بن الحصرى :

.. لم نعد راجلين ، ولا جائعين ولا ظامئين .. فهذه القافلة ستحل كل مشاكلنا ..

ارتفع صوت علي بن البيطار رغماً عنه وهو يسأل في حدة :

.. اتظن حقاً أنهم سيقبلون إعطاءنا الطعام والماء ، وراحلتين لرحلتنا عبر الصحراء .

ضحك حسن بن الحصرى ساخراً وهو يقول :

.. هل تعتقد أنهم من المجانين ليتخلوا لاثنيين لا يعرفون عنهما شيئاً عن ماء وزاد في مثل هذه المرحلة من الرحلة .. أو أن يتخلوا عن دابتين قد يكونان الفيصل لهما بين الحياة والموت في هذه الصحراء المخيفة القاسية ؟

صمت علي بن البيطار لحظات يفكر في كلام حسن بن الحصرى . ثم قال في ببطء :

.. إذا كنت تعنى ما فهمته من كلامك .. فلن ننتظر دعوة من أحد ترك حسن بن الحصرى ذراع رفيقه ، وهو يقول :

.. هناك لحظات في حياتك أحس فيها أن لك مخاً في رأسك ومنها هذه اللحظة .

قال ابن البيطار في تردّد :

.. ولكنها دقائق وتظهر الشمس وتكشف كل تحرك لنا فلا

نستطيع أن نتسلل الى المضارب ، أم تريد أن نقود هجوما مباشرا عليهم نحن الاثنان فقط وليس معنا سلاح ولا خيل .

ضحك ابن الحصرى وقال :

— سأحسدك لو استمرت هذه الموجة من الذكاء تعتريك طويلا .

قال ابن البيطار فى ضيق :

— وما أقوله تقرير لواقع لا يحتاج الى ذكاء ..

قال ابن الحصرى :

— تقرير الواقع شيء ، والاستفادة منه شيء آخر ، وما تقوله معناه

أننا اذا أردنا أن نحصل على ما نريد فعلينا أن نتحرك الان وفى الحال .

نظر اليه على بن البيطار ، وقال فى تردد :

— تعنى أن نهاجمهم الان .

تنهد ابن الحصرى وهو يقول :

— بل اعنى أن نتسلل الى المخيم الان ، وفى غبش الفجر المخيم ،

وعلينا بسرعة فائقة أن نحصل على راحلتين ، وعلى الطعام والشراب ،

فى وقت واحد ، وأن نخفى كالأشباح مع آخر أشعة الظلام حتى يهزمها

الفجر الان ..

وجم ابن البيطار ثم قال هامسا بعد لحظات صمت طويلة :

— المغامرة محفوفة بالمهالك ، فنحن لا نعرف عددهم ، ولا حقيقة

قوتهم ، ولست أحب أن أتسلل الى مكان لم أدرسه من قبل ، ولم

اعرف عنه كل كبيرة وصغيرة .

قال حسن بن الحصرى فى اصرار :

— للضرورات احكام يا صاحبنى ..

قال ابن البيطار مترددا :

— قد يكون فى هذا هلاكنا ..

أمن حسن بن الحصرى على حديثه قائلا :

— نعم قد يكون هذا وقد يكون فيه نجاتنا ، ومثلنا لا يعرف طعاما

للحياة الا اذا اقتربت من خطر الموت .. ماذا قلت ؟

ضحك على بن البيطار فى استهتار ، وقال :

— صدقت ، ليس مثلنا من يتحدث عن الموت ، ونحن الذين نزرعه

فى طريقنا .. عليك أنت بالماء والزاد ، وسأتولى أنا أمر الرواحل ..

قال حسن بن الحصرى :

— ولماذا الرواحل ؟

ضحك على بن البيطار وقال :

— لا تنس اننى بيطار بن بيطار ، ولى مع الدواب صحبة طويلة ..

وفى صمت تسلل الرجلان نحو المخيم تحميتهما اشعة الفجر
المريضة ، وتحكم حركاتهما خبرة طويلة فى عالم اللصوصية ، ومهاجمة
القوافل الآمنة .

أحس على الزبيق بالنشاط يلب فى اعطاف الحصان فجأة ، وانه
بدأ يسرع فى مشيته وهو يرفع رأسه يتشمم الهواء أمامه وربت على
الزبيق على عنق جواده ، وترك له الحبل على الغارب ، ورفع رأسه هو
الآخر وقد أحس بنسمة منعشة تملأ الهواء حوله ، وعرف أنهما مقبلان
على نبع ماء ، وكانت الرحلة طوال الصباح قد انهكته ، وكان الحر رغم
أشجار الغابة وخضرتها قاسيا ، وفجأة ازدادت سرعة الجواد ، وتطلع
الزبيق أمامه ليجد غديرا وسط الحشائش والأشجار ، يلعب ماءؤه تحت
أشعة الشمس المتوهجة ، فتنهده فى ارتياح وهو يسرع بجواده الى حافة
الغدير ، وهناك ترجل ، ورفع عن جواده أحماه ، وسرجه ولجامه ،
وتركه يندفع الى الماء ليشرب ، ويغوص برأسه فى الماء ، ويبعد عن
حافة الغدير ، ثم يصهل فى سعادة وهو يهز جسده المبلل هذا ..
ومضى على الزبيق يخلع ملابسه ، ويدفع بنفسه الى الغدير يستحم فى
مائه ، وقد نسي نفسه ، ونسى متاعبه وهمومه .. وكان ماء الغدير
عذب المذاق يروى العطش ، كما كان باردا يزيل الحر ويرفع عن الجسد
الاحساس بالتعب ، ولم يخرج على الزبيق من الغدير الا احساسه
بالجوع فمضى الى حافته ، وساق حصانه معه ، ومضى يزيل عن جسده
الجواد الاتربة والماء ، ويجففه فى عناية ، ثم ساقه الى الحشائش يرعى
وجمع الزبيق حطباً جافاً ، واوقد نارا يطهو عليها طعامه ، ويأكل فى
استمتاع .. ثم ارتدى ملابسه ، وأسرج جواده ، ورفع عليه الأحمال
من جديد ، ومضى فى طريقه ، وهو يحس انه يزداد اقتراباً من هدفه .

خلف الكثبان الرملية التى اقتربا عندها ، التقى اللصان من
جديد ، وقد غمرت أشعة الشمس الكون ، وبدأت حرارتها تثقل
جسديهما .. ونظر كل منهما الى ما جاء به زميله وعلى شفثيه ابتسامة
رضا عريضة ، وقال حسن بن الحصرى وهو يتأمل الجوادين اللذين
ساقهما زميله وقال :

— لقد أحسنت الاختيار ، وحقا انك يا على بيطار ابن بيطار ..
هز على بن البيطار كتفيه فى استخفاف وهو يقول :
— الخيل تلافنى وتعرف رائحتى ، ولا تنفر منى أبدا ، والحراس

اكتفوا بربط أقدامها بحيث ترعى ما تجده من عشب جاف ، فقد كان الحراس متعبين ، ولا طاقة لهم بالبحث عن مرعى ، وكان الامر بالنسبة لى سهلا فقد رقدت بجسدى وسط اقدام الخيل ، والخيل لا تطاء جسد رجل فوق الارض ، حتى أخذت هذين الجوادين ، وظللت أهمس لهما بحديث تعرفه الخيل حتى تمكنت من ربطهما بحبل ، وأخذت اتحرك ببطء ، وهما يتبعاننى وباقي الخيول تفسح لنا مكانا ، وأى مراقب لهما كان سيظنهما يبحثان عن بقايا العشب الجاف وسط هذه الصحراء القاحلة ، وما ان ابتعدت عن حافة المضارب حتى أسرعتم بهما الى هنا .. الا ترى ، كان الامر سهلا بالنسبة لى ، فقد قمت به فى زمانى عشرات المرات ..

وضحك وهو ينظر الى الاحمال التى ينزلها حسن بن الحصرى من فوق كتفيه ، وقال :

— وأنت ماذا أحضرت ؟

قال حسن بن الحصرى :

— مهمتى كانت أسهل من مهمتك بكثير . فواضح ان القافلة تضم عدة مجموعات اجتمعت متوحدة لضمان الامان فى العدد ، فأخذت أنتقل بينهم ومعهم فى ثقة وهدوء وكأنى واحد منهم ، وكل مجموعة تظن أننى أنتسب للمجموعة الاخرى ، وحملت معهم أحمالهم ، ونصبت معهم الخيام ، ومن خلال حركتى ، أخذت بزقين من الماء ومجموعتين من الزاد ، لك ولى ..

قال على بن البيطار فى دهشة :

— جئت بزقين ومجموعتين من الزاد ، لماذا ؟

ضحك حسن بن الحصرى وهو يحمل نصيب بن البيطار ويضعه أمامه :

— ربما اكملنا الطريق معا ، وربما كان لك رأى آخر ..

ثم مد يده يتناول الحبل الذى يقود أحد الفرسين ، ومضى يربط على ظهره فى اعجاب وهو يقول :

— أنت فعلا تفهم فى الخيل يا ابن البيطار .

قال على بن البيطار متجاهلا كلمات المديح :

— ألن نعود الى مصر معا ..

قال حسن بن الحصرى :

— بل انا عائد الى على الزبيق ، اعرف الان انه يتجه الى المدينة

المرصودة ، وسأسبقه اليها ، فالامر بينى وبينه لم ينته بعد ..

قال على بن البيطار :

— ولكنك قلت :

قاطعه حسن بن الحصرى قائلا :

— أعرف ما قلت من قبل ، ولكن الآن هذا قرارى ، فإذا كان هو قادرا على احضار صندوق التواجية ، فأنا قادر على هذا أيضا .. ولا تنس أن أوامرنا هي أن نقضى عليه .
هز على بن البيطار كتفيه ، وقال :

— لك طريقك ولى طريق ، انا عائد الى مصر وكفانى مالاقيت من ملاعب الزبيق ، ولا تنس ان بيننا خائنا افشى سرنا ، ولا بد أن يعلم المقدم صلاح الكلبي بالامر حتى يأخذ حذره ..
ضحك حسن بن الحصرى وهو يقول :

— اذن الامر كما قدرت أنا .. لك من الان طريق ، ولى طريق ..
وفى صمت حمل كل منهم نصيبه من الزاد والماء فوق جواده ، دون كلمة وداع ، أخذ كل منهما طريقا غير طريق الآخر ، واحد الى مصر ليشى بما يعرف لصلاح الكلبي ، والثانى الى المدينة المرصودة رسول موت وخطر لعل الزبيق .

قبل الغروب بقليل خرج على الزبيق من الغابة ليجد نفسه فى منطقة صخرية تتخللها الاعشاب والاشجار ، وما أن سار فيها قليلا حتى وجد أمامه تلا عاليا . ووقف يتأمل التل ويرى جواده من سيره الطويل ، فلاحظ قطعان الماشية التى ترعى فى سلام فى مناطق متفرقة من منطقة الاعشاب ، وتلفت حوله يحذر باحثا عن راع مع الماشية ، فلم يجد أحدا ، وتأكد أنه وصل الى منطقة اهله بالسكان ، وحدثه قلبه انه اقترب من غايته ، ان لم يكن قد وصل اليها بالفعل ، وقرّر أن يتوخى الحذر فى كل ما يفعل من الان ، فترجل عن جواده ، وقاده الى التل ، وظل يبحث بعينه وهو يصعد التل حتى وجد مدخل مغارة فقاد اليها الجواد ، وربط قدميه حتى لا يبتعد ، ثم تخفف من ملابسه وتقلد سيفه ، ومضى يصعد التل فى حذر .. وكلما ازداد صعودا كلما ازداد تأكدا من وجود بشر يستوطنون المنطقة ، فهناك آثار قطع الحجارة لبناء المنازل ، وهناك اشجار كثيرة مقطوعة ، وهناك آثار قطعان من الابقار ممت من جانب التل الى جانب .. وحين وصل الى قمة التل تأكد من ظنونه كلها ، فأمامه تمتد منطقة واسعة من الاعشاب تليها أسوار مدينة ضخمة وكبيرة ، وكان يستطيع أن يرى شوارعها خلف السور تملج بالحركة والنشاط ، كما استطاع أن يميز بيوتها

المصنوعة من الحجارة على نمط واحد ، ولونها كلها بلون تراب التل
الاحمر . . واختبأ خلف صخرة ناتئة وهو يتابع بعينه سور المدينة
الذى يحيطها كلها ، الى أن وصلت عيناه الى البوابة الضخمة المفتوحة
والتي لا تكف عندها حركة الدخول والخروج ، وارتفعت عيناه فوق
البوابة ليجد تمثالا ضخما لرجل نحاسي يمسك بوقا نحاسيا . . وخفق
قلبه ، فهذه لاشك بغيته . . المدينة المرصودة ، وهذا هو الرصد
حارسها الذى ينفخ فى البوق ان دخلها غريب . . وظل على الزيتق فى
مكانه يشاهد الحركة الحية فى المدينة الى أن بدأت الشمس فى المغيب
واخذ الظلام يطبق تدريجيا على الوادى تحته .

بنت السلطان

كان الرعاة يعودون بقطعانهم الى المدينة ، ومن ناحية الجنوب اقبلت قافلة من الجمال تدخل من البوابة المفتوحة ، بينما خرجت كوكبة من الحراس راكبي الخيول يطوفون بسور المدينة من الخارج ، وبدأت أضواء المشاعل والمصابيح تلمع في شوارع المدينة ، ومن نوافذ منازلها .. وظل على الزبيق في مكانه يرقب الحركة عند البوابة حتى بدأت تبطيء من ايقاعها ، وعادت كوكبة الحراس من جولاتها ، ودخلت من البوابة ، ثم تصاعدت نداءات الحراس هنا وهناك ، واغلقت البوابة في ببطء ، وسكن حولها كل شيء .. وأدرك على الزبيق ان المدينة تستعد لقضاء ليلة هادئة ، لا أحداث فيها .. فعاد منسحبا الى الكهف الذي ترك فيه جواده وقد قر قراره ان يريح جسده حتى منتصف الليل حتى تنام المدينة تماما ، وتطفأ الأنوار في منازلها وشوارعها ، فيفكر في حيله يدخل بها المدينة متخطيا عقبة الرصد صاحب البوق .. وحين وصل الى الكهف حياه سهيل الجواد ، فربت على رقبتة يطمئنه ، ثم رقد عند مدخل الكهف ، ووجهه الى خارجه ، ويده على سلاحه ، وسرعان ماراح في سبات عميق ..

فتح الزبيق فجأة عينيه ، وان ظل جسده ساكنا في مكانه لا يتحرك ، فرغم عمق استغراقه في النوم الا ان حواسه كلها كانت منيظة ، ولهذا فقد أحس بالحركة التي تدور على مقربة منه .. وظل فترة يتتبع هذه الحركة بأذنيه ، وان كانت عيناه لا تستطيعان اختراق الظلام الذي يحيط بمصدر هذه الاصوات الخافتة التي كانت تبدو وكأنها وقع أقدام عديدة حذرة تسير فوق الصخور على مقربة منه .. واستجمع الزبيق حواسه ، ثم نهض حذرا ، وتسلسل الى خارج الكهف ، ثم سار قاصدا مصدر الصوت وهو حريص على ان تكون كل حركاته بلا صوت يشي بوجوده ، ودلت أذناه على ان هذه الاصوات تتجه الى مكان ما على يمينه . فتحسس طريقه باقدامه قبل ان يخطو ناحيتها ، وهو يمد يديه ، يتلمس صخور

التل ، ويحمد الله ان القمر هذه الليلة سيتأخر طلوعه ، فلا شيء الا
الظلام الحالك يستر حركاته ، ولا يعكس له ظلا .. وفجأة توقفت
الأصوات ، وكفت الأقدام عن الحركة ، وكأنها تلاشت في السماء ،
أو ابتلعها جب في الارض ، وابتسم لنفسه ، وهز رأسه ، لابد
ان أصحاب الأصوات التي سمعها دخلوا كهفا عميقا أخفى أصواتهم
عن أذنيه .. وأحس بفضول حاد يدفعه الى ان يكشف سر هذه
الأصوات ومصدرها ، فلا نجاح لمهمته الا اذا كان يعرف كل ما يدور
حوله ، وكل من يتحركون مثله حول المدينة ، فمضى يتحرك بحذر
وقد أرهف أذنيه ، الى أن التقط أصواتا خافتة مكتومة تصدر من
مكان أمامه تماما .. وفجأة لمح ضوءا ذابلا يتذبذب ، ولكنه يلمع
وسط الظلمة الداكنة ، وحين ازداد اقترابه لمح ضوءا ثانيا ثم ثالثا ،
ثم رابعا .. وأدرك الزيبق ان هذه الاضواء تصدر عن مشاعل مضاءة
في الكهف الذي استطاع ان يحدد مكانه ، وأن يرى فتحته من مكانه
بوضوح .. ثم بدأ يسمع همهمة أصوات تتبادل الكلمات في صوت
مرتفع ، تتخللها ضحكات خشنة فيها نشوة ، وفيها قسوة في آن
واحد .. وأدرك على الزيبق أن الكهف الضخم يضم مجموعة كبيرة
من الرجال ، وانهم تسللوا في الظلام حتى لا تشعر بهم المدينة ، وانهم
وجدوا الأمان في الكهف فأضاءوا المشاعل ، وتركوا لأنفسهم الحبل على
الفارب مطمئنين الى أن باب المدينة مفلق ، ولن يخرج منها أحد
حتى الصباح .. ولم يسترح على الزيبق لما أوصله اليه تفكيره ،
فهناك رائحة شر تفوح من الأمر كله ، وتؤكد لها هذه الضحكات
الخشنة العريضة المتصاعدة من الكهف .. وتقدم في حذر الى حافة
الكهف ، ثم انبطح على وجهه ، ومضى يزحف في سكون حتى وصل
الى الفوهة ، ثم سكن في مكانه تماما .. ولما لم يصدر أي صوت
يشي بأن أحدا قد أحس به ، ازداد جراءة ، ودخل الى داخل
الكهف ، واختار مكانا لا تصل اليه أضواء المشاعل ، ثم سسكن
يرقب ما أمامه في صمت وترقب .. وأصابته رؤيته للفتاة المقيدة
بصدمة كادت تدفعه الى حركة تكشف وجوده ، ولكنه تمالك نفسه
بسرعة وعاد ينظر اليها بامعان ، كانت بارعة الجمال ، ترتدي ثيابا
غالية ، واسعة العينين ، سمراء البشرة ، غزيرة الشعر .. وكانت
عينها مليئتين بخوف واضح ، جعلهما يبدوان أكثر اتساعا وجمالا
.. وكان شعرها قد فقد نظامه ، وتساقطت جدائله المضطربة فوق
كتفها ، وكانت تجلس في وسط الكهف تنعكس على شعرها وعينيها

أضواء أكثر من مشعل ، وكانت يداها وقدمها مقيدة بحيث تعجز
عن الحركة ، ولكنها كانت تدور بعينيها الواسعتين المدعورتين في الرجال
العديدين الذين جلسوا يأكلون ويشربون ، ويتبادلون النكات والضحكات
في مجاميع متناثرة من أنحاء الكهف .. ولاحظ على الزبيق أن جميع
الرجال كانوا سود البشرة تسود بشراتهم حمرة تجعلها تبدو كالنحاس ،
بينما كانت ملامحهم تنطلق بالشر والاجرام والقسوة وكان هناك اثنان
ينتقلان بينهم بأوعية الطعام ، وآنية الشراب . بينما جلس وحده
في ناحية من الكهف رجل ضخم الجثة ، شرس الملامح ، يعيث بسوط
ضخم في يده اليسرى ، بينما يلتهم قطع اللحم المكومة أمامه في
شراهة ، وبين الحين والحين يرفع زق شراب وضعه الى جواره ،
ويشرب منه حتى يتدفق السائل من فمه الى ذقنه وصدره العارى ..
وحين أعاد الزق الى مكانه ، مسح فمه بظهر كفه اليمنى .. وقال
في صوت جهورى أجش ، وعيناه مثبتتان في شراهة على الفتاة
المقيدة المدعورة .

— هل رأى أحدكم من قبل مثل هذا الجمال المتكبر .. اليس
خسارة أن يصبح كل هذا الجمال ملكا لرجل واحد يفلق عليه
الأبواب ، ويخفيه وراء الستر .

توقف أحد الرجلين المتحركين بالطعام بين الرجال ، وحشدق
في العملاق الأسود ، وقال :

— ولكن يامونجو هذا الرجل سسيكون ملكنا سلطان ، ملك بحر
الغزال ..

ضحك مونجو في وحشية ، وهو يمسك بعظمة ثرية باللحم الذي
يكسوها ، يمزقه بأسنانه ويلوكه ثم قال من فمه المحشو بالطعام :

— قد يكون ملكك أنت يالومبا فانت من رجاله ، أما أنا فأعمل
له بالأجر ، ومن وراء الظهور ، وفي مهماته القدرة التي لا يستطيع
أن يكلف بها رجاله المعروفين مثلك ..

قال لومبا وهو يضع صحاف الطعام على الأرض ، ويتوجه اليه
بكليته :

— قد تكون يامونجو فاتكا وقاطع طريق لا ولاء لك لأحد ، ولكنك
في هذه المهمة بالذات تعمل من أجل الملك وبأجر مجز ، وعلى وعيد
بغفو عام عن كل جرائمك السابقة ، فلا تنس هذا أبدا ، والا جلبت
على نفسك وعلى رجالك غضب الملك سلطان وحنقه ..

ضحك مونجو ، وأشار بالعظمة في يده الى الرجلين المتفرقين في نواحي الكهف ، وقال :

— هؤلاء الرجال لا يعرفون معنى العفو أو الأمان ، نحن نأخذ ما نريد ولا نبالي .. وليس لهم ولاء الا الى أنا وحدي ، فانا الذى اقودهم الى المال والمتعة ، وانا الذى اخرجهم من المأزق وانقذهم من الاخطار .

وضع الرجل الثانى حمله من صحاف الطعام على ارض الكهف، وانضم الى لومبا في وسط الكهف وهوى يقول :

— لم أرتح منذ الاصل الى المهمة التى كلفك بها الملك سلطان انت ورجالك ، فهى مهمة غادرة وخسيسه ، أن تخطف بنت سلطان المدينة المرصودة التى رفضت الزواج به لفارق السن بينهما ، ولما تناهى الى سمعها من أعمال تصدر عنه ولا ترضاها هي . ولكنه الملك ، وأمره مطاع ، ومادنا قد قبلنا أمره فعلينا أن ننفذه كاملا . عاد مونجو يضحك من جديد ، وهو يضرب فخذه بكفيه ، كأنما يجد متعة فيما يحدث ، ثم سكت عن ضحكه فجأة ، وضرب الأرض أمامه بسوطه في قسوة ، وقال في صوت مدو :

— اسمعنى يامافى ، وانت يا لومبا .. لقد أرسلكما الملك سلطان معى لكى تراقباني أنا والرجال ، فهو لا يثق بى منذ البداية .. وانا اشاركه عدم الثقة هذه ، فمن أين لى أنه سيفى بوعوده بعد أن أسلمه بنت السلطان .. ولماذا أسلمها له هي الآن في يدي ، أستمتع بها أنا والرجال ، ثم نبيعها فتاتينا بأضعاف اضعاف ما وعدنى به الملك ..

وأشار بيده ، فاذا بالرجلين وسط الكهف محاطين بسيفوف عديدة مسلولة مهددة . ووقف الرجلان يتبادلان النظرات في وجوم ، وعاد مونجو يقول أمرا :

— جردوهما من السلاح ، وقيودهما حتى ينظرا ما تفعل بزوجة ملكهما المنتظرة ، وبعد هذا نستمتع بعدابهما وقتلهما .. فانا لا احب الجواسيس ، ولا رجال الدرك المغرورين بقوتهم ..

وأدرك على الزبيق خطورة ما سيحدث ، فانتهاز فرصة الهرج الذى ساد الكهف ، والرجال يتدافعون نحو لومبا ومافى لتقييدهما ، ونزع سلاحهما ، فانسل خارجا من الكهف ، ومضى يجرى نحو الكهف الذى اخفى فيه جواده ..

قبل أن يصل على الزيتيق الى الكهف توقف فجأة ، فقد ارتفعت حوله ضجة كبيرة ، ولعلت من ناحية المدينة أضواء مشاعل متعددة ، وانتبهك صمت الليل صخب ونداءات ، وصهيل خيل ، وأصوات جريها بسرعة ، وتوقف في مكانه حائرا ، ثم بدأ يرقى التل الى مكانه الاول الذى كان يرقب منه المدينة اول وصوله . وما أن وصل اليه حتى تكشف له الوادى المؤدى الى المدينة وقد امتلأ بالحركة والنشاط ، كما تبدت له المدينة وقد فتحت بوابتها الكبيرة ، واعداد كبيرة من الفرسان تخرج منها بسرعة الى كل نواحي الوادى ، وهم يحملون المشاعل ، ويهزون في أيديهم الرماح والسيوف . . ولم يفهم على الزيتيق السر في كل هذه الضجة اول الامر ، ولكنه سرعان ما تذكر الفتاة المقيدة في الكهف - بنت السلطان - فأدرك أن اختطافها قد اكتشف ، وأن البحث عنها وعن مختطفها قد بدأ . . وأدرك أن الخطر الذى يحدق بالخاطفين يحدق به هو أيضا ، وأنه ينبغي عليه أن يسرع بالعمل أن كان يريد النجاة ، فلو أستطاع انقاذ بنت السلطان من أيدي مختطفها لفاز برضاء السلطان عنه ، ومن يدري ربما كانت هذه خطونه الاولى نحو الفوز بصندوق التواجية . . وأسرع يغادر مكانه الى كهفه من جديد . .

اطمان على الزيتيق على جواده ، وربط مقوده بصخرة نائثة داخل الكهف حتى لا يدفعه الجوع الى الخروج منه فيكتشف أمره ، وأخذ من جرابه ما يحتاج اليه من ذخيرة ، وتقلد سلاحه ، وعاد يتسلل من جديد الى كهف اللصوص وبنت السلطان ، وكان يسير مسرعا متنقلا من صخرة الى صخرة كالشبح لا يعنيه أن يخفى وقع أقدامه على الصخور ، فالضجة الالية من ناحية المدينة كقيلة أن تبتلع داخلها أى صوت آخر ، وحين وصل الى الكهف وقف متحيرا ، فقد كان مغلما تماما وقد اطفئت كل المشاعل التى كانت تنيره منذ حين . . ووجف قلبه حين خطر له أنه وصل متأخرا ، وأن اللصوص قد قتلوا الفارسين من بلاد الغزال لومبا ومافى وهربوا بالفتاة الى حيث لا يعلم أحد . . ولكن هناك قمقمات من أعماق الكهف أعادت له الاطمئنان فهم مازالوا هنا ، وأن أطفأوا الانوار واختبأوا كالقثران في جحر من الجبل . . وحين تسلل على الزيتيق الى مدخل الكهف ليكنم خلف الصخرة التى كنم وراءها أول مرة ، سمع صوت مافى الهادى يقول في سخرية :

- وكنت تظن أنك ستفعلت بفنيتمك دون أن يشعر بك أحد .
 قال مونجو في صوت أجش :
 - لابد أنهم يبحثون عن الغريب الذي دخل المدينة فنفتح الرصد
 النحاسي في البوق .
 ووجف قلب على الزبيق ، وكنم أنفاسه في ترقب ودهشة ،
 وسمع لومبا يقول :
 - البحث عن الغريب بدأ منذ أول الليل ، وقد أشرت عليك
 ساعتها أن تنتهز فرصة انشغالهم في تفتيش المدينة بحثا عنه لكي
 نتسلل الى القصر ونخطف الفتاة .. وكاتوا حريصين على أن يظل
 باب المدينة مغلقا حتى لا يتسلل الغريب هاربا منها ..
 - نحن تسللنا من النفق الخلفى الذى حفرناه لندخل الى المدينة،
 ولم يشعر بنا أحد ..
 ضحك مافي في تشف وهو يقول :
 - هذا ما أريد أن أفهمك إياه ، لو كاتوا يبحثون عن الغريب
 لظلت بوابة المدينة مغلقة فهم لا يعرفون عن أمر النفق شيئا ، أما وقد
 فتحوا الأبواب ، وخرج الحراس الى الوادى فمعنى هذا أن طلبتهم
 الآن ليس الغريب وإنما طلبتهم بنت السلطان ، ومن اختطفت بنت
 السلطان :

قال مونجو ، وقد بدأت نبرات الخوف تتسلل الى صوته .
 - هكذا بسرعة ، لقد قدرنا أنهم لن يكشفوا غيابها الا في
 الصباح .
 ضحك مافي في ستخريه وقال :
 - لاشك ان ضجة البحث عن الغريب أيقظت الجميع ، وان
 الفضول دفعهم الى قاعة السلطان ، ولاشك أنهم لاحظوا أن الأميرة
 ليست بينهم ، ولعلمهم اندهشوا أن الضجة لم توقظها ، وان الفضول
 لم يدفعها لان تلحق بهم ، فبحثوا عنها في غرفتها ، وهناك :
 صاح مونجو في عصبية :
 - كفى ، أنتم تحاولان بث الرعب في قلوب الرجال .. وهذا
 لن يجديكما ..
 وتحدث أحد رجاله لأول مرة فقال في صوت مرعوب :
 - نحن محاصرون يامقدم في هذا الكهف ، وفرسان السلطان
 قاسم سلطان المدينة المرصودة تحاصر الوادى والجبل ، وحين يعرف
 الملك سلطان ملك بحر الغزال أننا قدرنا به ، وأخذنا الفتاة لأنفسنا

سيندفع الى مطاردتنا بكل رجاله ، فلا نخرج من هذا الوادى - ان
خرجنا منه - الا الى سيوف سلطان ورجاله ..
صاح مونجو فى حلق :

- ومن الذى سيخبر الملك سلطان اننا استحوذنا على الفتاة ،
حين تغيب عنه سيظن اننا قتلنا فى مهمتنا .. صاح نفس الرجل
فى عصبية بالغة :

- هذان الرجلان يامقدم ، اليسا من رجال الملك سلطان ؟ اليسا
من رجال الدوك :

ضحك مونجو فى وحشية وهو يقول :
- اشعلوا احد المشاعل ، ومزقوها بسيوفكم ..
وأفاق على الزبيق من ذهوله ، فأصرع يخرج سهم النفط بحمولته
من البنج ، وأطلقه فجأة فى سقف الكهف .. وتوهج السهم
كالشهاب ، ثم سقط منطفئا وهو يصدر هسيسا كالفحيح .. وساد
الوجوم الكهف لحظة ، تعالت بعدها صيحات مذعورة هنا وهناك ،
وحركة مفاجئة ، وكانما يريد الرجال أن يندفعوا هاربين الى خارج
الكهف ، وجاء صوت مونجو أمرا فى عصبية واضحة :

- ليثبت كل منكم فى مكانه ، لعلها حيلة لاجرائنا من الكهف
حيث تنالنا سهام مجهولة تقتلنا جميعا ..
قال الرجل الذى تحدث من قبل فى ذعر واضح :
- انه الشيطان يامقدم ، ارسل شرارة من جهنم لتحرقنسا
حيث نحن ..

ومن الظلام جاء صوت لومبا المتهمم الهازيء يقول :
- الشيطان يحرق أعوانه .. حتى الشيطان سيبدكم ومولاكم
انقلب عليكم ..
صاح مونجو :

- اسكت ، فى الكهف أفعى ؛ ولعلها قفزت الى داخل الكهف
فلمع جسدها فى ضوء القمر وحسبناه شرارة من نار .. وعاد
الوجوم يسود الكهف من جديد ، بينما سكوت صوت الهسيس
فجأة ، فارتفعت أصوات خائفة ، وهمهمات مرعوبة ، وحركات
مضطربة - وعاد مونجو يصيح :

- كفوا عن الحركة حتى يتضح لنا صوتها ، فان سمعتموه من
جديد ، مزقوها بسيوفكم ..

وعاد الهدوء القلق يسود الكهف من جديد ، بينما انسحب
على الزبيق فى هدوء الى خارجه ، حيث طالعه ضوء القمر الذى
طلع متأخرا هذه الليلة ، فاستنشق على الزبيق هواء الليل النقي ،

وجبسه في صدره طويلا ، ثم زفره في راحة ، وهو يتحرك نحو قمة
 التل حيث مكنه الذي يراقب منه الوادي والمدينة .. وجلس على
 الزبيب خلف الصخرة يتأمل الحركة المتزايدة التي أصبحت واضحة
 في ضوء القمر .. وأدرك أن استنتاج لومبا وما في كان في محله ،
 فهؤلاء قوم يبحثون عن هاربين ، أحسوا أنهم افلتوا بأمرتهم من
 أسوار المدينة وبابها المفلق ، وكان واضحا من حركاتهم المضطربة
 أن القلق بدأ يفزو قلوب قادتهم ، كما كان واضحا أنهم ينتظرون
 نور الصباح لبدأوا حملة منظمة للبحث في كل مكان في هذا التل ..
 ولا يدري على الزبيب كيف طالعه وجه زينب الجميل المتسسم ،
 ماذا كان يفعل لو كانت هي المختطفة بدلا من هذه الأميرة السمراء ،
 وذهب من قلبه كل تردد أو رحمة بالمختطفين .. هؤلاء ينبغي أن
 يلقوا عقوبتهم كاملة ، فما أقدموا عليه جرم لا يفتقر .. وازداد حنقه
 حين تذكر الكلمات الداعرة التي ردها مونجو في الاستحواذ على
 الفتاة ، وأباحتها لرجاله ، ثم بيعها في سوق النخاسة . وحين اتجه
 آخر الأمر إلى الكهف كان يرتجف حنقا وغضبا على مونجو ورجاله ،
 فاقدى الضمير والخلق - وكان متأكدا أن البنج قد فعل فعله في
 شاغلي الكهف ، فمد يده في الحرنندان وأخرج ضد البنج وتناوله ،
 ثم دخل الكهف في هدوء ليطالعه صمت مطبق ، وعلى ضوء القمر
 المتسلل من مدخل الكهف رأى أحد المشاعل المطفأة ، فتقدم منه
 وأشعله ، وأسنده إلى جوار صخرة بالكهف ، وانبعث من المشعل
 ضوء خافت كشف عن أجساد الرجال ملقاة وقد تمكن منهم البنج
 هنا وهناك حيث كانوا يجلسون أو يرقدون من قبل ، واتجه نحو
 الفتاة فحملها إلى خارج الكهف ، ثم مضى يخرج مجموعة من الحبال
 من الحرنندان ، ويقيد بها مونجو ورجاله قيادا وثيقا ، يقيد ذراعي
 كل واحد خلف ظهره ، ثم يقيد قدميه خلف ظهره ويجتركه ملقى على
 الأرض ووجهه إلى أرض الكهف .. وحين انتهى من مونجو ورجاله ،
 اتجه إلى لومبا وما في فقيد أيديهما أمامهما ، وقيد قدميهما بحيث
 يستطيعان الوقوف فوقها ، وتحريكها في نطاق ضيق ، ثم حملهما
 واحدا واحدا إلى خارج الكهف ووضعهما إلى جوار الجارية المقيدة
 .. ثم انطلق يبحث عن صخور كبيرة يسد بها مدخل الكهف .. فدحرج
 الصخرة الأولى فسدت نصف فتحة الكهف ، ودحرج صخرة ثانية
 سدت نصف الفتحة الثاني ، ثم دحرج صخرة ثالثة أسبندها إلى
 الصخرتين السابقتين ، وجمع بعض الأعشاب والأغصان الجافة
 فرماها فوق الصخور وحولها وأمامها .. ونظر إلى ما فعل في ضوء

القمر ، فاطمان أن مدخل الكهف قد اختفى تماما ، وإن أحدا لن يدرك أن هناك كهفا في هذا المكان إلا إذا كان يعرف مكانه من قبل ..

حمل على الزبيق الفتاة في رفق ، ومضى يسير بها نحو الكهف الذي أخفى فيه جواده ، فوضعها برفق فوق الأرض ، ثم فك قيودها ، وأخرج ملاءة فرشها فوق أرض الكهف ، وأرقدما فوقها ، ومضى يدلك قدميها ويديها في رفق حتى عادت الدماء تجري في عروقها ، وأعطاهما ضد البنج ، وخرج إلى حيث ترك رجلى الدرك من بلاد بحر الفزال فحملهما واحدا أثر الآخر إلى داخل الكهف وتركهما فوق أرضه مقيدتين كما كانا .. ثم عاد إلى جرابه يخرج طعاما منه ، ومضى يجمع حطباً جافاً ، ويوقد ناراً يضع عليها الطعام لينضج فقد كان قد ابتدا يحس بالجوع ، كما أنه توقع أن تكون الفتاة جائعة إذ لم يقدم إليها الرجال في الكهف أي طعام .

جلس على الزبيق القرفصاء يرقب اللحم وهو ينضج وأفكاره تعود به إلى زينب ، لا بد أنها وصلت إلى بغداد الآن ، وأصبحت هناك آمنة عند أمها .. وربما كان المقدم سالم يستعد للعودة إلى القاهرة من جديد .. ترى هل تذكره زينب كما يذكرها ، وأنتبه من أفكاره على صوت تنهيدة تصدر من الفتاة ، ثم عطست ، وهمست في صوت خافت لا يكاد يبين :

— أين أنا ..

وقام على الزبيق من جلسته ، واتجه إليها ، فراها تتطلع إليه بعينيها الواسعتين وقد ملأتهما دهشة وذعر واضحان ، وقال في صوت رقيق :

— أنا صديق ، انتهى أسرك ، وأنت الآن حرة ..

مضت تدلك راسيها من آثار القيود ، وتجيل بصرها في الكهف ، وهي تقول :

— هذه روائح شهية ، هل تطهو طعاما .
ضحك وقال :

— الطعام جاهز ، ومرحبا بك لتشاركيني فيه ..

وفجأة صرخت في ذعر وهي تشير إلى الرجلين المقيدتين ، وهبت من جلستها تتراجع بعيدا عنهما في الكهف ، فضحك على الزبيق مطمئنا وهو يقول :

— عرفت صديقتك لومبا ومافي ، لا خطر منهما فهما مبنجان ومقيدان أيضا ..

قالت وهي تخلق بعينيها قهقهة :

- كانا مع من أسرونى ، وفهمت انهما من رجال الملك مسلمان
ملك بحر الفزال ..
قال على الزبيق :

- أحكى لك من أمرهما ما لا تعرفين ، وتحكين أنت لى حقيقة
ما مر بك .
قالت فى دهشة :

- أنت تعرفهما .. ؟

قال وهو يشير الى الطعام الذى تفوح منه روائح شهية :
- عرفتهما منذ ساعات ، وعرفت انهما كانا سيدفعان حياتهما
ثمننا لاتقاذك من مصر مخيف .. هيا الى الطعام . نقلت بصرها
بينه ، وبين الطعام ، ثم اتجهت اليه ، وجلست مترددة ، وهى
تقول :

- لقد سمعت كل شىء ، ورايت كل شىء ، فرغم كل ماكنت
فيه من عذاب القيد ، ورعب توقع المصير المخيف ، كنت اعى كل
ما حولى :

قال الزبيق وهو يجلس الى الطعام قبالتها :

- اذن فانت تعرفين ، وفرت على الحديث الطويل الذى لا داعى
له .. هيا الى الطعام .
ولم يطل تردددها ، بل مدت يدها الى الطعام فى لهفة الجائع ،
وقالت له :

- من أنت ؟ وماهى حكايتك مع هؤلاء اللصوص ، فليس فيك
ماينبىء بأنك منهم ..
قال لها الزبيق :

- ستعرفين من انا ولماذا جئت الى مدينتكم ، ولكنى اريد ان
اعرف ما اسمك .
قالت :

- انا بنت سلطان المدينة المرصودة ، واسمى زينب ..
ضحك الزبيق وهو يقول :

- زينب ، ما أعجب هذا ..

ونظر اليها .. ثم مضى يضحك من جدية .

حديث في الكهف

توقفت يد بنت السلطان وهي تحمل قطعة اللحم الى فمها ، ونظرت الى على الزبيق في دهشة وهي تقول :

— ما الذى يضحك ، هل فى اسمى ما يضحك ؟ اسم زينب اسم شائع ومعروف فى بلادنا ، وانا زينب بنت السلطان قاسم سلطان المدينة المرصودة ..

توقف على الزبيق عن ضحكه ، وأمسك بقطعة لحم ، ومضى يأكل منها فى نهم ، وهي تنظر اليه فى قلق ودهشة ، ولما انتهى من مضغ قطعة اللحم وبلعها ، ابتسم فى وجهها ، وقال :

— ليس فى الاسم ما يضحك ، ولكن فى الامر ما يحير ، فمنذ بدأت رحلتى الى هذه البلاد انستنى المخاطر وجها حبيبا الى ، لصيقا بقلبي ، ولكن منذ رأيتك مقيدة فى الكهف ، وهذا الوجه يطالعنى بالحاج ، وهو يطالعنى مرتبطا بك كأنما يدفعنى الى انقاذك دفعا .. فاذا عرفت أن صاحبة هذا الوجه اسمها زينب ، عرفت سر حيرتى ودهشتى ، وسر ضحكى حين سمعت اسمك ..

نظرت اليه فى هدوء ، ومدت يديها تعيد ترتيب شعرها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة ، وهي تسأله :

— اهي جميلة ؟

ضحك فى حرج تحت وقع نظراتها المعابثة ، وقال :

— هي فى مثل سنك ، وهي .. ايضا جميلة ..

ضحكت فى مرج ، وقالت وهي تعود الى الطعام من جديد :

— اذن فانا جميلة مثلها ، واذكرك بها ، وهي التى دفعتك الى

انقاذى رغم بعدها .. هل هي حبيبتك .. ؟

قال على وهو يفيض من بصره محرجا :

— منتزوج ، وانا هنا لاتم مهمة لابد منها قبل أن أتقدم اليها ..

صفت يديها ، وقالت فى مرج :

— الفارس النبيل يثبت جدارته بأميرة قلبه .. ما أجمل هذا ،

كأننى اسمع قصة من قصص الحب التى كانت تحكيها لى جدتى وانا طفلة ..

ظل على الزيتق يرقبها وهي تاكل في صمت وقد احس بعزوف
كامل عن الطعام ، واخذ يقلب النار التي اخذت تخمد بقطعة حطب في
يده ، وانتبه على صوتها وهي تقول مشيرة للرجلين المقيدين في ناحية
من الكهف :

— وماذا تنوى ان تفعل بهما ؟

تنهد على الزيتق ، وهو يتابع حركة يدها ، وقال :

— ساسلمهما الى والدك ليعيدهما الى ملك بحر الغزال ، ليحكيا له
كيف كان رجاله الماجورون ينوون بك .. وليؤكدوا له خطأ الملوك حين
يلجأون الى قطاع الطرق واللصوص لاداء مهمات قدرة كهذه ..
ضحكت بنت السلطان ، وقالت :

— سيقتلها ابي فور رؤيته لهما ، فقد كانا ضمن الوفد الذي ارسله
الملك سلطان لخطبتي ، وقد فهما ردى ورد ابي ، وهو الرفض ، فلو
عرف انهما شاركا في خطفى ، ومحاولة ارغامى على مالا احب ، فلا جزاء
لهما عنده الا القتل .

هز على الزيتق رأسه وهو يقول :

— ان كان متعطشا الى القتل فعنده مونجو ورفاقه فليفعل بهم
ما يروقه ، لكن لومبا ومافى ليسا من سفاكى الدماء .. وموقفهما
الشجاع ضد مونجو يغفر لهما ..
قالت فى حنق :

— لا .. هما شريكان فى جريمة اختطافى .

هز على الزيتق كتفيه ، وهو يقوم من مجلسه ، ويتجه الى ناحية
الرجلين المقيدين الغائبين عن الوعي فقالت زينب بنت السلطان فى
فى انزعاج :

— ماذا ستفعل ؟

مد على الزيتق يده فى حردانه واخرج ضد البنج ، واعطاه لهما ،
وقال دون ان يبالي لهجة الاحتجاج فى حديثها :
— اعطيتهما ضد البنج ليفيقا ، ويسمعا منك انت الحكم باعدامهما .
صاحت زينب بنت السلطان فى غضب ، وهي تترك الطعام ،
وتهب واقفة :

— من قال اننى اوافق على عودتهما الى وعيها ، الافضل ان نسلهما
الى جند ابي السلطان وهما غائبان عن الوعي ، حتى لا يقاوما ..
قال على الزيتق فى سخرية :

تصددين نسوقهما الى الدبح كالنعاج ، وهما قارقان فى قبيوبتهما

وقبل ان ترد زينب بنت السلطان عطس لومبا عدة مرات ، وفتح عينيه ، ثم عطس مافى عطسات متكررة وفتح عينيه ، وقالت زينب بنت السلطان فى غضب :

— لقد تسرعت ، لقد أمرتك ان تتركهما كما كانا ..

ضحك على الزبيق وهو يقول :

— أنا الذى أسرتهما ، وأنا الذى أقرر ما يتم فى أمرهما ، واجلى أصدر الاوامر حتى تصلى سائلة الى قصر إبيك السلطان ، وتصبحى الامرة الناهية فى رجاله .. اما هنا فأنا صاحب الأمر والنهى ، أفعل ما اراه صالحا .

وتدافعت الكلمات الغاضبة الى شفتى زينب بنت السلطان ، ولكنها وقفت عند شفتيها جامدة حين تنهد لومبا وقال :

— أين أنا ؟

فالتفت انظار على الزبيق والاميرة زينب اليه ، وكان يجيل حوله عينين زجاجيتى النظرة ، تتحركان فى محجريهما دون ان تريا شيئا .. وانتبها على آهة تصدر من مافى ، وسؤال هامس يند عنه قائلا :

— أين أنا .. ؟

قالت الاميرة زينب فى سخرية :

— اليس على لسانهما سوى هذا السؤال : أين أنا ؟

ضحك الزبيق وهو يقول :

— لو سمعت نفسك حين أفقت من البنج لما سخرت منهما ..

قالت فى تردد ودهشة :

— هل سألت نفس السؤال ؟

ردد لومبا سؤاله من جديد فى صوت ضعيف ، وقد بدأت نظراته تصفو ، وبدأ الادراك يدب فيهما وهو يدير عينيه فى المغسارة ، وفى الواقفين أمامه ، حتى استقرتا على رفيقه المقيد مثله ، فقال على الزبيق للاميرة :

— نعم نفس السؤال .. يبدو ان كل من غاب عن الوعي يسأله حين

عودته الى وعيه ..

ثم التفت الى لومبا وهو يقول :

— انت فى مكان أمين يالومبا بعيدا عن مونجو وأعوانه ..

حرك لومبا رأسه ليستطيع ان ينظر الى على الزبيق ، واجال فيه

عينيه ، ثم قال :

— لم ارك من قبل .. ومع هذا فأنت تعرف اسمى ..

قال على الزبيق ، وهو يتقدم نحوه ، ويجلس قبالة :
- اسمى لا يهيك ، ولا يهيم احدا في هذه النواحي ، فانا قادم من
بلاد بعيدة ، ولكنى أعرف اسمك واسم مافى .
بلاد بعيدة ، ولكنى أعرف اسمك واسم مافى فقد سمعت مونجو في
الكهف يخاطبكما باسميكما ..

جاء صوت مافى الخافت الملى بالخوف يقول :
- مونجو الخائن الملعون .. ولكن .. لكنى مقيد .. مازلت مقيدا
كما قيدنى رجال مونجو ..

عاد لومبا يقول ، وقد أسترده صوته وهدوؤه :
- اهدا يا مافى ، نحن حقاً في الأسر ، ولكننا لسنا في خطر
الموت ، وآسرنا فارس كريم ..

ثم التفت الى على الزبيق وهو يبتسم ويقول :
- الست انت مطلق ذلك الثعبان الذى أثار حين اصطدم بجدار
الكهف ، ثم اخذ يفع حتى اربع كل عصاة مونجو .. وحين كف عن
الفحيح كنا جميعا في سبات عميق ؟
ضحك على الزبيق وهو يقول :

- يعجبني ثباتك ، وذكائك ، لقد وصلت الى لب الحقيقة برميتك .
عاد مافى يقول ، وقد بدأ الخوف يزائل صوته :
- ولكن اذا كنت صديقا فلماذا القيد .. ؟

قال على الزبيق وهو ينهض من جلسته ويسير الى مدخل الكهف
فيطل منه ، ويعود اليهما ليواجههما من جديد :
- امركما موكل الى سلطان المدينة المرصودة ..
شحب وجهاهما وارتجف صوت لومبا وهو يقول :
- اتريد أن تسلمنا اليه .. ؟

تدخلت الاميرة زينب بنت السلطان في الحديث لاول مرة قائلة :
- هما يعرفان ماذا ينتظرهما على يدى أبى ..

ازداد شحوب وجهيهما ، وتبادلا نظرات يائسة ، وقال مافى :
- ولماذا أنقذتنا من مونجو ان كنت تريد أن ترمى بنا الى السلطان
قاسم ؟

قال على الزبيق :
- لقد سمعتكما وأنتما تدافعان عن الاميرة ، بل لقد سمعتكما هي
أيضا بنفسها ..
ضحك لومبا في سخرية وهو يقول :

— كنا سندفع حياتنا ثمننا لالسنتنا الطويلة .

قال علي الزبيق :

— ونحن نعرف هذا أيضا ، ولذلك فليست أظن ان السلطان قاسم يقتلكما .

قال لومبا في مرارة :

— لقد كنا نؤدى واجبا ، وننفذ أوامر الملك سلطان ملكنا ، ملك بحر الغزال .

صاحت الاميرة زينب وهي تضرب الارض بقدمها :

— هل تعترفان انه هو الذى أمر باختطافى ؟ ..

نظر لومبا اليها طويلا ، ثم هز رأسه وقال :

— لقد عرفت الحقيقة كلها أيتها الاميرة مما سمعت في الكهف، فلماذا السؤال ؟

قالت في اصرار :

— لابد أن يعرف ابى حقيقة الملك سلطان ، ويعرف ايضا أن حسى كان صادقا حين رفضت الزواج منه ، فهو ليس أكبر من أبى وحسب ، بل هو قاس لا يرحم ، ومتفطرس مفرور ، لا يكبح جماح شهواته ولا نزواته ولا شره ..

أطرق لومبا ولم يجب ، بينما قال مافى :

— نحن نخدم بلادنا بأن نخدم الملك ، وعلينا الطاعة وعليه الامر .

قبل أن تجيبه الاميرة زينب بنت السلطان ، قال علي الزبيق :

— ولاؤك للمليك يا مافى لم يمنعك من الدفاع عن الاميرة ، ومقاومة مونجو حين ظهرت نواياه الخبيثة القذرة ..

قال مافى وهو يتنهد :

— نحن فرسان ايها السيد ، ولسنا لصوصا ماجورين ، فنحن فى درك الملك ..

وقال لومبا مكثلا حديث رفيقه :

— وعلينا حماية زوجة الملك المستقبلية مهما كلفنا الامر .

قالت الاميرة زينب في مرارة :

— زوجة الملك المستقبلية التى يحظى بها الملك بالخطف والقسر ،

وعن طريق لصوص وقطاع طرق لا ضمائر لهم .

لم يجب الرجلان ، بل تبادلوا النظرات فى صمت .. قال علي

الزبيق وهو يعود الى مدخل الكهف ينظر من خلاله من جديد ، ثم

يعود ليواجههم جميعا :

— أين يضعكما كل هذا ؟ فى كفة الشر ام فى كفة الخير ؟

ضربت زينب ارض الكهف بقدميها وهي تقول فى حلق :
- بل فى كفة الشر ، منذ البدء ، وهما قد مهذا للصوم خطفى ..
قال مافى مستسلما :

- كانت أوامرنا ان ننتهز غفلة من الحرس ونحضر الاميرة للملك ،
ليرغم سلطان المدينة المرصودة على الموافقة على زواجه من ابنته ، زواجا
حقيقيا وشرعيا ، ولم نجد غضاضة فى هذا ، فقد كان تصورنا جديعا
ان الذى رفض هو السلطان ، وأنه يترفع عن مصاهرة ملكنا ، وهذه
اهانة للملك ولنا ، ولملكة بحر الغزال كلها ، فليست المدينة المرصودة
من القوة والثقل بحيث ترفض مصاهرة مملكتنا والارتباط بها مثل هذا
الرباط المشرف .

صاحت الاميرة زينب فى غضب :
بل نحن أكفاء له ، ولو تعرض لنا بقتال لهزمناه ..
ضحك لومبا ، وصمت لحظات ، ثم قال :

- هذا ما كنا نحاول ان نتجنبه .. الحرب بين البلدين ، فقد كانت
هذه الحرب ضرورية يوم رفضت ايتها الاميرة يد الملك ، وجاء هذا
الحل الوسط ، ان نأسرك ، فيرغم السلطان على الموافقة على مصاهرة
الملك ، وتتجنب البلدان حربا ضروبا ، يسقط فيها شباب البلدين
صرعى ، بلا مبرر حقيقى .

قالت الاميرة زينب بنت السلطان :

- من اجل كرامتى وحرية اختيارى تقوم الحروب .. لماذا لا .. ؟
ضحك على الزبيق ضحكة خففت من التوتر فى جو الكهف ، وقال :
- هذا حقك ايتها الاميرة ، ولكن من حق شباب البلدين أن يتمتع
بحياته ومستقبله ، ولا يهدرها من اجل لا شىء .

صاحت الاميرة وهي تضرب ارض الكهف فى غضب فائق :
- وهل أنا لا شىء .. ؟

لم يفقد على الزبيق هدوءه ، بل قال فى ببطء :
- لو نجح موندجو فيما انتوى عليه لكنت لا شىء الآن ، وغدا ، وكل
غد مقبل ..

افحمت الاميرة ، فصمتت ، ثم جلست الى ارض الكهف ، وفى
عينها ألم وتعاسة ، وضحك مافى وهو يقول :

- أنت تفهم أيها الفارس موقفنا ، فلماذا القيد .. ؟
قال على الزبيق :

- حتى احتفظ بكما هنا الى حين اقدمكما للملك .
قال لومبا فجأة :

— لك هدف .. أقسم ان لك هدفا تريد أن تحققه .

قال علي الزبيق مبتسما :

— بالطبع ، فقد جئت الى المدينة المرصودة لهدف معين ، وسأقت الى الظروف وجودكما ، والاميرة ، ومونجو — ليسهل كل هذا الى السبيل الى حصولي على هدفي .

ساد الصمت الكهف فترة ، وفجأة ضحك لومبا وقال :

— صندوق التواجيه .. ليس من هدف لمغامر من الخارج الا الصندوق ، فكم تكسرت عليه رغبات المغامرين .. أنت تريد صندوق التواجيه .. اليس كذلك ..

وصمت الزبيق ، فقد أذهله ان يصل لومبا الى لب القضية بهذه السهولة .. ثم قال :

— وماذا في أنى أريد صندوق التواجيه .

فوجيء الزبيق بضحك يملأ الكهف ، ضحكت الاميرة زينب ، وضحك لومبا ، وضحك مافي .. حتى امتلأ الكهف بالضحك واحاطه ودار به ، كل الموجودين يضحكون ، ويضحكون ، كأنهم يخرجون من أعماقهم كبتا مخيفا خيم عليها زمنا ، ووجد في كلماته ما ينفس عنه ، فانطلقوا يضحكون — ووجد نفسه بعد حين يضحك معهم ، ويضحك وهو لا يدري لماذا يضحك .. وقال لومبا :

— هذا شيء معجز لا طاقة لبشر به .

وقال مافي :

— لقد أحبتك أيها الفارس فاصرف النظر عن هذا الهدف المستحيل

وضحكت زينب بنت السلطان ، وقالت :

— كم من الفرسان قتلوا اما داخل المدينة حين دل عليهم الرصد وبوقه ، أو عندما دخلوا الجزيرة فقتلتهم السيوف المسحورة .

قال علي الزبيق :

— اذن فقد تجاوز بعض الفرسان الرصد وبوقه ..

قالت زينب :

— من تجاوزوه تجاوزوه باذن أبي، ولم يفلح أحدهم أبدا، بل من غادر مدينتنا بعد ان دل عليه الرصد ، تلقته السيوف في الجزيرة فقتلته ..

ونظرت اليه طويلا تتأمله ، ثم قالت :

— أنت حرام على الموت فمازلت صغيرا :

ضحك لومبا فجأة وقال :

— المدهش ان خطتنا لخطف الاميرة ما كانت لتنجح لولا ان طفيليا

مثلك حاول أن يدخل المدينة، فأحس به التمثال الراصد وتنفخ في البوق ، وأستفر كل فرسان المدينة المرصودة للبحث عنه داخل المدينة المغلقة ، وكنا قد تسللنا من نفق حفرناه تحت سور المدينة ، فسهل علينا وسط هرج فرسان المدينة بحثنا عن الغريب الذي دل عليه بوق الرصد ، أن ندخل مخدع الاميرة ونأسرها .. والكل مازال يبحث عن الغريب المقتحم ، ولو وجدوه لاوسعوه طعنا وقتلا ، حتى لينسوا امر وجودنا .

قال على الزبيق متسائلا :

— بالامس دخل غريب الى المدينة .. من هو ؟

ضحك لومبا وقال :

— من يدري لعله أنت .

قال الزبيق في جدية :

— لا لست أنا ، ولكنه بالقطع احد الذين يتعقبون خطواتي .

قال مافى :

— هم في بحث عنه منذ الامس داخل اسوار المدينة ، وهم لم يفتحوا

باب المدينة الا حين عرفوا بغياب الاميرة .

قالت زينب بنت السلطان .

— لا بد انهم امسكوه وأعدموه .

ضحك على الزبيق وهو يعود مرة أخرى الى فوهة الكهف ينظر

عبره ، ثم يعود في سكون . ويقول :

— لم يعدموه بعد .. ولم يعثروا عليه بعد .

قالت زينب :

— ماذا تعنى يا هذا .. ؟

وضحك لومبا ضحكته الهادئة وهو يقول :

— هذه هي العقدة ، واحد هارب يطاردونه ، والثاني هنا يمسك

رهينة سلامته .

قال الزبيق :

— لم أقصد هذا ابدا ، ولكنى لن أترك الآخر يموت ، كما لم أترككما

لصيركما المظلوم .

قال مافى :

— تعنى مصير مونجو وعصابتة .

قال الزبيق :

— هؤلاء لابد ان أسلمهم الى سسلطان المدينة لأعدامهم ، أما أنتم

فاحسبكما جديران بالثقة ، سأطلق سراحكما ، على وعد منكما ان تتعاوننا
معي بلا سؤال .

تبادل الاثنان النظرات لحظات ، ثم قال لومبا :
- أيها الفارس لقد كنت شهما معنا ، ونحن نعدك ان تكون معك .
اتجه على الزيبق اليهما يحل قيودهما ، وصاحت الاميرة :
- سيفيدران بك .

قال الزيبق ، وهو يحررهما تماما من قيودهما :
- أنا أثق فيهما .. والآن امكثا هنا مع الاميرة حتى اعرف ما يحدث
خارج هذا الكهف .. فمئذ حين والحركة والاصوات تعنى ان شيئا
ما يحدث في الوادي عند اطراف المدينة .
قال لومبا وهو يدلك راسه :
- لك وعدنا .. وسنظل هنا حتى تعود .

ملاحيب الصين

كان على الزبيق قد لاحظ هذه الضجة في الوادى منذ فترة، وخرج أكثر من مرة من الكهف يستطلع أمرها ، فلا يطالعه الا صوت معركة ضارية تدور فى الوادى - وكان لابد أن يعرف معنى هذه الاصوات ومغزى هذه المعركة ، فتسلل فى حذر حتى لا يكشفه ضوء القمر الذى يغمر التل والوادى ، ومضى يتسلل متنقلا من صخرة الى صخرة ، وهو يقترب تدريجيا من حافة الوادى ، وكلما ازداد اقترابه ، علت اليه أصوات تحدد مكان المعركة الضارية التى تدور هناك أسفل التل وعلى مشارف الوادى - ولكن حين أشرف من أعلى التل على مكانها كان كل شيء قد انتهى أو كاد .. فارس واحد كان يذود عن نفسه ببراعة وشجاعة فائقتين ، وكانت الاعداد التى تهاجمه من الفرسان تفوق الحصر ، ولكنه كان يدفعهم عن نفسه ، ويصد ضربات سيوفهم بسيفه وخنجره ، ثم يقفز من وسطهم فى خفة ليصبح بعيدا عن متناول ايديهم وسيوفهم ، وسرعان ما يحاصرونه من جديد .. وكان من الواضح انه مشخن بالجروح فقد كانت ملابسه ملوثة بدماء غزيرة ، الا انه كان من الواضح كذلك أن المهاجمين قد دفعوا ثمنا غاليا فقد كان سيفه مضرجا بالدماء ، كما كانت الدماء تقطر من خنجره كذلك .. وعجب على الزبيق من سير المعركة ، فقد كان الاجهاد يبدو واضحا فى حركات الفارس الوحيد الذى بدا فى غاية التعب ، وكان واضحا ان قواه قد خارت ، وان الارادة وحدها هى التى تبقى واقفا على قدميه، الا انه زال عندما أدرك ان المهاجمين لا يريدون قتله ، وانما هم يريدون أسره ربما ليلقى مصيرا أتعس من الموت السريع بطعنة سيف وتسلسل على الزبيق عائدا الى الكهف بسرعة ، وبادرت الاميرة بسؤال ملهوف : - ماذا يحدث ، هل فك مونجو قيوده ، وهرب من الكهف الذى حبسته فيه ، هل هذه المعركة تدور بينهم وبين فرسان أبى ؟ لم يرد عليها على الزبيق فى الحال ، وانما أخذ يعبث فى جرابه حتى أخرج حرنديانا خاصا فحملة فى رفق ورفع رأسه قائلا : - انه فارس وحيد ، وليس مونجو ورفاقه فهم ما يزالون يغطون فى نومهم فى الكهف ، ابق هنا يامافى ، وتعال معى يا لومبا فاننا نحتاج مساعدة منك ..

هب لومبا واقفا ، بينما اعترضت الاميرة زينب طريق الزبيق
قائلة :

— هل ستذهب لتقابل رجال ابي . . .

ضحك على الزبيق وهو يقول :

— ان عددهم يفوق الحصر ، وسأكون مجنونا لو فكرت في الاشتباك
معهم ، ولكنى اريد ان اخلص الفارس الذى يهاجمونه منهم . . فأظن
اننى أعرفه . .

قال لومبا :

— ولكنك قلت انك غريب عن هذه الديار .

قال الزبيق :

— وهو أيضا غريب عن هذه الديار .

قال لومبا :

— غريب ، لعله اذن الذى صرخ عليه الرصد ، ونفخ في البسوق
حين دخوله المدينة ، فهاجت المدينة وماجت ، وتمكننا وسط هذا الهرج
ان نأخذ الاميرة من حجرتها دون أن يتعرض لنا أحد .

قالت الاميرة فى غضب :

— سيمزقونه بسيوفهم .

قال الزبيق :

— الغريب انهم لا يريدون قتله ، واضح انهم يريدون أسره حيا ،
وهذا هو الذى أبقاه قادرا على مقاومتهم حتى الان .
قال مافى :

— واحد ضد هذا الجمع لابد أنه فارس ماهر شجاع .

ضحك على الزبيق وقال :

— لو أنه كان من أظن ، فسيدفعون ثمن أسره ثاليا . .

قال لومبا :

— لعلهم يظنون انه واحد من الذين اختطفوا الاميرة ، ويريدون
بأسره أن يدلهم على مكانها .

قال على الزبيق وهو يتأهب لمغادرة الكهف :

— هذا ما أظنه أيضا ، هيا يا لومبا اتبعنى عن كثب .

حين وصل على الزبيق الى المكان الذى كان يطل منه على الوادى ،
وجد أن ما توقعه قد حدث بالفعل ، فقد سقط الفارس فوق الارض
واحتاط به جنود المدينة المرصودة يقيدونه وهم يركلونه ويلطمونه
ويصفعونه ويسبونونه فى آن واحد ، وسمع لومبا الى جواره يتحرك فى
قلق ، فأشار اليه بالصمت ، وقال لومبا هامسا :

— سيموت تحت وظلة قضب الجنود الذين اثخنوه بالجراح .
قال على الزبيق :

— أمكت مكانك ، وسأعود اليك حالا ..

وحمل الحرندان وانطلق حتى احدى الصخور ، فكن وراءها
وأخرج من الحرندان شيئا ثبته بحبل الى الصخرة ، ثم انتقل الى
صخرة أخرى بعيدة عن الصخرة الاولى ، وعاد يعيث في حردانه
ليخرج منها شيئا يثبتها اليها ، ثم انتقل الى صخرة ثالثة وأخرى رابعة
وخامسة ، وفى كل مرة كان يخرج من حردانه شيئا يثبتها الى الصخرة
ثم عاد وهو يلهث الى مكان لومبا ، الذى نظر اليه متسائلا ، فقال له
على الزبيق :

— قف متحفزا فسأعود لأشعل هذه الاشياء واحدة اثر الاخرى ،
وعندما تنطلق سترى الهول بعينيك فلا تخف ، وتمالك نفسك ،
واسرع الى حيث يرقد الفارس الاسير فأحمله وعد به رأسا الى الكهف ،
واتركه مقيدا كما هو ..

قال لومبا متسائلا :

— والجنود الذين يحيطون به .. ؟

ضحك على الزبيق ، وربت على كتف لومبا وهو يقول :

— لن يبقى منهم أحد فى مكانه ، وما أظنهم سيكفون عن الجرى الى
أن يدخلوا منازلهم ويفلقوها عليهم ..

والان تذكر ، اياك أن تفقد رباط جاشك ، واياك أن تفك قيود
الفارس ..

وقبل أن يجيبه لومبا كان على الزبيق قد انطلق الى الصخرة الاولى
فكن وراءها ولمح لومبا من مكنه وراء الصخرة لهب نار ، ورأى
الزبيق يشعل مشعلا صغيرا فى يده ويمس به هذا الشيء الكامن فوق
الصخرة . وفجأة انطلق هذا الشيء الاسطوانى الى السماء محدثا دويا
مخيفا ثم انفجر فى السماء ليتحول الظلام الى نور براق وهاج والى
شهاب يندفع الى السماء ، وكل شهاب فى لون ، ثم يتحرك فى السماء
فى شبه دائرة ليندفع الى الارض متوهجا .. وارتفعت صرخات حادة
من الوادى ، وصهيل خيول ، واندفاع اقدام .. وافاق لومبا من ذهوله
على صيحة على الزبيق وهو يقول له :

— لومبا افق ، ولا تلق بالا الى ما يجرى ، اسرع الى الفارس المقيد .

ثم انطلق يجرى الى الصخرة التالية والمشعل فى يده .. وما أن
مسه حتى انطلق مارد من ضوء وصوت برج السماء رجا لرسم دوائر
زرقاء وحمراء وصفراء كأنها أذرع تنين مخيف تتعقبه من السماء ..

وهز لومبا نفسه لينتزعها من حالة الذهول التي أصابتها ونظر الى الوادى فاذا هو يخلو من الرجال وقد أسرعوا الى المدينة يتدافعون ليسبق كل منهم الآخر ، يدوسون من سقط ، وهم يصرخون فى دعر وهلع .. ولم ينظر لومبا الى السماء وانما اندفع منحدرًا من الجبل فى سرعة نحو جسد الرجل فاقد الوعي ، مقيّد اليدين والقدمين الراقد مضرجا بدمائه فوق الارض .

وحمله فوق كتفيه ، وانتصب .. ولكنه سرعان ما تجمد مكانه وقد شل الرعب حركته ، وانداح العرق من جسده المرتجف كله ، ففى السماء اندفعت ثعابين ملونة ، تدور وتدور ، وهى تطلق أصواتًا أبشع من أصوات الرعد القاصف ، ثم تتحرك وكأنما ستتجه نحوه لتبتلعه .. وصاح لومبا رعبًا وهو يجرى نحو الكهف كأنما يلتمس النجاة منه ، من شياطين الضوء المجهولة التى ملأت السماء بصراخها ، وحركاتها المخيفة وعيونها اللامعة وذيلها المضيئة ، والهول الذى تهدد به الارض ومن عليها ..

لم يتوقف لومبا فى جرية حتى وصل الى الكهف ، وهناك وجد مافى والاميرة زينب يقفان فى فتحته وقد تجمدا من الرعب ، ونظراتها الخائفة مثبتة فى السماء ، بينما كان الحصان داخل الكهف يصهل فى صوت مذعور ، ويضرب الارض بحوافره كأنما يريد أن يتخلص من قيده ليجرى بكل قوته بعيدًا عن هذا الهول المرعب .. ورمى لومبا حمله على الارض ، ولم يلتفت اليه أحد ، ووقف مثبتًا عينيه فى السماء وسرعان ما دوى القصف من جديد وامتلات السماء بنجوم لامعة ملونة ، كل نجمة ما أن تلمع حتى تنفجر الى مئات النجوم التى تندفع نحو الارض كالشهب الحارقة ، وجرى لومبا الى الكهف يحتسى به ، يتبعه مافى ، وتتبعهما الاميرة التى جلست منهكة الى الارض وهى تخفى عينيها فى كفها ، وجسدها كله يهتز فى عنف ، ثم انخرطت فى بكاء مرير ..

وفجأة ملأ مدخل الكهف ظل كثيف ، فانتبه الكل فى دعر ، وتقاربت اجساد لومبا ومافى والاميرة والحصان .. واشتعل ضوء ، ثم خفت ، ولمع ضوء المشعل فى يد الزيبق وهو يثبتته الى نتوء صخرة بارزة فى الكهف ، وقال الزيبق :

- انتهى المهرجان ، فكفى ذعرا وخوفًا - سيهدأ كل شيء الان ، وتعود السماء صافية تحت ضوء القمر ، ولا خوف علينا ان أشعلنا هذا المشعل فلن يراه أحد ، فكل أهل المدينة فى بيوتهم مذعورون وأسوار المدينة خلت من الحرس ، وبوابة المدينة أغلقت .. والكل يلجأ الى ما يعصمه من الهول الذى رآه .

قال الزبيق :

— انه العلم ، هذه ملاعيب الصين ، ذخيرة اعطانيها الشيخ زكى
البتوكى تنفع حين يحزب الامر ، وحين لا تريد أن تريق دماء لا داعى
لاراقتها ..

تحرك لومبا فى حذر ، وهو يتحسس اعضاءه ليتأكد انها فى
مكانها الذى اعتاده منها ، ثم قال :
— أنت ساحر قدير ، ولم أشهد ساحرا مثلك ، يطلق أعوانه من
الشياطين فيدمرون كل شيء ، ويردعون كل انسان كما فعلت وليس
فى بلادنا ساحر مثلك ، ولا كبير السحرة وعظيمهم .
وقال مافى :

— انا لم أشهد مثل هذه الروح أبدا ، ان شياطين الجن كلها تأتمر
بأمرك أيها الفارس . مرة ترسل ثعبانا مضيئا يصطدم بسقف الكهف
ثم يفج ، فالكل بعد حين ينام ، ومرة ترسل هذه الشياطين الى السماء
فالكل يهرب واذا أنت تنال مبتغاك ، وتخلص فارسك من أسر اكيد .
ضحك على الزبيق وهو يقول :

— افهما ما تشاءان ، المهم أنك فى منجاة من كل شيء ، وان فارسا
نجا من الاسر ، والموت البطيء ، هاته يا لومبا .
نظر لومبا فى حذر الى على الزبيق ، بينما اتسمعت عينا الاميرة
زينب وهى تنظر اليه ، وقال لومبا :
— هل أخرج من الكهف فى أمان .
قال على الزبيق :

— اخرج .. وهاته ، فأنت تركته مربوطا عند مدخل الكهف .
قال لومبا وعيناه تدوران فى محجريهما :
— ولن تصعقنى صاعقة من السماء ؟
ضحك الزبيق وهو يقول :

— انتهت الصواعق ، فلا تخف ، اخرج ، وهاته .
قال مافى فى صوت مذعور :

— حذار يا لومبا ، ان السماء تمطر شياطين .
قال الزبيق :

— قلت انتهت كل صواعق السماء ، اخرج يا لومبا ولا تخف .
قالت الاميرة زينب :

— كيف فعلت هذا ، هل أنت ساحر ، أم حكيم تسخر الشياطين ؟

صحك الزيتيق وهو يقول :

- ليس فى الامر سحر ولا شياطين ، ومع هذا ، فأنا أعطىكم كلمة الامان .. اخرج يا لومبا ولن يحدث لك شيء .

واتسعت حدقتا لومبا حتى بدت عيناه واسعتين ، تتحركان فى كل اتجاه ، وتلمعان فى وجهه الاسود ، وقال :

- سأخرج ، فأنا لست جباناً ، ولكن ما فعلته كثير ، ومنخيف .
قال الزيتيق :

- أعطيك الامان ، اذهب واحضر الفارس المقيد .

ثم مضى الزيتيق الى الجواد ، يربت على عرقه وعنقه ، ويهمس له كلمات رقيقة حانية ، وهذا الجواد ، وكف عن صراخه وقلقه .. وحين هذا الجواد خرج لومبا من الكهف ، وعاد يجر وراءه جسد الفارس المقيد ، ووضع فى وسط الكهف ، وقال :

- لم أشهد فعلاً كقتال هذا الفارس ، وانت تقول انك تعرفه ، هل احل قيوده .

قال الزيتيق ، وهو يفحص الفارس المقيد الذى لطخته السماء :

- سأدواى جروحه أولاً ، ثم نتكلم بعد هذا .

ومضى على الزيتيق الى جراجه ، يخرج حرنديانا جديداً ، وجعل يبحث فيه حتى وجد بغيته ، فأخرج أوعية ، ومضى يدهن جراح الفارس الغائب عن الوعي بعد أن يغسلها وينظفها جيداً ، ثم مضى يربط الجراح بعناية ودقة ، وحين انتهى من عمله تنهد وهو يعيد كل الاوعية الى مكانها ، وقال :

- سيشفى من جراحه بسرعة ، فكلها جراح سطحية لا قيمة لها .
ثم جمع حرندياته وأعادها الى جراجه ، والتفت الى رفاقه فى الكهف وقال :

- لنهدأ ونتكلم بلا رعب ولا ذعر .

قالت الاميرة زيتب بنت السلطان :

- انت ساحر ، وسحرك فوق كل سحر عرفناه .

قال الزيتيق وهو يتحسس ذراعه حيث الحرق القديم :

- ليس فى مداواة المرض سحر ، انما هو دواء ، قد يشفى ، وقد لا يشفى .. ولكنه الشيخ زكى البتوكى اعطانى ما يشفى فعلاً ، فذراعى رغم الحروق التى عاناها قد شفى ، واعتقد ان جراح هذا الفارس ستشفى بفعل هذه المراهم والادوية كما شفيت جراح يدهى من قبل .

قال مافى وهو ينظر اليه فى اكباز ورهبة :

— أنت تملك سر الموت وسر الحياة معا ، هذا شيء يدعيه سحرتنا ولكنهم لم يوفقوا الى اثباته كما فعلت أنت اليوم .
قال الزيبيق :

— مالا يعرفه الانسان يظن انه السحر ، ولكنه يا صديقي حقائق وعلم ، ولست في مجال الشرح والابانة يكفي ان نعترف ان فارسنا سينجو من جراحه كما قلت لك .
وكأنما كان حديثه على موعد مع افاقة الفارس الجريح ، الذي اهتز في رقدته ، وتنهد ثم همس :
— ماء أريد ماء

وتحرك الزيبيق الى حيث رقدت قرب الماء ، وانتقى واحدة ، وفتح فوهتها ، ثم سكب قطرات في فم الفارس ، الذي ابتلعها في شوق ، ثم انتظر غيرها .. وقال الزيبيق :

— حذار يا صاحب — اشرب في ببطء حتى لا يضرك الماء .
ثم قرب من فمه الماء .. فمضى الفارس يشرب في ببطء وهدهوء ، وحين رفع الزيبيق قربة الماء ، قال الفارس :
— شكرا يا علي ، كنت أريد قتلك فكنت حياتي .
وذهل كل من كانوا في الكهف ، وقالت زينب بنت السلطان :
— اتسمع ، كان يريد قتلك .
ضحك الزيبيق وهو يقول :

— هذا حسن بن الحصرى ، الذى كلفه رئيس دوك مصر بقتلى فكمن لى عند بئر النجاة ليقلتنى ، ثم تبعنى الى هنا ليكمل ماطلبه منه مقدمه .
صمت حسن بن الحصرى لحظات ، وهو يجيل بصره فى المتحلقين حوله وقال :

— نعم كمنت لقتلك فى بئر النجاة ، وأردت ان اسبقك الى المدينة المرصودة لادبر لقتلك ، فاكتشفنى الرصد وأنجيتنى أنت .. وكنت كريما مرتين ، ومن هنا والى الابد لا عداة بينى وبينك يا زيبيق ، فأنت خلقت لان تكون الفارس والقائد والمنتصر ، وأنا أسلم لك بكل هذا ، صدقنى ، أو لا تصدق ، ولكن هذه هى حقيقة ما أحسه وأنتو به ، وافعل بى ما تشاء .

التفت الزيبيق الى لومبا وقال :

— فك قيوده فهو من الان منا ، وليس علينا .

صاحت الاميرة زينب فى انفعال وغضب :

— ألم تسمع ؟ هو اراد قتلك

قال الزيبيق وهو يضحك :

– انا اثق في صدق كلماته – ففارس مثله قاوم كل رجال المدينة
المرصودة جدير بالثقة .
قال لومبا :
– هو فارس مجيد
وقال الزبيق :
– وهو حليف منذ الان لو اراد .
قال حسن بن الحصري :
– من الحق يتولد الحب – وانا منذ الان رجلك ، فافعل بي ما تشاء
قال علي الزبيق :
– قلت لك يا لومبا : حل قيوده ، فهو من الان منا .

رجال الاقدار

قالت زينب بنت السلطان وهى تتأمل فى حسن بن الحصرى ،
مقيدا وملقى فى أرض الكهف :

— تثق فيه ، ومع هذا تتركه مقيدا .

ضحك الزبيق ، وقال :

— فك قيوده يا مافى ، فهو منذ الآن واحد منا .

ضحكت زينب بنت السلطان فى ازدراء وقالت :

— واحد منكم ..؟ ومن انتم ؟

نظر على الزبيق اليها طويلا ، ثم اطرق برأسه وقال :

— نحن رجال غرباء ، كل منا لم يكن يعرف الآخر ، حتى ألفت

بنا الاقدار لنلتقى فى هذا الكهف ، لا ندرى ماذا تريد بنا القدرة ،
ولا ماذا تريده منا ..

نهض حسن بن الحصرى ، وهو يزيل القيود الممزقة عن رصفه ،
ويدلكهما بيديه فى شدة :

— لن تندم على هذه الخطوة أبدا يا على .

قال لومبا :

— ما زلنا حيث بدأنا ، واذا كانت ملاعب الصين المخيفة هذه

قد أرست الرعب فى قلوب أهل المدينة المرصودة ، فسرمان

ما سيتصورون أن الشياطين التى تهددهم قد انصرفت عن مدينتهم ،

ويعودون الى البحث عنا من جديد ..

قالت زينب وهى تنقل بصرها بين الرجال المطلقين حولها فى
الكهف :

— لن يحميكم شيء من غضب أبى وانتقامه ..

قال على الزبيق :

— غضبه ، لقد اتقناك من أسر الملك سلطان ، ومما هو شر

من أسر الملك سلطان ، ذلك المصير المخيف الذى كان ينتظرك على يد

مونجو ورجاله ..

قالت زينب ، وهى تشير بأصبع الاتهام اليهم واحدا اثر الآخر :

— هذان لومبا ومافى ادخلا رجال مونجو الى المدينة عبر النفق

السرى وكمنا لى ، لا يريدان بى الا الشر .. وهذا الذى أطلقت

فيوده تسلل الى المدينة لا يريد خيرا لاحد ، ولو كان ينتوى خيرا
لاستسلم لرجال ابي كما فعل الدرويش الصالح حين دخل المدينة
ونفخ عليه التمثال بالبوق المرصود ..

صاح على الزبيق وهو ينتبه فجأة :

— الدرويش الصالح .. ؟ أي درویش صالح ؟.

تحول اصبع زينب ليستقر في اتجاه الزبيق ، وهي تقول متجاهلة
سؤاله :

— وانت ايضا لم تكشف عن نواياك ، حاربت أعداء ابي ، ولكنك
حاربت رجال ابي ، وحررتني من الاسر ، ولكنك ما زلت تحتفظ
بي أسيرة ..

قال على الزبيق في اهتمام :

— انت لست أسيرة أيتها الاميرة ، بل سأصحبك الى ابيك في
الحال ، ولكن ما امر هذا الدرويش الذي حدثتني عنه منذ حين ؟.
تأملته الاميرة زينب ، وقد ظهر التردد والحيرة على وجهها ،
وقالت :

— الدرويش الصالح .. انه رجل طيب لا يعرف الا العبادة
والصلاة ، ولا يأكل الا الخبز الجاف ، ولا يعرف الا ترديد التسابيح ،
ولا يقيم الا في الزاوية الصغيرة في نهاية المدينة ، ليفرغ لعبادته
وصلاته .

لا يدري على الزبيق لماذا انقبض قلبه عند سماعه لحديثها ،
ولكنه عاد يسألها :

— وهو غريب عن المدينة المرصودة ؟.

قالت الاميرة زينب وقد أدهشها اهتمام الزبيق بأمر الدرويش :
— منذ اسبوع تقريبا صاح بوق الرصد ، فخرج الحراس
ليجدوا هذا الدرويش جالسا في مدخل البوابة وهو يتلو تسابيح ،
وعندما سألوه ، قال انه ضل عن طريقه ، وأنه غريب من بلاد بعيدة
يبحث الى الارض الحرام ماشيا ، وقاده الحراس الى ابي الذي أعجبه
صلاحه وتقواه ، فعرض عليه الطعام فرفضه مكتفيا بكسرة خبز ،
وازداد اعجاب ابي به ، فلما عرض عليه ان يرتاح بالمدينة ليسترد
قواه ، ويعاود السفر الى بلاد الحجاز ، وافق على ان يقيم في
الزاوية المتواضعة الصغيرة وينام على الارض دون فرش تحته أو
غطاء فوقه ، فأمن ابي بصلاحه وأصبح يستشير في أموره ، ويقربه
في مجلسه ، وكان دائما صاحب رأى سديد في كل ما يشير به عليه .
قال على الزبيق مكررا كلامها كأنما يريد أن يفهم وراءه شيئا خفيا :

— يسير الى ارض الحجاز من بلاد مجهولة ، ويضل طريقه الى هنا في المدينة المرصودة ، ولا يريد فيها الا الراحة حتى يستأنف الرحلة ..

صاحت زينب بنت السلطان في غضب وهي تضرب الارض بقدمها :

— لماذا تردد كلامي ، كأنك لا تصدقني .
هز الزيتيق رأسه ، ثم ابتسم وهو يقول :
— كيف لا أصدقك وانت أميرة البلاد ، وأدرى الناس بما يحدث فيها .

ضحك حسن بن الحصرى ضحكة خشنه وهو يقول :
— تحريك الصدفة . ثلاثة غرباء في خلال أسبوع واحد يقصدون المدينة المرصودة ، أنت ومهمتك لابد أن تمر عبر المدينة المرصودة ، وأنا وتعرف أنني أتتبعك لقتلك ، أما هذا الثالث فيحرك أمره .
صاحت الأميرة في اصرار :

— قلت أنه درويش صالح لا شأن له بأطماعكم واحقادكم ..
تهدد على الزيتيق ، وهو يلوح بيده منهيًا الأمر ، وقال :
— سنعرف كل شيء عنه في حينه ، أما الآن ، فسأحملك على جوادي الى المدينة .

قال لومبا :

— ونحن ؟

قال الزيتيق :

— سنتظرنى انت ومافى وحسن هنا حتى أسوى الموقف بالنسبة لكم ، وأعود اليكم ..

قال حسن بن الحصرى :

— ولكن لو فشلت ، ولم يصدق السلطان أنك انقذت الأميرة فيقتلك باعتبارك واحدا ممن اختطفوها ..

ضحك الزيتيق في استخفاف ، وهو يفك قيود جواده ، ويسوقه الى خارج الكهف ، وقال :

— لن تعرف الأميرة الطريق الى هذا الكهف ، أما أنا فلن أدل عليكم ، ولو تأخرت عنكم الى نصف النهار ، ساعتها تعرفون أنني فشلت ، وأنتى أسير ، فليذهب كل منكم الى حاله ..

عاد حسن بن الحصرى يضحك ضحكته الخشنه ، وهو يقول :
— تعجبنى رباطة جأشك يا على ، وأعرف الآن أنني لم أخطئ

حين انحزت الى صفك ..

ثبت على سرج الجواد ولجامه ، وهو يربت على عنقه وكتفيه ،
والجواد يتواثب تحفرا ، ورغبة في الانطلاق والجري بعد سجنه
الطويل في الكهف ، وقال :

- حتى الظهر ، بعد هذا كل في طريقه .. والان ايتها الاميرة ،
ستركبين امامي فوق الجواد حتي المدينة .. وتقدم اليها وحملها ،
وكانها طفلة صغيرة ، ليضعها فوق السرج ، ثم قفز ورائها ، ولوح
بيده للرجال الواقفين ينظرون اليه عند فوهة الكهف ، وقال :

- استودعكم الله ..

واخذ الجواد طريقه بين الصخور حتى ابتلعه الظلام .

كانت اشعة الفجر تزيل من امامها فلول العتمة ، والجواد يخب
عجا براكييه الصامتين متجها الى بوابة المدينة المغلقة ، وفجأة مزق
هدوء الفجر بوق ينفخ في صوت صاخب ، وارتفعت الصيحة في
المدينة ، وقالت الاميرة بنت السلطان :

- لقد استدل الرصد عليك ، ووشى بوجودك ..

قال الزبيق وهو يعدل من وضعه على الجواد لتصبح يده اليمنى
قريبة من مقبض سيفه :

- سنستمر ولنر ما سيحدث ..

ضحكت الاميرة زينب ، وهي تسوى خصلاتها التي تداعبها
نسمات الفجر ، وقالت وهي ترمق يد الزبيق القريبة من مقبض
سيفه :

- لن ينفعك هذا في مواجهة فرسان أبي ..

قال الزبيق في هدوء :

- لست اعتمد عليه الا من اندفاعات الحمقى ، انما انت تذكرة

اماني .. اما لو حوصرت فانت تعرفين ماذا تستطيع ان افعل بفرسان
أبيك ، لقد جروا منذ قليل مدعورين امام واحدة من ملاعبي .

ارتجف جسد الاميرة وهي تقول :

- هذه الشياطين الملونة التي تقافزت عليهم من السماء .. كيف

فعلت هذا ؟

ربت الزبيق على كتفها يهدىء خوفها ، وهو يقول :

- هذا سر من اسراري ، ولعبة من ملاعبي ، وهي هذه المرة

لم تضر احدا ، فقد اكتفيت باخافتهم وتفريقهم ، اما لو حاولت
ايلاءهم وقتلهم ، فسترين العجب ..

ارتجفت الاميرة زينب ، وارتجفت شفتاها وهي تقول :
- تريد أن ترعبنى ..

وقبل أن يرد عليها الزبيق ، انفتحت بوابة المدينة الضخمة ،
وخرجت منها كوكبة من الفرسان المدججين بالسلاح ، وما أن راوا
جواد الزبيق ، حتى صاح قائدهم ملوحا بسيفه ، فتحركوا بسرعة
مشكلين قوسا يواجه الفارس الوحيد ، وأخذوا يتقدمون في ببطء
وسيوفهم مشرعة ، وخيولهم تتحرك ببطء وحذر ، وقالت بنت
السلطان في دهشة :

- لا أظنهم يخافون منك ، وانت فارس وحيد .. لماذا يتقدمون
في حذر ؟

ضحك الزبيق وهو يمشق سيفه في يده ويلوح به ، وقال :
- لقد تعلموا الدرس منذ الليل ، فالفرس الوحيد الذي ظنوا
أنهم تمكنوا منه ظهرت شياطين السماء والأرض لانتقاذه من بين
أيديهم .

ثم قال في جدية :

- ناد عليهم وعرفيهم من أنت حتى لا يتهور أحدهم فتسيل
دماء لا نريد لها أن تسيل .

ولم تنتظر بنت السلطان كلمة أخرى ، فرفعت رأسها في كبرياء ،
ثم رفعت يدها وكفها مفتوح وموجه الى الفرسان القادمين ، وصاحت
في صوت جهورى آمر :

- اخفضوا سيوفكم ، أنا زينب بنت السلطان أعود سالمة بفضل
هذا الفارس الى أبى ومدينتى ..

وتوقف الفرسان اثر إشارة من قائدهم الذى وقف وسطهم
حائرا ، ثم صاح بجنوده أن يقفوا حيث هم ، وأغمد سيفه ، ومضى
مندفعا بجواده نحوهما ، فتنهد الزبيق في راحة وأغمد سيفه ،
وهمس للأميرة :

- يبدو أن الأمر سيمر بسلام ، فهذا الرجل عاقل ولا شك .
ابتسمت بنت السلطان ، وداعبت شعرها الذى يعبث به
النسيم وقالت :

- هذا باسم قائد الفرسان ، وهو يظن أنه يكن لى معزة خاصة ،
وما ظن أنه نام هذه الليلة بحشا عنى ، وقلقا على .

ضحك على الزبيق ، وهو يلكر جواده ليزيد من سرعته ، فيقابل
الفارس المتقدم في نصف المسافة التى تفصل بينهما وقال :

- هذا ضمان أكيد لى ..

قال باسم وهو يوقف حصانه فجأة ويمشق سيفه :

.. هويتك ..
- كفى الى هنا ايها الفارس ، قف وحرر الاميرة ، وانصع من

او قف على الزبيق جواده ، ثم حمل الاميرة وانزلها الى الارض ،
وترجل الى جوارها وهو يمسك بمقود فرسه ، وقال :
- هذه هي الاميرة زينب بنت السلطان قاسم سلطان المدينة
المرصودة تعود آمنة سالمة الى بلادها ومدينتها ، وقومها وفرسانها ،
بعد ان تم انقاذها من شرذمة اللصوص بقيادة الفاتك اللص مونجو ،
ورجال الملك سلطان ملك بحر الفزال بقيادة فرسانه لومبا ومافي .
استندت الاميرة زينب الى عنق الجواد ، وقالت :

- صدق هذا الفارس فلواه لكنت جارية تباع في الاسواق ان
شاء مونجو ، او زوجة ذليلة في بلاط الملك سلطان او نجح لومبا
ومافي .

ترجل الفارس باسم ، واعاد سيفه الى قرابه ، وتقدم حتى
اقترب منها ، فانحنى امام الاميرة زينب وهو يقول :
- حمدا لله على سلامتكم ايها الاميرة ، لقد ازعجنا غيابك ،
واسعدنا الآن ان تعودى الى ديارك ..

ثم التفت الى الزبيق ، وقال :
- ايها الفارس الفريب ، نحن نرحب بك في المدينة المرصودة ،
منقذا لاميرتنا وسيدتنا ، ورمز سعادتنا كلها .
قال على الزبيق وقد هز وجدانه اخلاص الفارس وصادق
مشاعره :

- ايها الفارس ، اميرتكم تعود اليكم عالية الرأس مرتفعة
الجبين ، أما اللصوص فهم في أسرى ، ولم يستطع كلب منهم أن
يؤذيها بشيء ..

رفع الفارس باسم رأسه متطلعا الى على الزبيق ، وظل يتأمله
لحظات ثم قال :

- لو صدقت فيما قلت ايها الفارس لكنت قرّة عين السلطان ،
ولكنك في نفس الوقت اخي .

امتشق على الزبيق سيفه ، فاجفل الجميع ، وتحركت الخيول
براكبيها في قلق ، ولكنه قدمه الى الفارس باسم ، ومقبضه يتقدمه
وقال :

- اسلم نفسي اليك ايها الفارس ، فتقبل سيفي .
ونظر اليه الفارس باسم لحظات ، ثم تقدم نحوه في تودة ، وأخذ
السيف وهو يقول :

- أيها الغريب أنت في حمايتي .
قالت زينب بنت السلطان في صوت غريب :
- وانتما معا أيها الفارس تحمياني أميرة لهذه المدينة من كل شر ..
نظر إليها باسم في دهشة ، بينما ابتسم الزبيق وصمت ،
واستمرت الأميرة زينب تقول في لهجة أمرة :
- قدنا أيها الفارس باسم الى السلطان ، واحفظ حياة هذا
الفارس كما تحفظ حياتي الى أن نصل اليه .
ردد الفارس باسم بصره بين الأميرة زينب بنت السلطان ، وبين
على الزبيق ، أكثر من مرة ، وأحس بشيء مر يملأ قلبه وصدوره ،
ولكنه لم يسهه الا أن ينحنى أمامها ويقول :
- تفضلا أمامنا .
وتحرك الزبيق يقود حصانه والى جواره الأميرة زينب ، ووراءه
الفارس باسم عابسا مفكرا ، ووراءهم كوكبة الفرسان التي خرجت
من المدينة عند الفجر ، عندما أطلق التمثال المرصود صيحته المزعجة
الصارمة في بوقه .

كانت فرحة المدينة بدخول الأميرة غامرة ، ففي كل مكان كان
الموكب يدركه كانت زغاريد النساء تنطلق فرحة ملعلة في السماء ،
وكانت صيحات الرجال عالية مرحبة بالأميرة المحبوبة وموكبها ،
وكانت فرحة الصبيان والبنات غامرة فقد انطلق الجميع في أهازيج
فرحة تتعقب الموكب نائرة الزهور ، ومرددة كلمات الحب والوفاء ..
وقال الزبيق وهو يسير الى جوار الأميرة :
- هم يحبونك أيتها الأميرة ..
قالت زينب في جمود :
- لأنني أحبهم أيها الفارس ..
قال الزبيق :
- فرحتهم بعودتك ، انستهم أنني غريب دل على الرصد .
قالت زينب في نفس الجمود :
- أنت لا تعني عندهم شيئا الآن أيها الفارس .
قال الزبيق :
- بل أعني الكثير ، فانا الذي أعدت الأميرة المحبوبة الى مدينتها .
ضحكت الأميرة زينب بنت السلطان ضحكة جافة وقالت :
- سنرى رأى السلطان في هذا ..

ونظر اليها الزبيق ، ولكنها رفعت رأسها في أنفة ومضت في طريقها تتلقى تحية الجماهير في ابتسامة عريضة ، وقد نسيت كل شيء عن على الذى يسير الى جوارها الى أن وصل الجمع كله الى بيت السلطان .

في القاعة الكبيرة المليئة بالناس المزمكى الأزياء ، قال السلطان وهو يحتضن الأميرة :

- مرحبا بك أيتها الأميرة زينب ، أزعجنا غيابك ، حتى ظننا أننا لن نراك ، ولكن شعب المدينة المرصودة الآن يحتفل بعودتك سالمة إلينا ، وأنا أيضا أعلن فرحتى وسعادتى بعودتك .
وأحس الزبيق أن فى هذا الإعلان شيئا غريبا وغير طبيعى ، فلاب لا يقول كل هذا الكلام احتفاء بابنته .. ولكنه سكوت وهو يرقب ما حوله ..

كان مجلس السلطان منيرا فى هذه اللحظات الأولى من النهار ، وكان الرجال المتعلقون حوله ينظرون الى الأميرة فى انبهار وفرحة .. وكان الفرسان يتحلقون حول الفارس باسم فى ولاء واضح لقائدهم ، وحب حقيقى لأمرتهم .. وقال السلطان وهو يأخذ مجلسه فى صدر القاعة فوق كرسى سلطنته :

- ولكن هذا الفريب حكايته لا تعجبني ، فقد دل عليه الرصد ، ولا أطمئن الى صدق نواياه ، تقدم أيها الفارس حتى أراك .. فقد تنبأ الدرويش الصالح أنك ستظهر وسط النار ، والدخان ، لتكون أيدانا بانهيار ملكنا فهل أنت هو هذا الفارس الذى يحمل سيفه النار والدخان .

سكت الزبيق ولم يجب بينما قالت الأميرة زينب :

- يا أبى لقد أنقذنى هذا الفارس من فرسان الملك سلطان ملك بحر الفزال الذين كانوا يريدون أسرى وتقديمى إليه زوجة طائفة دون إرادتى ..

قال السلطان وهو يهز رأسه فى تودة :

- احقا .. ؟

قالت الأميرة زينب بنت السلطان :

- لقد أسر مونجو وعصابته الذين أرسلهم ملك بحر الفزال لأسرى ، كما أسر لومبا وماقى سفيرى الملك الذين تقدما الى خطبتى ، ثم سافرا مقهورين الى ملكهما ، وعادا مع عصابة مونجو لاختطافى وأعادتى إليه أسيرة وغنيمة باردة ..

ضحك السلطان ، ثم سعل وقال :

— هل سمعتم ، أنا وافقت على زواج زينب بسلطان ملك بحر
الغزال وها هي تسمى رجاله عصابة ، ومحاولته الحصول عليها
أسرا — وجريمة .. هي لا تفهم ولا تريد أن تفهم ..
ووجم البلاط كله ، ولم يجبه أحد ، وتلفت حوله ، فإذا الصمت
يحيطه ، فاهتز في مكانه ، وقال :
— هي ابنة متعردة حقا ، ولكننا نرحب بها ، فها نرحب بعودتها
سالة الينا .
وارتفعت الصيحات .. من كل مكان في القاعة ، مرحبة بعودة
الأميرة التي أخذت مكانها في هدوء الى جوار السلطان والرجال جميعا
بصيحون ويحيون .. والزييق في مكانه يرقب ويحاول أن يفهم في
صمت ..

الدرويش الصالح

جعل على الزبيق يتأمل الموجودين في قاعة السلطان حوله ، وسرعان ما أحس أن هناك شيئاً غير طبيعي يحيط بالجو كله . . فالذي لا شك فيه أن الفرحة تعم الجميع لمودة بنت السلطان سالمة ، إلا أن هناك من ينظرون إليه نظرات كلها ترحيب وود ، وهناك من ينظرون إليه بعداء وكراهية . وتذكر كلمات السلطان ، وبدأت له غريبة ، فالسلطان رغم احتفائه بالأميرة ليس سميحاً بعودتها ، وكلامه كله لا صدق فيه ولا حرارة ، بل بدأ في بعض عباراته لاثماً لها ، متهما إياها ، بعصيان أمره ، ورفض موافقته على زواجها من ملك بحر الفزال .

وسمع الزبيق صوتاً هادئاً وقوراً يقول له :
- مرحباً بك في بلادنا أيها الغريب ، لست أعرف كيف نشكرك على أعادتك الأميرة بنت السلطانة إلينا .

والتفت على الزبيق إلى مصدر الصوت الوقور . . ووجد كهلاً يرتدى ثوباً أبيض وقد غزا الشيب شعره ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة حانية رقيقة ، وكان يمد إليه يداً رقيقة ، فصافحها الزبيق وهو يحس بارتياح إلى الرجل والصوت ، ولمسة اليد جميعاً . . وعاد الرجل يقول بنفس صوته الهادئ الوقور :

- أرجو ألا تؤثر فيك لهجة السلطان ، فهو لا يقصد إلا خيراً . .

قال الزبيق :

- لا اكتمك أنها حيرتني ، ولكن من أنت أيها السيد الطيب . .

ضحك الرجل الوقور ضحكة هادئة ، وقال :

- أنا الوزير مروان ، كنت وزير هذه السلطنة منذ تكونت

واستقلت عن مملكة بحر الفزال ، وما زلت وزيرها إلى الآن .

قال الزبيق وهو يتنهد في مرارة :

- ترحيبك بي أيها الوزير ينسيني لهجة السلطان العدائية ،

ولكن لحظة ، من هذا الرجل الطويل المتسريل في الخرق البالية الذي يرحب به السلطان ؟

تابع الوزير مروان نظرات الزبيق حتى وقعت عيناه على الرجل

الطويل الذى يتقدم فى بطنه ناحية مجلس السلطان ، وتغير وجهه ، وقال فى لهجة ساخرة :

— هذا غريب وفد الى المدينة ولم يقتل .

وضحك ، ومس ذراع الزبيق بيده مساً رقيقاً وهو يقول :

— ولن يقتل فقد آمن به وبورعه وتقواه السلطان ، وهناك

غريب آخر دخل مدينتنا أمس ولم يقتل ، حين حاصره فرساننا ،

انطلقت قوى الجن فى السماء فزلزلت الارض وتوهجت فى السماء

منيرة مرعدة ، فارتد عنه فرساننا بعد أن قيدوه ، وحملته قوى

الجن خارج المدينة .. وانت الغريب الثالث الذى لم يقتل فانت

عدت الينا بآبنة السلطنة .

التفت اليه الزبيق وقال وعيناه تتابعان حركات الدرويش

والسلطان :

— هذه هي المرة الثانية التى تسمى فيها الاميرة زينب بآبنة

السلطنة ، اليست هي بنت السلطان ؟

ضحك الوزير مروان وقال :

— هذه مسألة بسيطة ، فالاميرة زينب بنت السلطنة كوثر التى

كانت تحكمنا وتزوجت من السلطان قاسم ، وحين ماتت السلطنة

كوثر ، تولت بعدها الاميرة زينب ، ولكنها كانت صغيرة جدا حين

ماتت السلطنة كوثر فتولى مكانها زوج السلطنة كوثر حتى تصل

الاميرة زينب الى سن الرشد .

قال على الزبيق فى دهشة :

— فهي ليست ابنته اذن ..

ضحك الوزير مروان وقال :

— هي فى حكم ابنته ، وهو يظل يحكم حتى تبلغ سن الرشد

فينتقل حكم السلطنة اليها .

صاح الزبيق دون ان يدري ان صوته قد علا ، وقال :

— لهذا كان يريد تزويجها من ملك بحر الغزال رغم ارادتها .

تلقت الوزير مروان حوله محاذرا ، ثم همس :

— خافت من صوتك ايها الغريب ، فليس هذا الكلام مسموحا

به هنا .

وصمت الزبيق واجما وعاد يتأمل الدرويش والسلطان وهما فى

حوارهما الهامس البعيد .. وعاد الوزير مروان يقول :

— وقد اقتربت الاميرة من سن الرشد ، وأن الاوان ان تشهد

المدينة المرصودة سلطنة جديدة ..

وهمس صوت رقيق على يمين الزبيق قائلا :
- بل هذا هو العام الذى يجب ان تعلن فيه الاميرة زينب
سلطانة على المدينة المرصودة ، ايها الفارس الغريب .
التفت الزبيق فاذا بعينى الفارس باسم تطالعانه فى ضحكة
مرحبة ، فقال :

- اهلا بك ايها الفارس ، كانت تتابع حوارنا .
ضحك الفارس باسم وهو يقول :
- نحن فداء الاميرة ايها الغريب ، نقديها بأرواحنا - فنحن
فرسانها ..

نظر على الزبيق الى عينيه اللامعتين ، وقال :
- لم تحسنوا حراستها حين خطفت .
شحب وجه الفارس باسم وقال :
- من كان يدري ان هناك نفقا يدخل منه المختطفون ..
قال الوزير مروان :
- النفق لا يعرفه الا الاميرة والسلطان .
قال الزبيق :

- احدهما اذن هو الذى دل مونجو ولصوصه عليه .
قال الوزير فى تودة :
- او دل فرسان ملك بحر الفزال .
قال الزبيق :
- تعنى لومبا ومافى ؟
قال الوزير :

- انا لا اعنى احدا .. فهذان الفارسان كانا ضمن سفارة دولة
صديقة ، ولست استطيع ان اتهمهما بشيء .. انما هو مجرد
كلام ..

قال الفارس باسم فى اندفاع :
- والكلام يتحول الى همس يتناقله الجميع ، وكلنا لا نعرف
ماذا نقول ، وماذا نصدق ؟.

وفقد على الزبيق اهتمامه بكلام الفارس باسم والوزير مروان ،
اذ تحول الدرويش بوجهه ناحيته فى هذه اللحظة ، فأحس الزبيق
بيد قاسية تقبض على قلبه حتى ليكاد يكف عن الخفقان ، لعله واهم ،
ولعل الخيال يلعب به ، ولكنه واثق انه يعرف هذا الوجه كل المعرفة ،
فلو رفعنا اللحية الكثة ، وازلنا الشعر الكثيف من فوق الحواجب ،
وازلنا اللون الشاحب فوق جلد الوجه ، والفضون .. لكان هذا
الوجه ، هو وجه ..

وقطع عليه وجومه صوت الوزير مروان وهو يهز كتفيه هذا :
- لعلك فهمت ما نريد أن نقوله لك فهو يعنى أنك وقفت دون
أن تدرى فى وجه طموحات بعض الناس ..
والتفت اليه الزبيق شاحب الوجه وهو يقول مشيراً ناحية
الدرويش والسلطان :

- منذ متى وهى هنا ؟
تتبع الوزير اشارته ، وهز كتفيه فى دهشة وهو يقول :
- هى ، من تعنى ، لا أحد حيث تشير الا السلطان والدرويش
الصالح ..

وهمس الدرويش فى اذن السلطان وهو يتابع همساته بحركات
يديه ، وهز السلطان رأسه ثم اشار الى رئيس الحرس الذى تقدم
نحوه وانحنى أمامه يسمع أوامر السلطان الذى كان يهمس بها وهو
يشير بيده الى حيث وقف الزبيق ، وردد رئيس الحراس كلام
السلطان كأنما فى استفسار ، وعاد السلطان يردد أوامره الهامسة
فى صرامة ، وهز رئيس الحراس كتفيه فى استسلام ، واتجه الى
حيث وقف الحرس ، بينما ارتسمت ابتسامة مقبلة على شفתי
الدرويش ، فندت عن الزبيق آهة لا ارادية وقال :
- هى دليلة لا شك .

قال الوزير مروان وهو يتابع حركة رئيس الحرس بعينيه :
- انا لا أرتاح الى هذا ، هناك شئ يدبر .. وشئ شرير
لا شك ..

همس الزبيق :
- حيث توجد دليلة لا يوجد الا الشر ..
قال الفارس باسم :
- ان الحرس يتجهون نحونا ..
بينما قال الوزير مروان :
- عن أى دليلة تتحدث أيها الفارس الغريب .
وكانت كوكبة من الحرس تتجه اليهم ، وفى مقدمتها رئيس
الحرس ، وأيادى الرجال على مقابض سيوفهم .. بينما علت همهمات
بين الموجودين فى القاعة ، وهم يفسحون للحرس طريقاً للمرور ..
وصاح الفارس باسم وهو يشير بيده فى انفعال :
- الأميرة ..

ولفتت صيخته الجميع ، لتتجه الانظار الى الأميرة التى كانت
تقف ، فوق خشبة عالية وتصبح فى صوت منفل ، وعيناها

الواسعتان تديران نظرات واجفة في وجوه الجميع :
- اسمعوني جميعا .. أنا سعيدة بحفاوتكم بي ، وبسعادتكم
لعودتي سالمة الى بيتي وورعيتي .. ولكن يجب ان تعرفوا انه لولا
هذا الفارس ما عدت حية ومصونة اليكم ..
واشارت بيدها الى حيث وقف الزبيق ، فاتجهت الانظار كلها
اليه ، بينما تردد قائد الحرس ووقف مرتبكا في مكانه ، وتابعت
الاميرة حديثها المتحمس قائلة :

- لولاه لفقدت ما هو اغلى من حياتي ، كرامتي وحريتي ،
وقد كان مونجو وعصابته يدبرون لي ما هو اسوأ من الموت ، ولولاه
لتمكن رسولا ملك بحر الغزال لومبا وماقي من حملتي الى ملكهم سبية
لا تملك من أمرها شيئا .. وارتفعت الهتافات بحياة الفارس الغريب ،
وارتفعت الدماء الى وجه الزبيق حرجا ، بينما لم تترك عيناه موقع
الدرويش والسلطان ، وعادت الاميرة تقول في حزم :
- انا اعرف انه على موعد عند الظهيرة ، فأتركوه يمضي الى
موعدته بسلام ..

وتعالت الصيحات تحيي الزبيق من جديد ، بينما أخذ السلطان
والدرويش يتبادلان الهمسات ، وقال الوزير مروان الى جوار
الزبيق :

- لقد امنت لك طريق الخروج .. فأخرج الآن ولا تتردد .
وامتشق الفارس باسم سيفه ، وهو يقول :

- سأصحبك لأؤمن لك مع رجالي طريق الخروج ..
وقال الوزير مروان في الحاح :

- هيا تحرك ، اخرج الآن أيها الفارس الغريب ، فهذه فرصتك .
وكانت عينا الزبيق معلقتين بالسلطان ، فراه يهب واقفا فجأة
وهو يهز رأسه كأنما يوافق على ما يقوله له الدرويش ، ورفع يده
طالباً الصمت من الجميع ، وقال :

- ما معنى هذا .. أينها الاميرة لقد تجاوزت الحد في الكرم
والاعتراف بالجميل ..

ووجم الجميع ، واتجهت الابصار الى السلطان الواقف امام
مقعده في صدارة القاعة ، بينما ابتسم الدرويش ابتسامة خفيفة ،
واتجه متسللا الى خارج القاعة ، وعاد السلطان يقول :

- الاميرة طيبة صدرت فيما قالت عن طيبة قلبها ، وهي
ايضا قليلة التجربة لا تعرف من أمر الرجال وخبثهم شيئا .. رهدي
ان هذا الفارس جزء من المؤامرة التي استهدفت خطفها ، والا كيف

يتغلب وهو فرد على مونجو وعصابته ، وهي العصاةة التي دوخت كل رجال الدرك فى كل بلدان منطقتنا ..

وتبادل الجميع النظرات الحائرة ، بينما اهتزت رعوس توافق السلطان على حديثه ، وهمس الوزير مروان فى حنق :

— انه يهيج الجميع ضدك .. ويقلب الحقائق لتعود كلها اصابع اتهام تشير اليك ..

وماد السلطان يقول فى ثقة وحزم :

— ولومبا ومافى وهما من اقدر فرسان الملك سلطان ملك بحر الفزال كيف نجا منهما الا اذا كان شريكا معهما من اول الامر ..

وسكت وهو يجيل نظرة منتصرة بين الجموع فى القاعة . ونظر الى قائد الحرس منها ، ثم اشار الى الزبيق قائلا :

— لقد حذر الحكيم من زمن ان الغريب الذى يدخل مدننا

ويبدل عليه الرصد بالنفخ فى البوق ، عدو لنا لا بد من قتله فى الحال .

وهذا الرجل دل عليه الرصد ، وسمعنا هذا الصباح نفخة فى البوق

وهو على مشارف المدينة . فكيف نعتبره صديقا وهو عدو دل عليه

الرصد ؟

ولم ينطق احد ممن فى القاعة حرفا .. واحس على الزبيق

بنظراتهم تتحول اليه فى اتهام ، بل وفى كراهية ، كانوا جميعا ينظرون

اليه ، وهو لا يرى منهم احدا ، وكلما تجول بعينه فيهم لم يجد

الا نظرات حائرة تستعد للوثوب عليه ، والاقتصاص منه لما حدث

لاميرتهم .. وهو وحده وسط بحر من الكراهية ، واحس الزبيق

انه محاصر . وانه وحيد .. ومد يده الى مقبض سيفه ، فهذه

معركة لا مهرب منها ..

واشار السلطان الى قائد الحرس وهو يقول بلهجة امره :

— اقبضوا عليه ..

واندفع الحرس نحو الزبيق ، وانفجرت الجماهير تفسح لهم

طريقهم اليه ، بينما امتشق الفارس باسم سيفه ، وصاح فى رجاله :

— الى يا رجال ، فهذا منقلد الاميرة زينب بنت السلطانة ..

واندفع نحوه نفر قليلون يمتشقون سيوفهم ، ويحيطون بالزبيق،

بينما تقدم الوزير مروان رافعا يده نحو قائد الحرس ، وقال :

— انتظر لحظة ايها القائد .

ثم التفت الى السلطان قائلا :

— ما تعودنا ان تصدر احكامنا دون ان نسمع كلام من نتهمهم ،

والامر فى هذه الحالة بالذات يتعرض لحياة انسان ، وانسان اسدى

للسلطنة خدمة كبيرة حين انتقل الاميرة ، فلا بد ان نسمع دفاعه قبل ان نسرع الى ادانته ..

وارتفعت صيحات ثانية ضعيفة ، بينما ارتفعت صيحات استنكار جارفة ، وصاح السلطان وقد احس ان مد الجماهير معه :
- هل نسمعه ؟

وارتفعت كلمة :

- كلا .. كلا ..

من كل مكان في القاعة ، بل اندفع نحو الزبيق مجاميع من الناس يحيطون به وبكوكبة الفرسان شاهري السيوف الذين يحيطون به لحمايته ، وكأنما يريدون باندفاعهم ان يخترقوا حاجز السيوف اليه ليمزقوه ، وعاد الوزير مروان يرفع ذراعه وهو يقول في صوته الهادئ الوقور :

- الا يجوز ايها السلطان ان يكون قادما الينا برسالة من قبل خليفة المسلمين في بغداد ..

وتوقفت الصرخات ، وسكنت حركة المندفعين نحو الزبيق ، بينما كان على نفسه يفكر في هذا الموقف الغريب من السلطان وشيء في أعماقه يردد دائما اسم دليلة .. دليلة ..

وضحك السلطان ، وجاءت كلماته التالية فأكدت شكوك الزبيق ، اذ قال :

- الخليفة في بغداد ، ومالنا والخليفة في بغداد وهو بعيد عنا مشغول بقهر دويلات العجم التي تريد ان تتحرر من بطشه وجبروته .. واين هو خليفة بغداد وهو لا يكاد يقوى على صد حملات الافرنج التي سرعان ما ستقوض عرشه ، وتحرر امثالنا من حكمه .. وهمس الزبيق لنفسه وهو يذكر كلام احمد الدنف :

- دليلة .. دليلة ..

وصاح الوزير مروان :

- ما هذا يا مولاي ، نحن من رعايا الخليفة هارون الرشيد ، وهذا الكلام يعرضنا لعقابه ..

عاد السلطان يضحك في وحشية ، وهو يلوح بيديه ، ويقول :
- لن يصلنا الخليفة الا عن طريق الوالى ، وأنا معى حجة بولاية السلطنة من والى مصر ، وهو الذى يريد منا ان تكف ايدينا عن اعداء الخليفة ، فلا نحارب حروبه ، ولا ننضحى بأموالنا وأولادنا من أجله ، ومن أجل ان يزداد ثراء وسطوة وفجورا .

قفز الزبيق فجأة من وسط الدائرة التي تحيط به حتى واجه السلطان وصاح فيه :

.. خست أيها الكاذب الفاجر ..

ووجم السلطان ، وارتيك الحرس ، وساد الصمت القاعة ، وقبل
أن يدرك أحد ما ينتويه ، كان الزبيق يعتلى عرش السلطان وهو يستل
سيفه ويضع ذبابة السيف على عنق السلطان ، وقد أمسك به بيده
الأخرى بحيث قيد ساعديه جميعا .. وجال يبصره بين المتحلقين
حوله ، وقال في صوت مهدد أمر مخيف :

.. لو اقترب واحد منكم خطوة واحدة ، نفل حد سيفي فيه
إلى أن يحز العنق ، وأرمي لكم الرأس القدر تحت أقدامكم .
ارتجف السلطان بين يدي الزبيق ، بينما تراجع رئيس الحرس
وحرسه ، وتقدم الفارس باسم ورجاله فأحاطوا بالزبيق ، الذي
قال :

.. هذه كلمات خائنة لا يقولها إلا عملاء الأفرنج الذين يريدون
تمزيق وحدتنا ، حتى نتفرق شيما وأمما ، وممالك فينشبرواظافرههم
في كل جزء على حدة .. وهذا السلطان خائن ، وعميل للأفرنج ،
ولممالك المعجم التي انقضت على سلطة الخليفة بتحريض خبيث من
الأفرنج .. أين هذا الدرويش القدر اللئيم ، فهو رسول وإلى مصر
الخائن إلى عميله الخائن في المدينة المرصودة ، هذا الكلب الذي
يرتجف بين يدي أمامكم .

وتلفت الجميع يبحثون عن الدرويش الذي اختفى ، وكأنما
انفتحت فتحة في الأرض وابتلعتة ، بينما كان السلطان يصدر أصواتا
غير مفهومة وهو بين ذراعي على وذبابة السيف مسلطة على عنقه ،
وقال الزبيق :

.. أين هذا الدرويش المدعى ، ابعثوا عنه فهو سبب كل هذه
المصائب ..

ولا أثر للدرويش وهاتف في أعماق الزبيق يقول :

.. آه يا دليلة .. دليلة .

وقال قائد الحرس وهو يتقدم مع رجاله نحو الزبيق في شجاعة:

.. أنرك السلطان ، والا مزقناك بسيوفنا وسهامنا .

ضحك الزبيق في استهزاء وقال :

.. أول حركة تعني موته .

وهنا وقفت الأميرة زينب في مكانها السابق وهي ترفع ذراعيها
وتقول :

.. اسمعوني قبل أن تهجموا عليه لتخلصوا السلطان .

وسكت الجميع وهم يتطلعون إليها ، فابتسمت وهي تقول :

— أمس حاصرتم أحد الفرسان الذين دخلوا المدينة ، ودل عليه الرصد ، وكذتم تصلون اليه ، بل لقد أسرتموه وقيدتموه ، ثم ماذا حدث ؟ انطلقت شياطين الجحيم تملأ السماء بأيدي المردة والوان عذاب الجحيم . أنا كنت هناك ، هذا الفارس هو الذى اطلق كل هذا العذاب عليكم ليخلص الاسير دون أن يريق قطره من دماء فرسانكم .. وهو الآن امامكم .. من يريد أن يتعرض له فليتذكر جحيم الأمس .

وملأ الخوف قلوب الجميع ، ونظر الكل الى الزبيق فى ذهول وروع .. وقال الزبيق :

— سأخرج الآن بالسلطان .. ولن يخرج أحد من أسوار المدينة وأبوابها حتى أخبره بذلك ، والا ضاع السلطان وضعت جميعا .. وفى وجوم شاهد الجميع سلطانهم وهو يساق امام الزبيق وحوله كوكبة فرسان الفارس باسم ومعهم الوزير مروان والاميرة زينب وهم ينسحبون جميعا من القاعة ، ثم من المدينة بأسرها ..

دليطة المحتالة

- تلقى حسن بن الحصرى على الزبيق وأسيره عند باب الكهف ،
ولاحظ على الزبيق أنه يمتشق سيفه هو ولومبا ومافى ، فدفع اليه
السلطان قاسم أسيره وهو يقول له :
- تأكد أنه مقيد قيودا لا فكاك منها ، واحتفظ به داخل الكهف .
قال حسن بن الحصرى متسائلا :
- من هذا ؟ ملابسه تدل على انه انسان غير هادى .
ضحك لومبا ، وقال :
- هذا هو السلطان قاسم سلطان المدينة المسحورة .
صاح حسن بن الحصرى فى ذهول :
- أسرت السلطان ، تدخل وحدك الى المدينة ، وتخرج وسلطانها
أسير بين يديك ، حقا يا على لا نهاية للماعيبك .
قال مافى متدخللا فى الحديث لأول مرة ، وهو يتسهم :
- لعله استعمل الثعبان النارى الذى يطير ، أو لعله استعمل
الشياطين الفاضبة التى تلون السماء ..
قالت الأميرة زينب :
- بل استعمل سيفه وذكاه هذه المرة ..
وكان على الزبيق قد نسي الأميرة والوزير مروان وباسم قائد
الفرسان ، ومن تبعه من فرسان لحمايته من غضب جنود السلطان ،
فالتفت اليها وهو يقول :
- لا مكان لك هنا ابنتها الأميرة ، فمكانك فى مدينتك وقصرك ..
قال الوزير مروان :
- انت محق لابد أن تعود ، ونعلن بلوغ الأميرة سن الرشد ،
وحقها فى أن تتولى مكان أمها السلطانة الراحلة ..
قال الفارس باسم :
- دون هذا معركة حاسمة مع رئيس حرس السلطنة ورجاله
فهم من اتباع السلطان قاسم ..
قال على الزبيق فى حسم :

— السلطان في يدي الآن ، وأنا أريده لأعرف أبعاد تأمره على
الخليفة ، أما أنتم فمدينتكم ملككم أنتم ، وأميرتكم مسئوليتكم أنتم ..
مدت الاميرة زينب يدا لتضعها على كتف علي الزبيق وهي تقول :
— لقد رأيت من أفعالك ما يجعلني أعرف أنني سأحتاج اليك
حتى يستقر لي الأمر في المدينة ..

ربت علي الزبيق على يد الاميرة في رقة وهو يقول :
— لن أتوانى عن تقديم أى عون يطلب منى .. ولكن ابتعادك
أنت والمخلصين من أتباع أمك الراحلة وأتباعك أنت خطر وخطأ ..
تنهد الوزير مروان وهز رأسه الاشيب الوقور وهو يقول :
— كلامك عين الصواب ، وأرجو أن تعود قبل أن يزيغ رجال
قاسم الحقائق أمام أهل المدينة .. هيا ، أيها الفارس باسم ،
ولنصحب الاميرة الى المدينة المرصودة ..
نظرت الاميرة زينب طويلا الى علي الزبيق ، وأطرقت براسها
وهي تقول :
— ان تعود معنا ..

وشحب وجه الفارس باسم وهو يرى هذه النظرة ، وكان الزبيق
يراقبه فشاهد النظرة الحزينة التي ملأت عينيه ، وسعل الزبيق ،
ثم قال :

— أيتها الاميرة نحن من عالمين مختلفين ، وعندما تنتهى مهمتى
هنا لأبد أن أعود الى عالمي ..
وعادت الدماء الى وجه باسم ، بينما ضحك الكهل الوقور ضحكة
العارفين ، وقال :

— كلما ازدادت معرفة لك أيها الفارس الغريب ازدادت إعجابا بك
.. سنعود الآن الى المدينة ، وسأخاطبك بما يحدث هناك ان كنت
ستظل هنا ..

قال علي الزبيق :

— سأستأذن الاميرة حين تصبح سلطانة المدينة في قضاء
حاجتى ، وقبل هذا أنا هنا أعد أمورى ، وأراقب نجاحكم في تثبيت
عرش السلطنة لها ، ولكن هناك شيئا لأبد أن أحصل عليه في الحال ..
قالت الاميرة في لهفة :

— لو استتب لي الأمر في المدينة فهي كلها وما يتبعها يدين لك
دينا لا وفاء له أبدا ، وأن ترد الحصول عليه الآن فأمرتك مجاب ..
عاد الشحوب الى وجه الفارس باسم ، بينما قال الزبيق :
— دليلة ؟

صاح الوزير مروان :

- دليلة ؟ اتبعث من امرأة ؟

ضحك على الزبيق في خشونة وهو يقول :

- بل ابحث من أفعى سامة ..

صاح حسن بن الحصرى في دهشة :

- دليلة المحتالة هنا ، وسط الغابات ؟ .. الذى أعرفه انها

في بغداد ..

قال على الزبيق :

- بل هي هنا ، ولابد من القبض عليها لنتجنب شرورها ، أريد

الدرويش الصالح ..

قال الوزير مروان :

- اذكر حديثك عن هذا الدرويش وانه همزة الوصل بين الوالى

وبين السلطان ولكن ما علاقته بدليلة هذه التى تتحدث عنها ؟

قال الزبيق في اصرار :

- هاتوا لى هذا الدرويش اكون قد حصلت على دليلة عدوتى

وعدوة بلادى كلها ..

قالت الاميرة في حماس :

- الدرويش الصالح في المسجد المنعزل عند آخر المدينة ، لابد

انه هناك يمارس صلاته وعبادته ، وسأتيك به بمجرد دخولى

المدينة ..

ضحك الزبيق ضحكة جوفاء ، وقال حسن بن الحصرى :

- لو كان ما يعنيه الزبيق صحيحا ، فلن تجدوا لهذا الدرويش

الصالح اثرا ..

قالت الاميرة في ثقة :

- سنجده لك ..

وقال الفارس بسام وقد تمالك نفسه :

- وسأتى به اليك بنفسى ..

قال الزبيق :

- امامكم في المدينة مهمة شاقة فيها اليها ، وان احتجتم لى ،

فانا موجود هنا انهى حديثى مع سلطانكم ..

كانت الشمس قائلة من جديد ، تلفح الوجوه والاجساد بحرما ،

وتعصر الاجساد لتمتص ما يخرج منها من قطرات عرق ، والزبيق

والى جواره حسن بن الحصرى ، ولومبا وماقى ، يرقبون جميعا

نزول كوكبة الفرسان تحيط بالاميرة ومتجهة نحو المدينة ، وقال لوميا :

— ألم يكن من الأوفق أن نصحبهم فهم سيلقون مقاومة عنيفة في المدينة .

قال الزبيق :

— هم يؤمنون بالحق الشرعي لأميرتهم ، وسينجحون يا لوميا ، فلا يقف أمام الإيمان بحق والدفاع عنه شيء .

قال مافي :

— إن قائد حرس المدينة شرير ، ومنه أتباع كثيرون ، وقد أقصى السلطان قاسم قائد الحرس الأصني ، وعينه في مكانه ، وجميع له مجموعة ممن لا ضمير لهم لمعاونته ، وهم يركبون المدينة بالقسوة والعسف منذ تولى السلطان قاسم مقاليد المدينة .

قال الزبيق في إصرار :

— لست أحب أن يقال أنها هادت إلى عرشها بمعونة من الخارج .. فهذا سيخلق لها الأعداء من داخل مدينتها .. لا ، نحن مسترقعون من بعيد ، ولن ن تدخل إلا إذا ساءت الأمور ، وسترى يا مافي أن أصحاب الحق حير يؤمنون به ينتصرون دون معونة أحد ..

نهض حسن بن الحصري وهو يقول :

— أما أن لنا أن نعود إلى هذا الأسير الذي ينتظر داخل الكهف ..

قال الزبيق في غضب :

— قل هذا الخائن الذي تجمعت عنده شبكات الخيانة والتآمر ،

قال حسن بن الحصري :

— الآن هيا بنا .

حين دخلوا الكهف الذي أضاءته أشعة الشمس المتسللة من الخارج ، كان السلطان قاسم حوزمه من الثياب الفاخرة المتكومة في رعب عند نهاية الكهف .. وعندما شاهدهم السلطان قاسم يدخلون عيه ، ازداد تكوما على نفسه ، ورفع ذراعيه أمام وجهه كأنما يحمي نفسه من هجوم متوقع ، وقال في صمت مرتعش :

— أ أخطأت في حقك أيها الفارس ، وأنا أعفو عنك ، وأجيبك

إلى كل ما تطلب ..

ضحك لوميا وقال :

— من يره الآن لا ير تفطرسه على عرشه ..

وقال مافى :

— ينبغى أن أقول لك الآن وأمامه ، هو الذى دلنا على النفق السرى الذى يسمح لنا بدخول المدينة دون أن يشى الطلسم صاحب البوق بوجودنا كإغراب .

اتسعت حدقتا السلطان فى رعب ، وأخذ يجيل بصره بين الواقفين أمامه ، وقال فى صوت متخاذل :

— كان هذا فى صالح السلام بيننا وبين ملك بحر الفزال ، الملك سلطان كان يريد الأميرة ، وهى رفضته ، وهدد بشن الحرب أن لم يتزوجها ، وقد دلتكم على النفق حتى يحصل الملك سلطان على هروسه فتنتهى الحرب بيننا .

قال الزبيق :

— هى رفضته ، ولا تريده ، هو رجل عجوز ، وهى صبية فى أول شبابها ، كيف سولت لك نفسك أن تسلمها أسيرة ذليلة إليه وهى الأميرة بنت السلطانة ، وصاحبة الحق الشرعى فى السلطنة . بدأ الدعر جليا فى وجه قاسم ، وتراجع بجسده حتى التصق بجدار الكهف ، وقال :

— هى لا تعرف مصلحتها ، وهى كابنتى ..

قال الزبيق فى حسم :

— هى ليست ابنتك ..

ابتلع قاسم لعابه بصعوبة وهو يقول فى اندفاع :

— لقد منحتها كابنتى — أحسن تربية ، أحسن ملابس ، كل طلباتها ، كل التعليم والرحلات ، وكل .. كل كل ما تريد ..

قال الزبيق فى قسوة :

— بل قل كنت تريد أن تتخلص منها ، فتكسب شيئين معا ، السلطنة خالصة لك ، ورضا جارك القوى ملك بحر الفزال .

وازداد انكماش قاسم ، وبدأ يرتجف ، كل جسمه يرتجف ، كل وجهه يرتجف ، كل عضلات شفثيه ترتجف .. وأشار بيديه ، وقد احتبس الكلام فى حلقه ، واتسعت عيناه ، وبدأ الزبد يغطى شفثيه .

قال حسن بن الحصرى فى ازدراء :

— من أى معدن صنع هذا الرجل ؟

قال لومبا فى تشف :

— من المعدن الذى يدفع رجلا أن يتزوج من السلطانة فيدس لها السم ليصبح سلطانا ، ثم يتأمر على ابنة السلطانة ليسلمها جارية

للك مجوز طامع في شبابها ليفقدو له الجو خاليا ، ليمارس شهواته
ونفوذه وعظمته .
قال الزبيق :

— هو معدن العملاء ، لقد عرف الفرنج كيف يدسونه في الوقت
المناسب ، ليكون المرشح للزواج من السلطانة ، وليكون أداة عمالتها
باقى عمره في السلطنة بعد ذلك .
صاح قاسم السلطان :

— لقد راعيت مصلحة شعبي ، كانت السلطانة تفرض عليه
الفقر ، فأتحت له الثراء ، أعطيته الأمن والأمان ، وعلمته الطريق
الى الربح ، يأخذ بقدر ما يشاء ولى أنا نصيبي ، وللسلطنة نصيبها
.. وقد أنهيت الحرب بينى وبين ملك بحر الغزال فلا حرب بيننا
منذ توليت الا حربا حررت فيها منطقة الامان بيننا ، فماذا تريدون
.. اعطيت قلبي وعقلي وعبقريتى ووجوهى لصالح شعبي ..
قال لومبا :

— واسلمته منطقة الامان يحكم فيها وتحكم .
صاح السلطان :

— لا ، بل نستثمرها معا ، ونزرعها مع ، وتعود عليه وعلينا
بالخير والسعادة ، ومن حق كل رجل في شب المدينة المرصودة ان
يستثمر ماله فيها .. وان يشرى ويسعد ، فقط يعطينى حقى ،
ويأخذ حقه ..

قال حسن بن الحصرى :

— والاميرة زينب ايها السلطان اكانت جزءا من الصفقة ؟
شد قاسم من قامته ووقف مستندا الى حبل الكهف ، وهو
يلوح بيديه المقيدتين ، وقال :

— هى لا تعرف مصلحتها ، كانت سستغدو ملكة ممثلة بحر
الغزال ، وتغدو المسيطرة على كل الامور هناك ، فالملك كان سيعطيها
كل ما تمنى ويجعلها سيدة قصره وبلاده .. هل اخطأ .. لا ..
بل انا فعلت الصواب لها ، وضمنت وجود قوة تساندر ، وتقف
الى جوارى ضد كل اعدائنا ، اعداء المدينة المرصودة ، واعاء ملكة
بحر الغزال ايضا ..

قال الزبيق وهو يتسم ابتسامة صفراء :

— ومن هم الاعداء ايها السلطان ؟

وجم السلطان ، وأجال عينيه المدعورتين فى الرجال المنحلقين
حوله ثم تمالك نفسه وقال :

— اهدائي .. انا سلطان المدينة المرصودة ، وكل عدو لى هو
عدو للمدينة المرصودة .
قال الزبيق :

— حتى الخليفة هارون الرشيد .
صاح السلطان قاسم دون أن يتلبث :
— بل هو عدوى الاول .. يأخذ منى الخراج بدعوى حرب
الافرنج ، وليس بينى وبين الافرنج عداوة ، مالى أنا والافرنج ..
ويأخذ منى الاموال ليحارب الخارجيين عليه من العجم .. مالى أنا
والعجم .. لا .. هو طاغية مستد ، يريد أن يقيم العداوة بينه وبين
دول العجم .. ولكن مالى أنا هذه العداوات كلها ، انا رجل أريد
السلام .. وأريد لبلدى السلام ..
قال لومبا :

— السلام مع ملكى ملك بحر الغزال عبث ، فهو يريد المدينة
المرصودة كلها وما يتبعها وخاصة الجزيرة المسحورة ، فالسلام معه
يعنى أنك تعطيه كل شئ حتى الجزيرة المسحورة ..
قال قاسم السلطان وهو يتمالك نفسه :

— أنا لا أسمع لكم ان تحاكمونى ، من أنتم ، من تكونون ،
ليلتزم كل منكم مكانه . أنا السلطان .. أفهمتم ؟
ضحك الزبيق وهو يقول :

— أنت لا تدرك لك لم تعد السلطان ، أنت أسير .
صاح السلطان : عنف وهو يشير بيديه المقيدين فى حركات
عنيفة :

— بل انا السلطان شئت أم أبيت ، فعندى براءة من والى مصر ،
وعندى تأييد من لافرنج ، وعندى موافقة من العجم ، وعندى اتفاق
مع ملك بحر الزغال .. فما أنتم الا قطاع طرق وسفلة .. أنا
السلطان ..

قال الزبيق فى صوت هادئ :
— ايها السلطان .. هل والى مصر موافق على ما تقول من
موافقة مع الافرنج والعجم الفارين ، وملك بحر الغزال المتربص بك
بشعبك .

اندفع السلطان قائلا :
— حمل لى الدرويش الصالح براءة ولايتى وسلطتى على المدينة
المرصودة من والى مصر وسلطانها .. فماذا تقولون فى هذا ؟
قال الزبيق :

— اتعنى والى مصر ضد الخليفة ، هذه دسيصة لا اصدقها .
صاح السلطان :

— الدرويش الصالح قال لى هذا :
قال الزبيق :

— الدرويش الصالح ليس الا دليلة عدوة المسلمين وعدوة الخلافة
الاسلامية كلها .

سكت السلطان قاسم لحظات يتأمل فيها الزبيق وقال :

— لم تفل لى حتى الآن من انت ؟ . ما اسمك ؟ .
قال الزبيق :

— اسمى على الزبيق .

صاح السلطان وهو يضرب بقيودة الجدران والارض :

— لقد حذرني الدرويش الصالح منك ، وقال احذر هذا الغريب

فهو عدوك ، وهو بآلف جيش ، والاعيبه تفوق قدرة الفرسان
والجيوش المجيشة ، اذن فانت عدوى .. انت الزبيق ..

وهنا صاح صوت من باب الكهف ، فالتفت الجميع نحوه ودخل
الفارس بسام وهو يقول :

— لقد اختفى الدرويش الصالح ايها الفارس الغريب ، ولم

نعثر له على اثر ..

قال الزبيق :

— كنت اتوقع هذا ، وماذا من معركتكم داخل المدينة .

قال الفارس بسام :

— ابدنا الشعب كله ، وما زلنا نحاصر قائد الحرس ورجاله

الذين يقاتلون فى خراوة .. ولكننا سننتصر .

قال الزبيق :

— لن نحتاجوا لنا .

قال الفارس بسام :

— نحن كفيلون باعدائنا ، وسننتصر ، فقط جئت اخبرك ان كل

المحاولات التى بذلت للبحث عن الدرويش الصالح باءت بالفشل .

قال الزبيق :

— هذا ما توقعت .. امض الآن الى مدينتك ، واخبرنى بكل

ما يستجد من أحداث ..

ثم التفت الى لوميا قائلا :

— اذهب واخضر مونجو ورجاله من الكهف المغلق عليهم .

انصرف الفارس بسام مسرعا نحو المدينة ، بينما قال الزبيق :

— طالما دليلة طليقة ، فنحن بعيدون عن اى نصر .

وقال السلطان قاسم :
- الدرويش الصالح وعدنى بالنصر وهو كفىل باحرازه رغم كل
القيود التى تحيطونى بها ..
وفجأة عاد لومبا صارخا وهو يقول :
- لقد اختفى مونجو وعصابته ، الصخور حول الكهف اختفت ،
و حين دخلت الكهف وجدت قيودهم ممزقة ، ولم أجد واحدا منهم .
صاح الزبيق :
- هذه دليـلة .. دليـلة المحتالة ، أطلقت سراحهم .

كان يعرف أنك الزبيق

ساد الصمت الكهف ، والكل قد وجم في ذمول ، وقطع الصمت
ضحكة السلطان قاسم ، وهو يقول :
- قلت لكم نحن لا نقهر ، أنتم كتبت عليكم الهزيمة ، نحن لنا
الغلبة ..

صاح لومبا :

- أسكت .. ولا تتكلم .

بينما قال مافى :

- كيف تخلصوا من قيودهم ، هذا شيء محير .

قال حسن بن الحصرى فى تؤده :

- ما دامت دليلة فى هذا المكان ، فلا شيء مستبعد ، فلا يعرف

أحد كيف تعرف دليلة الحقائق ، ولا كيف تنفذ دليلة مآربها من خلال
الحقائق ، فتفعل ما تشاء .

قال الزبيق :

- ماذا يا حسن ؟ هل فقدت ثقتك فى ؟

قال حسن بن الحصرى :

- أذهلنى خلو الكهف من المأسورين فيه .

قال الزبيق :

- لقد جعلنا هذا نعرف عن يقين ان عدونا هو دليلة المحتسالة

وليس غيرها ..

فجأة ارتفعت ضحكات السلطان قاسم ترج الكهف كله - ووجم

الجميع ، وصمتوا ثم قال السلطان :

- أنتم مجرد أفراد لا قيمة لكم .. أما دليلة فهي القوة فوراءها

الافرنج ووراءها العجم معا نعم هي دليلة .. لو انا منكم لاستسلمت ،

وطلبت النجاة والسلامة ، وأنا مستعد أن أتوسط لكم لتنجوا بانعناقكم

وعاد يضحك من جديد حتى هب حارس الحصرى من مكانه فى

عصبية وهو يقول :

- مأسكت صوت هذا الكلب .

قال الزبيق :

- بل أتركه فنحن نعرف منه ، ومن عوالة الكثير .

ثم التفت الى قاسم السلطان فى قيوده وتعاسته ، وسأل :

• والى أى حد سيساندك والى مصر أيها السلطان قاسم .

ضحك السلطان قاسم فى عصبية وهو يقول :

• ألم يقل لى الدرويش الصالح ، الوالى سيساعدنى الى أبعد حد ،
فهو ليس وحده فى هذا ، هناك ولاية كثيرون معه . ويوم ننقض كلنا
على الخليفة لن يبقى لبغداد أحد ، حتى بغداد نفسها فيها من سيقوض
تماسكها من داخلها نفسه . . كل شيء محسوب وموقوت . . وأنتم
تلعبون فى الوقت الضائع ، استسلموا تسلموا ، وسأعفوا عنكم ،
وأضمن لكم عفو الوالى نفسه ، فقط فكوا قيودى ، وسأقودكم الى النصر
ونظر كل منهم الى الآخر فى حيرة - هذا رجل مهزوم ، مقيّد ،
محاصر داخل كهف فى الجبل ، ومع هذا فهو يتحدث عن النصر ، ويحلم
أن يقودهم . . وهو حتى لا يعرف من هم . . قال حسن الحصرى وهو
يتنهد :

• كلهم من عجينة واحدة . . القصصون فى النظر ، والفائدة
الشخصية ، وتضخم الذات واحساس العظمة والسيطرة .

ثم توقف عن حديثه ، والتفت الى الزبيق فى عنف وهو يقول :

• متى تتركنى أجز رقبتك ؟

قال الزبيق :

• حتى نسترد موانجى وعصابتك ، ونعرف أين دليّة ، وحتى ندير
تحقيق الامان للمدينة المرصودة ولا ميرتها زينب بنت السلطانة .
قال لومبا :

• وكلنا سنعرض لخطر الموت . . ولكن دليّة التى اخرجتهم من
الكهف لن تقف عند هذا الحد ، فلها خططها الاخرى ، وأخشى أن يكون
فى مخططها خطف الاميرة زينب بنت السلطانة ، وحملها الى الملك
سلطان .

قال حسن بن الحصرى :

• لقد قال هذا السلطان كل مانود معرفته حتى دون كلمة تهديد
واحدة منا وهو يعنى ان المؤامرة كبيرة ، وان معرفتنا بها خطر علينا
وعليهم فنحن ايضا مستهدفون - فنحن نعرف أكثر مما ينبغى . .
قال لومبا :

• الملك سلطان ملك بحر الفزال لن يهدأ له بال حتى يقضى علينا
أنا وما فى لاننا فشلنا فى مهمتنا ، ولاننا نعرف أكثر مما ينبغى كما
تقول أيها الفارس لا عن وضاعته الشخصية وحسب ، وانما عن قامره
على الاسلام والمسلمين كذلك .

قال الزبيق :

— بعد اختفاء موندجو ورجاله لا بقاء لنا هنا ، فلنحمل أمتعتنا ونرحل الى مكان آخر .

قال حسن بن الحصري :

— الى أين يا علي ؟

وقبل أن يكمل سؤاله .. قطع عليهم الحديث صوت صاغر من فتحة الكهف ينادى عليهم .. وحين اندفعوا الى خارج الكهف ، كان الوزير مروان يركب على فرس اشهب ، ووراءه كوكبة من الفرسان ، وكان يشير اليهم اشارة الامان ويقول :

— لقد استتب لنا الامر في المدينة المرصودة ايها الفارس ، وهرب قائد الحرس ورجاله ، وترجو الاميرة أن تحضر أنت ورجالك الى المدينة لتشهدوا الاحتفال بأعياد تنصيبها سلطنة على المدينة .

وصاح ماني في فرح :

— اذن انتصر الحق .

وقال لومبا :

— ستغفر لنا السلطنة دورنا في مؤامرة خطفها ؟

قال الوزير مروان :

— لقد أصدرت عفوا عنكما .. وعن كل من أساء اليها — والان هيا معي الى المدينة .

قال الزبيق :

— نذهب معك ، ولكن السلطان يبقى هنا .

قال الوزير مروان :

— بل لا بد لنا من السلطان قاسم لحاكمته أمام الجماهير ، واعداده ضحك على الزبيق وقال :

— ان ما لدى السلطان من معلومات تهم الخليفة في بغداد اكثر مما

تهمكم هنا ، اما مسألة اعدامه فهي متروكة لعدالة الخليفة وحكمته .. اخر الامر ايها الوزير مروان لا سلطان لكم عليه طالما هو أسيرى ، فانا من رجال الخليفة ، وأسيرى هو أسير الخليفة .

قال الوزير مروان محتجا :

— لقد ارتكب من الجرائم مالا بد من محاسبته عليها في المدينة

المرصودة ..

قال الزبيق :

— هذا صحيح . ولا ينكره أحد — ولكن لو أسلمناه اليكم

لا نستطيع بعدها أن نعرف منه حقيقة التآمر على الخلافة وعلى وحدة المسلمين وأمنهم ، وكذلك نحن نريد باقى الشركات ، أسماء باقى

المتأمرين ، فان كان هذا السلطان قد وقع في أيدينا وعزلتموه ، فلن
غيره من الخونة مازال يرتع في بحبوحة من السلطة والنقوذ .
تنهد الوزير مروان وهو يحرك مقود فرسه ويومئ برأسه
الاشمب الى حيث تكوم الاسير ، وقال :
- سأترك هذا الامر للأميرة تقرر معك ، وهو الآن على عهدتك ،
وستقدمه اليها ان ارادت وقت أن تريد .

قال الزيبيق في ارتياح :
- نعم القرار أيها الوزير مروان .
قال حسن بن الحصرى :
- ومن الذى يبقى معه لحمايته ، فبعد سرقة مونجو وعصايته من
الكهف الاخر لا امان هنا .
قال لومبا :

- سأحرسه أنا ومافى ، فوجدونا في المدينة سيذكر الاميرة
بالاوقات السوداء التى قضتها في صحبتنا وصحبة مونجو ورجاله ،
وكفى انها عفت عنا ، فلا داعى لنعكر صفوها في يوم نصرها بوجدونا .
قال على الزيبيق وهو يتجه الى جواده يسرجه :
- اذن اذهب أنا والمقدم حسن بن الحصرى .
وهنا أشار الوزير مروان الى أحد الفرسان فترجل عن جواده ،
وقدمه الى المقدم حسن ، بينما ركب هو خلف أحد الفرسان الاخرين
جواده . وقال الوزير مروان :
- هيا بنا فالمدينة المرصودة تريد أن تشاركما معها في افراحها .

كان دوى الطبول يصلهم من بعيد ، مصحوبا بلق الدفوف ،
وصليل الصنج ، وصيحات الابواق ، وضجة الجماهير وصخبهم .
وكانوا كلما ازدادوا قربا من المدينة ازدادوا ادراكا لمدى الفرحة التى
عمت أهالى المدينة المرصودة . . . وحين ازداد اقترابهم من الوادى
شاهدوا الزينات والاعلام وهى تعلو سور المدينة وتبدو من البوابة
المفتوحة تزين الدور والمباني ، وقال حسن بن الحصرى وهو يخب
بجواده الى جوار الزيبيق والوزير مروان :
- هذه فرحة حقيقية ، هل يحب أهل المدينة الاميرة زينب كل
هذا الحب . .

قال الوزير مروان وهو يعبث في لحيته الشهباء :
- هذا جانب ، والجانب الاخر انهم كانوا يكرهون السلطان قاسم
كراهية عميقة ، ولكنها كانت مكبوتة في الصدور ، محبوسة في

القلوب ، فلما زال سلطانه ، انفجرت هذه الكراهية تعبر عن نفسها في هذه الفرحة الغامرة ..

وقال الزيبيق ، وهو يجيل بصره حوله :

— وما أخبار دليلة ، أعنى الدرويش الصالح ..

ضحك الوزير مروان وهز كتفيه ، وهو يقول :

— مازال البحث دائرا عنه ، أعنى عنها ، فلم يجدها الفرسان في

المسجد الصغير في نهاية المدينة ولا في أى مكان آخر ، والفرسان

ينقبون المدينة كلها بحثا عن درويشك الصالح هذا .

قال حسن بن الحصرى في مرارة ، وهو يرت على عرف جواده :

— ولن يعثروا لها على أثر ، فاذا كان الزيبيق اشتهر بأفلاته من

الشراك ، فدليلة لا تقل عنه مهارة وحيلة .

قال الوزير مروان :

— الزيبيق ؟ .. وأين منا الزيبيق الان ؟ ..

التفت حسن بن الحصرى الى الوزير مروان في دهشة وهو يقول

مشيرا الى على :

— كل هذا ولا تعرف ان هذا الفارس هو على الزيبيق ؟

وجم الوزير مروان ، وأوقف حصانه ، فتوقف الراكب كله ،

وجعل يتأمل في الزيبيق وعلى وجهه ترسم تغيرات مضحكة .. ثم

قال في تردد :

— أنت .. الزيبيق ؟ .. كان يجب أن أعرف ، فهذه أصـال

لا يستطيع الاتيان بها الا الزيبيق نفسه ..

ثم ضحك فجأة ، وهو يهز رأسه فتهتز معها لحيته ، والكلمات

تتلاحق على شفـته وهو يقول :

— اذن فهذا هو السر .. اذن فهذا هو السر .. كان السلطان

يعرف ، مؤكدا كان يعرف .

عبس الزيبيق ، وهو يهدى من حركة جواده الذى يريد أن يعاود

السير ، وقال :

— أى سر ، وماذا كان السلطان يعرف ؟

قال الوزير مروان ، وقد تمالك نفسه :

— كان هناك من حذر السلطان قاسم بأن عيارا من مصر اسمه على

الزيبيق شديدة الحيلة والخطورة سيأتى الى المدينة ليحصل على صندوق

التواجيه .. وقد حذر قائد حرسه منه ، وبث العيون والأرصاد

لترقبه ، فقد كان المطلوب منه أن يقضى عليه فور اكتشاف أمره ، ولا

يمهله لكى يمارس حيله وملاعبته ..

قال حسن بن الحصرى :

.. لعلها دليلة أو الدرويش الصالح كما تسمونها .

هز الوزير مروان رأسه نافيا وهو يقول :

.. لا ، كان هذا قبل وصول الدرويش الصالح الى البلاد .. ولكن

المؤكد ان الدوريش دله على حقيقة شخصيتك يوم عدت بالاميرة ، ولهذا

فقد حاول بكل الوسائل ان يقلب الناس عليك ، وأراد اعتقالك رغم

ما قدمت للاميرة من خدمات ، وقد أدهشنى موقف السلطان غير المفهوم

يومها .. اما الآن فقد ظهر السبب ، فقد كان يعرف أنك الزبيق ..

وتذكر الزبيق تلك الهمسات التى كان الدرويش والسلطان

يتبادلانها يومئذ ، وفهم سر اشارات الدرويش الغامضة ، وسر موقف

السلطان المحير ، فهز رأسه وقال :

.. صدقت فى هذا أيها الوزير مروان ، السلطان كان يعرف ،

أخبرته دليلة يومها .

هز الوزير مروان لجام فرسه ، واستأنف السير والى جواره

الزبيق وحسن بن الحصرى ووراءه الفرسان عابرا الميدان الصاخب

بالمبتهجين الفرحين من أهل المدينة ، ومقتربا من سور المدينة وبابها

المفتوح .. وتعرف الكثيرون على الوزير مروان فصاحوا يحيسونه ،

وتعرف اخرون على الزبيق وعرفوا فيه منقذ ملكتهم فتعالى الهتاف

تحية له ، وتعرف بعضهم على حسن بن الحصرى باعتباره الفارس الذى

دوخ رجالهم فى قتال مر ، انتهى بانطلاق الشياطين المضيفة الملونة فى

السماء .. وكان الركب كلما تحرك ازداد المنضمون اليه والساثرون

وراءه ، كما ازداد صياح أهل المدينة وجلبتهم حتى تحول الركب الى

مظاهرة حماسية صاخبة .. وضحك الوزير مروان وهو يقول مبتهجا:

.. لم يحدث فى حياتى قط أن حظيت بمثل هذا الاستقبال

الحماسى ..

قال الزبيق وهو يضحك :

.. لم يحدث قط أن كنت بطلا شعبيا قبل الآن .

وكانوا يجتازون البوابة وسط الجمع الملتف حولهم ، فعاد الزبيق

يضحك وهو يقول :

.. لم ينفخ الطلسم فى البوق ، ونحن غريبان ..

ابتسم الوزير مروان وهو يقول :

.. لم تعودا غريبين على الطلسم فقد سبق لكما دخول المدينة .

ثم لوح بيده ناحية القصر وقال :

.. الاميرة تنتظرنا ، لابد ان كل هذه الضجة قد أنباتها بقدومنا ..

والتفت الزبيق ليرى الاميرة زينب فى أحسن زينة ، وقد عكست شعرها الكث فيما يشبه التاج ووضعت فوقه حلية مذهبية مليئة بجواهر لامعة ، وكانت تنظر نحوه بعينيها الواسعتين العميقتين ، وفيها تلك النظرة التى أصبح يخشاها ، والتفت على صوب الوزير مروان وهو يقول :

— وعلى كل حال فالرصد مشغول هذه الايام ، وبالامس فقط نفخ فى بوقه من جديد .

نظر اليه الزبيق فى حدة وقال :

— معنى هذا وجود غريب جديد فى المدينة .

قال الوزير مروان ، وهو يوقف جواده ويترجل ، ايدانا بوقوف الجميع وترجلهم :

— نعم ، يزورنا هذه الايام طبيب أفريقى ..

قال حسن بن الحصرى وهو يربط مقود جواده الى المريض العام الذى أقيم الى ناحية من مدخل القصر :

تعنى ساحرا ..

ضحك الوزير مروان وهو يقول :

— الساحر الافريقى يقوم هذه الايام بمهمة الطبيب بعد أن بدأ

الناس يستغنون عن خدمات السحرة ..

وترجل الجميع عن جيادهم وربطوا خيولهم الى المريض ، بينما قال الزبيق :

— حدثنى عنه ..

وقبل أن يجيبه الوزير مروان ارتفع صوت الاميرة بالترحيب ، واندفع الفارس بسام يصافح الزبيق ويرحب به وبالمقدم حسن بن الحصرى ، وتقدمتهم الاميرة الى القاعة ، فاضطروا الى السير وراءها فى صمت .. ولاحظ الزبيق تغيرا كبيرا فى القاعة التى سبق له أن دخلها ، فقد ازدانت ، وامتلأت بالورود والرياحين ، وظهرت مجموعة من الوصيفات يحطن بالعرش الذى وضعت أمامه منضدة صغيرة فوقها وسادة من المخمل الاحمر ، عليها صولجان ذهبى مرصع بالدرر واليواقيب ، وكان الرجال يرتدون افخر الملابس ، وبدأ القاضى بينهم يختال بعمامته الضخمة وجبته الواسعة وهو يحمل فى يده لفافة كبيرة مربوطة بشريط حريرى ، وقد أحس بأهميته فى هذا اليوم المميز ، وحين دخلت الاميرة ومن معها القاعة ساد الصمت لحظة ، ثم اندفع الجميع بصوت هادر يحيون الاميرة وينادونها بلقب السلطانة ، واصطف الفرسان صفين مرت من بينهما الاميرة ومعها الوزير مروان —

ويتبعها الزبيق وحسن بن الحصري . فأشارت الى الوزير مروان ليكون الى يمينها ، كما أشارت الى الزبيق ورفيقه ليكونا الى يسارها ، ووقفت هي أمام العرش في صدارة القاعة .. ثم رفعت ذراعها ، فعاد الصمت ليسود من جديد .. وقالت :

— يا أهلى وأحبتى منذ توفيت أمى وأنا أتوق الى هذا اليوم الذى أجلس فيه مكانها ، لأحكم كما كانت تحكم بالعدل والمحبة ، ولأحقق لكم الرخاء والأمان ، ولأثبت معكم معنى العزة والكرامة التى هي سمة أهل المدينة المطلسة التى لا يدخلها غريب حتى لا يفسد فيها ، وحتى لا يفسد على أهلها ما تعودوه من تسامح ومحبة . وعادت القاعة تهدر بالتصفيق والتهتاف ، وعادت الأميرة ترفع ذراعها ليسود الصمت مرة أخرى ، والتفتت الى يمينها مشيرة الى مروان ، وقالت :

— منذ شببت وكان الوزير مروان نعم الأب لى ، وبديلاً عن الأب الذى لا أذكره إذ مات قبل أن أعرف التمييز بين الناس والأشياء ، ثم تولانى برعايته بعد أن ماتت أمى السلطانة كوثر رحمها الله ، ولا أعرف ماذا كنت سأفعل ، وماذا كان سيكون مصيرى لو لم يكن الوزير مروان الى جانبى يجنبنى مؤامرات السلطان المقتصب الذى كان يتظاهر برعايتى بينما هو يسعى لإبعادى عن عرشى ، واغتصاب حقوقى .. وارتجفت كلماتها ، وغصت بالدموع .. وكادت تبكى ، فمسد الوزير مروان يده القوية يمسك بيدها ويربت عليها فى حنان ، بينما تعالت التهتافات فى القاعة بحياته .. ثم التفتت الأميرة الى يسارها ، وأشارت الى الزبيق قائلة :

— وهذا الفارس الغريب تعرفون جميعاً فضله على ، وقد أخبرتكم من قبل أنه حمائى من مصير رهيب كان يعده لى مونجو وعصايتته بالتآمر مع ملك بحر الغزال الملك سلطان ، وبالتآمر مع السلطان الغادر المخلوع ..

وأرتفعت التهتافات من جديد لعلى الزبيق وللأميرة التى قالت : — أحببت أن أذكر لكم فضل أصحاب الفضل قبل أن تبدأ مراسم تنصيبى على عرشى ..

ثم أشارت بيدها الى القاضى .. الذى تقدم مسرعاً حتى وقف أمامها وبسط اللقافة التى كانت بيده بعد أن أزال شريطها الحريرى ، ومضى يقرأ منها بصوت جهورى رتيب ، وكان ما يقرؤه سلسلة نسب السلطانة منذ البداية البعيدة لعرش السلطنة وحق أمها السلطانة كوثر .. ومضى على الزبيق يدير عينيه حوله يتفحص الوجوه ، ولا يدرى ممن كان يبحث ، ولكنه مضى يقف عند كل وجه متأملاً .. سائلًا نفسه

هل هو من وجوه أبناء المدينة المرصودة ، أم أن ملامحه تشي بأنه غريب .. وأدرك أنه يبحث عن وجه دليلة بين هذه الوجوه المحتشدة ، وفجأة وقف عند وجهه في آخر القاعة ، شديد السواد ، غريب الملابس ، كثيف الشعر متهدله فوق الكتفين ، وعلى الصدر قلادة من عظام ، وفي اليد صولجان غريب الشكل ، وعلى الصدغ وشم لثعبان ، وعند الشفتين أصباغ قاتمة .. ولكنزه حسن بن الحصري وهمس في أذنه ، وعيناه على نفس الوجه :

— الساحر الأفريقي ..

هل هو وجه دليلة ، ولكن دليلة أطول قامة من هذا الرجل ، حقا في الملامح شيء مألوف ، ولكنه بالقطع ليس وجه دليلة .. وأفاق على صوت القاضي الرتيب وهو ينهي حديثه قائلا :

— والآن يا سليلة ملوك وسلاطين وملكات وسلطانات هذه المدينة وقد بلغت سن الرشيد آن الاوان لتتحلى مسئولياتك ، وتقسمي بواجبك الذي أهلك ميراثك الشرعي أن تقومي به .. فأقسمي هنا على هذا المصحف الشريف أن تطيعي الله والرسول ، وأن تحكمي بما أنزل الله ، وأن تراعي الله في رعيته ، وهم أمانة في عنقك الى يوم الدين . ومد يده بمصحف صغير فوضعت الاميرة يدها عليه ، ومضت تردد القسم حتى اذا ما انتهت منه ، صاح القاضي :

— الان أعلنك سلطنة على المدينة المرصودة باسم السلطنة زينب بنت السلطنة كوثر والله شهيد على ما أقول ، وأقرأوا الفاتحة . ومضى يردد آيات سورة الفاتحة ، والاميرة ترددها وراءه ، ومن في القاعة كلهم يرددونها وراءها حتى اذا ما انتهى منها وصاح :

— آمين .

تعالى الهتافات بحياة السلطنة ، ومد القاضي يده الى الصولجان الذهبي فأسلمه الى الاميرة ، التي تناولته من يده وجلست على عرشها في وقار وتؤده .. وهمس حسن بن الحصري في الحاج في اذن الزبيق :

— قلت لك هذا هو الساحر الأفريقي .. اليس هو دليلة ؟

همس الزبيق قائلا :

— لا ، ليس هو دليلة ، ولكن لاتدع عينك تسارقه لحظة فقلبي يحدثنى أن وراءه أمرا هاما ..

وقالت السلطنة زينب للزبيق :

— والآن ايها الفارس الغريب تمن ما تشاء فمن سلطاني الان ان ألق لك ما تطلب .

قبل أن يجيبها الزبيق ، ضحك الوزير مروان وقال :
- الفارس الغريب ، الا تعرفين من هو هذا الفارس الغريب
قالت السلطانة :

- اعرفه متقدما لي وفارسا شهما .

قال الوزير مروان :

- هذا على الزبيق الذي حفرنا السلطان قاسم منه ، ورصد

الحراس للبحث عنه والترصص به .

صاحت السلطانة زينب :

- الفارس على الزبيق المصري ، كان يجب أن أعرف هذا وحدي .

ثم أطرقت براسها لحظات ، وعادت تقول :

- فطلبك أيها الفارس الجزيرة المسحورة وصندوق التواجي ؟

قال على الزبيق :

- فقد عرفت ما جئت من أجله .

قالت السلطانة زينب وهي تثتهد :

- ان كان هذا هو كل ما تريده من بلادنا ، فلك ماتريد ، وقد

سمحت لك بعبور بلادنا الى الجزيرة امنا ، فان نجحت في الحصول

على بغيتهك فهي لك لا يعارضك فيها احد .

الفارس الوحيد

قال الوزير مروان معقبا على كلام السلطانة زينب لعل الزبيق :
- نعم الموقف ما ارتأيته أيتها السلطانة ، فالزبيق قد اكتسب حق
الحصول على ما يريد ، حين أنقذك من غائلة المتآمرين والصوص ..
وامتلأت القاعة بصيحات التأييد والموافقة ، وابتسمت السلطانة
زينب ابتسامتها الغامضة وقالت :

- نحن نوافق على طلبات الزبيق بشرط .
وساد الوجوم لحظات ، حتى عادت السلطانة زينب تقول :
- حين يعود الفارس على الزبيق من الجزيرة المسحورة سالما ومعه
صندوق التواجية . يظل هنا في المدينة المرصودة شهرا كاملا ، حتى
نتمتع بالصندوق قبل مغادرته بلادنا الى الأبد ..
ودهر على الزبيق من هذا الطلب القريب ، وأحسن بحسن بن
الحصرى يلكره في جنبه وهو يهمس له :
- ما معنى هذا ؟

وقبل أن يجيب الزبيق التقت عيناه بعيني الساحر الأفريقى
القاهرتين ، كانتا كأنهما تبحثان عن عينيه عن عمد .. ووجد على
الزبيق نفسه منجذبا الى هذه القاهرة ، وكان في العنين رسالة تحاول
أن تصل اليه . ولم تكن الرسالة عدائية ، ولم يكن الزبيق يحس
بكرهية أو عداة تجاه هذا الانسان الشديد السواد ، والكثيف الشعر ،
صاحب القلادة المليئة بالعظام ، والصولجان القريب المزركش للملء
بالاشياء الصغيرة المعلقة فيه ، فقط كانت هناك رسالة ، وكان لابد أن
يفهمها .. وعاد حسن بن الحصرى يلكره في جنبه مرة أخرى وهو
يهمس :

- انظر السلطانة والوزير يتهايمان ، لا اظن همسهما هذا سينتهى
على خير لنا ..

هز الساحر الأفريقى رأسه ، وفجأة فهم الزبيق الرسالة ، انه يحثه
على الموافقة ، ولكن لماذا ؟ وماذا يهم هذا الساحر الأفريقى من أمره ؟
وكيف يحس بالف غريب نحوه ؟ من هو ؟ وما رسالته هنا ..
وسمع نفسه يقول في صوت مرتفع :

- اوافق أيتها السلطانة على شرطك . يبقى صندوق التواجية بعد

حصولي عليه في مدينتك شهرا ، فهذا حقك ، وحق المدينة التي
حرمته كل هذه الاعوام ..

وابتسمت السلطانة ، ونظرت حيث يقف الزبيق وقالت :

.. حسن هذا امر انتهينا منه ، ولكن بقي لي طلب آخر ..

واحس الزبيق بلكزة حسن بن الحصرى تكاد تخرق جنبه ، وسمعه

يهمس في الحاج :

.. في الامر شيء ياعلى فانتبه .

قال على الزبيق همسا :

.. بعد كلمات السلطانة ، واضح ان في الامر شيئا ..

قال حسن بن الحصرى بنفس الصوت الهامس :

.. انه الوزير مروان ، كان يهمس لها طول الوقت ..

قال على الزبيق في حيرة :

.. ولكن الوزير مروان في صفنا يا حسن ..

قال حسن بن الحصرى في الحاج :

.. لا يعني من في صف من ؟ ولكن الذى يعنينى انه لم يرد

بهمساته للسلطانة خيرا ، واظنك تذكر جدله لك في الكهف حول قاسم

السلطان السابق ..

وكانما كان حسن بن الحصرى يقرأ ما في ضمير السلطانة ووزيرها

من كتاب مفتوح ، اذ سرعان ما ايدت كلمات السلطانة شكوكه ومخاوفه :

اذ قالت :

.. نريدك ان تسلم لنا سلطاننا المخلوع ليحاسب على وحشيته

وقسوته ، وخيانتة للامانة ومؤامراته العديمة على ، والتي كان آخرها

ما دبره هو والملك سلطان ملك بحر الغزال لابعادى عن سلطنتى الى

الايد .

قال حسن بن الحصرى :

.. ماذا قلت لك ؟

قال الزبيق همسا لحسن بن الحصرى :

.. كان علينا ان نتوقع هذا .

ثم قال بصوت عال موجها حديثه الى السلطانة والوزير :

.. ولكن السلطان السابق اسيرى ، ولانا وحدى املك الحق في

تحديد مصيره

وثب الفارس باسم ، فاذا هو امام عرش السلطانة ، وكانت يده على

مقبض سيفه وهو يقول :

— وانت وصديقك الآن أسيرا السلطنة .. لا تنس هذا . ولن
تستطيع هذه المرة أن تقفز لتضع سن سيفك على رقبة أحد ..
مد حسن بن الحصري يده الى مقبض سيفه ، فامتدت يد الزبيق
لتستقر فوق يده مانعا اياه من سحب سيفه من قرابه ، وقال في هدوء
موجها حديثه الى السلطنة :

— لست أظن ان المسألة قد وصلت بنا الى هذا ..
ثم نقل بصره بين السلطنة والوزير والفارس باسم ، وقال في
لهجته الهادئة :

— نحن أصدقاء فيما أحسب ، ولسنا أعداء .
قالت السلطنة وقد احمر وجهها خجلا :
— صدقت أيها الفارس على ، نحن أصدقاء .. ونحن لا ننسى
فضلك ..

ثم التفتت الى الفارس باسم غاضبة وهي تقول :
— ما معنى هذا أيها الفارس باسم ؟
في صعوبة شديدة تملك الفارس باسم نفسه ، وبيضاء شديدة
أعاد سيفه الى قرابه ، وهو لا يحول نظره عن الزبيق الذي كان يبتسم
ابتسامته الهادئة .. بينما قال الوزير مروان ، وهو ينتقى كلماته في
بطء وعناية :

— هذه المدينة لا تستطيع أن تتنازل عن ضرورة محاكمة الطاغية .
لقد ساهمت حقا في خلعه ولكننا أيدناك وحمينناك . ولن نأمن على
أنفسنا الا اذا احكمنا قبضتنا عليه .. وليس هناك عداء بيننا وبينك ..
فاسلمنا السلطان المخلوع تسلم ، وتحصل على صندوق التواجية
وترحل في سلام ..

وكانت عينا الزبيق تجولان في الجموع بحثا عن الساحر الافريقي ،
ولكن لم يجده ، كان قد ذاب في وسط الجموع واختفى .. وهز كتفيه
في حيرة .. بينما شعر بحسن بن الحصري يطلق زفرة ارتياح طويلة
وسمعه يهمس في أذنه :

— كنا قريبين جدا من النهاية ، وما كانت ملاعبك تفيدنا هنا في
شيء ..

همس الزبيق وهو ما يزال يبتسم :
— صدقت ، ولكنهم لا يعرفون هذا ..
وعاد الوزير مروان يقول في نفس الصوت المتشد :
— نحن لا نقصد اغضابك أيها الفارس على ، ام اسميك بالمقسم
الزبيق ؟ ..

وضحك ضحكة مفتعلة لم يشاركه فيها أحد .. وسعل عدة مرات ، وهو يتلفت حوله فى حرج ، ثم عاد يقول :

- لو كنا نريد مضايقتك لاحتجزناك هنا ، بينما نقبض على السلطان ، ونأتى به من الكهف الذى قيسده فيه ، ولكننا كما ترى نحاول أن نقنعك بتسليمه بنفسك لنا ..

وهمس حسن بن الحصرى :

- ان هذا الكهل الاشيب مليء هو نفسه بالملاعيب والخدع .

قال الزبيق موجه حديثه للسلطانة زينب :

- لم يكن قصدى تحدى ارادتك ايتها السلطانة ، ولكن ما لدى قاسم من معلومات تهمنى وتهم رجال الخليفة ، فهو قادر على ان يكشف لنا خيوط مؤامرة دنيئة هو أحد أطرافها ، ونريد ان نعرف باقى الاطراف قبل ان يستفحل الامر ، ويخرج عن طاقة ردعه ..

ابتسمت السلطانة لأول مرة ، ولعت عيناهما الواسعتان الجوهريتان ، وقالت :

- نعدك ان تحصل على ماشئت من معلومات ، قبيل ان ننفذ حكم العدالة فيه .

هز الزبيق كتفيه استسلاما ، وقال :

- لم يعد امامى الآن خيار ، سأذهب انا والمقدم حسن لاحتضار السلطان المخلوع .

تقدم الفارس باسم الى الامام خطوة ، وقال فى تحد :

- بل سأذهب انا والفارسان لاحتضاره .

قال الزبيق محتجا :

- ولكن ما فى ولومبا سيقاومانكم لو ذهبتم من غيرى ..

ضحك الفارس باسم فى استهزاء وقال :

- وهل نخشى بأس فارسين اثنين ؟

تدخل الوزير مروان قائلا فى صوته الوقور المتأنى :

- لسنا نريد سفك الدماء .. فلو أعطيتنا سيفك لنريه لهما

لاقتنعا انك تريد تسليم السلطان المخلوع لنا ، ولسلماه دون قتال ..

ضحك الزبيق فى سخرية وهو يقول :

- لا اظن اننى سأسلمك سيفى ايها الوزير الطيب .. ولكن

ما تقوله صحيح . ولهذا سأعطيك صديقى المقسم حسن لينهب مع

فرسانك ، وهو كاف ليلفهم رسالتى بتسليم قاسم ..

صمت الوزير لحظات يعبت فيها فى لحيته ، ثم قال :

- لا اظن اننى احبذ ذهاب المقدم حسن ، فسيصبحون ثلاثة فى مواجهة فرساننا لا اثنين ، وضحك ضحكته الجوفاء ، وعاد يقول :
- ثم اننا راينا قتاله ، ولسنا نظن اننا نحب أن نتعرض له مرة أخرى ، وخاصة وأنه ينهى معاركه باستدعاء البرق والرعد ، والشياطين الملونة تملأ السماء وتتساقط فوق الجنود كالشهب الالامعة .. لا .. يا مقدم على .. ابحث عن بديل آخر ..

توترت عضلات حسن بن الحصرى ، وعاد يمد يده الى مقبض سيفه ، وعاد الزيبق يضع قبضته فوق كفه يمنعه من تجريده ، وتنهد وهو يقول :

- أنت لا تترك لى خيارا أيها الوزير .. وأنا لا أستطيع ان أعطيك سيفى ، ولكنى سأعطيك خنجرى بدلا منه فهما يعرفانه ، اذ به قطعت قيودهما ، وقيود السلطانة ..

واحمر وجه السلطانة ، وهو يخرج خنجره ويسلمه الى الوزير مروان ، الذى أسلمه بدوره الى الفارس باسم ، قائلا :
- حاول أن تحضر السلطان المخلوع دون معركة ، فليس بيننا وبين الزيبق دماء مسفوكة حتى الآن ..

تحدث حسن بن الحصرى لأول مرة بصوت عال قائلا :
- لو سفكت أى دماء فلن نكون نحن السبب فيها ، وعلى من يؤدى الى سفكها ان يتحمل تبعتها وحده ، ولا يلومنا أحد ..
احمر وجه الفارس باسم وقال فى غضب :
- هل هذا تهديد ؟

قال الزيبق فى ابتسامته الهادئة التى اصبح الكل يعرفونها ، ويخشونها معا :

- هو تحذير ايها الفارس باسم .. هو تحذير ..
وضحكت السلطانة وهى تصفق بيديها ، وتقول :
- هذا حفل فرح وبهجة ، فهيا ايها الفارسان خذا اماكنكما أمام الطعام ، وليبدأ العزف والغناء احتفالا بتتويجى على عرش السلطنة ..
وبينما انصرف الفارس باسم ورجاله ، انطلقت فى القاعة أصوات عزف موسيقى بديع ، وخرجت فتيات يحملن الورود والرياحين ، ويرقصن على الايقاع ، بينما دخل القاعة مجموعة من الخدم يحملون أواني الطعام يضعونها أمام مجالس القوم فى أنحاء القاعة المختلفة ..
واختفى الجو القلق المتوتر من القاعة ، وتعالى الضحكات هنا وهناك ، وأشارت السلطانة الى مكان قريب منها زخر باطياب الطعام والفاكهة

وزين بالورد ليجلس الزبيق وصديقه ، وأخذ الاثنان مجلسهما على صمت ، وهما يدوران باعينهما في أرجاء القاعة ، وكل مافيها من مظاهر البهجة والفرح لا يدخل الطمانينة الى قلوبهما .

قال حسن بن الحصرى وهو يمد يده الى الطعام الشهى أمامه :
- لقد تذكرت الان اننى لم آكل من زمن طويل ، وهذه فرصة لن أدع القلق يحرمنى فيها من سد جوعى واشباع معدتى ..
ضحك الزبيق وهو يمد يده بدوره الى الطعام :
- الدرس الأول الذى تعلمته فى دنيا ، الفتوة ، أن تأكل حين يتاح لك الأكل فلست تدري اين ولا متى ستجد الطعام ، ولا الوقت الكافى لالتهامه .

قال حسن بن الحصرى ، وهو يبتلع ما فى فمه ، ويمد يده الى الصحون مرة أخرى :
- هذا درس مفيد لم يلقنه لى أحد من قبل ، ولكنى سأحفظه عنك من الآن .

ضحك الزبيق وهو يرفع كوبا مليئا بالعصير فيفرغه فى جوفه وقال :

- وستجد انه درس عام حين ينسبك الخطاسر مجرد التفكير فى البحث عن الطعام .

قال حسن بن الحصرى :

- كنت أظن ، وزير مروان فى صفنا :

ضحك الزبيق وقال :

- هو فى صفنا ..

كف حسن بن الحصرى عن التهام طعامه ، وقال فى دهشة :

- كيف يكون فى صفنا ، وهو يكاد يسلمنا الى الموت بحديثه

الوقور الخبيث ؟

عاد الزبيق الى ضحكك ، وقال :

- هو فى كل صف يحفظ له نفوذه ومكائنه ، كان فى صف

السلطانة كوثر حتى ماتت ، ففدا فى صف السلطان قاسم حتى بلغت

الاميرة زينب من الرشده ، وهو فى صفنا حتى أزعنا له السلطان

قاسم ومكنا للسلطانة زينب ، وهو فى صف السلطانة زينب ليؤكد

نفوذها وحدها ، ويضخم لها فى ذاتها ، وفى أهميته لحفظ هذه الذات .

أفاق حسن بن الحصرى من دهشته ، وضحك ، ثم ضرب بيديه على

فخذيه ، وهو يقول :

— لقد فهمته تماما يامقدم على .. وأحسب أنك مصيب فيما تقول عنه .

قال الزبيقي :

— لقد شككت في حقيقته منذ لقائنا الاول اذ أخذ يلمع في كلامه بما يشتم منه انتشار حالة التدمير من قاسم ، كما أخذ يصرح بانه مفتصب لحق زينب ، وانها قد بلغت سن الرشيد وأصبح العرش من حقها .. ورغم براءة الكلام في ظاهره الا اننى أحسست فيه قطرات دهاء ، وتخطيط مقصود ..

قال حسن بن الحصرى وهو ينتفض على الطعام من جديد :

— هذا رجل لا صديق له الا نفسه ..

قال الزبيقي :

— هو صديق النجم الصاعد ، أما اذا اوشك النجم على الافول

فالويل له ..

قال حسن بن الحصرى ، وكلامه لا يكاد يبين من فمه المحشو

بالطعام :

— وكنت أظنّ الفارس باسم في صفنا ..

ضحك الزبيقي ، وهو يعود الى تناول طعامه وقال :

— هو في صف السلطانة زينب .. فهو يضحي بحياته نفسها

من أجلها .

قال حسن بن الحصرى وهو يبتلع طعامه :

— ولكن السلطانة في صفنا فلماذا يعادينا ؟

مضغ الزبيقي الطعام الذى فى فمه ، ثم ابتلعه فى توده ، وشرب

جرعة ماء ، ثم قال :

— انت لم تر نظرة السلطانة .. ولذا ، فانت لا تعرف شيئا

عن الموضوع كله .

فتح حسن بن الحصرى فاه فى دهشة وقال :

— نظرة السلطانة ؟

قال الزبيقي :

— لقد أستهوها اننى انقلتها من هذا الكهف المظلم الكئيب ، واننى

أخرجتها من أسر مونجو وعصابته ..

قال حسن بن الحصرى :

— معنى هذا نظرة متطلعة الى شيء لا علاقة له بالاحداث

والناس .

قال الزبيقي فى جدية :

— ماذا تعنى يا حسن ؟

قال حسن وهو يتجاهل الطعام امامه لأول مرة :

— اعنى يا على أنها تريدك أنت — والفارس باسم قد فهم هذا ، ومن هنا كانت عداوته لك ، ولنا جميعا .. فهو لا يريد للسلطانة أن تنظر الى غيره .. وغيره هو أنت .. وهى بالفعل تنظر اليك ..

أطرق الزبيق مفكرا لحظات ، ثم رفع رأسه وقال :

— لقد لاحظت هذا ، وهو ما أرقنى ، وذهب بسلام نفسى فى هذه القضية كلها ..

قال حسن بن الحصرى :

— هو يريد أن تؤيدها بسيفك ، وأن تنصرها بملاعيبك .. ولكن هذا هو الحد عنده ، بعد هذا أنت فى دنيائك وهى فى دنيائها ، ولا علاقة بين العالمين .

قال الزبيق فى ضجر :

— ماذا تريد أن تقول بحديثك الطويل هذا ؟

قال حسن وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

— أريد أن أقول أن السلطانة تريد منقذها لا حاميتها .. آسف اعنى السلطانة تريد الرجل الذى أعادها الى العرش .

ترك الزبيق ما بيده من طعام ، والتفت الى حسن بن الحصرى فى اهتمام ، وقال فى تودده :

— تعنى أن السلطانة ...

قال حسن بن الحصرى :

— نعم اعنى ، أن السلطانة تريد فارسها شريكا لها فى عرشها .

قال الزبيق فى ضيق :

— لقد أفهمتها منذ الدقائق الأولى أن قلبى معلق بزئيب

أخرى

ضحك حسن بن الحصرى وهو يقول :

— كل فتنتها وجمالها وعينيها وشعرها ، وانها سلطانة ...

وانت تائه عرييد لا يعرف له قرارا .. هى تحس انها صاحبة الكلمة الأولى فيك .

صاح الزبيق :

— ولكنى كنت حاسما فى هذا الأمر من البداية .

ضحك حسن بن الحصرى فى سخرية .. وسكت لحظات يتأمل

فيها الزبيق ويجول ببصره في القاعة المليئة بالحركة والحياة ، ثم قال :

— قل ما تشاء ، ولكن مثلك لا يخطيء ما في عينيهما وهي تنظر اليك ، ثم أنت تتبع حركاتها .. الفارس باسم رجل من لحم ودم ، وهو قد قضى عمره يتعبد في سيدته السلطانة ، فلا تات أنت آخر الأمر وتصبح الفارس الوحيد .

ضحك الزبيق في مرارة وهو يقول :

— الفارس الوحيد ؟

قال حسن بن الحصرى ، وهو يوجه كل انتباهه الى الزبيق :
— في قلبها .. الصراع عند الفارس باسم موهوم كله ، ولكنه عنده حقيقة مجسدة ، من هنا جاءت كل تصرفاته العدوانية الاخيرة تجاهك ، لا بد أن يزبحك ، ليظل هو — لا أنت — الفارس الوحيد .
لم يجبه الزبيق ، وانما أخذ ينظر حوله في قلق ، وقد نسي امر الطعام والشراب ، والحديث والجدل — وهمس في صوت يحمل نذير الخطر .

— هناك شيء غريب يجرى حولنا يا حسن ، فانتبه .

كان حسن بن الحصرى قد استهواه الحديث عن غرام السلطانة بالزبيق ، كما استهواه الطعام والشراب حتى نسي كل حذر ، فجاء تحذير الزبيق فوق أرض باردة ، اذ ضحك وقال :
— نحن في أمان هنا يا مقدم على ، وتذكرتنا الى الامان هو حب السلطانة لفارسها الوحيد على الزبيق ، فلا أحد هنا يخالف رغبات السلطانة .

قال الزبيق في صوته المتوقف :

— انظر حولك ، أين السلطانة ؟ وأين الوزير مروان ؟

قال حسن بن الحصرى وهو يجيل حوله نظرة غير مبالية :
— هما غير موجودين في القاعة ، وماذا في هذا .. ؟ مالك يا زبيق تتوجس الشر في لاشيء .. هذا احتفال ، وهذه سلطنة ، وهو وزير ، ومهام كل منهما كثيرة ومتعددة .

قال على الزبيق في صوت حذر :

— هاهما يعودان ، فاحترس في حديثك .

ورفع حسن بن الحصرى بصره ، فاذا بالسلطانة تعود ووراءها مروان ، وهمس :

— انظر ما أروع هذا الجمال يا على .

بالفعل .. كانت السلطانة تعود الى القاعة امرأة أخرى ..

ارتدت ثوبا جديدا يكشف عن مفاتن جسدها الرائع التكوين ، وكانت قد بسطت شعرها الكث لينسدل فوق كتفها في ثراء ، والتاج على مفرقها يلمع بجواهره ، وابتسامتها المشرقة تثير القاعة كلها ، وكانت تتقدم نحوهما ، ووراءها خادم يحمل اناء فوق صينية مفضضة وعلى الصينية اكواب .. وحين وصلت اليهما ابتسمت فلمعت الدنيا وابتهج العالم ، وقالت في صوت سحري مسكر لعل الزبيب :

— هذا شراب الزهر ، نخلطه بمقطر الزهر ، زهر اللارنج الذي يملأ حديقة القصر ، واحب أن تشرب منه أنت وصاحبك ، تحية ود ومحبة مني لكما ..

ودارت بجسدها الملفوف اللدن ، فملأت كوبين من الاناء ، ومدت بيدها الرقيقة كوبا لكل واحد منهما ، وقد انحسر الثوب عن ذراعها البض الملىء المهتز .. وقال حسن بن الحصري :

— هذه رعاية لم احظ بمثلها في حياتي كلها .

ومد يده فتناول كوبه وشربه حتى الثمالة وهو يتسسم ، بينما مد الزبيب يده الى الكوب ، وشمه في حذر ، وكانت رائحة الزهر تضيئ منه على كل رائحة ، وقالت السلطانة :

— ألا تشرب من يدى ايها الفارس .

ولمعت في ذهن الزبيب كلمة حسن بن الحصري من الفسارس الوحيد — فابتسم ومد يده الى كوبه ، ونظر الى العينين الواسعتين وتاه فيهما ، ثم رفع الكوب الى فمه وشرب ما فيه من ماء معطرا في جرعات متتالية . وفجأة انتبه فمع رائحة الزهر كانت هناك رائحة شيء آخر ، ونظر فاذا حسن بن الحصري متكوم الى جواره كالجثة ، ومد يده يحاول أن يلمسه ، ولكن خدرا مخيفا كان يمس يده وجسده كله ، وكانت رأسه ثقيل وثقل ، وشيء كالدوامة يحيط به ، ويرج وجوده كله رجا .. واراد أن يتكلم ، ولكن لسانه كان مثقلا .. ومد يده ولكن يده لا تمتد .. وأمامه كانت العينسان الواسعتان تتسعان وتسعان ، لتحتويه كله . /

ولم يعد يعي شيئا ، فقد راح في ظلام كثيف ، وثقل لسانه ، ووعيه ، وضاع في غيبوبة عميقة ، كان شيئا لزجا يمتص جسده وعقله ، وابتلع كليهما تدريجيا في اصرار ، وفعل اكيد .. ولم يعد يقاوم وانما ترك نفسه يمتص ويضيق ، وينسى ، ويروح في مسبات عميق ..

الساھر الافريقى

كانت امه تقول قاضية :

— قلت لك يا على لا تهرب من الكتاب .
وكان جده القاضى نور الدين يمسك بمقرعته يضربه بهما بين
كتفيه وهو يصيح :

— هذا الولد لا يصلح لشيء ، لن يتعلم شيئا أبدا ..
وكان خاله منصور ، يصيح وهو يتعذب فى برميل القار :
— أقتلنى يا على ، لا أحتمل هذا القار ، لا فائدة ، أنا ميت ،
لقد خدعونا بهذا البرميل الملىء بالقار المغلى .
وكان المقدم عباس يقول فى هدوء وثقة :

— فى الرميطة وقرّة ميدان ، ستتعلم دروس الفتوة الصّحيحة
يا على ، ولكن لا ينبغي أن تعرف أمك شيئا عن انقطاعك عن درس
الكتاب ، وانصرافك الى دروس المصارعين والرماة بالأقواس
والرماح .

وتقول امه فاطمة ، ووجهها قريب جدا ، ملىء بالفزع ، والحب
معا :

— وضعوك على المشنقة يا على ، لن تبقى عليها طويلا ، فانا
احمد بن البنى فارنك وصاحبك .
ويصيح المقدم صلاح الكلبى والماء المغلى ينهال على جسده .
— هذا ليس حاتوتيا ومقسلا ، هذا على الزبيق .. امسكوه ،
امسكوه .

وكان صوت اليف يصيح :

— يا على .. يا على ..

وكان وجه امه حزينا وهى تقول :

— ذهبت الى حيث صلب خالك وبكىته فنحنن لابد ان نبكى
موتانا ..

وكان وجه زينب اليفا حيا ، وهى تبكى .. وكانت تقول :

— خدمتك يا على ومقتك الى المشنقة ..

وصلاح الكلبى يضطك ، وسيوف تلمع ، ومعركة ، واحد منهم
يخطفه فوق فرس ويهرب به من فوق جبل المشنقة ، وصوت ملح
يصيح :

— يا على .. يا على ..

وديك يصيح عند الفجر ، ومؤذن يؤذن قيرج صوته سيكون
الفجر الساجي ، ويلف حول المدينة وهو يؤذن ، وصوته مرة يأتي
خافتا من بعيد ، ومرة قريبا قويا كأنه عند رأسه تماما ، وصوت
يلح :

— يا على .. يا على ..

واهتز جسده مرة ، ومرات ، وانزاحت عن رأسه غمامة مخيفة
كانها صوان أصم .. وهز رأسه فاهتز ، وحرك جسده فتحرك ،
وفتح عينيه في صعوبة بالغة ، وأمامه كان المقدم حسن بن الحصري ،
في عينيه لهفة ، وفي وجهه رجاء ، وكان يقول :

— يا على .. يا على .. استيقظ يا على .. أفق يا على .

دوامة ، ظلام ، وظلام ، وعطش في الصحراء ، وجوع عنيف عند
البئر ، ورأسه يدور ، وهو يستحم في ماء عند نهر والحصان يصهل ،
والصوت الملح يقول :

— أفق يا على .. يا على .. يا على .

وخرج من دوامة ، الى دوامة ، ومن طبقة زيت معتمة ، الى
طبقة زيت معتمة أخرى ، وابتدأ الهواء يرق ويصفو ، وفتتح
عينيه .. وأمامه كان وجه المقدم حسن بن الحصري عريضا ،
طويلا ، متجهما وهو يقول في الحاح :

— أفق يا على .. أفق يا على .

وتنهذ فأنزاح عبء عن صدره ، وتمطى ، فأنزاح عبء عن كاهله ،
وهمس في صوت ضعيف :

— أين أنا ؟

ضحك المقدم حسن بن الحصري ، وهو يقول في مرارة .. :

— أنت هنا معي .. في الأسر ..

أحدثت هذه الكلمات أثرها في الزبيق ، فاذا برأسه تستقر
فوق كتفيه ، واذا بعقله يصفو تدريجيا ، ويخرج من الدوامة الكثيفة
التي كانت تدور به ، واعتدل الزبيق في جلسته ، ونظر حوله ،
فاذا هو في قبر مظلم وأمامه حسن بن الحصري مقيد اليدين
والقدمين ، وأراد أن يحرك يديه فمنعهما القيد ، ونظر اليهما
الزبيق ، ثم نظر الى قدميه فاذا هما مقيدتان أيضا ، وقال في
تؤده .

— نحن الآن في الأسر ..

قال حسن بن الحصري في مرارة :

— دسنت لنا السلطنة المخدر في شراب ماء الزهر ، واخفى الزهر رائحة المخدر .

فجأة ضحك الزبيق ، كانت ضحكة جوفاء لا معنى لها ، كانت مجرد صوت يصدر عن حنجرتة فيهر جسده كله هزاً ..

وقال حسن بن الحصري في ضيق :
— اتضحك ، أفى هذا ما يضحك ، انت وانا تضحك علينا طفلة كهذه .. ؟

كف على الزبيق عن ضحكه ، وهز قيود يديه ، وتاملهما لحظات قبل أن يقول :

— لقد ضحكنا نحن على انفسنا بامقدم حسن .. ظننا ان جميلنا على السلطنة يكفل لنا الترحيب والأمان ، وظننا ان كل ما تريده منا هو السلطان قاسم ، واننا حين تركناهم يحضرونه من أسره في الكهف قد دفنا كل عدا بيننا وبينهم .. ولكننا كنا واهمين ..

قال حسن بن الحصري في ضيق :

— ولكن لماذا ؟ لماذا هذا القدر ؟

قال الزبيق وهو يختبر قيود قدميه بصعوبة بالغة ، اذ كانت قيود يديه تجعل الأمر متمسراً :

— أنا لا أحب هذه القصور ، فهي مليئة بالدسائس والتيارات الخفية ، ففيها ليس كل ما يقال لك هو الحقيقة ، وفيها ليس كل ما يعلن هو الصحيح .

قال حسن بن الحصري :

— ليس كلامك هذا اجابة عن سؤالى ..

قال الزبيق :

— لقد أحسست في لحظة بان الماء الذى قدمته السلطنة فيه شيء غريب ، لعلها رائحة خفية ، ولعلها النظرة في عين السلطنة ، ولعله هذا الجو القلق المتوتر الذى ساد القاعة فجأة ، ولكنى ماكنت التفت الى هذا الاحساس الا وكان الامر قد خرج من يدي فقد كنت قد شربت الكوب كاملاً بالفعل ، وراحت شياطين الأمس تجول في رأسى ، الاحياء والاموات معا ، الناس والاصوات معا ، الحلو والمر معا ..

كان حسن بن الحصري يستمع اليه في ذهول وقال في تخاذل :

— هل مسك المخدر في رأسك الى هذه الدرجة .. هل انت

بخير .. ؟

ضحك الزبيق ضحكته الخشنة التى لا معنى لها ، وقال :

— نعم أنا بغير يا مقدم حسن ، ولكنى لم اعد واقفا ان الناس

بغير

قال المقدم حسن :

— قد استطيع ان افك قيودك ، او لعلك انت تستطيع ان تفك قيودى ، فنحن مازال نتمتع بحرية الحركة ، ولو قفزا بالقدمين المقيدتين معا .

قال الزبيق :

— هم يظنون اننا مازلنا تحت تأثير المخدر والا ماتركونا هكذا . .

اسمع . . .

وسكت حسن بن الحصرى ، وقد التقطت الازناه اصوات وقع الاقدام التى سمعها الزبيق قبله ، فتبادل الاثنان النظرات ، وتراجع كل منهما الى الحائط خلفه ، وجلسا القرفصاء فى سكون يرقبسان الاقدام التى توقفت عند مدخل القبو . . وارتفع صوت الوزير مروان فى لهجة آمرة ، وفتح باب القبو فى ضجة ، ودخل الوزير مروان يتقدمه الفارس باسم ووراءهما مجموعة من الحراس شاهرى السيوف . . وساد الصمت القبو ، والزبيق يجيل النظر فى الداخلين فى صمت ، وقد تلاعبت على شففيه ابتسامة ساخرة ، واخيرا تحدث الوزير مروان فى صوته الوقور فقال فى توده :

— اين هو ؟ وكيف اخفيته وانت معنا لم تغادر ابصارنا منذ

تخرجنا من الكهف سوية . .

قال الزبيق فى هدوء :

— تعنى ان السلطان قاسم قد هرب . . ؟

صاح الفارس باسم فى انفعال ، ويده فوق مقبض سيفه :
— لم يهرب قاسم المخلوع وحده ، لقد جرجر بقيوده الى خارج المغارة ، وكذلك لم يذهب معه فارسا بحر الغزال بارادتهما ، فواضح من الآثار انهما قد جريا ايضا الى خارج المغارة حيث ظهرت آثار خيول حملتهما ومعهما السلطان الى مخبأ جديد . . وستخبرنا الان بمكان هذا المخبأ شئت ام ابيت . .

تنهد حسن بن الحصرى ، وسعل ، وقال :

— وضع الان كل شيء . . اذن فهذا هو السر فى المخدر وهذا

القبو ، وهذه القيود .

قال الوزير مروان :

— ليس فى الامر سر قاتما تعرفان كل شيء .

قال الفارس باسم :

— وستخبرانا بمكان السلطان قاسم ؟ ألا لن تغادروا هذا القبر وأنتما من الأحياء ..

ضحك الزبيق في استخفاف ، وقال :

— لو كنا نعرف لأخذنا حذرنا ولما جازت علينا خدعة ماء الزهر الملىء بالبنج ..

قال الوزير مروان في هدوء :

— لقد كنت واثقا من نفسك ثقة زائدة ، ومن هذه الثقة أخذت ..

قال الزبيق بنفس اللهجة المستخفة :

— بل كنت واثقا في العرفان بالجميل ؟ وفي كلام الصداقة المعسول ، وفي كلام الشهامة والفروسية .

صاح الفارس باسم في غضب وقد أحس أن الزبيق يعرض به :
— أنه يراوغ ، ولا يريد أن يتكلم ، اتركني معه وسأعرف كيف أفك عقدة لسانه ..

ضحك المقدم حسن بن الحصرى فجأة ، وقال وهو يقف مستندا إلى الحائط خلفه :

— أنت ؟ أنت تفك عقدة لسان الزبيق .. ؟

اندفع الفارس باسم وقد أعماه الغضب عن كل حذر نحو حسن ابن الحصرى ليلطمه ، فكشف ظهره للزبيق الذي استند إلى الحائط بظهره ودفع بقدميه المكبلتين في ظهر الفارس باسم الذي سقط إلى الأرض وقد طار السيف من يده .. وانقض حسن بن الحصرى بركبته فوق ظهره بينما أنشب يديه المقيدتين في عنقه من الخلف ، وارتمى الزبيق ناحية السيف الساقط فوق الأرض ، ولكن الوزير مروان كان أسرع منه ، فضربه بحدائه ليعده ، وانقض الجنود على الزبيق يشلون حركته ، بينما انقض آخرون على حسن بن الحصرى يرفعونه من فوق الفارس باسم رفعا .. وضحك الزبيق فجأة ، وقد وقف ساكنا بين من يشلون حركته من الجنود ، وقال :

— أنت ترى أننا لا نخشاكم .. مقيدين أو غير مقيدين لنستم من رجالنا ..

نظر إليه الوزير مروان في صمت ، بينما وقف الفارس باسم يلهث وقد احمر وجهه انفعالا ، ثم ذهب إلى حيث سقط سيفه فاستعاده ، وجعل يجيل بصره بين على الزبيق ، وحسن بن الحصرى ، ثم قال من بين أنفاسه اللاهثة :

— من الآن ستقيدون إلى الجدران ، وستضع في أيديكم القيود

الخدائية .. وسنمنع عنكم الماء والطعام حتى تتدلى السسنتكم
من أفواهكم كالكلاب العطشى ..
قال على الزبيق في هدوء :

— يدهشني هذا التحول فيك أيها الفارس باسم .. عندما
التقيت بك أول مرة كنت مثال الفارس الشهم الكسريم ، أما الآن
فصورتك غدت شوهاء وكريهة ..
وجم الفارس باسم وتخاذلت يده التي تقبض على السيف ،
وتدخل الوزير مروان في الحديث فقال في صوته الهادئ المتزن
النبرات :

— لقد كان هو وأنا من أصدقائكم حتى ظهر عداؤكما لنا
وللسلطانة ، فلم يعد للصدقة معنى ..
ضحك حسن بن الحصري ، وقال في صوت ساخر :
— نحن لم نعاد السلطانة ، ولا نحن عاديناكما ، ولا نحن عادينا
المدينة المرصودة .

قال الوزير مروان :
— أنتم رفضتما تسليم السلطان المخلوع ، ثم هربتما منا ومن
العدالة ، وهذا تأمر علينا كلنا ..
قال الزبيق :

— تعني أنك لا تأمن على حياتك بعد موقفك الأخير منه إلا
بموته ..

وقال حسن بن الحصري :
— ويعني أنه لم يعد يأمن على نفسه منا ، فنحن أصبحنا نعرف
عنه أكثر مما يجب ..
وقال الزبيق :

— أما الفارس باسم فهو أسير حماسه للسلطانة ، ولذا فهو
العوبة في يدك أيها الوزير ..
وقال حسن بن الحصري :
— وما أسهل أن توهمه أن وجود الزبيق خطر يهدد مكانته عند
السلطانة ..

وقال الزبيق :
— لقد أفهمت السلطانة بعد أن حررتها من مونجو وعصايته
أن لي خطيبتى تنتظرني في بلادى ، وإسمها أيضا زينب ، وهى جزء
من الحوافز التى دفعتنى الى هذه الرحلة الخطيرة .
صاح الفارس باسم وقد ساءه أن تنكشف عواطفه أمام الفريين

بهذه الصورة :

— لقد زادت وقاحتكما من حذرها ، السلطانة مليكنى ، ولها
على حق الولاء ..
قال الزبيق :

— وهل من الولاء أن تفقدها حليفا لها ومنقذها من الأسر ، وهي
تحتاج الآن الى كل من يقف الى جوارها ، أم هل تظن أن الملك سلطان
ملك بحر الغزال سيقف مكتوف اليدين بعد خلع حليفه عن العرش ،
أم أن دليلة ستكتفى بالاختفاء من المدينة دون انتقام ممن دمروا خططها
الخبثية والتي كان السلطان قاسم يمثل عنصرا رئيسيا فيها .
قال الوزير مروان :

— قل لنفسك يازبيق هذا الكلام ، لو كان السلطان المخلص
في أيدينا لأمكننا أن نحدد خططنا في مواجهة أعدائنا ونحن مطمئنون ،
أعداءنا ، تنضم الى صفوفنا ..

وصاح الفارس باسم ، وهو يستعيد رباطة جأشه :
— لو ظننت لحظة واحدة أنك تتطلع الى السلطانة زينب لقتلتك
على الفور .

ثم أشار بيده الى الجنود فربطوا الزبيق وحسن الى وتدين
متباعدين في الحائط ، ثم ذهب بعض الجنود وعادوا يحملون القيود
الحديدية والسلاسل الحديدية ليعيدوا ربط الزبيق وصاحبه بها ..
وقال الزبيق وهو يجلس الى الأرض :

— في يوم ما ، سيدفع انسان ما ، ثمن حماقته .
ثم سكت ، لا يرد على سيل السباب الغاضب الذى انشال من فم
الفارس باسم ، بينما قال الوزير مروان فى صوته الهادئ الوقور :
— فى أحوال ما ، تصبح تهديدات العاجزين اعلانا واضحا عن
عجزهم ..

ثم انحنى لهما ، وأمسك بذراع الفارس باسم يقوده الى خارج
القبو ، والحرس يتبعونه فى جلبة ، وأصوات وقع أقدامهم ، وقعقة
سلاحهم تصل الى الأسيرين الذين أطبق الباب السميك عليهما
ليتركهما فى شبه ظلام ..

وتنهذ حسن بن الحصرى وهو يقول :
— هل كان لابد أن يستفزهما الى هذا الحد ؟
قال الزبيق وهو يتحسس قيوده :

— كان لابد للفارس باسم أن يعرف حقيقة دوافعه ، ان غيرته على
السلطانة أعمت بصيرته ، وأبرزت أسوأ ما فيه من خلق ، أما الوزير

مروان فكان يجب أن يعرف أنني أفهمه على حقيقته ، وإن لحيته
الكثة ، وشكله الوقور ، وصوته الهادئ لم تعد كلها تخدعنى ..

قال حسن بن الحصرى فى ضيق :

— والنتيجة هى القيود الحديدية والجناساير ، والربط الى
الحائط .. أيعجبك هذا .. ؟

ضحك الزبيق ، وهو يقول فى مرح :

— طبعا يعجبنى ، لعلى سميت اليه بنفسى ، فأنا قد تعلمت من
زمن كيف اتعامل مع القيود الحديدية وعندما اهتدى الى الحيلة
الصحيحة سأحرر راسى من القيد ..

صمت حسن بن الحصرى لحظات ، ثم ضحك وهو يقول :

— نسيت أن قيود الحبال لأبد أن تقطع بسكين ، أما قيود الحديد
فتفك بالحيلة والصنعة ، أنا أيضا تعلمت شيئا من هذا ، ولو أنى
لم أجرب الفكاك من قيد حديدى من قبل ، وسأحاول .. وصمت ،
وصمت الزبيق ، ولم يعد يتردد فى القبو الا صوت أنفاسهما
المتردة وهما يحاولان معالجة القيود الحديدية ، وأصوات هذه
القيود وهى ترتطم وتحتك فى عنف مرة ، وفى حذر مرة ، وفى يأس
مرات ، وتنهت حسن بن الحصرى فى مرارة وهو يقول :

— أما أنا فقد عجزت ، فلا قبل لكل ما تعلمت بمعالجة هذه
القيود .. وأملنا فيك أنت

فجأة قال الزبيق فى صوت حذر :

— أصمت ، وكف عن الحركة ، لسنا وجدنا فى هذا القبو ..

وأطبق حسن بن الحصرى شففيه ، وكتم أنفاسه ، وسرعان
ما أدرك ما يعنيه الزبيق حين أحس بجسده يلمس جسده بسرعة
ويتجه ناحية الزبيق ، وجهد فى مكانه وهو يسمع صوتا غريسا
يقول فى همس :

— لا تتحرك يا على ، وسأفتح قبلك قورا ..

ثم سمع عبثا بقفل القيد الحديدى ، وصوت انفتاحه ، وصوت
وقوع السلاسل فوق الأرض ، وميز شعبا ينحنى الى جوار الزبيق
يعبث بقيد قدميه ، وعاد صوت العبث بالقفل ، وصوت انفتاح القيد
وسقوطه مع السلاسل التى تربط الزبيق بالوئد المثبت بالجدار
وراءه .. وسمع صوت الزبيق وهو يقول فى مرح :

— لا أزعم أنني عرفتكم من أول وهلة يا عمر .. ولكن قلبى دلنى
عليك ، فرغم تنكرك البارع نفذ حبك الى فجعلنى أحس بوجسودك
معى ..

وقال الضيوط الغريب مرة أخرى في همس :
- اسكت يا على ، ولا تتحدث حتى تخرج من هنا بسلام .
ثم اقترب الشبح الغريب من حسن بن الحصري وأخذيبت في
قيد يديه حتى فتحه ، ثم فتح قيد القدمين ، وأزاح السلاسل
وهمس :

- اتبعاني ..
وعندما تسللوا جميعاً من باب القبو لمع ضوء مشاعل بعيدة فهمس
حسن في دهشة وقد كشف الضوء الضئيل ملامح الشبح :
- الساحر الأفريقي .
ضغط الساحر على كتفه في عنف وهو يهمس في غضب :
- مزيد من الصوت وينكشف أمرنا .. اتبعاني في صمت
كامل ..

وأطبق حسن بن الحصري فمه ، ومضى يتبع الزبيق والساحر
الأفريقي ، وهو يجيل في خاطره أن الزبيق لا تنتهي ملاعبيه أبداً
أبداً فمنذ التقى به عند بئر النجاة ، وكل لحظة يلقي مفاجأة جديدة ،
تزيد عن سابقاتها غرابة ، وقد كان يظن أن إطلاق الشياطين الملونة
في السماء يفوق كل أعجوبة ، ولكن أن يفك الساحر الأفريقي الذي
لا يعرف أنه قيودهما بهذه السهولة ، ويخرج بهما من هذا القبو الملعون
رغم أنف القيود الحديدية والسلاسل والحراس ، فتلك أعجوبة تفوق
كل ما سبقها ، وابتسم لنفسه وهو يقول :

- لا عجب أن أسموه الزبيق .. فمن يستطيع أن يمسك
هذا المفلات العجيب ..

وقطع عليه تأملاته توقف الساحر الأفريقي عند ناصية القصر ،
حيث همس لهما :

- هذه المنطقة مكشوفة لحراس القصر ، ولسكان المدينة على
السواء ، ولا بد أن نقطعها لنصل إلى هذا الدغل الكثيف في مؤخرة
المدينة حيث النفق الذي نفذ منه مونجو وعصابتة يوم اختطفوا
الأميرة ، وسنسلكه الآن في الخروج منها ..

قال الزبيق في همس :

- يمكننا أن نزحف في ببطء ولن يحس بنا أحد ..

قال الساحر الأفريقي

- يزحف واحد أمامي ، وواحد خلفي ، وأسير أنا وسطكما ،
فلا أحد يشك في ولا في أنني أريد الهرب من المدينة ، ولو لحكما
أحد لظن أنه ظلي أما أن يتقدمني أو يتبعني ..
ضحك الزبيق وقال في مرح :

— ويسموننى انا الزيبق .. ؟ هذه حيلة شياطين ..

قال حسن بن الحصرى :

— انا وقعت فى غابة من الشياطين .. تقدم انت يازيبق ، وسأبـ

هذا الساحر الافريقى زاحفا ، وسأحاول أن اتحول الى ظل امين ..
ظل زاحف على بطنه ..

وضحك الساحر الافريقى ، ثم انتصب واقفا واخذ يسير فى
بطء وتؤده ، وامامه كان يزحف الزيبق على مهل ووراءه كان يزحف
حسن بن الحصرى فى بطء ، ولوح الساحر بصولجانه لبعض الجنود ،
فهللوا بحيونه ، وهو يسير ويسير ، خطوة ، خطوة ،
الى ان وصل الى اول الدغل فتوقف ، وزحف الزيبق حتى
اختفى داخل الدغل فى صمت ، ثم زحف حسن بن الحصرى متسللا
كالأفعى بين شجيرات الدغل .. ورفع الساحر الافريقى مساعديه
يحيى القمر فى ابتهاج صامت ، كان كل من يرقبه يحسبه صلاة
افريقية مخلصه ، تستمد جذورها من اعماق شعائر الغابة .. ثم
اختفى بدوره فى صمت داخل الدغل ..

في الغابة

- ضحك الزيبيق ضحكة طروب وهو يقول :
- بودى أن أرى وجه الوزير مروان حين يكتشف القبو الخالى
وضحك حسن بن الحصرى وهو يقول :
- وبودى أن أرى وجه الفارس باسم وهو يرى قيوده الحديدية
وسلاسله ملقاة على الأرض ، وقد طارت العصافير من القفص .
- قال الطبيب الافريقى فى تؤده :
- لا تسلكوا الغزال قبل أن تصيدوه ..
- قال الزيبيق :
- ماذا تعنى بهذا ؟
- قال الطبيب الافريقى :
- لقد نجوتما الآن لأن هربكما لم يكتشف بعد، أما لو بدأ البحث
عنكما فليست واثقا من الافلات ، فهم أدري بممرات هذه الغابة ودروبها
.. نا
- وكانوا يسرون سيرا حثيثا متوغلين فى الغابة ، يشقون طريقهم
على ضوء القمر المتسلل من بين الاشجار وقال الزيبيق فى قلق :
- هل تعرف المكان الذى خبأت فيه السلطان المخلوع ؟
- تنهد الطبيب الافريقى وهو يقول :
- لقد عثرت على مكان مثالى داخل شجرة ضخمة مجوفة ، ولكن
كان هذا فى نور النهار ، أما الآن فأنا أعتمد على الحدس ، وحاسة
التوجه .
- ضحك الزيبيق وهو يقول :
- لن تخطئ طريقك يا عمر .
- صاح حسن بن الحصرى فى حنق :
- منذ رأيت هذا الرجل وأنت تناديه بعمر .. فمن عمر هذا ،
وكيف يكون عمر ساحرا أفريقيا ..
- قال الزيبيق :
- الا تعرفه حقا يا حسن ..
- وقال الطبيب الافريقى :
- أنسينت ختجى عند بئر النجاة يا حسن يوم كنت مقيدا كالشاة
المذبوحة أنت وعلى بن البيطار .. !

كان صوت حسن بن الحصرى مترددا ، ونبرات التفهم تدب في كلماته تدريجيا وهو يقول :

— أنت الفارس الذى سرقنا من أمام البئر . ؟ وهددنا بخنجره ،
ثم أنقذنا من غضب الزبيق حين أمرنا أن نعضى ولا نعود .

ثم صمت فجأة وعاد يقول فى حذر :

— لقد توعدتني بالموت لو وقع بصرك على مرة أخرى . . وما أنت
ترانى هنا فى هذا الجانب من الصحراء . .
ضحك عمر العيار وهو يقول :

— لم تعد عدوا للزبيق ، بل أنت حليف مخلص له ، فانت منى
فى أمان . .

تنهد حسن بن الحصرى فى اطمئنان وقال :

— ولكن كيف غدوت ساحرا أفريقيا ، ولم يمض على مغادرتك لنا
فى بئر النجاة زمن طويل ؟

ضحك عمر العيار وهو يقول :

— أنا هنا من زمن طويل ، وحين أكون هنا أكون الساحر الأفريقى ،
وحين أغادر هذه المنطقة أعود عمر العيار . . وتنكرى كطبيب جوال
أو كساحر عالم بأسرار الامراض والارواح ، وقادر على طرد الشياطين
من أجساد المرضى والمسوسين ، وصنع الادوية والعقاقير والاحجية
الواقية ، يسمح لى بالتجول فى كل مكان ، والظهور متى اشاء ،
والاختفاء متى أريد . .

قال على الزبيق :

— كنت أظنك تعيش فى بغداد مع أحمد الدنف وحسن شومان .

قال عمر العيار ، وهو يزيح انحصانا متدلّية تعوق طريقهم :

— نحن ننطلق من بغداد لتتحرك فى كل مكان من أرضنا الاسلامية
نستطلع الاخبار ، وننتبع جواسيس الفرنج وعملاءهم ، ونحبط كل
غدر يراد ببلادنا قبل وقوعه ان أمكن .

قال حسن بن الحصرى :

— انتم . . من انتم . . ؟

قال على الزبيق :

— أنه يعنى عصابة الفتوة ، وأنا منهم الان . .

قال حسن بن الحصرى :

— ومتى أكون أنا منهم ، وكيف ؟

— منذ الان وانت تحت الملاحظة والاختبار ، وحين يحين الاوان

ضحك عمر العيار وهو يقول :

ستنضم اليها كما تحب، ولكن لا بد أن تعرف أنك في وسط الخطر دائما وحدك ، وإن أسرارك يجب أن تموت معك ، وإن أجرك هو رضاك عن عملك ونجاحك فيه .

قال حسن بن الحصري :

- آن الاوان أن اعمل شيئا نافعا في حياتي بدلا من اللصوصية والعيارة وقطع الطرق ..

وقال علي الزبيبي مكملا :

- وتنفيذ أوامر صلاح الكلبى ومهمات الدنيئة ..

فجأة وقف عمر العيار ، وأشار اليهما بالوقوف وهو يقول :

- هذا هو المكان، لقد وصلنا اليه دون عناء كبير .. انتظراني

هنا حتى لا تصيبكما سهام الحراس وحرايبهم .

وفجأة مضى يغنى ويرقص وهو يلوح بالصولجان في يده ، ويهتز

العقد حول عنقه فيصدر أصواتا عالية ، ومن جوف الظلام ، صاح

صوت :

- أهذا أنت ايها الطبيب ؟

توقف عمر عن رقصته ، وصاح صيحات غريبة وهو مستمر في

حركاته الايقاعية ، ثم انحنى كأنما يقبل الأرض ، ورفع يديه كأنما

يحتضن السماء ، وقال :

- نعم هذا أنا .. السلام عليكم .

وجاء الصوت يقول :

- وعليكم السلام .. تقدم ، من معك ؟

قال عمر :

- أصدقاء .. مؤمنون بروح الكون العظيم ، مبدع أشجار الغابة

ووحوشها وطيورها وزواحفها .. الله الواحد الاحد .

صاح الصوت :

- اصداؤك أصدقاء لنا ، فليقدموا معك .

قال عمر :

- تقدموا فلا خوف فهذا مسوحي الرئيس ، وهو رئيس قبيلة

البونت ، وهو صديق قديم ، وهو وقبيلته كلها تركوا الوثنية الى

الاسلام من زمن .. ولأؤهم لهذا مع الخليفة في بغداد ..

قال علي وهو يتقدم خلفه :

- لك صداقات عجيبة في أماكن غريبة يا عمر ..

وفجأة بدأت المشاعل تلمع ، وهي تشعل ويرفعها رجال عديدون

تسير الطريق للقادمين ، وقال حسن بن الحصري :

— هؤلاء مجموع المقاتلين من أبناء القبيلة ، وهم لحسن حظك يا على
سكان الجزيرة المسحورة ، جزيرة صندوق التواجية .
صدرت من على الزبيق آهة ارتياح عميقة وقال :
— أخيرا التقى بوجوه صديقة لا تبادر بالعدوان فى هذه الرحلة
المضطربة ..

قال عمر العيار وهو يدخل الى دائرة الضوء حيث وقف سوهى
رئيس القبيلة .
— لا تقفز الى الاستنتاجات المتسعة يا على .. واحكم على كل شيء
بعد حدوثه ..

وشاهد على الزبيق أجسادا ابنوسية فارعة تحمل المشاعل التى
تعكس اشعة نيرانها على الاجساد الشديدة السمرة فتلمع فى الظلام ،
ومع المشاكل كان الرجال يحملون الحرايب والقسي والسهام ، وقد
زينوا الملابس القليلة التى يرتدونها بالنقوش الجميلة الزاهية ، بينما
كان الرئيس يزين جيده بقلادة غريبة الصنع تتوسطها جوهرة ثمينة
تنعكس عليها اشعة المشاعل فتلمع وتخطف الابصار ، وعمس حسن
بن الحصرى مبهورا :

— انظر الى هذه الجوهرة ، انه يحمل ثروة طائلة فوق صدره ..
قال على الزبيق :

— انها جوهرة تليق بتاج الخليفة هارون الرشيد نفسه .
وتقدم عمر العيار من سوهى فصافحه وهو يقول :

— هذا هو المقدم على الزبيق الذى حدثتك عنه .
تراجع سوهى الى الوراء خطوات ، فدهش على الزبيق ، بينما حلق
فيه سوهى فى انبهار وقال :

— الرجل الذى اخرج الشياطين الملونة الصارخة الى السماء ..
ازدادت دهشة على الزبيق وقال :

— هل رأيتها .. ؟

فجأة أخذ الرئيس سوهى يتقافز وهو يصرخ مقلدا أصوات
الصواريخ الصينية ، ويحرك يده وأصابعه مقلدا حركات تساقط
الالوان المنحدرة من السماء .. ثم قال :

— لقد أصابت القبيلة كلها بالرعب ، وأخذنا نجرى نحو معابدنا
القديمة لنسترضى الهة الشر التى عبدناها من قبل حتى ترفع عنا هذا
الغضب المخيف المجنون ، لولا أن تصدى لنا صديقنا الطيب العالم

بالارواح ، فاخبرنا انها ليست شياطين ، وليست من غضب ارواح شريرة ، وانما هي من صنع الانسان ، وأن رجلا مهما وكبير المقام هو المقدم الزيبيق ، هو الذى أطلقها ليخيف رجال السلطان المجنون قاسم ويبعدهم عن صديقه ومعاونه المقدم حسن الذين حاصروه وكادوا يفتكون به ..

وأشار الرئيس سوهى الى على الزيبيق وحسن بن الحصرى ، وهو ينقل بصره بينهما ، ثم قال موجه حديثه الى عمر العيار :
- هل يستطيع انسان أن يطلق هذه الشياطين الملونة بإرادته هو وحده ..

قال عمر العيار :

- بل بإرادة الله أيها الرئيس ، فهذا خادم من خدمة الدين ، وخدمة المؤمنين ، زوده الله بنتائج المعرفة والاعلم ليحقق ماكتبه له من فوز ونجاح ..

قال الرئيس سوهى وهو يتسم ابتسامة عريضة :
- لهذا نجح فى هزيمة رجال قاسم ، والقبض عليه وأسرهم وتكبيله ونجح فى هزيمة رجال سلطان والقبض على كبار معاونيه ..
ثم تحولت الابتسامة الى ضحكة عالية ، وهو يمد يده الضخمة يحتوى فيها كف الزيبيق وهو يصفحه فى حرارة ، ويقول :
- أهلا بك ، لقد أرسك الله لتخلصنا من أعدائنا كلهم .. وهم الان أسرى بين أيدينا ، تعال أريك السلطان المغرور قاسم ، وأعوان الملك سلطان المتكبرين ..

واتجه بالزيبيق الى ناحية شجرة ضخمة ، وأشار بيده ، فاندفع رجلان الى داخل تجويف واسع فى الشجرة ، وعادا يسوقان أمامها السلطان قاسم الذاهل النظرات ، المنهار القوى ، ووراءه لومبا ومافى وقد قيدت أيديهما ، وبدا عليهما الانهاك والتعب .. وهمس حسن بن الحصرى :

- ماذا فعلا بهما .. ؟ ولماذا هما أصدقاء .. ؟

همس على الزيبيق :

- يبدو انهما ليسا من أصدقاء الرئيس سوهى .. قلنصبر وللننتظر ..

حين رآهما الاسرى ، لمعت عينا لومبا ومافى بالامل ، ولاحت على شفتيهما ابتسامتان فرحتان ، وهز كل منهما رأسه تحية فى صمت ، بينما لمعت عينا السلطان قاسم فى جنون ، وبدا ألرعب على وجهه ، وأخذ يصيح :

- الزيبق .. لا ، لا أريد الزيبق ، افعلوا بي ما تشاءون فقط
لا تسلموني الى الزيبق ، لقد حذرني منه الدرويش الصالح .. قال
هو السم الناقع ، واننى لو تهاوتت معه لكانت نهايتى على يديه ..
صدق الدرويش الصالح .. صدق الدرويش الصالح ..
قال الطبيب الافريقى وهو يهز صولجانه فى وجه السلطان
المخلوع :

- أنت تعنى دليلة المحتالة ..
صاح السلطان قاسم وهو يلوح بيديه المقيدتين :
- أنا لا أعرف دليلة أو غير دليلة ، أنا أعرف الدرويش الصالح ،
ومن كان يبعثهم من رسل قبل أن يجرى إلينا بنفسه .. لقد قال أن
الزيبق موت وهلاك .. وهو بالفعل موت وهلاك لى ولشعبى .
ضحك الرئيس سوهى ، وهو يقترب من السلطان الاسير حتى
كاد يلتصق به ، وقال :
- الهلاك لك نعم ، ولكن الهلاك لشعبك لا ، هل الخلاص لشعبك
منك ، ومن ظلمك وجبروتك ، ومن خيانتك هلاك .. لشهد ما أنت
مغرور ..

صاح السلطان قاسم :
- أنا المدينة المرصودة ، وكل من يسبنى يسب المدينة المرصودة ،
وكل من يهاجمنى يهاجم شعب المدينة المرصودة . فهو خائن
ودسيسة لاعداء المدينة المرصودة .
قال الطبيب الافريقى ، وهو يلوح بصولجانه أمام عينى السلطان :
- ومن هم هؤلاء الذين يخونون المدينة المرصودة ايها السلطان ..
توقف السلطان عن صياحه ، وأخذ ينظر الى الطبيب الافريقى فى
امعان ، ثم قال فى ببطء :
- أنا أعرفك .. رأيتك قبل هذا مرارا ، وانت ترقص رقصات المطر
رأيتك والناس يلتفون حولك يوم تدخل مدينتنا لتعالج المرضى ،
وتصلح الخلافات .. رأيتك من قبل ولم أرتح اليك أبدا .. وسأصدر
أوامرى أن تمنع من دخول المدينة ، وتعامل معاملة الاغراب فيها ..
فتقتل فى الحال لو دخلتها ..

قال الطبيب الافريقى :
- الامر أمرك ايها السلطان ، ولكن لماذا تعتبرنى من أعدائك ..
لماذا لا ترتاح الى ..

ازداد السلطان تأملا فى الطبيب الافريقى ، ثم قال :
- أحس أنك لا تحترمنى كما يجب ، نظراتك ليس فيها علامات

الخضوع والطاعة التي ينبغي أن تظهر في كل عين تنظر الى .. بل
 نظراتك في بعض الاحيان تحمل معنى التعالي كأنك تعرف شيئاً عنى ..
 كان سرا من أسرارى مفصوح أمامك ..
 ابتسم الطبيب الافريقى وهو يقول :
 - بالعكس أيها السلطان أنا أقدرك، وأعرف أنك محور حركة
 ضخمة تريد أن ترفع عنا في افريقيا يد السلطان هناك في بغداد ..
 لمعت عينا السلطان ، وصاح :
 - أنت تعرف ، اذن أنت تترك مدى قوتى ونفوذى ، غدا أحكم
 القارة كلها .. ويركع الكل تحت أقدامى ، حتى أنت أيها الساحر ..
 بل وأولهم أنت يا من تعرف هذه الثروات الهائلة التي تعيش فوقها
 هنا ، نبيع بعضها للفرنجة ونعيش كأرواح ما يكون العيش بالدخل
 الوفير ، ونصبح أصدقاءهم لا أعداءهم .. وتتوقف الحرب بيننا
 وبينهم الى الابد ..
 قال عمر العيار :
 - لقد بلغت براعتك حدما الاقصى حين أقنعت بهذا الملك سلطان
 ملك بحر الغزال ..
 ضحك السلطان قاسم وقال :
 - هو عجوز مخرف ، كل ما يهمه هو الحصول على زينب ، وما أن
 لوحث له بها حتى انضم الى ، انما المهمة الصعبة كانت مع سلطان
 الاستواء ، وملك البحر الازرق ، ووالى السودان .
 سأل عمر العيار فى عظم اهتمام :
 - ووالى مصر ..
 ضحك السلطان قاسم وقال :
 - وتزعم أنك ساحر ، وأنت تعرف كل شيء .. ؟ والى مصر يظن
 نفسه الرأس الكبير ، وهو واهم ، كل فائدته ان يقدم دركه صلاح
 الكلبى همزة الوصل بينى وبين الفرنج ، ويوم نحقق انفسنا ،
 سنقصيه ..
 ضحك عمر العيار وقال :
 - كل هذا خططه أنت والدرويش الصالح .. ؟
 عاد السلطان قاسم يضحك ضحكته العصبية العالية، وهو يقول :
 - الدرويش الصالح مجرد رسول ينقل الاخبار ، وهو الذى كشف
 على الزبيق لى ، وهو الذى يحمل لى المال أوزعه على الرجال ..
 سأل عمر العيار وكأنما عفوا :
 - والوزير مروان ؟

استمر السلطان في ضحكه العصبى وهو يقول :
- أنه يظن نفسه ذكيا ، ولكن دوره انتهى بمجرد أن أوصى
الى أول الحيط ، لقد حاول مع السلطانة كوثر ، ولكنها رفضت قالت
أنها مسلمة لا تعصى سلطان المسلمين ، فانتهدت السلطانة كوثر ، أما
أنا فأفهم أكثر منه ، فأنا السلطان ، والسلطان على حق دائما ، أما هو
فوزير ، غيره متى شئت .. ألم إقل لك أنك لا تقدرنى حق قدرى ،
والآن أرنى هذه النظرة المتعالية فى عينيك أيها الساحر الجاهل ، ماذا
تعرف أنت سوى التمايم والتعاويد والرقى .. اعرف قدرك ، وألزم
مكانك ..

جال عمر العيار بعينه فى الوجوه المتطلعة اليه ، وتوقف بصره
عند الزيبيق ، وقال وهو يهز كتفيه :
- أنت ترى ، هو على شفا الجنون ..
قال الزيبيق :

- جنون العظمة والافراط فى حب الذات ..
قال عمر العيار :
- لقد قال كل ما عنده ، ولم تعد لى به حاجة ..
ثم التفت الى الرئيس سوهى ، وقال :
- أيها الرئيس ان منظر هذا الرجل يذكرنى بكل ما أكره من
صفات ، هل أعدته الى محبسه .
أشار الرئيس سوهى بيده ، فدفع الرجال السلطان قاسم ومافى
ولومبا الى داخل الكهف والسلطان يصرخ ويتخبط بعنف بين أيديهم ،
وهو يتوعد ويهدد ، ويبكى ويتوسل فى وقت واحد ، بينما انساق
لومبا ومافى لأسريهم فى هدوء .. وقال الرئيس سوهى :
- سينفذ فيهم حكم عدالتنا ..
كاد على الزيبيق يحتج ، لولا أن لكزه عمر العيار بيده فى جنبه ،
فأطبق فيه ، وهمس حسن بن الحصرى الى جواره قائلا :
- لومبا ومافى معنا ، ويجب انقاذهما ، فكلام هذا الرئيس صاحب
الجوهرة لا يبشر بخير ..

همس على الزيبيق وهو يضحك قائلا :
- لن يتركهما عمر العيار فهو يعرف أنهما معنا وانس مسألة
الجوهرة هذه ..
قال حسن بن الحصرى هامسا :
- كيف انساها ، وهى تكاد تعنى عينى .. قلت لك هى جديرة
بتاج الخليفة هارون الرشيد .
قال الزيبيق فى حسم :

— وأنا قلت لك أن تنساها تماما .

قال عمر العيار للرئيس سوهى :

— والان أيها الرئيس سوهى لنا حديث مما حول الاسرى الذين

أسلمتهم اليك ، فأنا أعطيتك اياهم لحراستهم لا للانتقام منهم ..

هز الرئيس سوهى رأسه فى عنف فلمعت اشعة المشاعل على

الجوهرة التى كان سناها يخطف الابصار ، وقال :

— فضلك أيها الطبيب لا ننكره ، فلولاك ما وقع أشد أعدائنا عداء

لنا فى أيدينا ، ولكن هذا هو كل ماستناله . منا ومنهم ، الشكر منا

والكراهية والسخط منهم ..

وضحك ، وكانما أعجبته كلماته ومضى يتصايل ويهتز وكانما

استجابة لموسيقى داخلية تطربه وتهز أعطافه . وفجأة دوت طبول

فى الغابة .. طبلة تدق دقات معينة لفترة ، ثم تتوقف وتعود لتدق

من جديد ، ثم تجاوبها طبلة أكثر قربا لتدق نفس الدقات وتتوقف

لتعود فتدق من جديد ، وتتلقف الدقات طبلة ثالثة ورابعة ، فى دق

مستمر ومتشابه ومتصل .. وساد الوجوم الجميع .. وهمس عمر

العيار فى حدة :

— طبول الغابة .. لقد اكتشفت المدينة المرصودة هربكما ..

قال الزبيق فى دهشة :

— تعنى .

قال عمر العيار مقاطعا اياه فى انفعال :

— أعنى ان الوزير مروان أطلق رجاله ككلاب الصيد تجوب الغابة

بحثا عنكما .. ولن يطول بهم البحث كثيرا ، فهذه الطبول تنبه كل

من الغابة من رجال المدينة المرصودة الى ضرورة العثور عليكم ..

تحدث الرئيس سوهى الذى أصابته أصوات الطبول بالوجوم

فكف عن رقصه وطربه ، وقال فى صوت جاد وحازم :

— لن يستطيع أحد العثور عليهما ، فرجالى سيقومون بالتمويه

اللازم ، هيا الى جوف الشجرة وبسرعة ..

ثم صاح فى رجاله فأطفئت المشاعل ، وساد الصمت ، ولم يبق

الا مشعل واحد تقدم حامله الى جوف الشجرة يتبعه الرئيس سوهى

والطبيب الافريقى ، وعلى الزبيق ، وحسن بن الحصرى ، الذى همس

فى قلق :

— لو وقعنا فى أيديهم هذه المرة فلن تجدى ملاعبك يازبيق ..

همس الزبيق فى حسم وهو يدخل الى جوف الشجرة مهتديا

بالمشعل الذى يتقدمه حامله :

— فى مهنتنا هذه يا مقدم حسن ، لا نعبرف اليأس الا مع آخر

انفاس الحياة .

فى قلب الشجرة

وقف حارسان الى جوار فوهة التجويف الكبير فى الشجرة ، بينما قال الرئيس سوهى :

— سنظل هنا بعض الوقت حتى يضل رجال المطاردين .. ولن يطول الامر حتى يبتعدوا عن هذه الناحية من الغابة تماما .

وضحك ضحكة خشنة ، ثم اشار بيده ، فاطفا حامل المشعل مشعله ، وساد ظلام مخيف ، صاح وسطه السلطان قاسم :

— اخرجونى من هنا ، لابد أن أعود الى مدينتى — أنا السلطان وسأعاقبكم جميعا .

قال عمر العيار :

— لابد من تكميمه والا نبه المطاردين الى مكان وجودنا بصياحه .

قال الرئيس سوهى فى ضراوة :

— بل نقتله هو ورجال الملك سلطان وننتهى منهم جميعا ..

وصدرت من ناحيته مجموعة أصوات دلت على تحركه ، وتحرك سلاحه فى يده ، فجأة قال على الزبيق فى صوت محذر :

— مكانك ايها الرئيس سوهى والا ندمت ..

ساد الصمت مكان الرئيس سوهى ، وجاء صوته غاضبا وهو

يقول :

— انا هنا الرئيس ، ولا احد يقف امام ارادتى ..

قال الزبيق فى صوت بارد كحد السيف :

— وانا هنا الزبيق ايها الرئيس ، واياك أن تنسى عناقيد الغضب

الملونة التى ارتسمت فى السماء تمطر اللون والنار والنور ، وتصدر

البرق والرعد .. ولا تنس اننى اطلقتها لتخليص صديقى هنا المقدم

حسن بن الحصرى ، واستطيع أن اطلقها لاشتتك أنت ورجالك ، وكل

رجال الوزير مروان ، ورجال الملك سلطان بحيث لا يعرفون اين هم

ولا من هم ، فهؤلاء الذين فى يدك اسراى انا ، وانا وحدى صاحب

الحق فى تحديد مصيرهم ، فأبعد يدك عنهم ، والا لا تلومن الا

نفسك ..

فجأة صاح السلطان قاسم فى صوت مدعور :

— أبعادوا عنى الزبيق ، افعلوا بى ما تشاءون ولكن أبعادوا الزبيق

أبعادوا الزبيق ..

وجاء صوت الرئيس سوهى مترددا وهو يقول :

- ايها الطبيب ، أنت صديقنا ..

قال عمر العيار :

- لقد أخبرتك منذ البدء أنهم أسرى الزبيق .. والزبيق لا يتخلى

عن أصدقائه ، ولا يترك أسراه لغيره ..

واحس الزبيق بحركة خفيفة الى جواره ، ولكنه لم يلتفت اليها

فقد كان سمعه كله مركزا بمكان الأسرى والرئيس سوهى ، وعاد

عمر العيار يقول :

- ولقد امكنتنى أن اتحكم فى غضب الزبيق حتى الان لينسى

اعلانك الدائم انك تريد قتل أسراه ، أما وقد هممت بقتلهم فعلا ، فقد

تفجر غضب الزبيق ، وحين يتفجر غضب الزبيق فلا أحد يستطيع أن

يقف فى طريقه .. فحذار ايها الرئيس حذار ..

صاح الرئيس سوهى فى غضب :

- لا يحذرني أحد ، أنا بين رجالى ، وأعدائي بين ..

وفجأة انقطع صوته ، وارتفع صوت خبطة ، ثم وقوع جسم فوق

الارض ، مع آه عميقة .. وتحرك الحارسان فى مكانيهما فى قلق

.. وتسدل شبحان نحوهما ، وصدر صوت خبطتين وصدر صوت

وقوع جسدين على الارض وآهتين عميقتين .. وساد الصمت جوف

الشجرة من جديد .. وقال الزبيق :

- أحسنت يا حسن .

قال حسن بن الحصرى فى صوت طروب :

- أسعدنى أن أسكت صوته بضربة من مقبض سيف فوق رأسه

وأسعدنى أن أسكت حركة أحد الحارسين ، وتولى صاحبك عمر العيار

أمر الحارس الثانى .

- لقد أرغمتمانى على أن أشارككما هذا العدوان مع الرئيس سوهى

ورجليه ، وبهذا أنا أدمر جهد أعوام وأعوام من العمل المتصل لكسب

ثقتهم ، وثقة رجاله .

قال الزبيق :

- لن نخسر شيئا ، فسنعيد الامر الى نصابه فى الحال ..

وتحرك كالشبح وهو يهمس :

- مافى

قال مافى فى ترقب :

- أنا هنا .. وكنت أنتظر هذه اللحظة من زمن .

وتحرك الزبيق كالشبح نحو الصوت ، وأخرج خنجره ، وتحسس

رسفى لومبا ، ثم مزق قيوده بخنجره ، وهمس :

- لومبا .

جاء صوت لومبا هادئا وهو يقول :
- أنا أيضا هنا ، ولم أفقد الثقة لحظة أن انقاذى من يد الرئيس
سوهى سيتم على يديك .
وتحرك الزيتيق مرة أخرى كالشبح نحو الصوت ، ومدا خنجره
فمزق قيود اليدين الممدوتين اليه ، وقال فى ارتياح :
الان نستطيع أن نتحدث . . .

ضحك عمر العيار فى مرارة وهو يقول :
- نتحدث ؟ . . وهل عاد فى الامر حديث . . ؟ لقد أمضيت
سنوات طوالا فى استمالة الرئيس وقبيلته حتى حزت ثقته ،
وأصبح أهم صديق لنا فى هذه المنطقة ، وتأتى الان وفى قمة احتياجنا
اليه فتدمر كل شئ ، هذه الخبطة على رأسه مستجمل التفاهم معه
متعدرا بعدها . .

- المسألة مازالت فى يدنا ، وسنتدارك الامر . .

قال العيار فى حنق :

- كيف ؟

قال الزيتيق :

- هذا رجل يعتقد فى أننى أستطيع فعل الخوارق ، فلنستغل

هذا اذن . .

والتفت الى حسن بن الحصرى وهو يقول :

- لقد اصطدمت قدمى بحصى كثير قريب من الشجرة ، اذهب

وأبحث عن حصوات دقيقة جدا . . ثلاث حصوات صغيرة ، وحاذر
أن يراك أحد . .

ودون أن يتحدث تحرك حسن بن الحصرى فى حذر خارجا من

باطن الشجرة ، بينما فك على الزيتيق جردأه الذى يربطه على ظهره
وجعل يعبث فيه حتى أخرج ما أراد ، ثم قال :

- أريد بعض الضوء .

قال عمر العيار :

- هذا خطر يا على فان لم يلفت الضوء رجال المدينة المرصودة ،

فهو سيلفت رجال الرئيس سوهى بالتأكيد . .

وجاء صوت حسن بن الحصرى من مدخل التجويف قائلا :

- ماذا تريد بهذه الحصوات يا مقدم على . .

وقبل أن يجيبه على الزيتيق عاد صوت الطبول يدوى فى الغابة

من جديد ، وأن كان يبدو بعيدا هذه المرة ، ويزداد ابتعادا كلما تكرر

. . وهمس الزيتيق :

— ماذا يعنى هذا الطبل ؟

قال لومبا :

— ان المطاردة تبتعد عن هذا المكان .

وقال عمر العيار :

— لقد نجح رجال الرئيس سوهى فى تضليل المطاردين من رجال

المدينة المرصودة ، وهم الان يتعقبون أثرا خادعا يبعدهم عنا .

تنهد الزبيق وهو يقول :

— اذن نستطيع أن نشعل أحد هذه المشاعل .

قال مافى فى قلق :

— لو زال خطر رجال الوزير مروان ، فمازلنا نواجه خطر سوهى

ورجاله .

قال الزبيق :

— نحتاج الى النور لنتغلب على خطر سوهى ورجالهم .

وفجأة اشتعل وهج فى التجويف ، وتقدم حسن بن الحصرى يحمل

مشعلا مشتعلا ، وقال :

— هذا هو النور الذى تريد يامقدم على .

وفى صمت تناول على الحصوات ، وفتح زجاجة صغيرة ، وأمسك

الحصوات بملقاط رفيع ، ومضى يصب عليها من الزجاجة سائلا لزجا

ما أن مس الحصوات حتى أصدر دخانا أزرق ، وتغير شكل الحصوات

على الفور وتغير لونها ، ثم أغلق الزجاجة بعذر ، وأخرج زجاجة أخرى

صب منها سائلا فوق الحصوات فأصبح قوامها شفافا كالزجاج

وتعددت ألوانها حتى وكأن كل ألوان الطيف قد اجتمعت فيها ، وتأوه

لومبا متعجبا وهو يقول :

— لست أدري ايكما الساحر ، هذا الطبيب أم أنت ؟

ضحك الزبيق ، وهو يبذل قطعة من قماش من الزجاجة الثانية ،

ويرسم بها دائرة ملونة باللوان الطيف على جبهة الرئيس سوهى ، ثم

على جبهتى الحارسين ، وقال :

— كل ما نجهله نسميه سحرا ، هذا علم يالومبا . .

قال حسن بن الحصرى :

— بل هذا ملاعب الزبيق التى لا حصر لها .

لم يجب الزبيق ، بل انهمك بعيد الزجاجتين الى الجرنندان ،

ويخرج زجاجة كبيرة نوعا ، وحين فتح الزبيق سداتها شساعت فى

المكان رائحة نفاذة . . واقترب على بالفوهه من أنف الرئيس سوهى

الذى سرعان ما انتفض وهو يعود الى وعيه ، وقرب الزبيق الفوهة من

أنفى الحارسين فافاقا فى الحال ، وحين أعاد الزجاجاة الى مكانها فى الجرندان حرص على أن يرمى الحصوات ، كل حصوة قريبة من رأس رجل من الرجال ... وتأوه الرئيس سوهى ، واعتدل فى جلسته ، وأخذ يتحسس رأسه ، وهو يستجمع حواسه تدريجيا . ثم قال :
- ما هذا ، ما الذى حدث ؟ .. أين أنا ..

و حين بدأت نظرات عينيه تعود الى تركيزها الطبيعى ، قال الزيبق وهو يضحك :

- أنت هنا معنا فى تجويف الشجرة فى قلب الغابة على مقربة من المدينة المرصودة ، أما الذى حدث فهو أنك أغضبتنى .. وحين أغضب تنطلق الصواعق من السماء على من أغضب عليهم فتصرعهم فى الحال .

تحسس الرئيس سوهى رأسه ثم جبهته ، فخرجت يده مليئة بالالوان .. فنظر الى كفه الملوثة وقال :

- ضاعقة على جبهتى ، ولم أمت ..

ضحك الزيبق وهو يقول :

- كان غضبى خفيفا فأحمد الله على هذا .

بينما مد كل من الحارسين يده الى جبهته لتعود ملوثة بالاصباغ، وارتسمت نظرات الذعر فى عيونهما ، بينما أخذ كل منهم يحدد فى العلامة القريبة فوق جبهة الآخر، ثم حولا بصرهما الى العلامة المشابهة على جبهة الرئيس سوهى ، الذى أخذ ينقل بصره بين علامتين فى وسط جبهة كل منهما .. ظهرت علامات الدهشة والخوف على وجهه ، ومد يده يتحسس رأسه ، وقال فى صوت متخاذل :

- الشهاب فى الجبهة والالام فى رأسى من الخلف ..

أشار الزيبق الى الحصوات الغربية الى جوارهم ، وقال :

- هذه الشهب كانت تلمع فى السماء ، ثم دخلت من فوهة هذا

التجويف ليصيب كل واحد منها واحدا منكم فى جبهته ، ليتجمع الالام فى مؤخرة رأسه .. وسيزول الالام تدريجيا فلا تخف أيها الرئيس سوهى ..

مد الرئيس سوهى يده الى الحصوات الثلاث يتأملها فى دهشة وامعان وقال :

- لم أر فى حياتى مثل هذه الاحجار ، لا هى من الصخر ، ولا هى

من الجواهر .. وهذه الالوان كيف اجتمعت كلها معا .. ؟

قال الزيبق وهو يبتسم :

- لو كنت رأيتهأ وهى منيرة فى السماء تزمجر وتبرق وترعد

-لعرفت أنها شيء خاص جدا ، هذه شهب محترقة أيها الرئيس ..
قال الرئيس سو هي وقد شحب وجهه .. :
- وانت سخرتها لانقاذ السلطان قاسم ورجال مدينة بحر الغزال
من خنجري ..
قال الزبيق :
- كنت ستذبحهم وهم مقيدون ..
ازداد شحوب وجه الرئيس سو هي ، وجاء صوته ضعيفا
متخاذلا ، وهو يقول :
- هم أعدائي ، وأعداء قبيلتي ..
قال الزبيق :
- وحياتهم مهمة لي كل الهمية ..
رفع سو هي رأسه في حدة وهو يقول :
- لماذا ، لقد قال السلطان كل ما يعرفه للساحر ، ولم يعد له
نفع ..
قال الزبيق في صبر :
- ولكنه نافع لي أنا ، فننقذ المدينة المرصودة عتيد حتى الجزيرة
المسحورة ، ولن أستطيع الذهاب اليها الا بموافقة السلطانة زينب ،
وهي قد وعدتني أن تؤمن طريقى في الذهاب وفي العودة بشرط أن
أمكث عندها شهرا عندما أفوز بما جئت من أجله ..
قال الرئيس سو هي :
- وهي لن تنفذ وعدها الا اذا أسلمتها السلطان قاسم ..
قال الزبيق :
- هذا صحيح ، سأسلمه لها ، فنحن نعرف الان كل ما عنده من
معلومات ..
فجأة صاح السلطان قاسم في صوت تزداد نبرات الخبل وضوحا
فيه كلما استمر في صياحه المحموم وقال :
- زينب لابد أن تتزوج الملك سلطان ملك بحر الغزال ، لتصبح
ملكة بحر الغزال ، ويترك لي ملك المدينة المرصودة ، ثم استقل وأصبح
الخليفة .. أنا الخليفة اركعوا أمامى ، أنا صديق ملك الافرنج ، أنا
صديق كل ملوك الولايات هنا في أفريقيا ، وهناك فى اسيا .. أنا
السلطان الاعظم ..
قال حسن بن الحصرى فى ضيق :
- لقد جن الرجل .
قال عمر العيار فى تودة :

— لقد بدأ جنونه يوم بدأت خيانتة .. انه الطموح الذى يدمر صاحبه ..

تحسس الرئيس رأسه من جديد ، ثم تعامل على نفسه ووقف ، ونظر الى الزبيق طويلا قبل أن يقول :
— أنا لا أريد أن أعادى واحدا له قواك الخفية هذه ، افعل بالسلطان ما تشاء ، ولكنى سأعاقب لومبا ومافى على سالفاساءاتهما لى ولقبيلتى ..

قال الزبيق فى صوت هادى :
— ليس بين لومبا ومافى وبينك عداة ، فهما ان كانا قد أساءا اليك فقد كان هذا بأوامر ملكهم سلطان ، وقاما بواجبهما فى خدمته وخدمة مدينة بحر الغزال .

صاح الرئيس سوهى فى غضب :
— لقد قادا الغسارات على القبيلة ، وأسرا منا الكثيرين ما زالوا يحيون حياة العبيد فى قصر الملك سلطان ..
قال مافى مت دخلا فى الحديث :

— كانت قبيلتك تغير على مراعيننا ايها الرئيس سوهى .
صاح الرئيس سوهى مستمرا فى غضبه :
— هذه خيرات الله خلقها سبحانه لعبيده ، فلا يحتكرها أحد .
قال لومبا :

— أمامكم الغابة واسعة ، فلماذا تغيرون على القطعان وهى ترعى فى زمام مدينة بحر الغزال ؟
وصل غضب الرئيس سوهى الى قمته وهو يقول :
— ولماذا تغيرون على المدينة المسحورة وهى أرضنا نحن وتسرقون الجواهر والاحجار الكريمة .
قال لومبا فى صبر :

— الملك يعتبرها من أملاكه ، فهى حدود الملائكة للمدينة المسحورة .
قال سوهى :

— كان السلطان قاسم يعتبرها من أملاكه أيضا .. فمره هو يغزونا ويذلنا ويأسر رجالنا ويسبى نساءنا ، ومرة تأتون انتم بحرابكم وسيوفكم لتسرقوا خيراتنا وتقتلوا محاربينا ..
تنهد لومبا وهو يقول فى يأس :
— انه القدر الذى جعل جزيرتكم غنية بطمع فيها كل الاقوياء حولكم ..

قال الزبيق :

— أيها الرئيس سوهى ان لومبا ومافى جنود مخلصون لبلادهم ،
وينبغى أن تنزع من قلبك كل حقد شخصى تكنه لهما .. أما أمر
الجزيرة فأعذك اننى سأحفظ أمنها ، وأبعد عنها أخطار الطامعين فيها
.. هل تثق فى وعدى يقطعه لك الزبيق على نفسه ؟

— انفثا غضب الرئيس سوهى ، وأرتسمت على وجهه ملامح أمل طال
غيابه ، وقال :

— أتعنى ما تقول حقا .. ؟

قال عمر العيار .. :

— الزبيق لا يقول الا ما ينوى أن يفعل .

ابتسم الرئيس سوهى ، وأشرق وجهه كله ، ومد يده مصافحا
الزبيق ، وهو يقول :

— ليس لنا من أمل الا أن نعيش فى سلام ، فإن ضمنت لنا هذا ،
فقد حققت لى ولقبيلة البونت كل ما كنا نحلم به ..
شد الزبيق على يد الرئيس سوهى ، وهو يقول :

— ولوما ، ومافى .. ؟

قال الرئيس سوهى :

— هما من اتباعك ، فهم من الان أصدقاء ..

قال لومبا فى بطة :

— لن نندم ايها الرئيس سوهى على كلماتك هذه أبدا ..

— قال الرئيس سوهى :

— لقد صدق الزبيق فليس بينى وبينكما عداة شخصى ..

قبل أن يرد أحد على كلماته ، عاد صوت الطبول يدق من جديد ،
فصمت الجميع يسمعون الدقات المتوالية والمتسابعة ، وهى تقترب
تدريجيا من مكانهم .. وحين صمتت اصوات الطبول قال مافى :

— لقد عادوا الى الاثر الاصلى ..

وقال لومبا :

— انهم يتجهون نحو هذا المكان .

قال الرئيس سوهى :

— اطفئوا المشاعل فى الحال ، وانتظرونى هنا .

وسرعان ما اطفئت المشاعل ليسود جوف الشجرة ظلام مطبق ،
بينما أشار الرئيس سوهى الى الحارسين ، وأنطلق مسرعا والرجلان
يتبعانه .. وقال الزبيق :

— لو وصلوا الينا فسنقاتلهم ..

قال عمر العيار فى ثقة :
- لقد ضللهم الرئيس سوهى مرة ، وهو يستطيع أن يضللهم
مرة ثانية ..

فجأة عاد الرئيس سوهى مضطربا وهو يقول :
- الجوهرة ، لقد سرقت قلادتى .. أين الجوهرة ؟
وجم الزبيق ، ثم لكز حسن بن الحصرى ، وقال فى صسوت
ذى مغزى :

- لم تسرق قلادتك أيها الرئيس ، وإنما سقطت منك قريبا
من السلطان قاسم حين كنت تهم بقتله .. وسيأتيك بها المقدم حسن
بن الحصرى ، فقد كان قريبا منك ومنه .. هيا يامقدم حسن أحضر
القلادة والجوهرة للرئيس سوهى حيث سقطت .

ودمدم حسن بن الحصرى محتجا ، فدفعه على الزبيق بقوة ، وهز
حسن رأسه فى يأس ، وتحرك الى داخل التجويف وهو يخرج القلادة
والجوهرة المثبتة بها من جيبه ، ثم تظاهر أنه يبحث قرب السلطان
قاسم ، ثم صاح :

- انها هنا فعلا ، لقد وجدتها ..
وتنهى الرئيس سوهى فى ارتياح ، بينما قال الزبيق :
- كنت أعرف انك الوحيد الذى يستطيع أن يعثر عليها ، أعطاها
لصاحبها يا مقدم حسن ..

ومد حسن بن الحصرى يده بالقلادة الى الرئيس سوهى الذى
أخذها فى لهفة ومضى يتحسس الجوهرة بأصابعه ، ثم ارتداها فى
عنقه ، والتفت خارجا مرة أخرى وهو يقول :
- لقد نصبت لهم كمينا بالقرب من هنا ، لو اقتربوا منه كانت
نهايتهم ..

قال عمر العيار :
- نحن لا نريد سفك الدماء أيها الرئيس سوهى ، فحاول أن
تصرفهم بالحيلة .
لم يرد الرئيس سوهى ، وإنما خرج مسرعا ، بينما قال حسن بن
الحصرى :

- هل كان لابد أن ترغمنى على إعادة الجوهرة يامقدم على ؟
قال الزبيق :

- انس الجوهرة ، وابتعد عنها تماما .
ضحك عمر العيار وهو يقول :

- أنت تطلب منه المستحيل ، هذا طبع فيه ، واللص لص ولو ارتدى مسوح الزهاد .
 ودمدم حسن بن الحصرى غاضباً ، بينما ارتفع صوت السلطان قاسم فجأة صائحا :
 - الى يا جنود المدينة المسحورة ، انا هنا أسير ، انا سلطانكم وقائدكم ومنقذكم .
 صاح حسن بن الحصرى فى حلق :
 - سيكشف هذا المجنون مكاننا بصياحه ..
 بينما قال عمر العيار :
 - هو لا يدري فى جنونه انهم ينحشون عنه لقتله لا لانتقاذه ...
 قال على الزبيق :
 - اذهب فكمم فمه يامقدم حسن حتى لا يقودهم الينا بصياحه .
 وتحرك حسن بن الحصرى فى الظلام فى صمت نحو السلطان ..
 بينما قال الزبيق :
 - يجب أن نخرج من هذا المكان ، فنحن هنا كالفار فى المصيدة .
 قال عمر العيار :
 - الرئيس سوهى يعرف هذه الغابة وطرقها كاصابع يديه ويستطيع أن يبعدنا عن كلاب الصيد هؤلاء ..
 وقال المقدم حسن بن الحصرى :
 - كان هذا المخبأ مهما يوم كان هناك ثلاثة أسرى مقيدين اما الآن فليس من عائق يحد من حركتنا الا السلطان وهو مقيد ومكتم ، ومن الممكن أن أحمله فى هروبنا اذا قررتم الهروب ..
 قال الزبيق :
 - ننتظر الرئيس سوهى ونطرح عليه الامر .

رقصة الانتصار

حين عاد الرئيس سوهى الى قلب الشجرة المجوفة كان مطرقا ويبدو عليه الضيق ، وبعد فترة صمت قصيرة جال فيها بعينيه فى الجميع وقال :

— انهم يقتربون ، والقمر قد بدا يبرز ، وسيسهل ضوءهم مهمتهم .
قال لومبا :

— نستطيع ان نهرب قبل ان يصلوا الى هذا المكان ، ونختفى عن أنظارهم فى الغاية ..
وقال مافى :

— والغاية لا يعرف مسالكها مثلك أيها الرئيس سوهى ، كم اختفت قبيلتكم كلها أمامنا ونحن نطاردها ، وكأنما انشقت أشجار الغابة وابتلعتهما بكاملها .

ضحك الرئيس سوهى فى مرارة وقال :
— ان كثرة هروب أبناء القبيلة علمتهم المسالك والمخابىء والحيل ، وقد أستطيع الاختفاء أنا ورجالى ، ولكن انتم ؟ لا اظن أن هذا فى قدرتكم ..

فجأة رفع على الزيتق رأسه ، وقال فى حزم :

— لم يبق الا طريق واحد للخلاص .

قال حسن بن الحصرى فى أمل :

— ما هو .. ؟

قال الزيتق :

— هما يطاردان أسيرين هما أنا وانت يا مقدم حسن ، فلو سلم

الأسيران نفسيهما لهم اكتفوا بهذا وعادوا دون ان يخطر ببالهم أمر سوهى ورجاله ولا أمر السلطان قاسم ..

قال عمر العيار وهو يبتسم :

— هذا قرار شجاع اذ كيف تضمن انهم لن يبادروكم بحرابهم

وسيوفهم بمجرد رؤيتهم لكم دون انتظار لحديث أو تفاهم ..

ضحك الزيتق وقال :

— هنا يأتى دور الساحر الافريقى ، فهذا الساحر سياسر الهاربين

ويقدمهما لقمة سائغة للوزير مروان والسلطانة زينب ..

ابتسم عمر العيار وهو يقول :

— لا يفكر فى مثل هذا الا الزيتق ، فمن ناحية تتوقف المطاردة ،

ومن ناحية أخرى تعلو مكانة الساحر الافريقى قال الزيبيق مكملًا :
- ولا تنس ان الوزير مروان والسلطانة زينب يريدان السلطان
في أيديهم ، وهما لن يقدموا على قتلنا قبل ان يستردا السلطان
المخلوع ..

قال حسن بن الحصرى وهو يضجك :
- ويفوز الزيبيق بجواز المرور الى الجزيرة المسحورة ..

قال الزيبيق فى حزم :
- ليس أمامنا الا هذا ..

ثم التفت الى لومبا قائلا :
- أنت ومافى مسئولان عن هذا السلطان المجنون ، ومسئولان
ايضا عن باقى حاجاتى المتروكة فى الكهف ، فى الجبل المقابل للمدينة
حيث كنا ، وحيث تركت حاجاتى الهامة لى .

قال لومبا :
- يسعدنى ان تثق فىنا يازيبيق - حاجاتى تحت الحفظ ، وأسرك
نحن نحرصه لك .

قال الزيبيق :
- اذن يغادرننا الان الرئيس سوهى ورجاله الى ناحية ، ويخرج
مافى ولومبا مع الاسير الى الكهف من ناحية أخرى . أما الطبيب
الافريقى فيقودنى انا والمقدم حسن ، ويستعد لمقابلة الفارس باسم
ورجاله .

كان الرجال يتقدمون فى حذر ، مكونين نصف دائرة واسعة ، وقد
أشهروا أسلحتهم ، وساد بينهم صمت قلق ، فقد كانوا يدركون أنهم
وراء فريسة عنيدة ، وان مطلوبينهم بملكون من القوة وسعة الحيلة الكثير
كما أنهم يملكون القدرة على تسخير قوى شاذة لا يستطيعون فهمها ..
وهمس الفارس باسم لرجاله فى صوت أجش قائلا :

- جائزة كبرى لمن يستطيع أن يقبض على الزيبيق ، أو صاحبه ،
سأجعل الرجل الذى يتمكن من أحدهما ثريا طوال حياته ، وسأرفع
قدره الى أعلى مكان بين الفرسان ..

وتبادل الرجال النظرات فى قلق ، وهم يحدقون حولهم فى أشجار
الغابة الكثيفة التى ينيرها ، ويكشف الطرقات خلالها ضوء القمر اللامع
الذى بلغ منذ لحظات قمة اكتماله - وعاد الفارس باسم يقول فى نفس
الصوت الهامس الاجش :

- الاثر الذى نتبعه هذه المرة حقيقى وحاسم ونحن فى الطريق
اليهم ، فقط التزاموا الحذر .

وفجأة صاح واحد من الرجال قائلاً :

— انظر ايها الفارس ، أمامنا نار مشتعلة عن بعد .
ورفع الفارس يده ، فساد صمت واجم جميع الرجال ، وهمس :
— أين .. ؟

وعاد صاحب الصوت يقول :

— لقد رأيت وهجها ، هناك عند يمين هذه الشجرة الكبيرة .
قال باسم في حذر وهو يحدق النظر في الاتجاه الذي حذره الرجل :
— ربما كانت خدعة — انتبهوا .. لا هي نار حقيقية .. لنقترب
منها بحذر وصمت ، وكل يشهر سلاحه في استعداد ..
ومضى الجميع يتقدمون ، وكل حركة لها حساب ، وكل نقلة قدم
تتم في هدوء ، والعيون مصوبة نحو هذا الشعاع المتذبذب البعيد
الغريب .. وكلما تقدموا تعالت اليهم أصوات غناء وقال واحد :
— أعرف هذا الغناء ، انه الساحر ..

وقال آخر :

— انه غناء النصر ، الساحر يحتفل بالنصر .
قال الفارس باسم وهو يكتم انفعاله بصعوبة :
— لا مكان للساحر هنا .. هذه خدعة .

قال الاول :

— ولكنه يغنى ، وصوته يأتى من ناحية النار المشتعلة .
وقال الثانى :

— وغناؤه للنصر .. أعرف هذه الاغنية ، بل أكاد أحفظها .
صاح الفارس باسم فى عنف :
— كفوا عن الكلام ، ولنتقدم فى حذر .

ومضى الجميع يسرون فى حذر وقد خلفت كلمات قائدهم الرعب
فى أعماقهم .. وكلما تقدموا ازدادت اغنية الساحر وضوحاً فى
آذانهم ، والودادت النار المشتعلة وضوؤها فى أبصارهم .. وقال
الفارس باسم :

— لعلها حيلة من حيل الزبيق فليلتزم كل منا الحذر .
وحين ازدادوا اقتراباً من البقعة التى يشع منها لهب النار المتحركة
قال الفارس باسم :

— انه يبدو وحده ..

قال الفارس الاول :

— هذا هو الطبيب الساحر .
وقال الفارس الثانى :

— انه يرقص رقصة الانتصار .. ويرقصها وحده حول النار .
ورفع الفارس باسم يده فتوقف الفرسان عن السير ، بينما
انبعث صوت جهورى عميق النبرات من عند النار المتوهجة يقول :
— لقد تأخرت أيها الفارس باسم ، أنا هنا فى انتظارك من زمن .
همس الفارس الاول :

— ألم أقل لكم هو الطبيب الساحر ، وأنا أعرف صوته ..
قال الفارس باسم :
— انتظرونى هنا ، وراقبوا كل ما يحدث ، وكونوا على استعداد
للتدخل أن تطلب الامر ذلك .
ثم صاح فى صوت عال موجهها حديثه ناحية وهج النار المتألق :
— أنا قادم اليك أيها الطبيب الساحر ..
وارتفع صوت الطبيب الساحر يجيبه وفى صوته نبرة سخرية
خفيفة :

— تقدم ولا تخش شيئا فأنا وحدى هنا ..
وتقدم الفارس باسم شاهرا سيفه حتى جاوز مجموعة الاشجار
التي تحجبه عن كومة الاحطاب المشتعلة التي يرقص حولها الطبيب
الساحر .. وراه يرفع يديه ووجهه الى القمر ، وثانية يركع الى الارض
ويقبلها وهو يهز رأسه فتتهز القلادة المحيطة بعنقه ، وتحدث حليها
صوتا معدنيا صدئا ، وهو مرة نالته يتقافز حول النار وهو يرفع
قدميه فى اتساق مع حركة ذراعيه التي لا تهدأ .. ووقف يرقبه وهو
يبتسم فى سخرية وهو يقول :

— أحد رجالى قال أنك ترقص رقصة النصر أيها الطبيب الساحر
.. فهل انتصرت على شياطين الغابة ، أم تغلبت على الروح الشريرة
التي تطاردك .

توقف الطبيب الساحر عن رقصته ، ثم ركز بصره على الفارس
باسم ، وقال فى تودده :

— لم أكن أعرف أن لك هذه البصيرة النافذة أيها الفارس باسم
فقد أصبت كبد الحقيقة بحديثك هذا ، فأنا فعلا انتصرت على شياطين
الغابة ، وأنا فعلا تغلبت على الروح الشريرة التي تطاردها أنت .
— قطب الفارس باسم حاجبيه ، وركز بصره فى الطبيب الساحر ،
وقال :

— ماذا تعنى تماما أيها الطبيب ؟ ..

قال الطبيب الساحر :

— الا تعتبر الزيبق والفارس الذى يصحبه من شياطين الغابة ،

واليس الزيتيق هو الروح الشريرة التي يورقك وجوده ، تخاف من حب الاميره له وعرفانها بجميله عليها ، وتغار من قدرته على الحرب ومهارته وحيله وملاعيبه ..

قال الفارس باسم وقد ازداد توتره ، واشتدت قبضته على مقبض سيفه :

- تعنى أنك تعرف مكانه ..

قال الطبيب الساحر :

- بالطبع ولهذا أرقص رقصة الانتصار .

شهر الفارس باسم سيفه وتقدم نحو الطبيب وهو يهز مسيفه وصاح :

- اخبرني أين هو ، لن يفلت منى هذه المرة ، وسأمزقه بسيفي في الحال ..

قال الطبيب الساحر ، وهو يهز كتفيه في لا مبالة :

أعد سيفك الى غمده فلن تمزق به أحدا اليوم ..

وكان الفارس باسم قد اقترب في انفعاله من الطبيب الساحر حتى كادت ذبابة سيفه تمس صدره ، ورفع الطبيب الساحر يده محذرا وهو يقول :

- حذار ايها الفارس فذبابة سيفك في مكان قاتل ، ولو حركته اكثر من هذا لاخترق صدري

قال الفارس باسم :

- لو لم تخبرني بمكان الهاربين لانتهى امرك ..

ضحك الطبيب الساحر ضحكة ساخرة ، وقال في صوت هادئ

يحمل تهديدا خفيا ، لم يخف امره على سمع الفارس باسم :

- من استطاع أن ينتصر على الزيتيق والمقدم حسن بن الحصرى ،

- لا نخش سيف مثلك . أخفض سيفك ايها الفارس .

ولم يحول الطبيب الساحر عينيه عن عيني الفارس باسم فقد كان

يدرك أن احساس الفارس باسم بأن عدوه قد غدا في متناول يديه،

قد ينسيه العقل بسرعة مذهلة وبحركة ماهرة القى صولجانه بسيف

الفارس باسم وأطاح به ، وقفز مسرعا الى الامام ليضربه بقبضته

ضربة أوقعته فوق الأرض ، وسرعان ما كان سيف الفارس باسم في

يده ، وقد استرده من حيث وقع ، وسدد ذبافته الى عنقه وهو

يقول في صوت ساخر :

- قل لرجالك يلزموا أماكنهم .. فانا رجل عجوز ويدي ترتعش،

وسيفك ثقيل ، وقد يشير منظرهم خوفا فتتهز يدي ويخترق سيفك

وهو في يدي عنقك دون أن أستطيع أن أمنع يدي عن الرعشة .

كان الرجال قد تحركوا بالفعل عندما شاهدوا ما حدث فجأة لقائدهم ، شلت المفاجأة حركتهم لثوان معدودات ، ثم تحركوا فجأة وهم يتصايحون في غضب متجهين نحو رئيسهم والطبيب الساحر . . وكان الفارس باسم لا يكاد يفهم ما حدث له ، ولا كيف استطاع الطبيب الساحر المتهالك العجوز أن يطيح بالسيف من يده ، ثم يلقيه أرضاً بضربة واحدة ، وقفزت الى ذهنه حركة الزبيق السريعة في بلاط السلطان قاسم ، وكيف استطاع أن يأسره وهو وسط حرسه ، وبدأ الخوف يتسلل الى قلبه . . وقد ثبتت عيناه عند حد السيف المسلط عليه ، وأشعة القمر تلمع على حد سلاحه ، والذبابة المديبة القاتلة تهدد عنقه . . وعاد صوت الطبيب الساحر يقول في تهديد واضح :

— قلت لك ، قل لهم يلزموا أماكنهم . .

وتحركات عين الفارس باسم في محجريهما في رعب ، وأشار بيده وقد احتبس الكلام في حلقه ، فأزاح الطبيب الساحر ذبابة السيف قليلاً عن عنقه ، وبعد محاولات متعددة استنفدت قوة الفارس باسم انطلق صوته صارخاً في يأس :

— الزموا أماكنكم ، الزموا أماكنكم .

وجمد الرجال في أماكنهم ، ووقفوا حائرين يتبادلون النظرات ، وينقلون عيونهم بين قائدهم والطبيب الساحر في حيرة وقلق . . وقال الطبيب الساحر في صوت هادئ وهو يبعد السيف أكثر عن جسده الفارس الراقدة فوق الأرض :

— تستطيع الآن أن تقف ، واحذر من أى حركة قد يسبب عظمى العجوز فهمها .

وفي حذر شديد جمع الفارس باسم عضلات جسده ليقوم ببطء واقفاً ، وبداه مجنحتان بعيداً عن جسمه تماماً ، وقال :

— والان ماذا تريد أيها الساحر . .

ابتسم الطبيب الساحر ، وقال :

— أريدك أن تتبعني الى هذه الشجرة .

تبع الفارس باسم بنظرة حركة السيف الذي كانت ذبائته نحو فراغ مظلم في جوف شجرة هائلة ، تتراقص حولها أفرع الشجرة وأوراقها على ضوء النار المتذبذبة المنبعثة من الحطب الذي أوقده الساحر وتضيء أشعة القمر بعض مدخلها ، بينما يطبق الظلام الدامس على معظم التجويف الكبير في قلب الشجرة . . وارتجف جسده كله ، وأحس بيد من حديد تطبق على قلبه ، بينما امتلأت جبهته بالعرق البارد ، وقال في صوت مهتز :

— لماذا تريد أن أتبعك الى جوف هذه الشجرة . . مثل هذه الأماكن

تسكنها الحيات الضخمة .. وتآوى اليها الشياطين والمردة ..
لمعت عينا الطبيب الساحر سخرية من خوف الفارس باسم الذي
افقده كل شجاعته ورباطة جأشه ، وقال :

— هذه معتقدات العجائز والصبية ، ولا أظن فارسا مثلك ، وصل
الى ما وصل اليه من مكانة في بلاط المدينة المرصودة يخشى منها ، أو
حتى يؤمن بصحتها ..

فعملت كلمات الطبيب الساحر ونبراته الباردة فعلها في اعماق
الفارس باسم ، فالتفت حوله في خجل ، وقد حل احساسه بالعار محل
احساسه بالخوف داخل نفسه . وتمالك نفسه في صعوبة وهو يقول
في لهجة تشمل معاني الاعتذار والخجل :

— مطاردة الاشباح تحدث في الاعصاب فعلها الاكيد ، وهذا الزيتق
ليس الا كالأشباح والسراب الخادع ما أن اقترب من اثاره أو أتأكد
أننى أتبع الطريق الصحيح اليه حتى يتبدد كل شيء فجأة ، لتصهرو
الاثار لتظهر في ناحية أخرى .

وتنهده وهو يتمالك نفسه تدريجيا ، وقال :

— لقد قضيت الليل بطوله انا ورجالى في مطاردة غريبة ، وكأننا
في كابوس ولا نستطيع الافاقة منه .. ثم .. وتوقف عن الحديث ،
وهو يتيح لعضلاته أن تستريح من توترها ، وللهمدوء أن يعود الى
نفسه تدريجيا ، ثم نظر في عيني الطبيب الساحر ، وهو يقول :
— ثم تظهر انت ، كأنما انشقت ارض القابة فجأة عنك ، وعن
فارك المتوهجة .. انت برقصاتك المخيفة الغريبة وسسط الغسابة ،
وحديثك عن الانتصار على الشياطين ، ثم حركتك السريعة وأنت تطيح
بسيفى وليس معك الا هذا الصولجان الهزيل .. و ..

وحك دقنه بيده وقد بدأت ابتسامة باهتة تعلو شفثيه وقال :
— لم يضربنى أحد من قبل مثل هذه الضربة التى طرحتنى
ارضا .. وكان الفارس باسم قد عاد الى هدوئه السابق ، فتحولت
الابتسامة الباهتة على شفثيه الى ابتسامة ساخرة وهو يقول :
— من أنت ؟ فلا أظنهم يعلمون السحرة والاطباء فنون القتال
بالسيف والمصارعة واللكم ..

لمعت عينا الطبيب الساحر ، وهو يبادل الفارس باسم ابتسامته
تمثلها وقال :

— أنت لا تعرف ماذا نتعلم فى مهنة الطب ايها الفارس .. وعلى
كل حال انا من سيعيد اليك أسيريك الهاربين ، والان ..
وعاد يشير الى فوهة الشجرة المهلكة ويقول :

— هما مقيدان مكمان هنا ، لا يملك أحدهما لنفسه شيئا ،
وهما هديتي اليك ، والى المدينة المرصودة وسلطانتهما ..
وتحرك الفارس باسم نحو الشجرة ، فرفع الطبيب الساحر
يده يوقفه محذرا . ووقف الفارس باسم صامتا وهو يقول وهو يهز
رأسه فى فهم :

— هناك ثمن ..

قال الطبيب الساحر :

— صدقت أيها الفارس باسم ..

تنهد الفارس باسم ، وهز كتفيه فى استخفاف وهو يقول :
— بالطبع .. فلا أحد يقدم على هذه المغامرة التى أعجزت فرسان
المدينة المرصودة جميعا الا اذا كان يريد لها ثمنا .. ما الثمن أيها
الطبيب الساحر ؟

كان صوت الطبيب الساحر هادئا وهو يقول :

— ليس ثمنا هو شرط .

نظر اليه الفارس باسم فى دهشة وهو يقول :

— شرط ؟

استمر الطبيب الساحر يقول فى صوته الهادى الهازى معا :
— اشترط أن تعدنى بشرفك كفارس الا نمس الاسيرين بسوء
حتى نسلهما الى السلطانة زينب ، ولها هى وجدها ان تقرر ماذا
تريد أن تفعل بهما ..

قطب الفارس باسم حاجبيه ، وقال وهو يضبط على كلماته :

— تعنى أنك تريد حمايتهما من سيفى أيها الطبيب الساحر ..

ضحك الطبيب الساحر فى سخريه وهو يقول :

— سيفك مازال فى يدي ، أنت لا تملك سيفا أيها الفارس ، وأنت

لم تأسرهما ، بل الذى أسرهما هو أنا ، ولذا فمن حقى أن أقرر ماذا

يتم فى أمرهما حتى يتم تسليمهما الى السلطانة .

احمر وجه الفارس باسم ، وضرب الارض بقدمه فى عجز وحنق ،

وقال :

— والسلطانة لن تقتل الزبيق .. فهى مخلوعة به ..

قال الطبيب الساحر .. وهو يقترب من الفارس الحائق :

— بل هى مفتتنة به ، وأنت أعمت قلبك الفيرة ، وانستك أن

الزبيق وحده يملك المفتاح الى السلطان المخلوع الهارب ، والسلطانة،

وكذلك الوزير مروان يعرفان أهمية الحصول على السلطان ومحاكمته

أمام شعب المدينة المرصودة ، لتتم فيه كلمة العدالة فيما اقترفت

يداه في حق المدينة ، وفي حق السلطنة ، وكذلك في حق الخليفة
وانت تعلم ان حياتك نفسها لا تساوى واحدة من هذه الاحطاب الجافة
التي اكلتها النيران لو هرب السلطان قاسم الى حليفه ملك بحر الفزال
الملك سلطان ، وعاد مع رجاله لغزو المدينة المرصودة من جديد ،
والانتقام من اعدائه ، والذين ساعدوا على عزله عن عرشه .
أطرق الفارس باسم برأسه الى الارض .. وكلمات الساحر
الافريقى تنفذ الى عقله لتبعد عنه الغضب والحماض اللذين اعمياه حقا
عن حقيقة مهمته ، ثم رفع رأسه قائلا :
- لم اخرج على رأس فرسانى لقتل الزبيق وانما لاسره ..
قال الطبيب الساحر :
- تعطينى الوعد الذى طلبته منك ..
تنهد الفارس باسم وهز كتفيه فى استسلام وهو يقول :
- لك كلمتى ، سيصل الاثنان امام السلطنة سالمين ..
قال الطبيب الساحر وهو يبتسم ابتسامة الرضا :
- اذن هيا بنا الى داخل الشجرة .
ضحك الفارس باسم وهو يسبقه الى داخل التجويف قائلا :
- وسيرقص أهل المدينة المرصودة كلهم رقصة الانتصار .

الرجال يغيرون جلودهم

عادت القرية تضج بدقات الطبول من جديد ، عدة دقات ذات ايقاعات معينة ثم تصمت ، لتتبعها طبول جديدة تدق نفس الدقات من جديد . لتسلمها لمجموعة ثالثة ، وسرعان ما كانت أخبار أسر الزبيق وصاحبه على لسان كل من فى الغابة ، وسرعان أيضا ما وصلت المدينة المرصودة وشاعت بين أهلها ، فأيقظتهم من نومهم قبل موعد استيقاظهم العادى بساعات - واضيئت المصابيح لتتوهج المنازل بضوئها ، كما اشعلت المشاعل فى الطرقات والميادين ، وخرج الناس من بيوتهم يرقبون بوابة المدينة الكبيرة ، ويتوقعون القادمين الذين أُنذرتهم الطبول باتجاههم نحو المدينة ، بينما هرع عليه القوم واعضاء البلاط الى القاعة الملكية حيث جلست السلطانة على عرشها ووقف الى جوارها الوزير مروان وهو يعبث فى لحيته ، وقد استغرق فى تفكير عميق ، أفاق منه على ازدياد صيحات الجماهير المحتشدة وصياحها ، وهرعت السلطانة الى باب القصر حيث تشرف على باحة المدينة وما يجرى فيها ، ومعها هرع كل من فى البلاط يقفون خلفها يتأملون الموكب العجيب الذى كان يدخل من بوابة المدينة يتبعه وتحيطه حشود كثيرة من رجال ونساء وأطفال أيقظتهم رسالة الطبول القادمة من الغابة .. كان الفارس باسم يتقدم الموكب متجهما وقد أمسك بيده مقبض سيفه كأنه يستعد لسله فى أية لحظة ووراءه جاء الاسيران وقد قيدت أيديهما خلف ظهريهما ووراءهما الطبيب الساحر الافريقى يمسك صولجانه العجيب ، ووراءهم حشد الفرسان وقد احتذوا حذو قائدهم ، فوضعوا أيديهم فوق مقابض سيوفهم فى تأهب وحذر .. وكلما ازداد تقدم الموكب تكاثرت عدد المتابعين له والمتحلقين حوله ، وتحولت مهممات الجموع الى أصوات عالية ، ثم الى هتافات صارخة .. وهمس حسن بن الحصرى لعل الزبيق قائلا :

- هم فرحون بأسرنا يا على ، ولا نحن نعرفهم ولا هم يعرفون أيا منا .. فلماذا ؟

ابتسم الزبيق وهو يقول :

- قالوا لهم أننا الاعداء ، وان فرسانهم الابطال أسرونا .. فهم

شامتون فينا ، معتزون بفرسانهم الابطال .

عاد حسن بن الحصرى يقول ، وهو يجول بعينيه فى الجموع

الهائجة حولهم :

.. لا نحن اعداؤهم ، ولا فرسانهم اسرونا ..
قبل ان يجيبه على الزبيق ، تراجع حسن بن الحصرى مجفلا من
حجر صغير أصاب صدره ، بينما سقط حجر اخر أمام الطبيب الافريقى
وصاح أحد الفرسان من الالم اذ أصابه حجر فى جبهته فأدماها ، وعاد
الحصرى يقول فى غضب ودهشة :
- هم يرموننا يا زبيق .. ؟

ابتسم الزبيق فى مرارة ، وهو يقول :
- لنسرع قليلا فى مشيتنا ، هذا الفارس باسم يظن أنه فى
استعراض عسكري بالخطوة البطيئة ، بينما الناس هنا يكثرون الكلام
الكاذب حتى تحولوا الى مجموعة مجنونة بحب الانتقام والرغبة فى
سفك الدماء .

وسمع الفارس باسم كلمات الزبيق فأشار بيده ، فضم الفرسان
صفوفهم ، وكونوا شبه دائرة حول الاسرى ، وأسرع الجميع فى سيرهم
بينما استفزت هذه الحركة الجماهير ، فازداد صراخ الناس وعلت
هتافاتهم ، وظهرت أياد كثيرة ترجم الموكب بالطوب والحجارة وقطع
الاخشاب والاوانى ، وكل ما كان متاحا للأيدي الغاضبة .. وبدأوكان
المسافة من باب المدينة وحتى باب القصر قد طالت ، كما بدأت الجموع
تحتشد بين الموكب والقصر وكأنما لتحول دونه والوصول الى باب
القصر فى سلام . وقال الزبيق فى سخرية :

- ترى بماذا ملأ الوزير مروان وأتباعه اذان الناس وقلوبهم ليكون
هذا موقفهم منا ، غضبا عارما وغريبا ، وتعطشا حقيقيا للمائنا ..
قال الطبيب الافريقى :

- لا أعرف يا مقدم على ، ولكنى أستطيع أن أفهم مما جمعته من
الفاظ السباب المتناثرة من أفواههم .. فهم يتهمونكما بختف السلطان
وبيع السلطنة لملك بحر الغزال ، وأنكما من رجال السلطان الفاسد
قاسم ، وبعضهم يرى أنكما سبب الجفاف الذى حل بالبلاد وربما
كنتما أيضا سبب المرض الذى أصاب ابنة هذا الشيخ ، أو ابنة هذه
العجوز ..

ضحك الزبيق وهو يقول :

- تعجبنى روحك الساخرة ، ولكن أليس هؤلاء هم أنفسهم الذين
استقبلونى يوم عدت بالسلطنة محررة بالهتاف والتمجيد ..
قال الطبيب الساحر :

- ليس للجماهير التى شسحتنا أبواق الدعاية الكاذبة ذاكرة
يا مقدم على ، تذكر هذا ، لان تواجه ثورا هائجا أسلم لك من ان تواجه

جمهورا جاهلا قد حشد بالحكايات والقصص المبتسرة والاشعارات المبهمة التي تجعل منك عدوه .

قال المقدم حسن بنى الحصرى :

— كأننا سبب كل بلوى أصابت هؤلاء الناس .

قال علي الزبيق :

— وكان قتلنا بالحجارة ، أو بأيديهم المجردة سيزيل كل بلوى من حياتهم .

قال الطبيب الساحر ساخرا :

— فينزل المطر ، ويشفى المرضى ، ويأكل الجوعى .

صاح الفارس باسم المتوتر الأعصاب :

— أنتم تلهون بالكلمات وغضب الجماهير يتزايد .

قال الزبيق ملوحاً بيديه المقيدتين :

— فك هذه القيود أيها الفارس باسم وساريك أين ستذهب هذه

الجماهير ..

نظر إليه الفارس باسم فى حدة وهو يقول :

— حتى فى هذا الموقف تريد أن تمارس ملاعبك .. ؟

ضحك الزبيق وقال :

— ان أردت الحقيقة فأنا لا أحب أن يصيب غضبى الجماهير بشر ،

فهى مخدوعة ، ولا تعرف ماذا تريد ، ولا ماذا تفعل ، ولكن يدى

ستطول رأس الافعى يوما ، وسأسحق هذه الرأس حتى لا تلعب هذا

اللعب الخطر بعواطف الناس ..

قبل أن يجيبه الفارس باسم ارتفعت أصوات الابواق من القصر،

مصحوبة بدقات طبول وخرج حرس القصر مسرعين يفرقون الناس

المحتشدين بين باب القصر ومقدمة الموكب ، والناس تتدافع بعضها فى

خوف ، وبعضها فى تحد ، ورفعت السلطانة يدها ، فالتفت الجميع الى

وجودها ، وساد الصمت المدينة كلها ، وقالت السلطانة بصوت سمعه

كل من فى الميدان المواجه للقصر :

— أشكر لك أيها الفارس باسم أن أعدت خيوفى الى قصرى ..

وسكنت السلطانة فشحب وجه الفارس باسم ، بينما اشتتلت

حركة يد الوزير مروان وهى تعبت بلحيته ، وساد الميدان ترقب

لكلمات السلطانة، التى عادت تقول فى نفس الصوت الجمهورى الملىء

بالقوة والرقّة معا :

— لماذا هما مقيدان ؟ لابد أن أعداءنا قد قيدوهما ، وشئت أن تاتى

بهما فى الحالة التى وجدتهما عليها .. لا فك قيودهما فقد وصلا الى

بر الامان حيث يعلن شعب المدينة المرسودة امتنسانه للرجال الذين
حرروه من قاسم الغاشم ، وحرروا سلطانتهم من الاسر والعبودية ..
نحن لا ننسى ايها الفارس الزبيق جميلك على المدينة وعلى أنا .. وعلى
شرف المدينة ، وشرفي أنا ..

وسكت كل من في الميدان وكان على رؤوسهم الطير .. وفجأة
حدثت مفاجأة أذهلت الزبيق ، اذ قفز الفارس باسم الى جوار السلطانة
وأمتشق سيفه ، وصاح وعيناه تلمعان في حلة قاتلا :

— أنا شاهد على كل ما تقوله السلطانة ، وأنا مع السلطانة ، كل
ما تقوله صحيح ، وكل من تحبه نحن نحبه ، وكل من تكرهه
نحن نكرهه ..

وكانما كان الميدان في انتظار لهذه الاشارة ، فاز بالوجوم يتحول
فجأة الى عاصفة من الهتاف والتحية .. وتقدم الفارس باسم واستل
خنجره وقطع قيود الزبيق ، ثم قيود المقدم حسن وسط هتاف الجماهير
.. وأخذ المقدم حسن بن الحصري يدلك راسه وهو يبتسم ، وقال
لعل الزبيق :

— هذا الفارس كحظي مرة هو في السماء ومرة هو في الارض .
ضحك الزبيق بمرارة ، وقال :

— وهو كحظك أيضا لا تعرف ماذا سيكون من أمره غدا .
قال الطبيب الساحر :

— لقد حول المد الجماهيري الى ناحيتك بخبطة واحدة .
قال الزبيق :

— واكتسب اعجاب السلطانة وشكرها ، وهذا ما كان ينبغي ، انظر
اليها كيف تنظر اليه .
قال الطبيب الساحر :

— واكتسب في نفس الوقت حنق الوزير مروان ، وما أظنه كان
ينبغي هذا ، انظر الى الوزير مروان ، وكيف ينظر اليه ؟ ما أحسبه
الامحتمارا في أمره ، لا يعرف كيف يفهم تصرفاته وتقلباته الغريبة
والملحشة .

وحين قاد الفارس باسم الزبيق الى السلطانة لتصافحه هو والمقدم
حسن والطبيب الساحر ، تعالت هتافات الجماهير وصيحاتهم .. ثم
حيث السلطانة الجموع المحتشدة ، وقادت الطريق الى داخل القاعة ،
والى جوارها الوزير مروان وهي تقول :

— ان الاوان لنسمع منك ايها الفارس الزبيق حقيقة ما حدث ،
وأنا واثقة ان حديثك سيوضح أمامنا أشياء كثيرة خفت علينا .
ومنع الحرس الجماهير المتدافعة ان تدخل القاعة ، واتجهت

السلطانة الى عرشها ، وتبعها الوزير مروان فوقف الى جوارها ، بينما وقف الفارس باسم عن يسارها ، واخذ كل واحد من أعضاء البلاط مكانه ، القاضي والمحاسب وصاحب الجند وشيخ التجار ، ونقيب اصحاب الحرف ، وكبار الاعيان ، والوصيفات . ووقف على الزبيب يدلك راسه وهو يهمس لعمر العيار الى جواره .

— كل ما أخشاه أن تضر هذه المغامرة بشخصية الطبيب الساحر ، فهي نافعة لنا ، وللخليفة ، وللامة الاسلامية كلها . . .
قال عمر العيار :

— بالعكس هي ستثبت مكان هذا الطبيب الساحر كل التثبيت .
وجلست السلطانة فجلس الجميع لجلوسها ، وأشارت بيدها الى مقاعد وحشايا الى ناحية قريبة منها فتبادل الزبيب والمقدم حسن النظرات ، كانت نفس الاماكن التي شغلها يوم دس لهم المخدر ، ورأت السلطانة نظراتهما المتبادلة ، فضحكت ضحكة مفتعلة يشسويها الاضطراب ، وقالت :

— الا زلت تذكر أساءتنا اليك ، أعدك بكلمتي كسلطانة ان مثل هذا لن يتكرر مرة ثانية ، لقد كانت مشورة متعجلة من . . .
قاطعها الوزير مروان متحدثا لأول مرة ، وقال :

— مافات قد فات ، ولم تكن المسألة كلها ضدك أنت ، فليس بيننا وبينك الا كل عرفان بجميلك ، ولكننا كنا نريد أن نعرف منك مكان السلطان الغاشم قاسم ، فعندما لم نجده في الكهف ظننا أنك تخفيه عنا .
واندفع الفارس باسم كعادته قائلا :

— وقال الوزير مروان ان السلطان ربما أغراك بماله فضحك الى صفوفه ، وانك قد تكون علت الى المدينة لتتأمر على أمنها وأمن السلطانة .

وجم الوزير مروان ، وتوقفت يده عند لحيته لا تتحرك . . . بينما ضحك الزبيب ضحكة عريضة ، وأشار بيده الى الوزير مروان وهو يقول :

— كل هذا يخرج منك ايها الصديق الوفي للسلطانة زينب . . .
سئل الوزير مروان يخفى ارتباكك ، وتحرك في مكانه بقلق ، وقد احس بتركز العيون عليه ، ثم قال :

— مهمتي الرئيسية هي الحفاظ على سلامة المدينة وسلامة سلطانتها ، والحذر واجب ، وانت ايها الفارس اخر الامر . . . وافد غريب لا أحد يعرفك هنا ، أو يعرف حقيقة نواياك . . . ثم ان رفضك لتسليم السلطان قاسم اثار شكى ومخاوفى ، وواجبى ان . . .

صاح الزبيق وهو يضحك :

— وأجبتك ؟ ومهمتك ؟ .. أهذا كل عاقب الامر ..

وجم الوزير مروان ، ثم تمالك نفسه وقال في تحد :

— ماذا تعنى أيها الفارس الزبيق .. إن سمعتك لا تحمل فى طياتها

أى خير — والسلطان قاسم نحذرك منك ، وقال أنك عدو رهيب يجب أن نحذره ..

عاد الزبيق يضحك وهو يقول :

— والسلطان قاسم أهو عدوك وعدو للمدينة المرصودة أم هو صديق

تدخلت السلطنة فى الحديث الذى أحست أنه يسير سيرا

خطيرا ، وقالت :

— عدو السلطان قاسم لا أرجعه الله صديق لنا يامقدم .

قال الزبيق :

— ولماذا لا أرجعه الله .. ؟ الست تريدان السلطان قاسم

لتحاكميه على ما ارتكبه فى حقك وحق المدينة المرصودة من جرائم

وأخطاء .. اذن سيرجع بأذن الله وسيحاكم داخل المدينة المرصودة ،

وعلى يد قضاتها ، وينال فيها جزاءه العادل على ما ارتكبت يده .

هبت السلطنة زينب واقفة ، وهب الوزير مروان واقفا ، وساد

الوجوم القاعة ..

وقال الوزير مروان فى بطء :

— تعنى أنك عازلت تحتفظ بالسلطان قاسم أسيرا ..

ولم يلتفت الزبيق الى حديث الوزير مروان ، بل وجه حديثه

للسلطنة قائلا :

— كنت أريد بعض المعلومات من السلطان ، وهذا هو السبب فى

احتفاظى به الان ، ولقد حصلت منه على كل ما أريد ، ولهذا فانا

أعيده اليك لتحاكميه طبقا لقوانين مدينتك ..

وسرت عهدة فى القاعة ، سرعان ما تحولت الى لغط ، اذ أخذ كل

واحد يناقش هذا التطور الجديد مع جاره ، ولمعت عيون ، وغمضت

أبصار ، وتعالى تهديدات ، ورفعت السلطنة يدها فساد الصمت من

جديد ، وقالت :

— وأين السلطان يا مقدم ؟ ..

قال الزبيق :

— هو فى مكان أمين ، وإذا أذنت أيها السلطنة أرسلت أحضره

اليك ..

صاح الوزير مروان :

- أخبرنا أين هو وسنرسل ونحضره على الفور .
 قال الزيبيق متجاهلا حديث الوزير مروان :
 - المقدم حسن بن الحصري يعرف مكانه ، فسارسله نيابة عنى ،
 وليصحبه من جهتكم أنتم ..
 صاح الفارس باسم :
 - أنا ورجالي مستعدون ..
 تجاهل الزيبيق مقاطعة الفارس باسم كما تجاهل حديث الوزير
 مروان من قبل ، وقال :
 - لن يصحبه رجال مسلحون فلا داعي لهذا ، ولكنى أقترح أن
 يكون رجلكم مع المقدم حسن بن الحصري الطبيب الساحر .. فهو
 بجيش وحده ، اذ استطاع أسرى والمقدم حسن بن الحصري حين عجز
 كل رجالكم وفرسانكم .
 واحمر وجه الفارس باسم ، وتراجع قليلا فى مكانه ، بينما استمر
 الزيبيق يقول :
 - وهو فضلا عن هذا مخلص لكم ، فلم يقبل كل الاغراءات التى
 عرضناها عليه ليطلق سراحنا ، وأصر على أن يسلمنا سقيدين لكم ..
 نظرت السلطانة الى الساحر الافريقى باعجاب ، وابتسمت وهى
 تقول :
 - نعم للواطن أنت أيها الطبيب ..
 قال الوزير مروان محتجا :
 - هو ليس مواطنا فى المدينة المرصودة ، انما هو مواطن للغابات
 كلها ولا ينتمى الى بلادنا انتماء كاملا ، فنحن لا نراه الا حين يشاء هو
 قاطعته السلطانة زينب قائلة فى اصرار :
 - كم شفى من مرضانا ، وكم استسقى لنا حين جفت الامطار ،
 وكم دل صياديننا على مراعى الصيد ، وكم فض من خلافات بين أسر فى
 المدينة كادت تتفكك لولا كلمته وصائب رايه وثقة الناس فيه ..
 عاد الوزير مروان الى عناده قائلا :
 - ولكنه ليس منا ، ولا يمكننا فى مثل هذا الامر الخطير ، أنا
 أقترح ..
 رفع الزيبيق يده ، وهو يهيب واقفا ، وقال :
 - هذه شروطى ولا اقتراحات فيها ، أما أن تقبل كما هى ، وأما
 ترفض ، فاستودكم الله وأرحل عن بلدكم هذا ..
 قال الوزير مروان فى خبث :
 - أنت بين أيدينا يا مقدم على ..

ضحك الزبيق ضحكة ساخرة وهو يقول :

- لست مخدرا أيها الوزير ، ولست الآن مخدوعا بالكلمات المعسولة ، وحكاية الوفاء لجميلى الذى لا يقدر بثمن .. كما اننى لست ضعيفا ، وانما انا هنا أسير ، ويحق لى أن أخلص من أسيرى مهما كلف هذا من أسرونى من أرواح .. هل كلامى مفهوم ..
اندفع الفارس باسم قائلا فى عصبية :
- هذا تهديد لا تقبله ..

ضحك الزبيق ساخرا وهو يقول :

- هو تهديد واضح ، وليس من شأنى أن تقبله أو ترفضه .
شحب وجه الفارس باسم ، بينما قالت السلطانة متدخلة فى الامر فى صوت حاسم ..
- ما كل هذه الكلمات المتعجلة ، التى لا تؤدى والا الى كلمات أكثر عجلة ، لا لست أسمع بهذا كله ..

أنت لست أسيرا أيها الفارس على ، بل أنت ضيفى أنا الشخصى ان لم تكن ضيف المدينة المرصودة التى يبدو أنها تواجه الايام الاولى من سلطنتى بتحدى أصدقائى وأصحاب الفضل على .. كأنها المقصود هو تحديد حجم سلطتى ، وفرض الوصاية على تصرفاتى .. وأنا لن أقبل هذا ، فأنا السلطانة ، لم أعد الطفلة القاصر التى يتحكم فيها السلطان قاسم ، وقد بايعتنى جماهير المدينة المرصودة ، ونصببني القاضى سلطنة رسمية وشرعية على هذه المدينة ، ومن لا تعجبه هذه الحقائق ، فليعلن هذا صراحة ، فجو المؤامرات والدسائس فى هذا البلاط قد انتهى بازاحة قاسم ، وصاحب الفضل فى ازاحته هو المقدم الزبيق ، ومن العار أن تبدأ المؤامرات من جديد ضده هو نفسه ..
صاح الزبيق فى حماس :

- لا فـض الله فاك أيتها السلطانة ، انت جديرة حقا بعرشك ..
وارتفعت عيسارات الاستحسان من كل مكان فى القاعة ، وهب القاضى واقفا وهو يقول :

- أنت السلطانة شرعا وقانونا ، وقد أقسمنا يمين الولاء لك .

واندفع الفارس باسم يغير موقعه من جديد ، ويقول متحمسا :

- وسيوفنا فى خدمة السلطانة ..

- وفى لزوجة قال الوزير مروان :

- كلمة السلطانة فوق كلمتنا ، وما دامت تثق فى الطبيب

الساحر ، فنحن أيضا نثق فيه ..

قالت السلطانة :

- اذن حسم الامر ، يذهب الطبيب مع المقدم حسن بن الحصرى
كما اراد الزييق ويعودان بالسلطان قاسم المخلوع ..
قال الزييق :

- هذه مهمة لا تتم الا ليلا .. وقد ارهقت أحداث الليلة الماضية
كلا من المقدم والطبيب ، فلنسترح هذا النهار .. وعند الليل يحضر
الطبيب الساحر الى غرفتنا لادله على الطريق ، وليصحب المقدم حسن
بن الحصرى فى رحلته لاحضار السلطان المخلوع ..
قالت السلطانة :

- ولن يتعقبهما أحد ، هذه أوامرى ..
واحنى الوزير مروان رأسه فى ضيق ، وقد أحس أن السلطانة
قرأت ما كان يبيت من أمر .. ثم قال فى صوت متخاذل :

- لن يتعقبهما أحد كأمر السلطانة ..
قالت السلطانة وهى تشير بيدها الى كبير الخدم :

- سيقودك كبير الخدم الى الحجرة المخصصة لكما أيها المقدم
الزييق ، أنت وصديقك ، أما الطبيب الساحر فله حجرة أخرى فى
القصر ..

قال الطبيب الساحر :

- لا أيتها السلطانة ، أنا أعرف أين أقضى هذا النهار ، وعند
الغروب سأكون هنا لالتقى بالمقدم على وزميله :

قالت السلطانة :

- لك ما تريد، والان اذهبوا لتستريحوا حتى يحين الليل ،
وسيحضر لكم الخدم الطعام والملابس اللازمة الى حجرتكما ..
انحنى الزييق أمام السلطانة وهو يقول :

- الى المساء اذن أيتها السلطانة ، أيدك الله بعونه وهدايته ..
وخرج هو والمقدم حسن بن الحصرى يتبعان كبير الخدم من القاعة
الى داخل القصر ، بينما انسحب الطبيب الساحر من القاعة الى خارج
القصر فى هدوء .. وما أن خرجا حتى علت ضجة الخديت والجدل
تملا جو القاعة ، والكل يدلى برأيه فيما حدث ..

حكاية ياسمين

قال المقدم حسن بن الحصرى والباب يفلق خلف كبير الخدم الذى تركهما وحدهما ليحضر لهما ما أمرت به السلطانة من طعام وملابس :
- أريد أن آكل أولا ثم أنام الى العصر ..
قال الزبيق :

- أما أنا فأريد أن استحجم أولا ثم أنام الى ما يشاء الله ..
ضحك المقدم حسن بن الحصرى وقال :
- أريد أن أرى وجوههم حين يدركون أن سلطانهم قد جن ،
وانهم سيحاكمون انسانا لا يعنى معنى المحاكمة ، ولا معنى العقوبة .
قال على الزبيق وهو يستلقى على فراشه :
- ليس السلطان قاسم هو المجنون الوحيد فى هذه المدينة ..
فأمر الوزير مروان يخبرنى ، وكذلك أمر الفارس باسم .. فكلاهما
متقلب الأطوار ، غريب المواقف ..

وطرق الباب ، ودخل الخدم ، بعضهم يحملون الطعام ، وبعضهم
يحمل اناء خشبيا كبيرا وضعوه وسط الغرفة ، ودخل غيرهم يحملون
أوعية مليئة بالماء البارد والمناشف ، وملابس نظيفة ، وأدوات الحلاقة
الجديدة ، والصابون والعطور ، فضحك المقدم حسن بن الحصرى ،
وهو يرقب حركة الخدم النشطة فى اعداد مائدة الطعام ، وأدوات
الاستحمام وقال :

- بالفعل هناك شيء مجنون فى هذه المدينة .. فساعه نحن فى
سجن ضيق مقيدىن ومربوطين الى الحائط الأملس ، يطبق علينا
ظلام دامس ، ويأس كامل من النجاة ، وساعة أخرى ، نحن فى
حجرة رحبة طليقين ، تقدم لنا الموائد الفاخرة ، وأدوات الترف
والنعيم ، لم يبق الا الزهور والرياحين ..

ولم يكمل المقدم حسن كلامه حتى دخلت الغرفة فتاة شديدة
السمر ، ترتدى ازارا شديد البياض ، وتحلى رأسها بطاقة من
الزهور ، تحمل فى يدها الزهور والرياحين ، تقدمها فى آتية أنيقة
وزعتها فى كل انحاء الغرفة .. وضحك الزبيق وهو يقول غامزا
بعينه لحسن بن الحصرى :

- تمن ، تجد ، فنحن الليلة فى دنيا المعجزات ..
ولم يجبه حسن بن الحصرى بل انقض على الطعام ، انقضا

الجائع المشتاق .. واثار منظر اكلة شهية الزبيب ، فانضم اليه في
التهام الوجبة الشهية التي قدمت اليهما ، بينما اكمل الخدم عملهم
وانسحبوا في هدوء ، وتقدمت السمراء ذات الازار الأبيض ، وتاج
الورد الذي يزين رأسها منهما مبتسمة وهي تقول :

— وتسال مولاتي السلطانة ، هل من شيء آخر ترغبانه ؟ .

قال حسن بن الحصري وهو بين قضم وقضم :
— هذا يكفينا هذه الليلة على الاقل .

وقال الزبيب :

— كرم مولاتك السلطانة غمرنا تماما ، ابلغها شكرنا وتقديرنا .

انحنت الفتاة لهما برشاقة ، وقالت :

— امرت السلطانة ان لا يزعجكم احد قبل المغرب .

ثم انصرفت .. وقال حسن بن الحصري وهو يعود الى الطعام :

— ساكل وانام ، واترك لك نعيم الحمام .

ابتسم الزبيب وهو يقول :

— لا اعرف كيف افكر الا اذا احسست ان كل جزء في نظيف ، قد

اغتسل تماما من كل الادران — وامامي اشياء كثيرة على ان افكر
فيها ..

قال حسن بن الحصري :

— فكر انت وساكل انا حتى يدهمني النوم .. وانام ..

كان الزبيب في القاهرة من جديد .. وكان ينام في حجرته في
بستان الشيخ زكي البتوكي الذي يرسل اليه رائحة عطوره وزهوره
ورياحينه ، لتهدأ أنفاسه وتنظم ضربات قلبه ، وكانت أمه في
الغرفة ، كيف جاءت هنا ، هو لا يدري ولكنها كانت تقف وتنظر
اليه وهي ترتدى زي احمد بن البني وتتقلد سلاحه .. أراد أن
يقول لها أن وجودها هنا خطأ ، فلا أحد يعرف هذا المكان ، ولا
ينبغي أن يعرفه أحد .. ولكنه عاجز عن الكلام ، عاجز عن الحركة
.. هو مستيقظ تماما .. يعرف كل ما يدور حوله ، ولكن يده
لا تتحرك لتشير ، ولسانه لا يتحرك ليبين ، وركب حصانه وسط
الصحراء ، يجري ويجري ، وهو ظمآن ، واناء الماء قد جف ولا ماء
فيه .. والحصان يضرب في الرمال ويجري ، ورياح عاتية تسفي
رمالها في وجهه ، وهو يغطي وجهه بطرف شاله ، ولسانه متضخم
وقد جف من الظما ، ومن بعيد تلوح زينب تحمل اناء مندى بالماء ،
وهي تشير ، وتصيح به ، ان يقترب ويشرب ، وكلما اقترب ساخت
حوافر الحصان في الرمال لتتوقف أو تكاد ، يقترب في بظء .. في

بظء .. وتختفى زينب ، ولا يبقى سوى الفراغ .. ولا شيء ، ولا
أحد ، وهو ظمان .. وفجأة تقول دليلة وهي في زى الدرويش
الصالح :

— ساميتك عطشا يا زيبق .. لن تشرب الا ماء النار .
واقتربت وهي تحمل آناء يخرج منه دخان أزرق ، اقتربت
نحوه ، وهو عاجز عن الحركة ، لا يستطيع أن يدفعها أو يردها ..
وقال لنفسه : أين أمي — أين فاطمة ، وأين زينب .. أين سالم ؟
لا أحد يردها ، وهي تتقدم .. وتتقدم وتقول في صوت كالفحيح :
— السلطان قاسم هو سلطان المدينة المرصودة ، لا أحد غيره
.. لا أحد غيره ..

ومن الدخان تشكلت حية رهيبة ، تزحف نحوه فاتحة فاهها وهي
تفح .. حتى أوشكت أن تلتهم رأسه وفجأة ينقض المقدم منصور
بسيفه ، فيقطعها نصفين .
ويصبح الزيبق :

— ولكنك مت يا خال منصور ، أنت ميت ، أنت مقطوع الرأس ،
مصلوب الجسد .. أنت ميت يا خال منصور .
ينظر إليه الخال منصور ، ويبتسم ، ويقول :
— عدوك مات يا زيبق ، عدوك مات .
وارتفعت حوافر جواده فوق الرمال ، ومضت تنطلق بلا عائق
.. وقال في صوت حنون :

— نحن عند الغروب أيها المقدم ، هلا استيقظت .
وفتح عينيه بصعوبة بالفة ، الحجرة المظلمة ، وسرير المقدم
حسن بن الحصرى أمامه ، وأصوات من بعيد ، أشباح تعود إلى
مجال الرؤيا فإذا هي معالم الحجرة التي نام عليها عند الصباح ،
واستمر الصوت الحنون الرقيق يقول :
— امرت مولاتي أن أوقظك عند الغروب ، وأن الإوان أن
تستيقظ .

ووافق تماما .. وقال :

— أين أنا ؟

ضحك الصوت العذب الحنون وهو يقول :

— أنت في ضيافة السلطانة زينب أيها المقدم ، وأن الإوان أن

تستيقظ فالحاكمة تبدأ بعد حين .

قال الزيبق وهو يستجمع شتات نفسه :

— وأين المقدم حسن بن الحصرى ؟

عاد الصوت العذب الحنون يقول في هدوء :
- هو الى جانبك على هذا السرير .. ومولاتي تسال اتامر باى
شئ قبل ان اصحبك الى الديوان .
اعتدل الزبيق في فراشه وقد طار كل اثر للنوم من جسده ،
وقال :

- نعم .. اريد ان اعرف ما حدث اثناء نومي الطويل هذا .
قالت وهى تقدم له من الماء المعطر :
- ستعرف كل شئ في حينه يامقدم ، فلا تشغل بالك الان .
اخذ الكوب ومضى يشربه في ببطء ، وهو يحاول ان يتذكر ذلك
الحلم المخيف الذى خطت أحداثه على قلبه كالكابوس ، وتمتم وهو
يعيد الكوب اليها ..

- سأوقظ المقدم حسن ، بينما تحكين لنا أنت ما جد من
أحداث .

ومضى الزبيق الى المقدم حسن يوقظه في رفق ، بينما تنهدت
الفتاة ، وهى تقول :

- ألا تريح نفسك أبدا يا مقدم .. اليس في حياتك من الوقت
ما هو ملك لك .

يتشاءب المقدم حسن بن الحصرى ، وهو يتنبه تدريجيا للفتاة التى
تقف في الغرفة ، فقال :

- اسأليه بربك ، فقد نسي منذ فترة طويلة ان في الحياة شيئا
اسمه الراحة واللذة ..

ضحك على الزبيق ، وقال :
- لم احضر هنا لارتاح ، واستسلم للذة يا مقدم حسن ، لقد
جئت في مهمة ولا راحة لى الا اذا انجزتها ، وانتهيت منها على خير
وجه ممكن .

قفز حسن بن الحصرى من سريره ، وهو يقول :
- لا تخاطبني أنا ، فانا لم أسأل ، هى التى سألتك .. ومن
حقها ولها كل هذا الجمال والدلال ان تسأل ، ولا تستطيع ان تمتنع
عن اجابة سؤالا .

قال الزبيق في جدية :
- ليس سؤالا بل هى أهمية هي عاشت منعمة وسط بلاط
السلطان ثم السلطنة ، فكل ما بلغها هو أحداث الحب والعشق
والفرام .. وهذه كلها أشياء بهيجة وسعيدة وناعمة ، ولكنها لم
تعرف ، ولن تعرف ، الوجه الآخر من الحياة .

قالت الفتاة :

— وما هو الوجه الآخر للحياة يا مقدم ؟ .

قال الزبيق وفي صوته رنة مرارة :

— الجشع ، الطمع فيما يملك الفير ، والحسد والفيرة ، التي تؤدي الى الخيانة والقدر ، والى اللصوصية والابتزاز ، والاستهانة بما يملك الناس ، بل والاستهانة بالآخرين وبأرواحهم ..

قالت الفتاة :

— اتحسب اننى لا اعرف كل هذا لمجرد اننى فتاة ، واننى صغيرة السن ؟ . لقد رأيت فى بلاط السلطان قاسم من هذا الشيء الكثير ، وعرفته قبل ان اعرف معنى الحب ، وما كان يبقينى فى هذا البلاط الا حبي للسلطانة زينب ، فقد رببت معها ، وحظيت بعطف أمها وحنانها ، وقضيت الليالى ساهرة فى حراستها من غدر السلطان ومؤامراته ، ولعلك فهمت الان سر اعجابى بك ، فانت منقلد السلطانة من كل البلاء الذى كان يحيط بها ، وانت الذى رفعتها الى عرشها الذى هو حق لها ، وانت آخر الامر الذى جئت بالسلطان ذليلا مقيدا ليلقى جزاءه الحق ..

صاح الزبيق منتبها الى كلماتها الاخيرة قائلا :

— هل جاء السلطان ؟ .

قالت الفتاة :

— طبعاً ، ساقه الساحر الطيب ، مكبلا ومقيدا الى سجن المدينة ، وهو الآن هناك ينتظر المحاكمة ، ومولاتى تنتظرك يا مقدم لتكون شاهدا على ما يحدث .

قال المقدم حسن بن الحصرى :

— وانا ، الا ينتظرنى أحد ؟ .

ضحكت الفتاة وتأودت وقالت :

— يا مقدم ، الكل لا ينسى معركتك المجيدة عند أبواب المدينة ، وصمودك امام فرسان المدينة المرصودة ، حتى استطاع المقدم الزبيق بملاعيه ان يخلصك .. لم يستطع فارس ان يهرب من سيوف فرسان المدينة غيرك .

ابتسم الزبيق ، وقال :

— فانت تعرفين قدره كفارس شجاع ..

قالت الفتاة :

— لقد سمعت عن قتاله اليائس المخيف حكايات ، وحكايات .

ارتفع الدم الى وجنتى المقدم حسن بن الحصرى ، وقال متلعثما :

— ما كنت إلا أدافع عن حياتي ونفسي ..
قالت الفتاة :

— أمجد دفاع ، وأروع فروسية ..
ضحك الزبيقي وقال :

— اسمعت يا ابن الحصرى .. لم ينس أحد موقفك ، ودفاعك
المجيد ..

قالت الفتاة مسترسلة في حديثها :

— هو عندنا حديث خرافة .. ولو مات مدافعا عن نفسه
لعدا أسطورة ..

قال الزبيقي :

— هذا فارس لا يتكرر أيتها الفتاة .. ما اسمك — فبعد كل
هذا الحوار لا نعرف لك اسما .

قالت الفتاة وهي تخفض رأسها في خفر :
— اسمي ياسمين .

اندفع حسن بن الحصرى قائلا في انفعال :

— ياسمين .. هذا اسمك ، وهو العطر الذي يفوح منك ، فانت
فعلا ياسمين .

قالت ياسمين وقد احمر وجهها خجلا :

— سيدى الفارس .. هذا كثير ..

ضحكت ياسمين ، والتفتت الى الزبيقي قائلة :

— اليس عندك يا مقدم على كلمات حلوة كهذه الكلمات ؟
قال الزبيقي :

— ما عندي من كلمات قلته للفتاة التي سأتزوجها .

أجفلت ياسمين وقالت في دهشة :

— اذن فانت تحب يا مقدم على ، وكنت اظنك بلا قلب يعرف
خفق الحب ..

قال الزبيقي :

— رجل السيف رجل كغيره من الرجال ، يعرف الحب ، ويعرف

الحزن ، ويعرف الألم .

لانت ملامح ياسمين ، وقالت :

— اصدقك الآن يا مقدم على .. لقد اخبرتنى السلطانة انك

صددتها لانك تحب ، وانك ما جئت الى بلادنا الا مدفوعا بحبك الاصيل

.. وما كانت هي تصدق هذا الحديث ، وما كنت انا لاصدقه لولا أن

سمعتك منك الآن ، وأحسست في لهجتك بالصدق الذى لا زيف

فيه ..

لمعت عينا الزبيق فجأة ، وقال وهو يمسكها من ذراعها بعنف :
- اذن ففى الأمر مؤامرة ..

ظهر الخوف على وجه ياسمين ، بينما هب المقدم حسن بن
الحصرى واقفا واندفع نحو الزبيق وهو يقول :

- أنت تؤلمها يا مقدم على .

قال الزبيق وعيناه تلمعان غضبا :

- دفعتك السلطانة دفعا لتفرينى بجمالك وفتنتك ، لتعرف

هل كنت صادقا فى صدى لها ، أم اننى كذبت عليها عن عمد لسبب
أخفيه .

كان صوت ياسمين يرتجف ، وهى تقول :

- لن اكذب عليك ، أيها الفارس .. لم تأمرنى السلطانة مباشرة ،

ولكننى فهمت ما أرادته منى ، ثم انى أميل اليك ؟ .

ترك على الزبيق ذراعها فجأة ، ودفعها بعيدا ، وهو يقول :

- أنت الحية التى خرجت من اناء النار تحمله دليلة ..

قال المقدم حسن :

- دليلة ، ما هذا ، أى اناء نار .. وأية حية .

- انه الحلم يا مقدم حسن ، الكابوس الذى أطبق على صدرى

طوال النهار .. وأنا نائم ، هذا تفسيره الآن .

قالت ياسمين وفى عينيها نظرة ذعر :

- كابوس ؟ وما شأنى انا بالكوابيس ..

قال لها على الزبيق :

- لأشأن لك ، ولكنك تفسر الحلم وتعبيره .

قال المقدم حسن بن الحصرى فى ذهول :

- كل هذه الكلمات الجميلة كانت جزءا من مؤامرة ..

قال الزبيق :

- وهذا الثوب ، وهذه المشية ، وهذه الابتسامة .

قال حسن :

- لست أصدق نفسى ، أمثل هذه الفتاة تفعل كل هذا عن

عهر ؟ . من الآن لن أصدق البراءة فى انسان أبدا ..

قالت ياسمين فى ضراعة :

- أقسم انه لم تكن هناك مؤامرة ، فقط مولاتى كانت لا تفهم

مر صد المقدم على عنها .. وهى من هى جمالا وعزا ومكانة

.. و ..

صاح المقدم حسن :

— صدق كلام الزبيق .. شامت كل الاشياء ، شامت كل الاشياء ..

قال الزبيق في ضيق :

— هذه مدينة مرصودة بالشك والقدر والخيانة ، السلطان يتامر على الخليفة ، وعلى الوريثة الشرعية للسلطة ، والوزير مع كل عهد ، ومع كل قوة ، ورئيس الفرسان يتقاذفه الموج ، ويعبث به الريح ، وحتى هذه الفتاة البريئة تنتهك جمالها وبراعتها .
صاحت ياسمين :

— ولاء لسيدتي :

قال الزبيق :

— هذه حكايتك انت يا ياسمين .. اما انا فقد ضقت ذرعا بهذه المدينة ، واريد ان افادرها في الحال .

قال حسن بن الحضري :

— ومهمتك في الجزيرة المسحورة ؟

قال الزبيق :

— سأنجزها قبل ان ارحل .

وقبل ان يجيبه احد ، طرق الباب ، ولم ينتظر الطارق اذنا بالدخول ، اذ فتح الباب ، ودخل الفارس باسم مندفعاً ، وهو يقول :

— تأخرت يا مقدم على ، المحاكمة بدأت ، وسيفوتك جزء هام منها ..

ثم التفت الى وجود الفتاة ياسمين ، فصاح فيها في غضب :

— ماذا تفعلين هنا ، والسلطانة تبحث عنك ؟

تلعثمت ياسمين ، بينما قال الزبيق في سخرية :

— انها هنا في مهمة للسلطانة .. هيا بنا نحضر المحاكمة ..

التفت اليه الفارس باسم وقال :

— لقد أوشكت المحاكمة ان تنتهى ، فأسرعا لتحضرا تنفيذ

الحكم .

قال الزبيق في سخرية :

— او صدر الحكم قبل انتهاء المحاكمة ؟

وجم الفارس باسم ، ثم تمالك نفسه وهو يقول :

— وهل هناك شك في خيانتة وادانته ..

ضحك الزبيق وهو يقول :

— اذن هيا بنا نحضر النهاية التى وضعها السلطان قاسم لنفسه

بنفسه ..

المدينة تحترق

كانت المشاعل تملأ المكان بنورها التلق المتذبذب ، وكانت هناك مصابيح عديدة ترسل بنورها الذابل الثابت حولها . . وكانت الساحة مليئة بالناس ، وقد بدأت ساعات الليل الاولى قلف المدينة بظلامها . ووسط المدينة اقيمت منصة جلس عليها القاضي ، وفي ناحية وقف الجلاد يحمل سيفه الضخم وأمامه النطع ، وفي ناحية أخرى وقف السلطان قاسم موثق اليدين وحوله الحراس شساهرين رماحهم . وأمام المنصة جلست السلطانة والى جوارها الوزير مروان . . وقال حسن بن الحصرى وهو يتبع الزبيق الى الساحة ، رافعا صوته ليصل اليه رغم ضجة الميدان وصخبه :

— هل انتهت المحاكمة حتى جئ بالجلاد والنطع . ؟
قال الزبيق :

— لقد جاء الجلاد والنطع قبل المحاكمة .
قال حسن بن الحصرى :

— ولكن ما معنى المحاكمة اذن ؟
قال الزبيق :

— أنها هنا تبرير للقتل ، مجرد تبرير .
قال حسن بن الحصرى :

— أما كان الاجدى أن يقتلوه بدلا من هذه المهزلة . .
وقال الزبيق وهو يشق طريقه الى حيث جلست السلطانة والوزير مروان :

— قديما كان الطامع فى الملك يتحدى الملك الذى يكون قد كبر فى السن علنا، ويقتله فى مبارزة أمام كل القبيلة ، ويصيح الناس مات الملك عاش الملك ، وينتقل العز والجاه والمال والسلطان من بيت الى بيت ، والناس يرضونه ، فالحكم للقوة ، والقبيلة لا ترضى أن يحكمها الا من يستطيع ان يهزم من يتحداه ويقتله ، أما اليوم فلا بد من القانون فالقانون قد ارتضاه الناس، وأن يحكم على السلطان اليوم بالموت فهذا هو حكم القانون. فهو حكم ارتضاه الناس ووافقوا عليه، وهو الذى يبرر للسلطان الجديد أن يحتل مكان السلطان المقتول دون أن يتهم بالاغتصاب أو القتل . .

وضاع صوت الزبيق وسط ضجة كبرى ثارت من عند المنصة ،

ومن حولها من جماهير الناس ، وتوقف الاثنان عن الحركة إذ اندفعت
الجموع التي كانت في الخلف تدفع من هم امامها لتصل الى اقرب
مكان الى المنصة ، وتنهد الزبيق وهو يقول :

- لقد نطق القاضي بالحكم .. والناس يتدافعون ليروا تنفيذه ،
فما في كل يوم يقتل في المدينة سلطان .

قال حسن بن الحصرى فى حلق :

- لا نستطيع الحركة فقد احدثت بنا الجماهير وحاصرتنا ..
قال الزبيق :

- لا أظن ان هناك طفلا أو شيخا أو رجلا أو امرأة فى المدينة كلها
داخل هذه المنازل ، الكل هنا والبيوت خالية .

ونجاة ارتفع صوت من ناحية الميدان الأيمن يصرخ قائلا :

- النار ، النار فى مستودع الغلال ..

بينما صاح صوت آخر فى دعر :

- المنازل تشتعل ، كل هذه الناحية تشتعل ..

ونظر الزبيق الى حيث أشار الرجل ، كانت السنة النيران تخرج
من نوافذ المنازل ، وتحول الظلام الى نور متوهج اذ تحولت الناحية
اليمنى من المدينة الى شعلة متأججة ، وقال المقدم حسن بن الحصرى :

- النار فى كل مكان ، كأن هذا الجانب اشتعل كله مرة واحدة .

قال الزبيق :

- وهج النار يعنى ان هناك نفقا يشتعل فيزيده وهج النيران
وحدثها ، لا ليست هذه الجرائق مصادفة انها بالقطع بفعل فاعل أثيم
ارتفعت صرخات النساء وصيحات الرجال تصمم الاذان ، وهم
يتدافعون ، ويدوسون على من يسقط منهم ، بينما صاح الزبيق فجأة :

- أنظر ..

ونظر حسن بن الحصرى الى حيث أشار الزبيق ، الى المنصة .
وكان الجلاد يتهاوى الى الارض وقد استقر سهم فى قلبه ، بينما كان
السلطان المقيد يصرخ فى جنون ، وكوكبة من الفرسان يتدافعون
بخيولهم نحو المنصة ، وفى مقدمتهم فارس طويل فى زى الدراويش
ووراءه مونجو ورجاله وهمس الزبيق من بين أسنانه :

- دليلة .

وحاول أن يندفع نحو المنصة ، ولكن الجموع كانت تضغطه ضغطا
وتعيده الى الوراء ، وقال حسن بن الحصرى الذى كان يقاوم ليظل الى
جوار الزبيق :

- ليس فى هؤلاء الفرسان نساء ..

قال الزبيق ، وهو يصارع موج الناس الزاخر الصارخ :
- أيها الدرويش الصالح .. ألهم تسمع عن الدرويش الصالح ..
هي التي ألبت السلطان قاسم على الخليفة ، وحرضته على التمرد ،
وها هي الآن تنقذه من الموت الأكيد .. وخدعة الحريق لا تخرج إلا من
عقل كمقلها لا يأبه بسلامة الناس ولا بسلامة أموالهم ..

وكان الفرسان قد وصلوا الى حيث وقف السلطان فانتزعه مونجو
من أمام النطم وأردفه أمامه فوق حصانه ، بينما أخذ رجال مونجو
يمطرون الناس حولهم بالسهام ، وتساقط الناس . واندفعوا هاربين
من أمامهم .. وسرعان ما تحولوا بخيولهم مسرعين يغادرون الميدان
ليبتلعهم ظلام الليل .. وتمكن الزبيق أخيرا أن يشق طريقه مندفعاً
الى حيث وقفت السلطانة شاحبة الوجه ، مذعورة ، وما أن رآته حتى
اندفعت نحوه وهي تقول :

- أرايت ما حدث ، مونجو وعصايته اختطفوا السلطان قاسم .

قال الزبيق وهو يربت عليها مهدئاً :

- لقد خلصتهم دليلاً من الكهف ، وقادتهم في تخلص السلطان .

وكان الوزير مروان قد فقد هدوءه ، فقال في عصبية :

- لا بد من اللحاق بهم ، فوجود السلطان حراً خطر داهم على ،

وعلى السلطانة ، وعلى المدينة ..

قال الزبيق :

- يجب انقاذ المدينة من الحريق أولاً .

قالت السلطانة زينب :

- نعم ، المدينة أولاً .

ووقعت عينها على الفارس باسم وهو يهرع نحوه ، فقالت في

ثبات :

- أيها الفارس ، أجمع رجالك ، وضم اليك كل الفرسان وكل

الحرس ، وكل الجنود ، ونظموا (طابورا) من القدير الى المدينة لحمل

الماء ومحاصرة الحريق ..

قال الفارس باسم في اضطراب :

- ولكن السلطان هرب ، وأستطيع ان الحق بمختطفيه قبل ان

يبتعدوا .

قالت السلطانة في حزم :

- المدينة أولاً ..

صاح الوزير مروان في انفعال :

- هذا قرار خاطيء ، نحن نحتاج الرجال لاعادة السلطان الهارب

قال الزيبيق في هدوء :

— بل قرار السلطانة هو القرار الصواب ، فمن دبر الحريق ليصرف النظر عن هجمة الفرسان ، لابد أنه رسم طريق الهروب .. والمدينة الآن تحتاج كل جهودنا .

وأحس الزيبيق يده تربت على كتفه ، فالتفت ليجد عمر العيار في زى الساحر الأفريقى يقف وراءه ، ويقول في همس :

— أين ذخائرك يا زيبيق فهذا الحريق سيقضى على المدينة قبل أن يحمل الجنود الماء الكافى لانقاذها .

قال الزيبيق :

— أين لومبا ومافى ، ألم يذهبا لاحضار حاجاتى من الكهف ؟

قال عمر العيار :

— هما هنا ، وقد عادا وانت نائم ، واخفيتهما عندي ، وحاجاتك كلها سالمة عندي .

قال الزيبيق :

— اذن هيا بنا اليهما ..

صاحت السلطانة والزيبيق يتبع عمر العيار :

— أين تذهب ايها الفارس ، نحن نحتاج اليك الان .

قال الوزير مروان فى سخرية :

— وماذا يستطيع هو أن يصنع زيادة عما يفعله باقى الرجال ؟

ضحك الزيبيق وقال :

— سوف ترى ..

وتبع عمر العيار والى جواره حسن بن الحصرى الذى قال فى حيرة :

— لقد صدق الوزير مروان .. فماذا ستستطيع ان تفعل حقا ؟

قال الزيبيق ، وهم يغادرون الميدان الصاخب ، وينحرفون وراء عمر العيار الى جانب هادىء من المدينة لم تصل اليه النيران :

— البيوت فى هذه المدينة متلاصقة ، ولن تجدى مكافحة النيران بالماء وحده ، إذ ستشتعل النار الى بيوت جديدة قبل أن يتم اطفائها المنازل المحترقة بالفعل ..

قال حسن بن الحصرى :

— هذا صحيح ، فمنازل المدينة مصنوعة كلها من الخشب ، وقد تعرضت للشمس الحارقة زمنا طويلا حتى أصبحت جافة تماما ، ما أن تصلها النار حتى تحترق فى سرعة مذهلة .

كان عمر العيار قد وصل بهم الى مسجد صغير في نهاية حارة ضيقة ، ووقف ينتظرهما حتى يلحقا به ، وقال :

— ها قد وصلنا .. كانت هذه الزاوية مقر الدرويش الصالح أو صديقتك الحميمة دليلة ، وما ان اختفت من المدينة حتى وجدت فيها مكانا آمنا أستريح فيه بعيدا عن العيون ..

قال الزبيق وهو يدخل الى المسجد الصغير خالعا نعليه :

— لقد أحسنت الاختيار يا مقدم .

وحين كان المقدم حسن بن الحصرى يخلع نعليه ، خرج عليهما لومبا ومافى من داخل المسجد ، مرحبين بالزبيق ورفيقه ، وقال لومبا :
— لقد رأينا كل شيء ، وكدنا نذهب وراء الهاربين ، ولكن الطبيب الساحر منعنا ، وقال ان مكاننا هنا الى جوارك ..

دخل الجميع الى ساحة المسجد الصغير ، حيث أضاء المكان مشعل علق على أحد الجدران ، وفي جانب من المسجد وجد الزبيق حرندياته كلها ، فأسرع نحوها ، وأخرج واحدا منها ، مضى يفتش في محتوياته والكل يرقبه في صمت .. وابتسم الزبيق وهو يخرج عدة أصابع قصيرة قائمة اللون ، ولفة من الفتيلة الرفيعة ، وقال وهو يعيد غلق الحرنديان :

— والآن سنحاصر الحريق .

قال عمر العيار :

— لست أفهم ما تعنيه .

قال على الزبيق ، وهو يضع ما أخرجه من الحرنديان أمامه ، ويفرد لفة الفتيلة الرفيعة ليكون حبلين طويلين ، ثبت طرف كل واحد منهما في مجموعة من الاصابع القصيرة ربطها الى بعضها ربطا محكما ، ثم تنهد ، ووقف وهو يقول :

— عندما لا تجد النار ما تأكله ، ستأكل نفسها ، وتكتفى بما

أحرقت من دور ، وتخدم المياه ما بقى مشتعلا منها .

قال عمر العيار وهو يهز رأسه في فهم :

— أدركت ما تريده أيها المقدم .. تهدم دارا عند هذا الطرف ،

ودارا عند الطرف الآخر ، فلا تجد النار ما تمتد اليه ..

قال على الزبيق :

— لقد فهمت ما أنتويه تماما يا مقدم عمر ..

قال حسن بن الحصرى في حيرة :

— ولكن كيف ؟ .. ؟

ربت على الزبيق على مجموعتي الاصابع القصيرة ، وقال :

— هنا تكمن الإجابة على سؤالك ..

قال حسن بن الحصري :

— هذه العصى .. ؟

قال علي الزبيق :

— ستصحب أنت المقدم عمر العيار في عمل هام لانجاح مهمتنا ، وهو ابعاد الناس عن المنزلين اللذين سنختارهما ، وبعد أن يتهدم المنزلان على كل منكما أن يقود فريقا من الناس مزودين بالفئوس والماتل لحمل الانقاض بعيدا باقصى سرعة . أما لومبا ومافى فسيصحباني في القيام بالعملية نفسها .

قال حسن بن الحصري في حيرة :

— ولماذا لومبا ومافى معك ، وأنا مع المقدم عمر العيار .. ؟

قال الزبيق :

— ما زال المقدم عمر العيار هو الساحر الافريقي الذي يحبه القوم هنا ويجلونّه ، ويطيعون كلامه ونصائحه ، أما أنت فهم يعرفون انك في صفهم لانك صديقي .. ولا بد أن أبعد لومبا ومافى عن عيون الوزير مروان والفارس باسم لانهما يعرفان انهما من أعوان الملك سلطان ملك بحر الغزال ، وانهما اشتركا في اختطاف سلطانتهم زينب ..

قال لومبا :

— صدقت أيها المقدم ، فمنذ دخلت هذه المدينة ، وأنا على حذر أن يكتشف احد أمرى ، ممن يعرفون دورى المخجل في اختطاف السلطانة ..

قال الزبيق :

— هذه مسألة سنسويها نهائيا بعد اخماد الحريق ..

قال عمر العيار :

— أنت تريد ابعاد الناس عن المنازل المحترقة .. كيف وهم يحاولون اطفاء الحريق بالماء الذي يحملونه من الغدير .. وأنت تعرف حماس الناس وخوفهم على منازلهم .. ؟

قال علي الزبيق :

— هم يعتقدون فيكم الخير ، قل لهم انك تريد أن تجرب سحر كلدائى ، ثم يعودون بعدها الى حمل الماء من الغدير .. واختر معك من حملة المعاول والمكاتل من لهم مصلحة في بقاء المدينة قائمة ، وابعده كل من يريدون النهب والسلب ، أو الادعاء والتظاهر ، وقسمهم الى قسمين ، وحين يتم الانفجار ..

صاح حسن بن الحصرى :
- الانفجار ؟ نعود مرة أخرى إلى البرق والرعد والنجوم المتساقطة
من السماء التى انقذتنى من قبضتهم ..

ضحك الزييق وقال :
- هذه المرة لن تسقط النجوم ، وانما ستسقط المنازل ، لفترك
بيننا وبين النيران منزلا ، ونفجر المنزل الذى يليه ، ثم تتعقبه فرق
الازالة فلا تبقى للمنزل أثرا .. وحين تصل النيران إلى المنزل الاخير ،
سيكون الطريق مسدودا أمامها ..

قال عمر العيار :
- وتريد منا أن نزيل الانقراض فى الحال ..

قال الزييق :
- ولهذا اخترت منزلا بعد منزل من الحريق ، ويجب أن تزال
الانقراض بسرعة .

قال حسن بن الحصرى :
- لو نجحنا فى هذا ، فإن النيران ستوقف بالفعل .

قال لومبا :
- ولكننا لن نتمكن من انقاذ كل منازل المدينة ..

قال الزييق :
- سننقذ المدينة نفسها وهذا هو الشيء الهام .. هل فهم كل منكم
دوره ، والمطلوب منه .

قال عمر العيار :
- هى مغامرة جسورة ، فلو فشلت هذه الاصابع ، ضاع كل شيء
وضاعت المدينة ..

قال الزييق :
- هذه الاصابع من ذخائر الشيخ زكى البتوكى ، ولن تفشل كما لم
تفشل الملاعب الصينية ، فهى فى الحقيقة جزء منها ، هل نتوكل
على الله .

قال عمر العيار :
- ونعم من نتوكل عليه .. هيا بنا ..

قال الزييق :
- هل فهم كل منا دوره ؟

قال لومبا :
- لا انا ولا مافى فهمنا دورنا ، نحن مصححك ، هذه حقيقة ، ولكن
ماذا سنفعل ؟ ما هو دورنا ؟

قال الزييق :

— ستتسلل أنت الى المنزل الثانى للمنزل المحترق على يمين هذا الصف الطويل من المنازل ، ثم تضع هذه الاصابع داخله ، وتمر الفتائل الى خارج المنزل حيث تكمن بعيدا عنه ، وسيفعل مافى نفس الشئ فى المنزل الثانى للمنزل المحترق على اليسار .. هل هذا مفهوم ..

هز لومبا رأسه ، وكذا فعل مافى ، وهما ينظـران الى حزمـتى الاصابع ذات الفتائل فى روع وترقب .. واستأنف الزيبق حديثه فقال :

— سأضع الاصابع بنفسى ، وسأمد الفتائل حتى تصل اليكما بعيدا عن المنازل بمسافة معقولة .. كل المطلوب منكـما ان يشعل كل منكما الفتيل حين أشير اليه ، ثم ينبطح أرضا ، ويترك لكل شحنة ان تفعل فعلها ..

قال عمر العيار :

— ولن يصاب أحد من أهل المدينة بسوء ..

قال الزيبق :

— هذا دورك يا مقدم عمر ، ابعد الجميع ، ثم لينقض الجميع على الانقاض ليزيلوها فورا ، ثم تستعمل الفئوس فى الهجوم على البيت الثانى للبيت الذى تفجر ، وتزيل كل ما هو قابل للحريق ، هى معركة تحتاج الفهم والتضافر ، كما تحتاج الفداية والبذل ، ومن هنا أوصيتك باختيار الرجال الصالحين لخوضها ..

قال المقدم عمر العيار :

— أعطني فرصة زمنية اذن ، اذهب الى الرجال ، واحادثهم ، واقنعهم وأخبرهم ..

قال الزيبق :

— الوقت ضدنا ، فالحريق يمتد بلا عائق ..

قال عمر العيار :

— سألجأ الى الرجال الذين آمنوا بحبى لهم ، فانتظرانى قليلا حتى أصل اليهم واقنعهم ، وأخبرهم ..

قال الزيبق :

— الوقت سلاح ضدنا فالمدينة تحترق ..

قال عمر العيار :

— لن يستغرق هذا منى وقتا طويلا ، فقط امنحنى الفرصة لآخر الرجال والامات كثيرون فى الانفجارات التى تزمع أحداثها ..

قال الزيبق :

- عندما تستعد أرسل الى المقدم حسن بن الحصرى هنا فى المسجد ، وساعتها سأنطلق أنا ولومبا ومانى •

قال المقدم عمر العيار :

- هذا عدل ، فساذهب الان •

وقال للمقدم حسن بن الحصرى :

- اتبعنى يا مقدم فهذا قدرنا •

وانصرف عمر العيار والمقدم حسن بن الحصرى من المسجد ،

والتفت لومبا الى الزبيق قائلا :

- ومتى نتحرك نحن ؟

قال الزبيق :

- ينبغي أن يعد عمر العيار عدته ، فالرجال عنصر رئيسى فى

نجاح خطتنا ••

قال لومبا :

- وما دورنا فى هذه الخطة ؟

قال الزبيق :

- سنتحرك الان ، وسنضع فى كل منزل مختار ، مجموعة من

هذه الاصابع ، وعند نهاية الفتيل الخاص بها يكمن أحدكما ، وحين

أصدر الإشارة ، يشعل كل واحد منكما الفتيل ، ثم ينتظر •

قال لومبا :

- وهل معنى هذا ان ننتظر المقدم عمر ؟

قال الزبيق :

- سنضع الاصابع فى أماكنها ، ومنتظر كل منكما فى المكان الذى

أحدده ، وسانتظر أنا هنا المقدم عمر ، وحين أشير اليكما ، يشعل كل

منكما الفتيل الذى أمامه •• هل نحن متفقون •

قال لومبا :

- فهمنا •

قال الزبيق :

- اذن هيا بنا ••

ومن المسجد تسلل الجميع فى صمت ، كل يأخذ موقعه الذى حدد

له وكل يأخذ أهبطه للمهمة التى أوكلت اليه •

الجزيرة المحورة

حين دوى الانفجار الاول ، صممت المدينة تماما ، صمت الصارخون خوفا من النيران ، وصمت الصاخبون حول النيران ، يكافحونها عبثا بأوعية الماء المحمولة عبر طابور طويل من الرجال .. صمت كل شيء وسكت ، في ترقب وخوف .. وقبل أن تذهب مفاجأة الانفجار الاول ، دوى الانفجار الثاني مروعا ومهولا ، وانهار المنزلان عند طرفي النيران حطاما واشلاء ، وبقايا متناثرة هنا وهناك ، وانقض طابوران من الرجال على حطام المنزلين ، واحد يقوده عمر العيار ، والثاني يقوده حسن بن الحصري ، وارتفعت المعاول وهوت تكمل تحطيم ما لم يحطمه الانفجاران وامتدت الايدي بالمكاتل تزيل الحطام في سرعة وهمة ، وقد فهم كل الرجال مهمتهم ، وأصبح أملهم الوحيد في انقاذ المدينة هو ازالة الحطام حتى تاكل النيران نفسها وتتوقف .. وتحول السكون الى حركة صاخبة نشطة ، وانضم الكثيرون الى طابور الماء حتى كونوا أكثر من طابور ، وبدأت النيران تخمد في مناطق عديدة ، بينما ملأ المدينة دخان كثيف ، ورأى كثيرون من سكان المدينة لومبا ومافي وهما يقومان بدورهما في رفع الانقاض ، ونقل المياه ، ومكافحة الحريق ، ولم يلتفت أحد اليهما ، ولم يعترض أحد طريقهما ، بينما كان الزبيق ينتقل من مكان الى مكان يمد يد العون لجماعة هنا ، ويحث بالتشجيع والتوجيه جماعة هناك ، حتى أحس الجميع انه في كل مكان ، وانه يعضد كل يد ، ويذكي روح التحدي والصمود في كل نفس .. وقالت الجارية ياسمين لسيدتها السلطانة وهي ترقب حركة الزبيق التي لا تهدأ :

— لقد سيطر الزبيق على النار ، انه جيش وحده ..

قالت السلطانة زينب :

— منذ تعهد باطفاء الحريق ، وقد اطمأن قلبي ، وزايلني القلق

والخوف ..

ضحك الوزير مروان في سخرية ، وهو يقول :

— لقد سيطر على كل رجال المدينة ، وهم يتحركون لاشارته ،

كأنما تعودوا أن يتلقوا أوامرهم منه طول العمر ..

قالت السلطانة زينب في لهجة حاملة :

— هو قائد بين الرجال .. فبعض الرجال لهم هذه الموهبة حتى لو

كانوا بلا جاء أو سلطان .

قال الوزير مروان في اصرار :

- وبعض الرجال يركبهم الفرور حتى تداخلهم الاطماع في الحصول على الجاه ، والاستيلاء على السلطة .

التفتت اليه السلطانة زينب ، وقالت في حدة :

- لا مطمع لعل الزبيق في بلادنا ايها الوزير مروان ..

قال الوزير مروان في خبث :

- من يعرف متى تبدأ اطماع الانسان ، وكيف تتصاعد .. ؟

قبل أن تجيبه السلطانة زينب ، ظهر الزبيق يسرع نحوهم ومعه الساحر الافريقي ، والمقدم حسن بن الحصرى ، فرفعت السلطانة يدها طالبة الصمت ، وابتلع الوزير مروان كلماته . وهو يرقب في حلق حركات القادمين الناطقة بالزهو والثقة بالنفس .. وقال الزبيق حين واجه السلطانة :

- لقد تمت سيطرتنا على الامور ، وما هي الا عدة ساعات وينتهى الحريق تماما .

وقال الساحر الافريقي :

- لو امرت مولاتنا السلطانة ، ننصب الخيام لايواء من فقسدا مساكنهم ، ونعد الطعام للاطفال والنساء ، وللمنهكين من الرجال الذين كافحوا النيران .

صاحت السلطانة زينب :

- كيف فاتنا هذا ، صدقت يا صديقنا الطبيب .

ثم التفتت الى الوزير مروان آمرة :

- وقفتك الى جوارى هنا بلا معنى ، اذهب لتعد الخيام ، واوانى الطعام ، ولتفتح مخازنى كلها ، ويعد الطهاة الطعام ..

ثم التفتت الى الجارية ياسمين قائلة :

- اذهبي يا ياسمين معه ، ولتخرج كل جوارى القصر لاعداد الطعام ، والمأوى والكساء لضحايا الحريق .. هل اذهب معك أم تستطيعين تنفيذ هذا الامر كله ؟

قالت ياسمين :

- يكفي ما فعله الاغراب لنا ، لقد تعلمنا منهم معنى الصبر والاصرار ، ونحن لا نقل عنهم حبا لمدينتنا ، سيد هاشك ما نفعل ايها السلطانة ..

قالت السلطانة زينب ، وفي صوتها رنة فخر واعتزاز :

- كنت أعرف جوابك ، ينبغي أن نتعلم مما شاهدنا ، كيف يكون

العمل ..

قال الزيبيق :

— لست أشك في صدق ما سيتفعله ياسمين ..

قال الوزير مروان :

— وتشك فيما سأفعل ؟

قال الزيبيق :

— هذه مدينتك .. وأنت وزيرها ، وما جئت لكل هذا ، وإنما

جئت استأذن من السلطانة أن أذهب في المهمة التي جئت من أجلها إلى

هنا ، فقد طال تأخيري لهذه المهمة .. ويجب إذن السلطانة .

أطرقت السلطانة طويلا ، ثم رفعت رأسها ، وقالت :

— إذن السلطانة نافذ ، فإذهب إلى مهمتك ، ولن يمنعك أحد من

المدينة المرصودة ، وإن أردت معاونة ، قدمناها لك .

صاح الوزير مروان في احتجاج :

— وماذا نفعل في المدينة المحترقة أو في الهاربين مع السلطان

قاسم ، و ..

قاطعه الزيبيق قائلا :

— أما المدينة فلم تعد محترقة ، وأمرها موكول اليكم ، أما الهاربون

فيجب أن ينظم الفارس باسم حملته لتعقبهم ، وسأعطيهم المقدم حسن

ابن الحصرى معه ليعينه في مهمته .. أما أنا ، فلم يعد لوجودي هنا

معنى إلا إذا ذهبت إلى هدفي مباشرة .

قال الوزير مروان في حقد :

— تعنى أن تحصل على صندوق التواجية ، وتسرقه من مدينتنا

وترحل ..

قال الزيبيق في هدوء ، وهو يكتفم ما يحس به من خيق :

— صندوق التواجية ليس ملكا لمدينتكم أيها الوزير ، ولا يعرف

أحد ، هل سأوفق في الحصول عليه ، أم سأدفع حياتي ثمنا لأخفاقي

قاطعتها السلطانة زينب قائلة :

— كفى أيها الفارس ، سيصحبك التوفيق والنجاح ، اذهب والله

يرعاك .

وقال المقدم حسن بن الحصرى :

— سأكون في جيش الفارس باسم فلا تشغل بالك من هذه الناحية

قال الزيبيق :

— أعرف أنك قادر على انجاح المهمة .. وسأذهب الآن ..

وقبل أن يجيبه أحد ، كان الزيبيق قد اختفى عن الأنظار ..

قبل الفجر بقليل وصل الزبيق ومعه عمر العيار ولومبا ومافى الى
حافة البحر ، ووقفوا ينتظرون مقدم الرئيس سوهى ، وقال عمر العيار
- لقد تأكدت من وصول رسالتى اليه ، وسرعان ما يصل .

قال الزبيق :

- وجوده مهم ، فهو وقبيلته حراس الجزيرة وأصحابها ، ولست
أريد مقاتلتهم .

قال عمر العيار :

- هو صديقنا ، وهو يطمح أن يكون كنز الجبسل له ولقبيلته ،
فالمفارة التى وضع فيها صندوق التواجيه تحوى كنوزا وذخائر لا مثيل
لها ..

قال الزبيق :

- سأفتح لهم الطريق الى هذه الكنوز والذخائر ..

قال لومبا :

- نذهب معك ..

قال الزبيق :

هذه النفيلة مطلوبة منى كاختبار لحقى فى أن أكون مقدم درك
مصر ، ولو عاوننى أحد لفقدت حقى فى المطالبة بالاقرار لى بالتفوق
والغلبة .. ولكنى أريد أن تذهب أنت ومافى الى مدينة بحر الغزال ،
فأحسب أن السلطان قاسم هناك ، ومعه دليلة المحتالة ، ومونجو
وعصابته ، وليس أقدر منكما على معرفة الاخبار هناك ..

قال عمر العيار قاطعا حديثه :

- ها هو صديقنا الرئيس سوهى قد وصل فى مواعده تماما ..
ولاحت قوارب محملة بالرجال تتقدم نحو الشاطئ فى سرعة
وهدوء .. وفى مقدمة القارب الاول وقف الرئيس سوهى يحمل
حربته ، والجوهرة التى تتدلى فوق صدره تلمع فى أشعة الفجر
الاولى ، وقال الزبيق :

- الرجال فى زينة الحرب ، وفى أيديهم الرماح والسيوف ..
هذه ليست بادرة سلام ..

ضحك لومبا ضحكة خشنة ، وهو يعقب قائلا :

- رأيت هذا المنظر قبل هذا ، أن القبيلة تستعد لخوض حرب
دامية .

قال عمر العيار :

- لا تنس ما مروا به أمس ، وأظنهم يحسبون اننا ما زلنا فى
هداء مع المدينة المرصودة .

وما أن انتهى من كلامه حتى كانت القوارب قد وصلت الى
الشاطئ حيث وقفوا ، وقفز الرئيس سوهى الى الشاطئ ، ورفع
٣٠٠

حربته في يده وهزها في عنف ، ثم أشار الى رجاله فتبعوه ، وجروا القوارب الى الشاطئ ثم نزلوا منها مسرعين ، بسلاحهم الذي يلوحون به في وجه الشمس الوليدة التي لم تظهر بعد في السماء ثم تقدم الرئيس سو هي نحو الواقفين فوق الشاطئ ، وأوما برأسه تحية لهم ، ثم توجه بحديثه الى الزبيق قائلا :

— أيها المقدم صاحب الحيل الكثيرة ، والنيران المتطايرة ، والرعد والبرق .. أنا ورجالي أبناء قبيلة البونت جئنا لنصرتك في حربك ضد المدينة المرصودة .

رد الزبيق التحية ، وتقدم نحو الرئيس سو هي وهو يقول :

— لم تعد هناك حرب بيننا وبين المدينة المرصودة ، مهمتي الآن في جزيرتك وجزيرة قبيلتك أيها الرئيس سو هي ..

قال الرئيس سو هي في دهشة :

— الجزيرة المسحورة ..

تدخل الساحر الافريقي في الحديث قائلا :

— سيفتح المقدم الزبيق الكهف المسحور ، وليس له طلب الا صندوق التواجي ، وسيترك لكم الكهف بجواهره كلها ، وقد زال عنه السحر ، وأصبح طريقكم اليه مأمونا ..

فجأة ضحك الرئيس سو هي ، وتبادل رجال القبيلة النظرات الساخرة ، وقد ابتسم بعضهم ، وعلت ضحكات بعضهم الآخر ، وحين انتهى الرئيس سو هي من ضحكه ، قال :

— يا كم حملنا من جثث المفامرين الذين قصدوا الجزيرة دون أن يعرفوا طرق السير فيها ، فتمزقهم السيوف المسحورة .. حتى من استطاعوا تجنبها وقصدوا الى الكهف دسره حراسه السحريون ، وغدت أجسادهم هناك نهبا للصقور والطيور الجارحة ، لا نستطيع حتى أن نصل اليها لندفنها بعيدا عن مخالب وحوش السماء .

قال لومبا في صوت مرتعش :

— هذه صورة مخيفة لرحلتك يا مقدم .

وقال الساحر الافريقي مخاطبا الرئيس سو هي :

— أيها الرئيس سو هي مالم يقدر عليه أحد ، سيقدر عليه

الزبيق .

قال الرئيس سو هي :

— لو نجح لتنازلت له عن مكاني في رئاسة القبيلة ، فكم حاوات ،

وحاول أجدادي الوصول الى كهف صندوق التواجي دون جدوى

.. ففي هذا الكهف عز القبيلة وثروتها ..

قال الزبيق :

– وصندوق التواحيه ؟

– لا حاجة لنا بالصندوق فهو سر الهلاك الذى يهدد اهل الجزيرة فى حياتهم وامنهم ، وهو سر الاطماع التى تحيط بنا دائما ، فان اختفى توقفت الاطماع ، وحل بالجزيرة الامان .. ثم ضحك ، وقال :

– ثم هو لن يصل الى الصندوق الا اذا تمكن من ازالة السحر الذى يحرسه ، ولو فعل هذا لاستقرت حياتنا ، وزرعنا جزيرتنا ، وكثرت الخيرات لابناء القبيلة .. قال الزبيق :

– لن آخذ من جواهر الكهف الا الهدايا للخليفة وللسلطانة ، اما الباقي فهو لكم ..

قال الرئيس سوهى وهو يضحك :

– هدايا .. خذ ما تشاء .. انت لا تعرف قيمة ولا كمية ما ستجده فى الكهف .. ومهما اخذت فلن تنقص من هذا الكنز انملة ..

قال الزبيق :

– اتفقنا اذن ، نقلنى الى ساحل الجزيرة ، واترك باقى الامر لى ..

قال الرئيس سوهى :

– نحن لا نرتاد الا ساحل الجزيرة ، وجزئها الجنوبى البعيد ، ولن يصحبك احد منا الا الى الساحل .

قال الساحر الافريقى :

– وهذا كل ما يبقى .. فباقى المهمة موكولة له وحده ..

التفت الزبيق الى المقدم عمر العيار ، وقال :

– احسنت يا صديقى ، وانتظر ان اجدك على هذا الساحل

فى انتظارى عند عودتى ..

قال المقدم عمر العيار :

– سأذهب مع لومبا ومافى الى مدينة بحر الفزال ، فما يجرى

هناك يدخل فى صميم مهمتى هنا ، وسأكون فى انتظارك هنا عند الساحل قبل غروب الشمس .

صافح الزبيق عمر العيار وصديقه لومبا ومافى ، وشاهداهم

وهم يعودون الى الغابة ، التى سرعان ما ابتلعتهم داخل اشجارها

الكثيفة المتشابكة ، وتنهد ، وهو يلتفت الى الرئيس سوهى ، ويشير

الى القوارب ، قائلا :

– هيا بنا ايها الرئيس سوهى .

أشار الرئيس سوهي الى رجاله فعادوا الى قواربهم ، وقاد الزبيق قارب الرئيس ، وعادت القوارب تسير ناحية الشاطئ الآخر ، والزبيق يقف الى جوار الرئيس سوهي يرقب أشعة الشمس الأولى تنعكس على صفحة الماء القاتم فيلمع ، ويختلف لونه عن باقى مياه النهر ، ويتحول الى فضة وسط نحاس داكن ، والموج الخفيف يعبث به فيحركه حركة رتيبة هادئة ..

وصلت القوارب الى الشاطئ الثاني في صمت ، كان الرجال ينظرون الى الزبيق ، ثم يتبادلون النظرات في تساؤل وهم يفادرون القوارب ، ويجرونها الى الشاطئ ، ويشبتونها الى أوثاد بحال ليفية طويلة ..

وقال الرئيس سوهي وهو يقف مع الزبيق فوق الشاطئ :
- هنا نتركك نحن أيضا أيها المقدم ، انظر ..

وأشار بيده الى طريق متعرج يدور حول المنطقة الممتدة أمامه حتى يصل الى غابة كثيفة تقع في جنوب الجزيرة ، بينما امتدت الرمال من الشاطئ العريض لتنتهي بمنطقة صخرية قليلة الأشجار ، تظل ترتفع الى أن تصل الى جبل شاهق في نهايتها .. وقال الرئيس سوهي :

- هذا طريقنا الآمن الى حيث تقيم القبيلة وسط الغابة ، أما هذه المنطقة كلها فلا يسلكها سالك الا ويموت .. لو مات في المنطقة من الشاطئ الى حافة الجبل وجدنا جثته ، أما لو مات عند الجبل فستظل جثته هناك نهبا للصقور ..

قال الزبيق ، وهو يتأمل الاكمة والجبل :

- كل شيء هنا هادىء لا ينبىء بخطر ..

ضحك الرئيس سوهي في مرارة وقال :

- سترى كل شيء بنفسك ، ولكن لا تبدأ السير حتى نذهب نحن جميعا ..

وقبل أن يجيبه الزبيق ، أشار الرئيس سوهي الى رجاله ليتبعوه ، ومضى الجميع في صمت يسرون في الطريق المتعرج الدوار ، حتى ابتلعته الغابة ، والزبيق في مكانه يتبعهم بعينه في صمت ..

لم يكن على مرمى البصر ما يشير الفزع ، كل شيء هادىء تحت أشعة شمس الصباح اللامعة ، رمال ممتدة تتخللها اشجار قصيرة ، وبضعة صخور تظل تعلو ، وتعلو الى أن تصل الى حافة جبل ضخم يحجب باقى الجزيرة عن الانظار .. ولكن الزبيق لم يخدع بكل هذا الهدوء فقد كانت كل غرائزه متوقفة حذرة ، تنذر بالخطر القريب المروع .. وتلفت حوله ، فاسترعى بصره شجرة قريبة غليظة

الفروع ، طويلتها ، فاتجه اليها واخرج بلطته ، ومضى يجتث أحد الفروع من أصل التقائه بالشجرة ، وكان الفصن صلبا ، والبلطة لا تكاد تؤثر فيه ، واستمر الزبيق يضرب أصل الفصن ، والشمس بدأت تزداد سخونة ، وانفاسه بدأت تلهث ، والعرق الساخن بدأ يملأ جسده كله ، وخلع الزبيق من ملابسه ما يعوقه عن الحركة ، ثم انتقض من جديد على غصن الشجرة ببلطته .. وطار جزء من اللحاء الفليظ ، وظهر قلب الفصن الطرى ، وبدأت البلطة تغوص فيه في عمق ، وسرعان ما أحدثت ضربات الزبيق آثارها الواضحة ، ومال الفصن عن موقعه ، وانتقض الزبيق بحماس شديد ، وسرعان ما سقط الفصن تحت قدميه وقد انفصل عن الشجرة .. وأخذ الزبيق يجر الفصن بعيدا ، كان ثقيلًا وطويلا ، وكان ضخما عند نقطة انفصاله عن الشجرة ، ثم يدق تدريجيا الى نهايته .. ومضى الزبيق ببلطته يشدبه من الفروع الصغيرة التي تملأه ، حتى أحس أنه صالح للغرض الذي يريده من أجله ..

ونظر الزبيق حوله في حذر ، حتى استقر بصره على نقطة سوداء في وسط الجبل البعيد .. ومضى يسير وأمامه الفصن الفليظ يسبقه بخطوات كثيرة ، يدق به الأرض ، ثم يسكن ، ويعود ويرفعه من جديد ، ثم يدق الأرض بعنف بطرفه الفليظ ، ثم يمضي يرفعه من مكانه ، ويضعه في مكان جديد .. وفجأة انفجر كل شيء .. صوت أزيز مخيف يملأ الجو كله ، كأن ألف نحلة تطن حوله ، وألف بؤرة تلمع في وقت واحد تحت أشعة الشمس ، وكان الضياء يفشى عينيه. ضياء منعكس على أسنة سيوف متحركة لامعة ، مخيفة .. وتمزق الفصن الفليظ ، وكأنما يراه سلاح حاد فاذا هو لا شيء ، وكان ما يمسكه ورقة شجر لا قيمة لها ، وحدث الزبيق أمامه وقد غص حلقه ، وجفت مواطن العرق فيه ، ووقفت عيناه في محجريهما تحمقان في دهر .. وهمس لنفسه ..

— الجن والشياطين ..

هذا سحر مخيف ، وكل من رآه أو عاناه يؤمن بقوة هذا السحر ومقلمته .. ومضى يجر باقي الفصن في يده وقد تمزق كله مزقا مخيفة ، لو كان هو مكان هذا الفصن ، لغدا حطاما مبددا ، تذروه الرياح . وأحس أنه يولد من جديد .. وقف مكانه ، والعرق البارد ينداح من كل جزء من جسده .. وأمامه ألف سيف ، يضرب في ألف اتجاه ، والشمس تلمع على السيوف الضاربة ، ولا حياة أبدا وسط هذه السيوف الضاربة .. ومد الزبيق باقي الفصن الى حيث بقي جسده المحطم وظل يحركه ، وسحبته في هدوء وصمت ،

وارتفع باقى الجذر تدريجيا ، وانساق وراء سحب الزيتى للفصن ،
ثم خرج من مكانه فى هدوء .. وفجأة توقفت كل السيوف ، وصمت
الصوت الغريب ، وعاد الهدوء يملأ المكان من جديد .

ومالك الزيتى نفسه وهو يتذكر احاديث الشيخ زكى البتوكى ،
هناك سر ، وراء كل شىء ، لا سحر هناك ، فقط هناك علم وصناعة ،
ورفع بلطته ومضى يضرب الارض حيث وقف ، يضرب بحذر وهدوء
.. الى اليمين .. هذا هو ما اختاره ، والى حيث اختار اخذ
يضرب بالبلطة وكأنها فأس ، خطوة خطوة ، وفجأة ضربت البلطة
حديدا ، ارتفع صوت التقائه بحد البلطة ، فتوقف الزيتى ، ومضى
يزيل حول الحديد ، جنزير مخيف من الحديد ، ولكنه هنا يلتقى
بجنزير آخر يمتد الى شمال ، الى حيث الجبل .. وتوقف الزيتى
وهو يتأمل امامه .. انه هنا امام السر العظيم ..



الكنز

بأصابع حلزرة وحساسة ، مضى الزبيق يتحسس نقطة التقاء
الجنزيرين الحديدين ، وارتطمت أصابعه بدواليب ولوالب من
الصلب تحيط بنقطة الالتقاء ، هنا مكن السر ، وعصب التحكم في
حركة السيوف .. واخذ ذهنه يعمل في سرعة وهو يستعيد توجيهات
الشيخ زكي البتوكي ونصائحه .. وبهدوء وعزم رفع البلطة ، وحدد
النقطة المركزية التي رجح أنها عصب التحكم ، ثم ذكر اسم الله في
صوت عال وهو ينهال ببلطته بكل قوة لتحطم السيور الجلدية
والجنازير ، والعقد المركبة ، وتمزق الدواليب واللوالب ، وصمت
كل شيء حوله بعد أن زالت أصداء أصوات الحديد الممزق .. ورفع
رأسه بتلفت حوله .. لا شيء ، سكون كامل ولا حركة ، السيوف
اختفت وكأنها ما كانت ، والسلام يعم المكان من جديد ، ولم يبق
من آثار ما حدث الا الفصن الفليظ المحطم ، وكأنما براه سلاح
مخيف .. والا انفاس الزبيق اللاهثة التي تشي عن اضطرابه وقلقه
.. كان يعلم أنه اتلف جزءا من الحركة الذاتية التي تتم ميكانيكيا
للسيوف عند وصول جسم ثقيل الى مكان معين .. ولكن هل هذا
هو المركز الرئيسي أم هو مركز فرعي توجد غيره مراكز مماثلة ؟
وتمالك الزبيق نفسه ، فهذا وقت التفكير الهادئ ، والسلوك المنظم
.. ثم مضى يحفر في خط مستقيم ، في حذر شديد وقد ملأ العرق
جبهته وأحس بطعم الملح في فمه ، الى أن اصطدم حد البلطة بشيء
معدني ، وكان لصوت الاصطدام رنة واضحة .. وتلفت حوله فوجد
صخرة ضخمة ، فذهب اليها يحملها ووقف في مكان اصطدام البلطة
بالصوت المعدني وقدر نفس المسافة التي تفصله عن الحفرة الاولى ،
ورمى بالصخرة بكل قوته .. وفجأة انبعث الصوت المميز ، وتمزق
الهواء بلفحات السيوف الضاربة في عنف .. وتمزقت الصخرة
تحت وقع السيوف كل تمزق ، ووقف الزبيق مذهولا ينظر
امامه وهو لا يكاد يصدق عينيه .. كانت السيوف
تتحرك امامه حتى حافة الجبل ، ولكن الصف الذي يقف فيه كان قد
سكن تماما ولم يعد يتحرك أبدا . اذن فليس هناك مجمع عام ، وانما
لكل صف مركز حيوي مركزي لا بد من القضاء عليه حتى تسكن
السيوف فيه .. وخلق قميصه ومضى يجفف العرق من جبهته
وصدره ووجهه ، وهو يحدد المكان الذي يتحكم في الصف التالي
طبقا لتجربته السابقة ، وعاد الى الوراء يبحث عن صخرة جديدة
مناسبة ، وحملها ، ووقف عند البؤرة التي حطمها ثم رمى الصخرة

الجديدة ، فتمزقت تحت السيوف ، ومضى يحفر من جديد فى بطن وروية الى أن عشر على المركز الثالث الملىء باللوالب والسيور والجنائز ، ورفع بلطته وهوى بها ، وتوقف صف جديد من السيوف . . وابتسم فى ارتياح وقد حفظ المسافات ، وعرف الأماكن الحساسة فى التقاء السيور والجنائز والدواليب المحركة ، وأصبحت حركته أسرع ، وهو يحفر من صف الى صف ، ومن مجموعة الى مجموعة ، وأصبحت ضرباته أكثر ثقة ، وهو ينهال بعنف على مراكز العصب فى كل صف يبلطته فتتخبط فى صوت ألى الى أذنه ، ويتوقف صف من السيوف عن الحركة ، وراء صف . . وهو يتقدم وسط أشعة الشمس الحارقة حاملا بلطته ، حاسبا المسافات والأماكن ، محددًا هدفه ، مراعيًا الدقة والصواب ، فلا مجال هنا للخطأ ، والا فالألم هو النتيجة المحتومة القاسية . . واشتدت أشعة الشمس قسوة ، واشتد وهجها المنعكس على السيوف لمعانا ، ولكنها كانت تختفى ، وتقل عند سكون كل صف جديد من السيوف . وأحس الزبيق بالزهو ، هاهو يقهر هذا السحر المخيف الذى سيطر أجيالا وأجيالا على قدر الجزيرة وأصحابها . . كان علم الشيخ زكى البتوكى صحيحا ، وكانت استنتاجاته وتوقعاته كلها صائبة . . هذا عمل العلم ، وبالفهم والمعرفة يبطل ، ولا سحر هناك . . الا وهم الجهلاء ، وأصحاب المعرفة السطحية . وفجأة توقف ، كان يحس فى أعماقه أن هناك من يراقبه ، من يعد عليه حركاته وخطواته ، من يشاهد كل ما يفعل . . وتوقف ، والبلطة فى يده ، والعرق فى عينيه ، والجهد يهزم عضلاته . . أى قوى شريرة هذه التى تحيط به . . كان يعرف أن ما يواجهه ليس قوة خارقة ، وليس سحرا . . ومع هذا كان يحس أنه محاصر ، كأن عيوننا مجهولة ترقبه ، وكأن أنفاسا شريرة تتنفس فوق كاهله . . وعاد يتلفت حوله من جديد . . ولكنه لم ير شيئا غريبا على امتداد بصره . وهز كتفيه كأنما يزيح عنه هذا الاحساس ، ومضى ينقض من جديد على مكان الحركة يدمرها ، والسيوف تنهوى أمامه الى أن رفع رأسه ليجد نفسه ينظر فى فتحة كهف كبير تلمع صخوره لانعكاس أشعة الشمس عليها ، ولا سيوف هناك . ودق قلبه فى عنف ، وفجأة قفز فى الهواء صارخا وهو يضحك ، لقد فعلها ، لقد هزم السيوف القاتلة ، وانفتح أمامه الطريق الى الكهف الملىء بالكنوز والجواهر ، وحيث يوجد مطلبه الذى عانى من أجل الوصول اليه الكثير . . صندوق التواجي . . وأفاق من موجة الفرح الجارفة التى احتوته على صرخات آدمية من ناحية البحر ، وحين التفت الى ناحية الصوت وقف مكانه مذهولا . . فقد

رست على الشاطئ مركب كبيرة ، وقفت في مقدمتها دليلة المحتالة
وهي في زى الدرويش الصالح ، بينما اندفع من المركب مونجو
ورجاله جميعا وهم يلوحون بحراهم ، وصيحاتهم تصم الأذان ،
وصاحت دليلة فيهم :

— ها هو الزيتيق امامكم ، مرقوه ، فلم يعد لنا به حاجة بعد أن
فتح الطريق الى صندوق التواجيه وكهف الكنوز ..
وقف مونجو ينظر اليها لحظات ، ثم لوح بحريته وهو يصيح :
— الكنز أولا ، أما الزيتيق فأين سيذهب ، سنعود اليه لناخذه
الى الملك سلطان ، والى السلطان قاسم فسيدفعان فيه الكثير ، وقاسم
يريده حيا ليعذبه بنفسه ..

وضحك ضحكة وحشية وهو يصيح في رجاله :

— الى الكنز ، لن يسبقنا اليه أحد ..

واندفع الجميع وراءه الى الكهف ، والزيتيق ينظر اليه في ذهول ،
صدقت حاسة الخطر التي نبهته الى وجود شيء غريب ، وتحول
ينظر اليهم .. وهو يحس ان أنفاسهم تتنفس فوق كتفيه ، ولكنهم
جروا وعبروا .. كان يقف متأهبا والبلطة في يده ، يتوقع ضربة
حربة في أى حين .. ولكن أحدا لم يلتفت اليه ، كانوا يجرون صارخين
وهم يلوحون بحراهم نحو مدخل الكهف ، وهو يقف متأهبا . والكل
يعبره الى فوهة الكهف .. كان يرقب في حذر ليستطيع تجنب أى
طعنة توجه اليه . ولكن أحدا لم يوجه حريته نحوه ، بل كان أحدا
لا يهमे وجوده في شيء ، فالكل يتسابقون فى سرعة الوصول الى
الكهف ، وقد تحول الوصول الى الكهف هدفا لهم لا يرون غيره ..
وكان مدخل الكهف عريضا وطويلا ، تحده الجدران الصلبة من
الناحيتين ، بينما لا ترتفع سخور سقفه كثيرا عن الأرض ، وما أن غدا
الجميع داخل هذه الفوهة الواسعة حتى دوى صوت كالرعد ،
ووجف قلب الزيتيق ، وهو يرى ذاهلا السيوف الحادة تبرز من
جدران المر الصخرى ، ومن سقفه ومن أرضيته لتمزق الجمع
المحتشد هناك كل ممزق .. وطار رءوس ، وتمزقت أبدان ،
وارتفعت صرخات تمتزج فيها الدهشة بالالام باليأس .. ثم سكت
كل شيء فجأة كما بدأ . توقف الصوت الراعد . واختفت السيوف
الى أماكنها المجهولة ولم يبق في مدخل الكهف الا دماء واشلاء ومزق ،
وبقايا أعضاء آدمية كانت منذ ثوان تضع بالحركة والجشع والحياة
.. جف حلق الزيتيق ، واضطربت أنفاسه ، وشلت حركة جسده
كله ، ود لو أن الزمن استرجع هذه الثوانى القليلة ، وان الرجال
لم يندفعوا خلف مونجو ليلقوا هذا المصير المخيف البشع ، ود لو

كان يحلم ، وان ما حدث ليس حقيقة .. ولكن الاشلاء التى مازالت تهتز فى ارتجاف بشع ، والدماء التى لطخت جدران المدخل وأرضه وسقفه لم تترك أى شك فى أن ما حدث حقيقة ، وأنه شاهد لتوه مجزرة بشعة ارتكبها مجهول مات منذ زمن ، ضد كل من يجرؤ على المساس بحرمة كنزه وأسراره .. وأفاق الزيبق من ذهوله على صوت مفاجيء من خلفه وحركة عالية ، فالتفت ليجد السفينة قد فردت قلوها كلها وأخذت تنساب مبتعدة عن الشاطئ وكأنها فى فزع يفوق الفزع هو ، وكانت دليلاً قد اختفت من على ظهر السفينة تماماً .. وسرعان ما ابتعدت أشعة السفينة ثم غابت عن نظره ، وهو واقف مكانه وكأنما فقد القدرة على الحركة .. ها هى دليلاً تهرب من جديد بعد أن دبرت فى هلاكه ، فلا شك أنها عرفت أنه غادر المدينة المرصودة الى الجزيرة المسحورة ، ولا شك أنها أحضرت مونجو ورجاله لإسره أو قتله ، ولكن طمع مونجو فى استلاب الكهف ، ورغبة قاسم فى الثأر المؤلم البطيء من الزيبق ، أفسدا خطتها .. وها هم الرجال قد تمزقوا ، وها هى تهرب فى ذعر ، وكأنما تخشى أن تمتد هذه السيوف لتطبق على السفينة ، وتحطمها مرقاً ، كما فعلت بالرجال .. ولكن كيف عرفت ؟ وممن ؟ .. قفز الى ذهنه وجه الوزير مروان .. وابتسامته ذات الألف وجه .. ولكنه هز كتفيه ، وهمس لنفسه :

— كل شيء بأوان ، وليس الآن هو أوان الشك ، الآن هو أوان العمل ..

وابتسم لنفسه فى مرارة ، وعاد يهمس :
— الآن أوان التركيز ، والا أصبحت مرقاً كمونجو ورجاله .. وأحس بالقشعريرة تهز جسده كله ، فتمالك نفسه ، ونظر حوله ، وأحس بالدهشة تملأه ، الشمس ترسل أشعتها ساطعة منيرة ، والبحر يرسل فيض رذاذه منعشاً لطيفاً ، والصحراء هى ، والكهف وفوهته المخيفة هى ، هى .. فمن أين يبدأ .. وأرغم نفسه أن ينظر الى الكهف ومدخله ، مجموعة المرق والتعاسات التى تملأ المكان ، وتمالك نفسه وجعل يتفحص مدخل الكهف فى هدوء .. عند ناحية كانت صخرة ناتئة بعض الشيء ، وحين تفحصها الزيبق فى عناية ، أحس أنها ليست من التكوين الصخرى الاساسى للكهف .. ومد أصابعه يتحسس الصخرة فى دقة ، وأحس أنه يستطيع أن يحدد أبعادها وأحس أيضاً أن هذه الصخرة وضعت هنا مؤخراً ، أضيفت الى تكوين حائط الكهف ، وليست اساساً فيه وفى هدوء مضى يتحسس هذا الجزء الهام من تكوين حائط الكهف ..

وسرعان ما أدرك حدوده ، وضع أمامه أنه شيء مضاف ، غطته السنون حقا ، ولكنه ظل شيئا مميزا وواضحا ، رغم تراكمات الأمطار والعواصف والأتربة ، وأخرج بلطته ، وأخذ يحدد في ضربات هادئة حدود هذه الصخرة المميزة ، وحجمها وامتدادها .. وفي هدوء رفع البلطة ، ومضى يضرب حول حدود الصخرة ، حتى تأكد أنها بالفعل شيء بارز ومميز ، وليست من التكوين العادي لصخور الكهف .. واستطاع أن يحدد أبعادها تماما .. وفي هدوء وحذر مضى يزيل ما يلصقها بحائط الكهف ، من وضعها أجاد الصنعة ، أسمنت ، وكثير من التمويه ، وأزال الزيبق التمويهات ، حتى لم يعد أمامه إلا الأسمنت ، ومضى يزيله في رفق وتؤدة وحين انتهى من إزالة وصلات الأسمنت ، ضرب بالبلطة حول الصخرة ، حتى تأكد أنها انفصلت عن الجدار الصخري ، فأخذ يدفع بحد بلطته هنا وهناك ، حتى غدت الصخرة بلا رابط يربطها بالجدار .. وفي هدوء جذبها إليه ، وانفصلت عن أصل الجدار .. وشدها برفق .. ثم انتزعها من مكانها .. ووضعها إلى جوار الجدار في هدوء .. وأمامه - بعد أن أزال الصخرة - عالم من الدواليب ، والاسلاك ، والجنائز ، والتراكيب المعجزة .. وتوقفت أصابعه تماما .. وأحس بالعرق ينداح على جبهته ، بل وفي جسده كله .. كان يعرف أن هذا صلب التحكم في مدخل الكهف .. حيث مات مونجو ورجاله ميتة لا يرضاها أحد ، ولا يحبها أحد .. ونظر إلى المدخل وهو يرغم نفسه أرغاما على النظر .. كان مونجو ورجاله في منتصف المدخل حين انقضت عليهم السيوف .. لم يصل أحدا إلى الطرف الآخر من الكهف فعندما تصل الفريسة إلى نقطة معينة في المدخل تتحرك هذه الدواليب والجنائز ، وتبرز السيوف القاتلة لتفتك بأي كان مهما كان حجمه ، وبأي معتد على حرمة الكهف أيا كان عدده .. ومضى يتلفت حوله لبحث عن عدة صخور كبيرة تفي بغرضه ، وحين وجدها ، مضى ينقلها واحدا إثر أخرى إلى أمام فوهة الكهف .. ثم قدر المسافة ورمى الصخرة بكل قوته ، ولم يحدث شيء ، كانت الصخرة ثقيلة فلم تصل إلى منتصف المدخل ، فعاد يحمل صخرة أخرى ويرميها إلى أبعد ، وفجأة ارتفع الصوت المرعب من جديد وبرزت السيوف تمزق الصخرة من أعلى ومن أسفل ومن الجانبين .. وكان الزيبق يراقب ما في الفتحة من أجهزة ، ويرأها وهي تتحرك والسيور تجري إلى نهايتها ، ثم تتوقف ، ثم تعود لترجع إلى مكانها بسرعة والسيوف تختفي من الكهف تماما .. وفي عناية كاملة رفع الزيبق بلطته وهوى على أول السيور فتمزق

السير تحت ضربته ، ثم اتجه الى السير الثانى ومزقه ببلطته ، وكذلك فعل بالسيرين الآخرين .. ووقف يلهث ويجفف عرقه ، ثم انهال بالبلطة على الدواليب والجنائز ليمزقها واحدة اثر الاخرى ، الى أن غدت المنطقة المجوفة امامه مجموعة من السيور الممزقة ، والدواليب المحطمة ، والجنائز المقطعة .. وهدر صوت من جوف الصخرة كأنه تنهيدة عميقة حارة .. ثم سكت كل شيء ..

تلفت الزبيق حوله ، كان الساحل امامه ساكنا الا من نسمة هواء ، وكانت الشمس ساطعة ، وقد بدأت حرارتها تشتد . هو وحده الذى كان يرتجف من أعماقه ، وتمور في داخله أصوات متعارضة صاخبة .. كان واثقا أنه حطم مركز الحركة ، وقضى على السحر المزعوم .. ولكن مصرع مونجو ورجاله كان ماثلا امامه يمنعه من الاقدام على الخطوة الأخيرة ، فلو دخل الى فوهة الكهف ، وكان مخطئا في تقديره فلا عودة له ، بل سيتمزق جسده شر ممزق .. ومضى يجمع صخورا جديدة ، ثم يرميها الى فوهة الكهف ، ووقعت واحدة مكان الصخرة الممزقة ، ولم يحدث شيء ، وواحدة امامها ولم يحدث شيء ، وواحدة خلفها ، ولم يحدث شيء .. وهذات أنفاس الزبيق ، واستل سيفه ، ومضى حذرا يدخل الى فوهة الكهف ، كان يعرف أنه يسير بقدميه الى موت مخيف .. ولكنه كان يثق في كلمات الشيخ زكى البتوكى التى يذكرها تماما .. قال له :

— هي أشياء مصنوعة بالحكمة والمعرفة ، تعتمد على العلم والميكانيكا ، وقد وجدنا مثلها كثيرا في المقابر المصرية القديمة في مصر ، وتحكى لنا الكتب القديمة أنها وجدت في مقابر التبابعة ، والأمم البائدة كعاد غيرها في الجزيرة العربية .. أرصاد مصنوعة بالمعرفة ، تتحرك على لوالب عند نقطة معينة حين يقع على هذه النقطة ثقل ، فتخرج الثعابين والافاعي واسود تضج ، وتخرج النار ، وتنفث السموم .. وتقتل كل من يعتدى على حرمة المقابر ، او يريد نهب الكنوز .. لو عرفت سر ما في الجزيرة المسحورة ، لقضيت على شره الى الابد ..

كانت الكلمات الهادئة تدوى في أذنه ، وهو يتحرك داخل الكهف في حذر ، الآن وصل الى حيث دماء رجال مونجو وأشلأهم ، لم ينظر الى الارض أبدا ، وإنما مضى وسيفه في يده يتقدم الى امام .. تحت قدمه الصخرة التى فتحتها السيوف .. الآن اذن ، والآن نجا .. وتوترت عضلاته ، وهو يعبر المكان في توفز .. ومر .. نعم مر .. نجا .. مضى يجرى ما تبقى من فوهة الكهف وهو يلهث ، ويضحك ويلوح بسيفه .. لم يحدث شيء .. عبر فوهة الكهف ،

ولم تظهر السيوف القاتلة .. وفجأة وجد نفسه خارج الممر القاتل ،
وامام نور عنيف يفضى العيون .. وأغلق عينيه ، وانحنى الى الارض ،
يلتقط أنفاسه ، ويهدى نائرة قلبه السريع الضربات .. ومرت لحظات
.. أحس فيها ان الحياة تعود الى جسده ، وأنه ولد من جديد ..
كانت الدموع في عينيه ، وكانت كلمات الشكر والحمد لله عند
شفتيه ، وكان قلبه يخفق في ابتهاج .. انها ارادة الله ان ينجو من
هذه المهلكة المخيفة ، وهي ارادة الله ان يزيل هذا الخطر الجاثم
المخيف الذى يحطم كل انسان .. ما هو الا أداة في يد القدرة ..
وأحس بصفارة ، وأنه مدين للقدرة العليا التى لا تدانيها قدرة ، وأنه
مسخر لأمر يريد سبحانه وتعالى ، وأن أوان حدوثه .. وأنه
كان أداة هذا الحدث ..

وحين فتح عينيه ، بهره الضوء المخيف ، فعاد يفلقهما من
جديد .. كان سيوفا من ضوء قد غزت عينيه حتى كادت تفضى
رؤيتهما .. لا يدري لماذا أحس أنه أمام حدث عظيم .. وتحامل
وهو مغمض العينين ، ثم استند الى سيفه بيد ، ورفع يده الأخرى
عن عينيه ، ثم فتحهما فى حذر .. وعاد يفلقهما بسرعة .. هذا
ضياء لا يقدر عليه أحد .. كان الف فوهة نور تندفع لترسل أشعة
صارخة الى العينين فتفشيها ، وتمنعها من الرؤية ..
وحين فتح الزيتيق عينيه أخيرا طالعه منظر لا ينسى أبدا ..
مئات بل آلاف الجواهر ، مرصوفة فى كل مكان ، وفى صدر المكان
تمثال نحاسى للحكيم اليونانى .. القلنسوة والشال والملبس ،
واللامع ، كان يعرفها من مصر حيث عاش اليونان ، وحيث تركوا
تمائيلهم فى الصعيد القريب ، وفى المنيا وبني سويف لم يكن عنده
شك أن هذا التمثال ليونانى جاء هنا عبر الزمان والمكان ، ولكنه
كان هنا من زمن طويل ، وجمع جواهره وثروته وعلمه ، ودفنها فى
هذا الكهف .. وأحكم حراسته بعلمه ومعرفته ، ولكنه مات ..
واندثر وكل حى لابد ان يموت ويندثر ، ولكن الحياة لابد ان تستمر ،
لا تقف لارادة رجل ، ولا لعلمه الا الى حين .. وقد حان الحين ..
كان التمثال يمد يديه أمامه ، وفوق اليدين وسادة من حرير
أحمر ، مطعمة بالجواهر ، كل جوهرة تفوق جوهرة الرئيس سوهى
عشرات المرات .. وكلها تلمع فى ضوء الشمس فى انعكاس رائع
جميل ، وفوق الوسادة استقر صندوق التواجيه .. مطعما بالجواهر
واليواقيت والمرجان .. وأحس الزيتيق أنه يحلم لا يمكن ان يكون فى
العالم مكان كهذا .. حول التمثال أكوام وأكوام من الجواهر
واليواقيت والزمرد واللؤلؤ وعناقيد الذهب ..

والتمثال صامد أصم ، وجهه لا يشي بمعنى ، وهو يحمل الوسادة
وفوقها صندوق التواجية .. هذه الثروة المخيفة استخرجها من
باطن هذه الأرض ، وأراد أن يستأثر بها ، فصنع الأعاجيب لحمايتها
ولكنها ينبغي أن تعود إلى أهلها ..

وتقدم الزبيق إلى صدر التمثال ، وحمل صندوق التواجية
فوق وسادته المخملية المحلاة بالجواهر ، ووضعها إلى جواره على
الأرض ، ثم أخرج جرنندان من جرنذاناته ، وأخذ يملأ كل جرندان
بالجواهر واليواقيت والزمرد والذهب ، واحدة للخليفة ، والأخرى
للسلطانة زينب .. كان ينتقى في هدوء ، وقد هدأت نفسه ، وأحس
أنه يتحرك في عالم من الحكمة والصواب .

فى نصف نهار

حين خرج الزبيق يحمل صندوق التواجيه بين مساعديه ،
وجرنداناته المليئة بالجواهر فوق ظهره ، فوجيء بالمرائب الصغيرة تملأ
الساحل الرملى أمامه .. وفوجيء بالساحل نفسه وقد امتلأ بالرجال ،
وفى مقدمتهم الرئيس سوهى يلوح برمحه ، ويصيح ، فيصيح لصياحه
كل الرجال ، وهم يلوحون برماحهم وسيوفهم .. وضع الزبيق حمله
فوق الارض ، ثم رفع يده يحيى القادمين ، واندفع الجميع نحوه ، وفى
مقدمتهم الرئيس سوهى ، الذى غرس رمحه أمامه وهو يقول :
- صدقنا نبوءة الساحر الافريقى ، وجاء رجل من الشمال ، هزم
الشر ، وفتح الطريق الى الكنز .

قال الزبيق ، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة :
- انتهت الاسطورة ، والطريق الى الكنز مفتوح .
صاح الرئيس سوهى وهو يلوح بحربته :
- الفضل لك يا مقدم .. لقد تابعتنا معركتك كلها ، ولم تكن
نصدق انك ستنجو ، ولكنك - كما قال الساحر الافريقى - محروس
بعناية الله .. والان ماذا تريد منا .

قال الزبيق :
- الكنز ملك لكم فانتهم اصحابه .
قال سوهى وهو يضحك :
- ما كنت أتوقع منك الا هذا .. وسأضع رجالى لحمايته .
قال الزبيق ، وهو يجيل النظر فى الوجوه اللامعة بالسعادة
ومعاني الحب والامتنان .

- الكنز لكم ، لم أأخذ الا ما جئت من أجله ، أى صندوق التواجيه
وهدية للخليفة واخرى للسلطانة زينب ، سلطانة المدينة المرصودة .
قال الرئيس سوهى :

- كل ما أخذته خلال لك ، فصندوق التواجيه مجرد رمز لحراسة
الكنز ، أما ما تحمله معك فهو لا يمثل شيئا بالنسبة للكنز .. ويكفى
انك قضيت على السحر اللعين .. لقد صدق الساحر الافريقى الذى
أخطرنا أن أوان ظهور المخلص قد آن .. وكنا جميعا فى انتظار الرجل
الآتى من الشمال يحمل سيفاً وبلطة ، وتخضع له النار ، وتسير فى
ركابه قوى البرق والرعد .. وعرفناك منذ جئت فكنا فى خدمتك ..
ونحن فى خدمتك الى النهاية .. ولو شئت لزحفنا معك على المدينة
المرصودة ، لنصيبك سلطاناً عليها ..

ضحك الزيبق وهو يقول :
- ألم تعرف بعد أنه لا أطماع لي في بلادكم .. لقد جئت لهدف ،
وقد حصلت على ما جئت من أجله ، وأن أوان العودة ..
ضحك الرئيس سو هي ضحكة عريضة ، وهو يقول :
- تحكي الاسطورة التي يتناقلها أبناء القبيلة جيلا وراء جيل ،
ان الرجل الآتي من الشمال لن يرحل الا بعد أن يمحى الشر في بلادنا
ويقضى على الافاعي ، ويسود السلام ..
قال الزيبق :

- لعلك تتحدث عن رجل اخر .. أما هذا الرجل فهو يريد العودة
الى الشاطئ الاخر ..
قال الرئيس سو هي :
- هيا بنا ، القوارب جاهزة ، والرجال مستعدون ..
ووسط ضجيج الرجال وغنائهم ورقصهم وضحكاتهم الطروب
صحب الرئيس سو هي على الزيبق الى قاربه الذي اندفع متجهسا الى
الشاطئ الاخر ، وحوله ووراء عشرات القوارب الصغيرة التي قضج
بالطبول والغناء ..



كان عمر العيار في انتظاره كما وعد على الشاطئ الاخر .. ولكن
رجال قبيلة البونت اندفعوا نحو الساحر الافريقى يعانقونه ، ويرقصون
حوله في طرب وسعادة ، وكل منهم يحاول أن يسبق الاخر ليحكي له
على ما فعله الزيبق في الجزيرة المسحورة ، وكل منهم يشير الى
صندوق التواجية الذي يحمله الزيبق الى أرض الشاطئ ..
واندفع الرئيس سو هي يشق طريقه بين رجاله المحتشدين ليعانق
الساحر الافريقى ، وهو يقول :
- لقد صدق ما قلته ، وتحققت الاسطورة وجاءنا بطل الشمال
فأبطل السحر ، وغدت الجزيرة آمنة .. نحن مدينون لك .
قال الساحر الافريقى وهو يخلص نفسه من عناق الرئيس سو هي
في رفق :
- لا وقت لهذا ، فالخطر مائل وهو يشملكم كما يشمل المدينة
المرصودة .

وجم الرئيس سو هي ، وتراخت ذراعاها ، بينما تقدم الزيبق نحو
عمر العيار وقال :
- عندك من الاخبار مالا يسر .. ما هي ؟
قال عمر العيار :

- كل مالا يسر .. كأنهم انتهزوا فرصة ذهابك الى الجزيرة

المسحورة ليفعلوا كل شيء .. ربما ظنوا أنك لن تعود منها حيا أبدا .
ساد الوجوم كل رجال القبيلة .. وشحب وجه الرئيس سوهى ،
بينما سأل الزبيق عمر العيار قائلا :

- انهم يتحركون بسرعة منذ انقاذ السلطان قاسم ، وحرقت المدينة
المرصودة .. اليس كذلك ؟

- كنت فى مدينة بحر الغزال عندما عادت دليلة هذا الصباح
اليها فى زى الدرويش الصالح ، كانت كأنها ضيف ، اجتمعت بالملك
سلطان ، وسرعان ما قبض الجواسيس على لومبا ومافى - وهربت أنا
بالصدفة المحضة .

قال الزبيق فى عصبية :

- دليلة عادت على السفينة ذات الاشرعة بعد أن تعقبته الى
الجزيرة المسحورة ، ودفعت موانج ورجاله ورائى ، ولكنهم تركوني
واندفعوا الى الكهف وقد ظنوا الطريق آمنا بعد أن ابطلت فعل السيوف
فى أرض الجزيرة ، ولكنهم تمزقوا عند المدخل ، وشاهدت دليلة هذا
فاندفعت هاربة بسفينتها من الجزيرة .

قال عمر العيار :

- ظنت ان كل شيء قد ضاع ، وانك لن تستطيع أن تحل لغز
الجزيرة المسحورة ، وانك أيضا قد ضعت . ومن هنا بدأت حركتها
السريعة والحاسمة .

قال الزبيق :

- واذن ..

قال عمر العيار :

- علينا أن نسرع والا فكل شيء قد ضاع .

التفت الزبيق الى الرئيس سوهى ، وقال :

- هذه الذخائر اتركها لك ، وحين أطلبها أرجو أن أجدها .

ودفع الى الرئيس سوهى بصندوق التواجيه فوق الوسادة
المرصعة والجرنندانين المليئين بالجواهر .. ثم قال :

- لا أستطيع أن أوزع اهتمامى بين هذه الذخائر ، وبين ما هو
مطلوب منى الان .. فهل أنت معى أيها الرئيس سوهى ؟

قال الرئيس سوهى ، وهو يحمل صندوق التواجيه والجرنندانين :

- هم فى الحفظ والصون ، وحياتى فداء لهما .. ونحن معك فى

أى طريق توجهت اليها أيها الفارس .

قال الزبيق :

- سنسرع لنكون فى خدمة السلطانة زينب :

كانوا يتقدمون فى حذر متجهين نحو المدينة المرصودة ، حين

توقفوا فجأة ، اذ أسرع أحد الطلائع الذين أمرهم الرئيس سوهى أن يتقدموهم عائدا فى عجلة واضطراب ، وحين وصل الى الرئيس سوهى قال فى انفعال :

— التقدّم مستحيل ايها الرئيس ، من المدينة وحتى هنا عساكر وخيام واستحكامات مخيفة ، ولو تقدمنا اكثر من هذا لاكتشفوا أمرنا وقضوا علينا ، فأظن ان كل رجال مدينة بحر الغزال هنا بأسلحتهم وعدتهم ، ومعهم كل أحلافهم وأنصارهم .

قال الرئيس سوهى :

— متى حدث هذا وكيف ؟

قال الساحر الافريقى :

— يكفى دليلة نصف نهار .. لابد ان كل الحشود كان جاهزا ، أعدده السلطان لتنفيذ خطته منذ زمن ، وكانت اشارة دليلة له بالبدء . كافية لانجاز مثل هذا التحرك الضخم ، وكافية ايضا لتطويق المدينة تماما .

قال الزيبق :

— لينتظر الجميع هنا ، ولنتقدم أنا والرئيس سوهى والساحر الافريقى ، وهذا الدليل ، الى حيث رأى جيوش الملك سلطان انرى بأنفسنا ، ثم نتشاور فى أمرنا ..
لم يجبه أحد ، وانما أشار الرئيس سوهى بيده ، فآخذ كل رجاله مخابثهم وراء الاشجار ، وتقدم هو وعمر العيار والدليل مع الزيبق فى صمت الى أمام ..

قبل أن يصل الزيبق ومن معه الى حيث يقودهم الدليل ، وصلت الى آذانهم أصوات الجنود والحركة ، وصهيل الخيل فى المعسكر وفى داخله ، وفى نفس الوقت وصلت الى أنوفهم روائح الاخشاب والاعشاب المشتعلة ، ممتزجة بروائح الطعام المطهو ، واللحم المشوى .. وقال الرئيس سوهى وهو يقترب من حافة رابية عالية صحبه اليها الدليل :
— هو معسكر ضخم لم أشهد مثله فى حياتى ..

قال عمر العيار ، وهو ينظر محاذرا الى جواره الى المنظر الذى يطالعهم من أسفل :

— صدقت ، ولكننا هنا لن نعرف شيئا عنه ، فهو مجرد معسكر ..

قال الزيبق وهو يحاذيهما فى النظر الى المعسكر :

— سأتسلل اليه لأعرف كل شيء عنه ..

قال عمر العيار فى حزم :

— لن تصلح انت لهذه المهمة ، سأتسلل أنا الى المعسكر ، فلونى

سيساعدني على الاختفاء وسط الجنود .

قال الرئيس سو هي :

- بل انا الاولى أن أقوم بهذه المهمة ، فأنا أعرفهم جميعا ، أو على الأقل أعرف قادتهم ، وسأتمكن من التسلّل وسقطهم دون أن ألفت نظرا ..

صمت عمر العيار لحظات ، ثم قال :

- سأصحبك ، وسنعرف كل شيء .. فقط اترك جوهرك هنا

مع تابعك حتى لا تلفت اليك الانظار .

قال الزيبيق :

- وأنا ؟

قال عمر العيار في حزم :

- تبقى هنا .. هذه مهمة لا مكان لك فيها ..

قال الزيبيق :

- الآن ، ربما .. ولكني سأستعد ليكون لي فيها مكان بعد أن

تنتهوا من الاستكشاف ..

وتسلّل عمر العيار ووراءه الرئيس سو هي في صمت ناحية

المعسكر ، بينما قال الزيبيق للرجل الباقي :

- ابق هنا في انتظارهم حتى أعود اليك .

وانسل الزيبيق عائدا الى حيث ترك جرندياته وسط الرجال ،

فحملها وانزوى في ناحية ، ومضى يخرج أدوات التنكر ، فصبغ وجهه

باللون الاسود ، وارتدى شعر أكرت ، ووضع قطعة مطاط في فمه

فاذا بشفتيه مدليتين ، واذا بوجنتيه منتفختين ، واذا بعلامات عند

صدغيه وعند ذقنه كأنها اثار وشم أزرق قاتم قديم ، وفوجيء رجال

الرئيس سو هي بالزيبيق يعود اليهم على هذه الهيئة الغريبة ، وجعلوا

يتبادلون النظرات بينهم في دهشة ، فهو قد غدا واحدا منهم لولا

ملابسه التي تميزه .. وقال الزيبيق :

- أريد ملابس كملايسكم ..

وضحك أحدهم وقال :

- لو ارتديت مثلنا ما عرفناك وسطنا .

ثم عاد يضحك وهو يقول :

- احضر لك هذه الملابس حالا .

ومضى الرجل الى حيث وضع جرابه ، فأخرج طاقما كاملا من

الملابس ، وعاد بها الى الزيبيق .. الذي نظر اليه في دهشة ، فقال

الرجل :

- صدقت في هذا ، ولكنى احسب ان هناك ملعوبا من ملاعيبك
- قال الرئيس سوهى اننا معك فى كل حلك وترحالك ، وعرفت
وعرفنا جميعا انك ستنتصر على الشر ، فهذا هو تفسير الاسطورة
القديمة ، فحملت معى ما يعيننى على الرحلة الدائمة معك .
ابتسم الزيبق ، وتقبل الملابس فى ترحيب ، وهو يقول :
- انتظرونى هنا ، فهذا يومنا مع اعدائنا ..
فوجيء الزيبق بهتاف الرجال الذى يكاد يصم الاذان ، وتلويحهم
بحرايبهم وقسيهم ، تحيه له - وعرف انه أصبح بطلهم منذ قضى على
طلاسمة الجزيرة المسحورة ، فالتفت اليهم قائلا :
- سنقضى على اعدائنا كما قضينا على سحر الجزيرة ، ولكنى
اريدكم ان تلزموا الهدوء والسرية حتى اعود اليكم .
وانفلت الزيبق مسرعا ، وقد اهتز قلبه من ولاء الرجال وجيبهم ،
وحين وصل الى المكان الذى اقعى فيه الدليل ، تسلسل بحذر ، حتى
وصل اليه ، والى المكان الذى يشرف منه على جيش مدينة بحر الغزال،
وقال فى حذر وهدوء :
- لم يصل احد بعد .
اجفل الرجل ورفع حربته ، ثم أمعن النظر فى الزيبق ، وقال :
- من انت .. لم ارك من قبل ، ولست من النبط .
قال الزيبق فى حذر ، وهو ينظر الى الحربة فى احتراز :
- انتظر انا الزيبق ، انظر الى جيذا وستعرفنى .
حدق الرجل النظر فى الزيبق ، وقد ازداد ارتياحه ، وازدادت
الحربة فى يده تهديدا واستعدادا ، وقال :
- الزيبق - تعنى رجل الجزيرة المسحورة ، ولكن .. ربما ، فمن
فعل كل هذا فى الجزيرة قادر ان يكون فى اى صورة .
تنهد الزيبق فى ارتياح وهو يقول :
- صدقت ، وهذه الصورة التى انا فيها ، ماذا ترى فيها ؟
قال الرجل وهو يخفض حربته :
- انت واحد منا ، ولولا لكنة فى كلامك ما عرفتك ابدا .
ضحك الزيبق وقال :
- لن اتحدث حتى لا يعرف احد امر هذه اللكنة .
قاطع الرجل قائلا :
- صمتا ، فالرئيس سوهى يعود ، ومعه الطبيب الساحر ..
ما ان انتهى الرجل من كلامه حتى سمعا صوت اقدام تتقدم
نحوهما فى حذر ، ثم اطل وجها عمر العيار والرئيس سوهى ، ونظر
عمر العيار الى الزيبق فى دهشة ، وقال :

— متى أتممت هذا التحول ، ولم ..

وقال الرئيس سوهى :

— لولا أن سمعت صوتك ما عرفتك ..

قال الزبيق فى ضجر :

— ماذا عندكما ؟

قال عمر العيار :

— فى نصف نهار تمكنت دليلة من أسر حسن بن الحصرى والفارس

باسم ومن معهما من رجال ، وفى نصف نهار حشد الملك سلطان

جيشا كبيرا لا قبل لرجال الرئيس سوهى به ، ولا أمل للمحاصرين

فى المدينة المرصودة فى مواجهته ..

وقال الرئيس سوهى :

— لم أر فى حياتى مثل هذا العدد المسلح من الرجال محتشدين

فى مكان واحد .

سأل الزبيق :

— ولومبا ومافى .

قال عمر العيار :

— لابد انهما أسرى أيضا ، هناك خيمة مقامة عند سفح الجبل

عليها حراسة مشددة ، لا أشك أن الجميع فيها .. بينما نصبت خيمة

كبيرة فى مواجهة المدينة جعلها الملك سلطان مركزا لقيادته ، وهو فيها

مع السلطان قاسم ودليلة وكبار رجاله ، ورؤساء القبائل والعشائر

الذين صحبوه ..

أطرق الزبيق مفكرا للحظات ، وعيناه تجولان فى الحركة الدائمة

التى يمر بها الوادى من بعيد ، ثم رفع رأسه قائلا :

— هناك شيء هام أغفلناه ، وهو النفق الذى تسلك منه لومبا ومافى

مع مونجو وعصابته عندما خطفوا السلطان ، هم أيضا اغفلوه حتى

الآن ، والا لكانوا قد تسللوا الى المدينة من زمن .

قال عمر العيار :

— هذا صحيح — نسينا أمر هذا النفق ، وهو خطر ماثل على المدينة

وسلامتها .

قال الزبيق :

— لا فائدة من أى عمل نقوم به فى وضوح النهار ، وعدونا ضئيل

بالنسبة لهم ، ولكن لابد أن نتسلل الى المدينة الآن ، وندخل من هذا

النفق ، ونعمل على سده أو حراسته ، ونتولى أمر الدفاع عن السلطانة

والمدينة المرصودة ، فلست آمن عليها ولا على المدينة مع وجود الوزير

مروان فى السلطة .

قال عمر العيار :

— صدقت في هذا ، ولكني احسب أن هناك ملعوبا من ملاعيبك
تكون خطوطه في ذهنك لمواجهة هذا الامر الذي نحن فيه ..
ابتسم الزبيق ، وقال :

— اترك هذا الامر لي يا عمر .. ولكن هؤلاء الذين أشعلوا النار
في المدينة ألم يستعملوا النفط ؟ من أين لهم به .. ؟
قال الرئيس سوهي :

— هناك بحيرة منه في الجانب الجنوبي من الجزيرة المسحورة
حيث هيكل عبدة النار ، تستمد كل القبائل حاجتها من النفط منها .
قال الزبيق :

— اذن فليسرع رجالك اليها ، وليملثون كل الزجاجات الموجودة
عندكم بها ويسدوها في احكام ويدعوا في الفوهة فتبثلا قابلا
للاحتراق الشديد ، وليعودوا كلهم هنا في أسرع وقت .. فنحن لن
نستطيع أن نتأخر كثيرا عن منتصف الليل ..

قال الرئيس سوهي :

— سأمرهم بهذا وأعود اليكما ..

قال الزبيق لعمر العيار :

— امضي أنت الى المدينة لحراسة النفق واغلاقه .. وستسمع منا

بعد حين .

قال عمر العيار :

— الست تحتاجني معك ؟

قال الزبيق :

— عندما ترى بواكير هجومنا على المعسكر بعد منتصف الليل ،

اخرج انت ورجال السلطانة زينب لضرب المعسكر بكل قوتكم ..

وسيكون أمر اندحارهم سهلا .

قال عمر العيار مترددا :

— ما ستقوم به وحدك عند حلول الظلام ، يحسن أن أكون فيه

معك .

قال الزبيق :

— كأنك حدثت مافي ذهني ..

قال عمر العيار :

— تزعم أن تجرد المعسكر من قاداته .. ثم تفاجئه .

ضحك الزبيق ، وقال :

— اترك هذا الامر لي .. أما أنت فهبيا الى مهمتك ، والا لو سبقونا

الى هذا النفق ، ضاع كل شيء ..

وبهدوء ربت عمر العيار على كتف الزبيق ، ثم تسلل بين الاعشاب

العالية متجها في صمت ناحية المدينة المرصودة .

نهاية الرحلة

ظل على الزيتيق في مكانه فوق الراية يرقب حركة الجنود تحته، وهم في حركة نشيطة لا تهدأ، الى أن أحس بحركة الرئيس سوهي وهو يتحرك في حذر نحوه، وسرعان ما كان الرئيس سوهي الى جواره، وهو يقول:

— لقد أرسلت الرجال الى بحيرة النفط، وأمرتهم أن يستولوا من معبد النيران على كل الزجاجات التي فيه حيث يحتفظ الكهنة برفات من يحرقون من موتاهم في زجاجات .. ولكنهم لن يعودوا قبل حلول الظلام ..

قال الزيتيق:

— لن نحتاجهم قبل هذا .. أما الان فلنتسلل انا وانت، كما فعلت مع الساحر الافريقي، الى داخل المعسكر لارى كل شيء بنفسى، وانت قد دخلته قبل هذا، فتستطيع أن تقودنى في هذه الجولة وانت أكثر دراية بما تفعل ..

قال الرئيس سوهي:

— ماذا تنتظر، هيا بنا ..

زحف الزيتيق والرئيس سوهي زحفا حتى أصبح المعسكر الكبير امامهما تماما، وجمد الاثنان فجأة حين تحرك ناحيتهما أحد الحراس ممسكا حربته، ولكنه تجاوز مكانهما ومضى في طريقه حتى وصل الى شجرة وقف عندها وهو يجيل عينيه فيما حوله في كسل وتراخ .. وكان الزيتيق يتحرك من جديد، حين أحس بيد الرئيس سوهي فوق ساعده، والتفت الى حيث ينظر الرئيس سوهي فرأى حارسا اخر يتحرك من الناحية المقابلة وفي يده حربته، فعاد في مكانه من جديد، واذا بالحارس الاول يترك مكانه عند الشجرة ويتحرك نحو الحارس الثاني الى أن التقيا قريبا من المكان الذي يكمن فيه الزيتيق والرئيس سوهي .. وتبادل الحارسان كلمات مقتضبة، ثم عاد كل منهم الى موقفه الاول .. وتبادل الزيتيق النظرات مع الرئيس سوهي، وأوما برأسه، وتحرك كل منهما في صمت الى موقع حارس من الاثنين .. وسرعان ما دوت خيبتان مكتومتان من الجهتين المقابلتين، واختفى الحارسان .. وقال الزيتيق حين اقترب منه الرئيس سوهي يجر الحارس الفاقد الوعي، ويتأمل زميله الممدد على الارض تحت قدمي الزيتيق:

.. كمههما وقيدهما ، وسنخفيهما خلف هذه الشجرات ، ثم هيا بنا الى خيمة الاسرى ..
قال الرئيس سوهى :
.. ولكن هذه مخاطرة ..
قال الزيبق :

.. سنرتدى ملابسهما ونضع على وجوهنا مثل الاصباغ التى وضعوها على وجنتيهما ولنسرع فلا وقت هناك ..
كانا ينتقلان فى خفة بين الجسور وفى ايديهما الرماح ، وعلى وجهيهما اصباغ الحرب ، وهما يلقيان بالتحية هنا وهناك ، ولا أحد يشك فى أمرهما ، وقال الرئيس سوهى :
.. هذا هو المكان ..

وتلفت الزيبق حوله .. كانت الخيمة فى نهاية الساحة الواسعة التى عسكر فيها الجيش ، وكان هناك حارسان يتحركان حولها بانتظام .. وعلى بعد قليل منها أوقدت النيران ، ووضعت القدور التى كانت تبعث منها روائح طعام شهى .. وابتنس الزيبق وقال :
.. لماذا لا نأكل ، ألسنا منهم .. وهذا الطعام ليس للجووى من جنودهم ..

نظر اليه الرئيس سوهى مقطباً ، ولكنه سرعان ما ضحك ، وقال :
.. لم لا ؟ ..

وفى هدوء تقدمنا نحو النيران والقدور ذات الرائحة الشهية ، وكان الطاهى الذى يقف أمام القدور سميناً كبير البطن ، وكان جسده كله يتصبب عرقاً رغم هواء الغروب الرطب .. وأخذ الرئيس سوهى يحادثه ، والرجل يملأ أوعية واسعة بالطعام ، ويضعها الى جواره ، وهو يوالى تحريك مافى القدور بملقعة خشبية طويلة ، وهز رأسه بعد قليل ، وهو يشير الى وعاءين مملوئين طعاماً ، فحملهما الرئيس سوهى الى حيث جلس الزيبق جائعاً ، فانتفض على الطعام الذى أحرق فمه ، وبرزت عيناه من محجريهما اذ صدم فمه الطعام الحريف الملىء بالتوابل والشطة ، والشديد السخونة ، وقال الرئيس سوهى محذراً :
.. هذا طعام نألفه كلنا هنا ، فحذار أن يبدو عليك ما يدل على أنك غريب عنه ..

مسح الزيبق الدموع التى طفرت من عينيه ، وقال :
.. هو طعام شهى على كل حال ، وسأعتاده بعد قليل ..
قال الرئيس سوهى وهو يغمز بعينه :
.. وهناك شئ شهى آخر .. أترى هذه الاوعية المليئة بالطعام ..
قال الزيبق وهو يتابع اصبع الرئيس سوهى الى حيث اشار :
.. ثمانية أوعية ..

قال الرئيس سو هي :
- سيكملها الطاهي عشرة ، ثم يحملها الى الخيمة ، فهي طعام
الاسرى ..

قال الزبيق :

- عشرة اسرى ..

قال الرئيس سو هي :

- لا بد ان بعضهم من جنود المدينة المرصودة ، المهم اننا سنحمل
اليهم هذا الطعام بانفسنا ، فقد عرضت على الطاهي هذا كرد له
حين اعطانا الطعام ، ووافق ..
ابتسم الزبيق ، وهو يقول :

- انت تتعلم بسرعة ايها الرئيس سو هي .. ثلاث رحلات تكفي
لان نحمل الطعام كله الى الخيمة ونبقية خارجها حتى تكتمل كل
الوانى ، ثم نصحب الحارسين معنا الى الداخل ، فهذه الرحلات نفسها
تكفى لكى تنفى اى شك قد يحوم حول انتمائنا للمعسكر ، كيف
والطاهي يستعملنا كمساعدين له .. آه .. لقد اكمل الطاهي الوعاءين
الاخيرين .. هيا بنا ..

والتهم الرئيس سو هي مابقى فى انائه من طعام ، واسرع يسبق
الزبيق الى الطاهي ، الى حيث وقف الطاهي يفرك يديه فى ارتياح ،
وقد ملأت وجهه ابتسامة عريضة سعادة بهذه المساعدة التى جاءت من
حيث لا يحتسب ، فكم كان يكره ان يقطع المسافة بين الموقد وبين هذه
الخيمة خمس مرات كاملة .. وما ان انتهى من حديثه مع الرئيس
سو هي حتى اشار هذا الى الزبيق فوضع حربته الى جوار الموقد، وحمل
اناءين ممتلئين، ومضى بهما ناحية الخيمة، بينما حمل الرئيس سو هي
اناءين آخرين ، وسار يتبعه وحين وصل الزبيق الى الخيمة تقدم نحوه
الحارسان فى تساؤل ، ولكنه وضع الاناءين امام الخيمة ، ومضى عائدا
دون ان يرد على حديثهما ، ووصل الرئيس سو هي بعده فافهمهما حقيقة
مهمتهما ، ثم غادرهما الى الموقد مرة اخرى .. وعاد بعد حين بأربعة
اوان اخرى ، وهز الحارسان رأسيهما فى استحسان لفعلهما فقد كانا
يحبان الطاهي السمين ، وكانا يعرفان كراهيته للمشى ولو لمسافة
قصيرة ، دع جانبا ان يسير المسافة خمس مرات كاملة ولهذا فما ان
عاد الزبيق والرئيس سو هي بآخر اناءين قابلاهما ببسمات عريضة ،
وكلمات اطراء واضحة ، وقال الرئيس منتهزا فرصة رضاهما :

- ساعدانا فى ادخال هذه الانية الى الخيمة ..

وحمل الجميع الانية على مرات الى داخل الخيمة ، وعيون الاسرى
تتبعهم فى وجوم ، وما كادت اخر الاطباق توضع على الارض ، حتى

دوت خبطتان مكتومتان ، وأمام أعين الاسرى المندهشة سقط الحارسان غائبين عن الوعي في صمت .. وفي سرعة كان الحارسان قد كما واحكم وثاقهما ، واندفع الحارسان الاخران الى الاسرى يفكون قيودهم ، وهم يأمرؤنهم بالصمت الكامل .. وهمس المقدم حسن بن الحصرى :
- على الزبيق ، لا يفعلها الا الزبيق ..

قال الفارس باسم في مرارة وهو يفرك راسه لتعود اليها الدماء المحبوسة :

- الزبيق ؟ .. لا الزبيق قد مات من زمن في الجزيرة المسحورة ، ألم يحك الدرويش الصالح للملك سلطان حكاية السيوف التي تخرج من الارض والجدران والسقف .. ؟ لعله الان قد غدا مزقا ..
قال لومبا :

- لا ، لا يحدث هذا لمثل الزبيق ..
قال الزبيق :

- أشكر لك ثقتك في يالومبا ، وأنت يامقدم حسن .
صاح حسن بن الحصرى ، وهو ينظر اليه في دهشة :
- أنت .. ولكن هذا اللون ، هذه الملابس ، هذا الوجه .
ثم أخذ يضحك وهو يضرب كفا بكف ، ثم قال :
- من يغلب ملاعيب الزبيق ؟ ..

قال الزبيق والرئيس سوهى يطلق سراح اخر الاسرى :
- ليس هناك وقت للكلام ، الان كلوا الطعام ، وسنخرج أنا والرئيس سوهى لنحل محل الحارسين حتى لا يشك أحد في الامر ..
وأنت يا لومبا ومعك مافى ، ارتديا ملابس الحارسين الصريعين ..
وحذار من اصدار أى صوت .. وفي هدوء حمل الزبيق والرئيس سوهى حربتي الحارسين ، ومضيا الى خارج الخيمة يدوران حولها كأنما يحرسانها في دقة وجدية كاملة .. وبعد قليل لاحظ الزبيق ان الطاهى السمين يشير اليهما في حركات سريعة متلاحقة ، فقال للرئيس سوهى :

- لماذا تظن الطاهى يصدر كل هذه الاشارات ..

قال الرئيس سوهى :

- انه يريد الاوعية الفارغة ..

وأشار الرئيس سوهى بحريته نحوه ، وهو يقول :

- سأخرج لومبا معك بينما أعود اليه بالاوعية الفارغة وأسترد

الحربتين ؟ ..

قال الزبيق :

- أخبره ان الملك سلطان يريد الاسرى ، وأنا نريد بعض

اصدقائه من الجنود ليحرسوهم معنا ، فنحن الاربعة لا نكفى ..

وأخبرهم في الداخل أن يعيدوا ربط أيديهم فهم ما زالوا أسرى ..
وحاول أن تعرف من الطاهي أماكن تخزين النفط هنا .
لمعت عيننا الرئيس سوهي وهو يقول :
- فهمت .. قد تنجح خطتك ، ولو أنها شديدة الجسارة .
قال الزيبيق :

- في مثل موقفنا هنا وسط معسكر العدو ، لا مكان إلا للجسارة
تركه الرئيس سوهي إلى داخل الخيمة ، وسرعان ما عاد يحمل
الأوعية الفارغة متجها إلى ناحية الطاهي ، وعلى التو خرج لومبا مرتديا
زى أحد الحراس وفي يده حربة ، فقال الزيبيق :
- أمكث هنا ، وسأرسل اليك مافى ليبدو الأمر طبيعيا ، فلي
حديث مع الآخرين .
وتركه ليدخل إلى الخيمة التي بدأ الظلام يخيم عليها ، وقال الفارس
باسم في حلق :

- لماذا تريدنا أن نظل مقيدين ؟ ..
قال الزيبيق :

- بعد أن يشتد الظلام قليلا ، سنخرج من هنا إلى خيمة الملك
سلطان ، أسرى يقودهم حراسهم ليستجوبهم الملك ، وسيبدو الأمر
طبيعيا ، انتم في الوسط تسرون وقد قيدت أيديكم ، وربطتم جميعا
في حبل واحد ، وحولكم حراسكم ..
قال المقدم حسن بن الحصري :
- أظن هذه الحيلة تنجح .. ؟
قال الزيبيق :

- لابد أن تنجح والا هلكنا ، وضاعت المدينة المرصودة .. ان
الرئيس سوهي الآن يبحث لنا عن مدد جديد من الحراس .
قال الفارس باسم في حلق :
- يا لجسارتك .

ضحك الزيبيق ، وقال :

- عليك أن تفهم رجالك ما تريد منهم تماما ، فأى خطأ من واحد
منهم سيفسد خطتنا .. ولكن لم تخبرني بعد ، كيف وقعتم في الأسر .
لم يجبه الفارس باسم وإنما الذي أجابه هو المقدم حسن بن
الحصري الذي قال في مرارة :

- كان الفارس باسم يقودنا وراء الهاربين وقد استطاع أن
أن يكشف آثارهم ، وفجأة انهالت علينا السهام من أمام ومن خلف ،
وقبل أن نفعل أى شيء كانت الشبكة قد سقطت فوقنا من قمم
الأشجار لتمنح حركتنا ، وخرجت من الشبكة لأواجه بضحكات مونجو

الشامة ، وضحكات صديقك الدرويش الصالح الساخرة .. وبعدها ،
ها نحن هنا ..

قال الزيبيق :

— أما مونجو فقد انتهى أمره ، أما الباكون فقد حانت ساعتهم .
قبل أن ينهى الزيبيق حديثه دخل الخيمة الرئيس سوهى وهو
يقول :

— كل من حولنا يعرفون أننا سنصحب الاسرى الى خيمة الملك ،
ومعى أربعة من الحراس لمعاونتنا ..

قال الزيبيق :

— ومخازن النفط .

قال الرئيس سوهى :

— لقد حددنا الطاهى لى حين أخبرته اننا نريد أن نزود مشاعلنا
بالنفط المشتعل حتى تضىء الطريق لنا ، ولا يهرب السجناء .. وهى
منتشرة فى أنحاء المعسكر المختلفة ..

قال الزيبيق :

— هذا أحسن ما فعلت ، فعن طريق هذه المشاعل سنهزم الملك
سلطان هزيمة منكرة ..

قال الرئيس :

— لست أفهم ؟ ..

قال الزيبيق :

— ستفهم كل شئ فى حينه ، أما الان ، فلا بد أن يعود واحد الى
معسكر ، فمن تختار ؟ ..

قال الرئيس سوهى وهو يفكر فى صوت مسموع :

— لومبا يعرف الطريق ، وسيكون من السهل عليه أن يجسد
الرجال بسرعة ..

التفت الزيبيق الى لومبا ، وقال له :

— عندما تصل الى معسكر الرئيس سوهى سيكون رجال الرئيس
سوهى قد عادوا بزجاجات النفط الملائنة ، ثبت فى فم كل زجاجة شريطا
قابلا للالتهاب ، وقسم الرجال الى ثلاثة أقسام ، وليتسلل القسم الاول
الى يمين المعسكر ، والثانى الى يساره ، والثالث فى مؤخرته ، وعندما
ترى الصواريخ تملأ السماء يشعل كل رجل الفتيل فى زجاجته ويلقيها
فوق المعسكر ، ثم أمطروا المعسكر بوابل من السهام ، ثم أجمعوا
بحرا بكم بعد هذا ..

خرج لومبا مسرعا وهو يرتدى زى الحرس ، وفى يده حربته ،
بينما قال الزيبيق للرئيس سوهى :

— لنحمل بلطتين وهيا بنا ننطلق ..

والتفت الى حسن بن الحصرى قائلا :

— لن يطول غيابنا ، فلابد أن احضر جرنندانى حيث تركته على رأس هذا المعسكر ، ثم أن براميل النفط هنا فى انتظارى أنا والرئيس سوهى .. ولا يتحرك أحد حتى نعود ..
وخرج الزبيق والرئيس سوهى ، وساروا بكل ثقة وهما يحملان الحراب ، وحيا الرئيس سوهى الطاهى برفع الحربة فى يده ، الى أن وصلا الى حيث تركا الحارسين المقيدين ، فتأكدا من قيودهما، ثم أسرعا الى أعلى الهضبة حيث احضر الزبيق جرندانه .. وعادا فى هدوء الى المعسكر وقد بدأ الظلام يخيم عليه وقال الزبيق :
بـ لتتسلل الى حيث براميل النفط ، ونشق جوانبها بالبلط حتى يسيل النفط منها ويفرق العشب حولها .. ولنعد بعد هذا مسرعين الى الخيمة .



قال الرئيس سوهى للحراس الجدد المنتظرين خارج الخيمة :
— لقد أكد الملك أمره بالأسراع باحضار الأسرى ، وسنحمل المشاعل حتى لا يهرب منهم أحد ، ولتحيطوا بهم من كل جانب ..
وهيا بنا الى خيمة الملك ..
وتقدم الرئيس سوهى يحمل مشعلا ، ومعه مافى يحمل مشعلا آخر ، بينما تبعهما موكب الأسرى المقيدين ، وحولهم الحراس المدججين بالسلاح ، والزبيق فى المقدمة ، يشقون ارض المعسكر فى اتجاه خيمة الملك ، وكان خبر استدعاء الأسرى قد ملا المعسكر فوقف الكثير من الجنود يرقبون الموكب وهم بمطرون الأسرى بسيل من الشتائم القبيحة، ويحييون الحراس بكلمات التشجيع والضحكات المرححة .

وكان الزبيق وهم فى الطريق يخرج من جرندانه ، البنج وضد البنج ، وقبل أن يصلوا الى الخيمة بقليل أعطى الرئيس سوهى ومافى قطعا من البنج ليضعاهما فى المشاعل التى يحملونها ، ثم أعطى الرئيس سوهى ضد البنج ، وأخذ هو الآخر ضد البنج ، ثم حمل المشعل عن مافى وهو يقول له :

— احمل أنت الحربة ، واعطنى المشعل ، فهم يعرفونك هنا ..
واختف وسط الحراس ولا تظهر نفسك قدر الامكان .
وما أن وصل الموكب الى الباب الخارجى للخيمة حتى اعترضه الحراس ، فتقدم الرئيس سوهى نحوهم قائلا :

— أنا رئيس حرس الأسرى ، وقد جئت بهم كأمير الملك سلطان لانه يريد أن يستجوبهم .
قال أحد الحراس :

— ادخلوا بهم الى ساحة الخيمة الداخلية حيث كبير الحرس ،
وهو يتولى أمرهم .

وأفسح الحراس الطريق ليدخل الموكب الى ساحة الخيمة التي
يقف فيها الحراس والطهارة والخدم ، والتي تفصل سور الخيمة
الخارجي عن باب الخيمة الرئيسية .. ولاحظ الزبيق كثافة الحراسة ،
فقال للرئيس سو هي :

— حاول أن تدخل أنا وانت الى الخيمة .

وظهر كبير الحراس يسرع نحوهم قائلاً :

— من الذي أمركم باحضار الأسرى الى هنا .. ؟

قال الرئيس سو هي مشيراً الى الزبيق :

— حمل الى هذا الحارس أمر مولانا الملك ، فجئت بالحرس
والأسرى ، فالملك يريد استجوابهم وله يعرف مدخلا سرياً الى المدينة
يوفر علينا الجهد والتعب .

قال كبير الحراس :

— هيا معي الى الملك مادامت هذه ارادته ، ولكن اتركوا الأسرى
هنا حتى يأمر باستدعائهم .

وسار وراءه الزبيق والرئيس سو هي يحملان المشعلين ، وفي
خفية وضعا كميتين جديدتين من البنج في المشعلين .. وانحنيا
وهما يدخلان الى قلب الخيمة الملكية ..

ووقف قلب الزبيق وهو يرى الكل أمامه يجلسون في جنبات
الخيمة حول الملك سلطان ، كان هناك السلطان قاسم ، والدرويش
الصالح ، والوزير مروان ، ورؤساء العشائر التي جاءت بجنودها
.. وأسرع كبير الحراس ناحية الملك الذي كان يتحدث الى الدرويش
الصالح في اهتمام ، فأشار اليه بيده لينتظر . ووقف كبير الحراس
في خشوع ينتظر اذن الملك بالكلام .. بينما تحرك الزبيق الى ناحية ،
والرئيس سو هي الى ناحية أخرى ، والمشعلان يلتهبان بالنفط
والبنج ..

التفتت دليلة التي كانت تتزيا بزي الدرويش الصالح فجأة ،
وهي تشمم الهواء حولها فقد أحست برائحة غريبة تملأ الخيمة ،
وكانت تعرف هذه الرائحة بحكم خبرتها الطويلة في دنيا العيساقة
والحيل .. وجالت ببصرها حولها ، فوقع بصرها على الزبيق وهو
يحمل المشعل ، وجعلت تنظر اليه في حدة ، وسرعان ما عرفتة رغم
نكره ، فصاحت ، وهبت واقفة وهي تشير نحوه بيدها .. والتفت
الكل اليها في دهشة ، ولكن قبل أن تتكلم كانت تنهار الى الأرض
وفي عينيها نظرة ذعر وياس .. وما أن هب الملك سلطان ليقف حتى

تھاوی الی جوارھا فاقد الوعي مثلھا ، وتبعھم الباقون واحدا اثر الآخر .. وأطفأ الزبیق مشعلہ ، وحلأ الرئيس سوھى حذوہ ، ثم مضیا یقیدان كل الموجودین ، ثم خرج الرئيس سوھى الی الساحة الخارجیة للخیمة ، وصباح فی الحرس قائلا :

— ادخلوا الاسرى ، ولكن اتركوا أسلحتكم هنا ، فلا یجب ان یدخل احد الی حضرة الملك وفی یدہ سلاح .. وحين دخل الاسرى وحراسهم الی قاعة الملك ، أشار الزبیق الی المقدم حسن بن الحصری ، ففك قيوده الوهمیة وكذلك فعل باقى الاسرى ، وانقضوا على حراسهم فأوثقوهم .. وقال الزبیق :

— الحرس الخارجی ، علیكم بالحرس الخارجی .. وخرج الجميع الی الساحة فتغلبوا على ما بها من حراس ، ثم خرجوا الی خارج الخیمة حیث انتهوا من أمر الحراس الخارجین ، وقال الزبیق :

— ساعدنى یامقدم حسن ، فی نصب الصواریخ .. ولیحضر كل منكم القس والسهم ، وضعوا فی السهام قماشاً مبللاً بالنفط ، ولیشعل كل منكم سهمه قبل اطلاقه ..

وأسرع الزبیق والمقدم حسن بن الحصری ، ینصبون قواعد إطلاق الصواریخ بحيث تتجه الی كل مكان فی المعسكر ، وما أن انتهیا حتى صاح الزبیق :

— الآن .. ولیصرخ كل منكم بأعلى صوته لتحدثوا اكبر ضججة ممكنة ..

وانطلقت الصواریخ الملونة تلهب السماء بأنوارھا ، وتحدث فی انفجارھا أصواتا كالرعد والبرق ، ووراءھا انطلقت السهام المشتعلة ، وصرخات الرجال تصاحبھا ، وأحس جنود الملك سلطان أنهم یهاجمون من مرده تشق السماء ، وترسل حمم النفط ، وفجأة ارتفعت صیحات من یمین المعسكر وشماله وجنوبه ، واندفعت كرات ملتهبة ما أن تمس الأرض حتى تنفجر بشدة ، وتشر النار حولھا ، ووصلت النيران الی العشب المشبع بالنفط فاشتعل المعسكر كله فجأة وتحول اللیل الی كتلة من اللهب المشتعل .. وكان رجال الملك سلطان یجرون هنا وهناك فی ذعر وحيرة ، حين فتح باب المدینة المسحورة وهجم جنود السلطانة زینب وعلى رأسهم عمر العیار ، بینما اندفع رجال الزبیق والفارس باسم یهجمون بالسیوف والحرا ب ، ومن كل مكان اندفع رجال الرئيس سوھى یهاجمون بالسهم والحرا ب والسیوف .. واشتد الدعر بالرجال ففرقوا هاربین ، أو استسلموا لمهاجمیهم دون قتال ..



صافحت السلطانة زينب الزبيق وهى تقول :

— هذا يوم عيد لى وللمدينة كلها ..

وكانت أصوات الأغاني والاهازيج تصل اليهم من كل أنحاء المدينة التى خرج أهلها يحتفلون بنصرهم العظيم على أعدائهم ، فابتسم الزبيق وهى تقول لها :

— من الآن لن تخافى على مدينتك من ملك بحر الفزال فهو فى يدنا ، وكذلك السلطان قاسم ، والدرويش الصالح عدوى الحقيقى ، والعقل المدبر لكل هذه المحاولات للانتقاص من سلطان الخليفة على هذه الأرض .. وهى ليس درويشا ، وليس صالحا ، بل هو ليس رجلا آخر الأمر ، إنما هو الداهية دليلة المحتالة التى دخلت أرضكم بهذا الزى لتتأمر على خروج أرضكم كلها عن طاعة الخليفة مستعينة بضعاف النفوس هنا ، وأولهم وأخطرهم الوزير مروان الذى أسرناه فى خيمة الملك سلطان ..

قالت السلطانة زينب فى دهشة :

— كان فى وسطنا عندما بدأ الحصار ، ثم اختفى فجأة ..

قال عمر العيار الذى كان يقف الى جوارهما مبتسما :

— لقد خشيت أن يكون قد تسلل ليطلع الملك سلطان على المدخل السرى للنفق الذى استعمله لومبا ومافى ، فشددت الحراسة عليه ، وبالفعل حاولوا اقتحامه أول الليل ، ولكنهم فشلوا .
قال الزبيق :

— لقد أحس أن المدينة ستسقط فى يد الملك سلطان ، فأحب أن يبيع المدينة لينال الحظوة لديه .. سنصعبه معنا الى الخليفة مع الملك سلطان والسلطان قاسم ودليلة ليرى فيهم الخليفة رايه .
قالت السلطانة زينب :

— اذن فانت ستفادرنا ايها الفارس الزبيق ..

قبل أن يجيبها ، صاحت ياسمين التى كانت تقف خلفها طربا ، وصفقت بيدها فرحة وهى تقول :

— المقدم حسن بن الحصرى ، انه يعود سالما وانا التى كنت اكاد اموت قلقا عليه .

ثم اندفعت نحو المقدم حسن الذى كان يسير مع الرئيس سوهى يحملان صندوق التواجية ، والهديتين الكبيرتين اللتين اخدهما الزبيق من الجزيرة المسحورة .. ولعت عينا المقدم طربا ، واقبل عليها يحييها فى حرارة ، فقالت السلطانة زينب :

— يبدو أن ياسمين قد نجحت فيما فشلت فيه سلطاتها ..

تجاهل الزبيق معنى كلامها ، وقال :
- هذا هو صندوق التواحيه الذى جئت فى طلبه ، أما هذه
الصرة فهى هدية لك من كهف الجواهر فى الجزيرة المسحورة ،
والصرة للثانية هدية للخليفة .

ابتسمت السلطانة زينب فى مرارة ، وهى تتناول الصرة ،
وفتحتها ، فخطف لمعان الجواهر الأبصار ، وتحولت ابتسامتها
الى سعادة غامرة ، ومدت يدها تتناول الجواهر وتتأملها فى فرحة ،
وقد أنستها فرحتها بالجواهر كل مرارة كانت تحملها فى نفسها ،
وقالت وهى تختار مجموعة من الجواهر ، وتمد يدها بها الى الزبيق :
- هديتك مقبولة أيها الفارس .. وأقبل أنت هذه الهدية منى
لزينب الأخرى ، ولو أن عودتك اليها أهم من كل جواهر العالم ..

وقال المقدم حسن بن الحصرى :

- أما أنا فجوهرتى هى ياسمين .

قالت السلطانة زينب :

- هى لك أيها الفارس ولتسعد بها .. وتسعد بك ..

قال حسن بن الحصرى ، وهو يكاد يطير فرحاً :

- ان قبلت ان تأتى معى ، فهى زوجتى على سنة الله ورسوله .

صاحت ياسمين :

- أقبل ، أقبل يامولاي ..

ضحكت السلطانة زينب وهى تقول فى مرارة ..

- للزبيق صندوق التواحيه ، ولل فارس حسن ياسمين ، أما

السلطانة زينب فلها الجواهر ..

قال الزبيق :

- بل لك مدينتك آمنة يامولاتى ، والى جوارك لومبىا ومافى

يحكمان مدينة بحر الفزال والرئيس سوهى يحكم الجزيرة المسحورة ،
والكل أصدقاؤك وحلفاؤك ..

ضحك عمر العيار وهو يقول :

- أما أنا فلى الأسرى الذين جئت فى طلبهم ..

نظرت اليه السلطانة زينب فى دهشة وهى تقول :

- الطبيب الساحر جاء فى طلب أسرى ..

قال الزبيق :

- هذا هو المقدم عمر العيار يامولاتى من قرسان خليفة المسلمين ،

وما جاء الى هنا فى هذا الزى الا ليقضى على الفتنة ويكشف الخونة ..

ضحكت السلطانة زينب وقالت :

- مثلكم من يفخر به بلاط الخليفة ..

قال عمر العيار :

— أما وقد انتهت مهمتى فاستاذنك فى الرحيل غدا مع المقدم
على الزييق ، فقد استقر الأمر هنا وزال كل خطر ، وتم القضاء
على كل المتآمرين وأعوان الفرنجة الذين أرادوا أن يمزقوا بلادنا من
داخلها بعد أن عجزوا عن هزيمة جيوشنا فى ساحة القتال ..
قالت السلطانة زينب :

— نحن هنا ندين بالولاء للخليفة ، ونحن ورجالنا فداء أرض
المسلمين ..

قال الزييق :

— نعم الكلام أيتها السلطانة — لو أذنت تغادر بلادكم عند الفجر ،
فهذه نهاية الرحلة ..

من نسمات الفجر الندية خرجت المدينة المرصودة كلها تودع
الراحلين ، كان الزييق فى المقدمة على فرس أشهب ، وإلى جواره
المقدم حسن بن الحصرى ، ثم هودج ياسمين ومعهما الدخائر فوق
جمل ضخمة ، ووراءه السجناء مقيدون فوق خيولهم ، وفى مؤخرة
الركب ، المقدم عمر العيار فوق فرسه ..
ولوح الرئيس سوهى بحريته تحية للراحلين ، بينما أخذت
السلطانة زينب تلوح بمنديلها ، وإلى جوارها الفارس باسم يلوح
بيده وهو يقول :

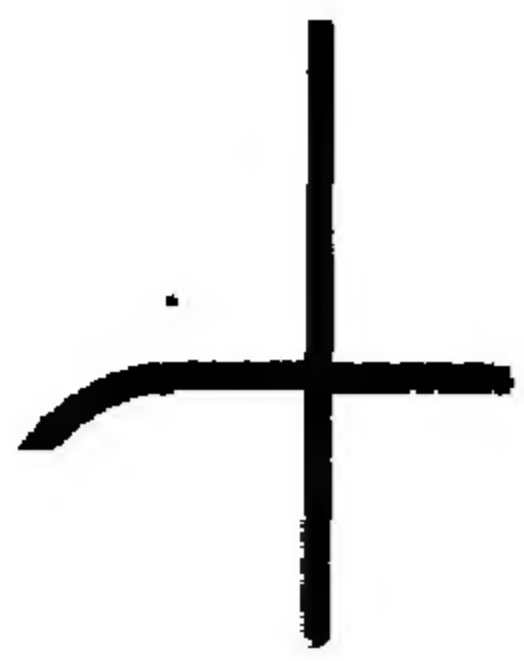
— أنا أسعد الناس برحيلهم ..

قالت السلطانة زينب :

— لن تشهد بلادنا مثلهم أبدا ..

وقال الرئيس سوهى :

— سمعت كثيرا عن الزييق ، وأسعدنى الله أن أعيش معه ،
وأن أرى بنفسى قدرته ومهارته ، وأن أحكى لأولادى عن ملاعب على
الزييق .



هذه الرواية

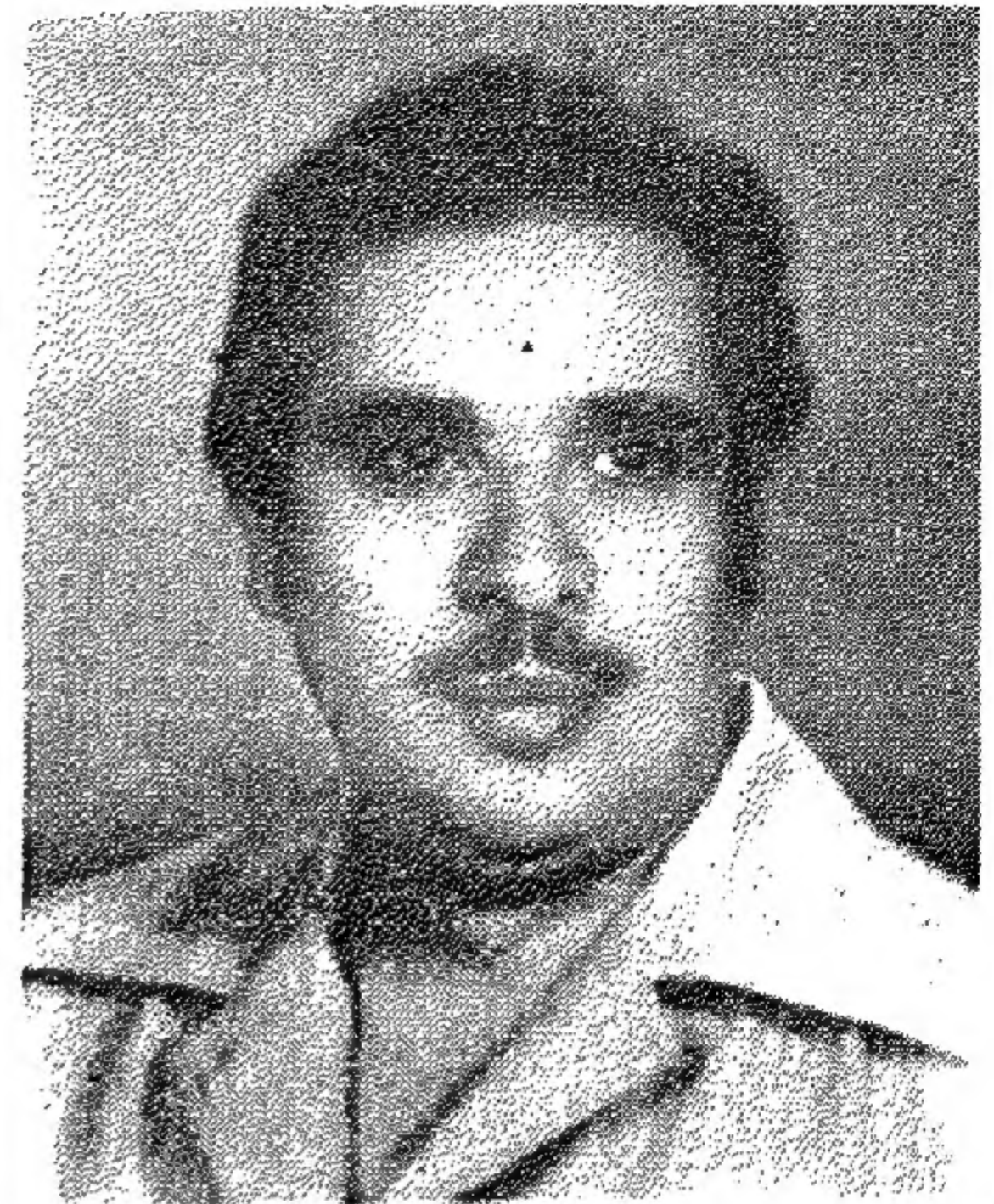
اجمل الحكايات التي يحبها الناس دائما .. هي التي تتحدث عنهم وعن احوالهم . والحكايات الشعبية ، عادة ، ما تكون مليئة بالطرائف ، والالاعيب التي يميل الناس الى متابعتها من السطر الاول ..

وعلى الزبيقي هو احد ابرز ابطال الحكايات الشعبية التي يرويها الناس في جلسات السمر ، ويتمتعون بها حين يتابعونها ، او يقرأونها ..

وقد حرصت «روايات الهلال» ان تقدم حكايات جديدة عن علي الزبيقي : مليئة بالجديد من المواقف الطريفة . والملاعيب الشيقة .. وذلك بعد ان نجحت الاعمال السابقة التي كتبها فاروق خورشيد في هذا المجال مثل سيرة «سيف بن ذي يزن» ومثل سيرة علي الزبيقي .. التي نستكملها اليوم بنفس الابداعية والتميز ..

وحرصا على امتاع القارئ ، حرصت روايات الهلال ان تقدم كل هذا العالم الجميل في طبق واحد متميز .

يقول فاروق خورشيد صاحب الرواية «بعد ربع قرن من الزمان نعود نكمل على الزبيقي بملاعيب علي الزبيقي ، وكان الزمان ماضى ، وكان العمر ما انقضى ، انها رسالة هدفها واضح ومميز هو ان نعيد هذه السير الشعبية العربية الى الحياة نابضة بهموم العصر واحلامه وامانيه ...»



فاروق خورشيد

○ من مواليد مارس عام ١٩٢٨

○ روائي وباحث في الادب الشعبي العربي . اهتم كثيرا بتقديم السير الشعبية في شكل روائي جذاب

○ من اهم رواياته في هذا المضمار : «سيف بن ذي يزن» التي حصلت على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٦٤ و «علي الزبيقي» و «الزهراء في مكة» والتي سبق ان قدمتها روايات الهلال

○ يؤمن ان البطل الشعبي ، مثل علي الزبيقي ، رمز لرفض الوسائل التي يلجأ اليها بعض الحكام اللصوص في ابتزاز حقوق وأموال الناس .

قال عمر العيار :

— أما وقد انتهت مهمتى فاستأذنك فى الرحيل غدا مع المقدم
على الزبيق ، فقد استقر الأمر هنا وزال كل خطر ، وتم القضاء
على كل المتآمرين وأعوان الفرنجة الذين أرادوا أن يمزقوا بلادنا من
داخلها بعد أن عجزوا عن هزيمة جيوشنا فى ساحة القتال ..
قالت السلطانة زينب :

— نحن هنا ندين بالولاء للخليفة ، ونحن ورجالنا فداء أرض
المسلمين ..

قال الزبيق :

— نعم الكلام أيتها السلطانة — لو أذنت تغادر بلادكم عند الفجر ،
فهذه نهاية الرحلة ..

من نسمات الفجر الندية خرجت المدينة المرصودة كلها تودع
الراحلين ، كان الزبيق فى المقدمة على فرس أشهب ، وإلى جواره
المقدم حسن بن الحصرى ، ثم هودج ياسمين ومعها الدخائر فوق
جمل ضخمة ، ووراءه السجناء مقيدون فوق خيولهم ، وفى مؤخرة
الركب ، المقدم عمر العيار فوق فرسه ..

ولوح الرئيس سوهى بحربته تحية للراحلين ، بينما أخذت
السلطانة زينب تلوح بمنديلها ، وإلى جوارها الفارس باسم يلوح
بيده وهو يقول :

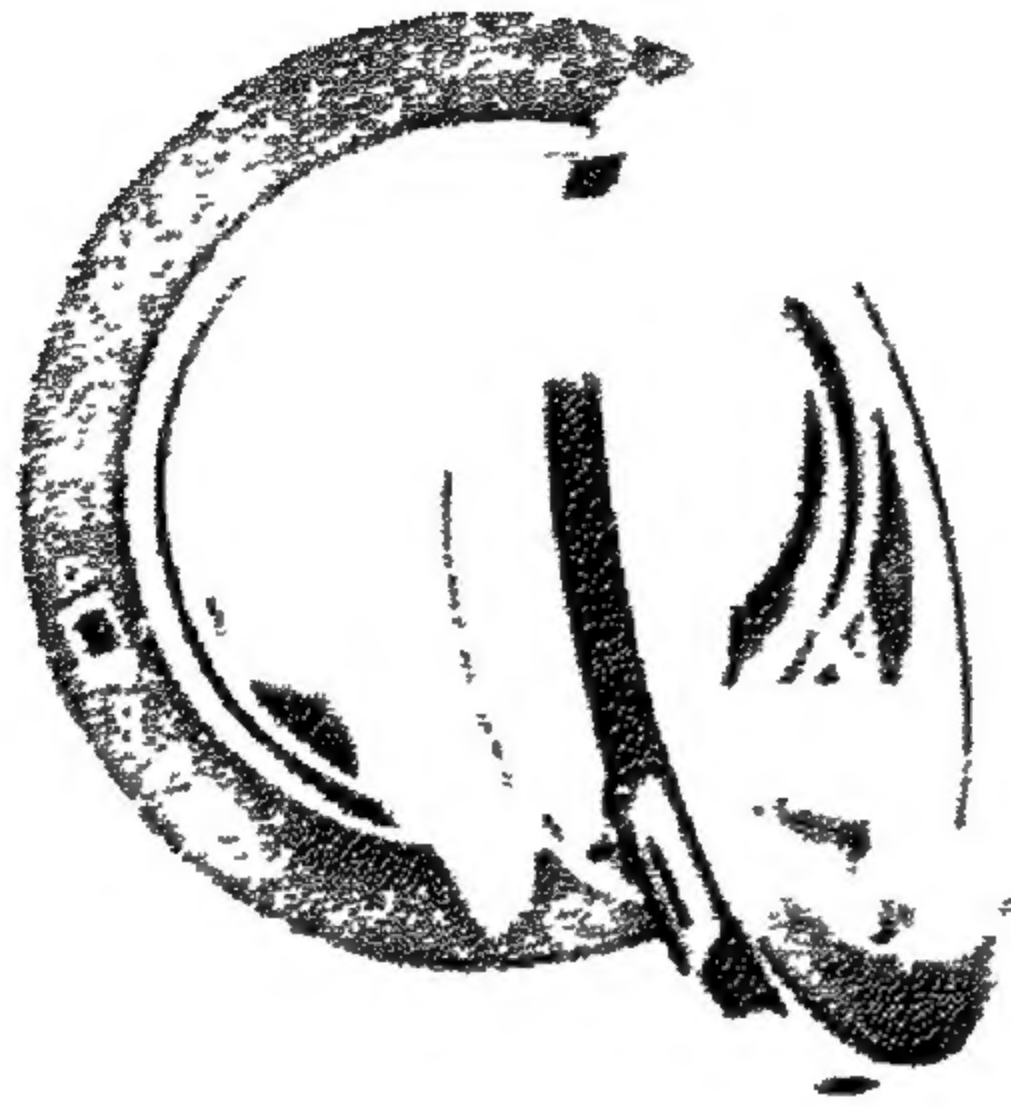
— أنا أسعد الناس برحيلهم ..

قالت السلطانة زينب :

— لن تشهد بلادنا مثلهم أبدا ..

وقال الرئيس سوهى :

— سمعت كثيرا عن الزبيق ، وأسعدنى الله أن أعيش معه ،
وأن أرى بنفسى قدرته ومهارته ، وأن أحكى لأولادى عن ملاعب على
الزبيق .



السلام



للمسلمين

- رغبة محدودة ممتدة المفعول.
- الوحيد الذي يتميز باحتوائه على أنزيمات فعالة ...
- لها القدرة على إزالة البقع البروتينية.

زيت الذرة الفاخر

ذو العبوة المميزة



صحي
مغذي
لذيذ

حفاً أطعم
منه مفيتش



تضمين منه أ
والذالمأكولات
والحلويات

Bibliotheca Alexandrina



0226956



انتاج: شركة المساح والصودا المصرية